Samuel Selig Kusel

فريق
متميزون
E-BOOK

رُبع قرن في مصر

مذكرات البارون كوسيل

1887-1863

ترجمة: محمد علي ثابت مراجعة وتعليق : وليد كساب

دار الشراقة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ربع قرن في مصر

مذكرات البارون كوسيل

١٨٨٧-١٨٦٣

ترجمة: محمد علي ثابت

مراجعة وتعليق: وليد كسّاب

عن الكتاب..

رواية شاهدِ عيانٍ لكثير من الأحداث التي عايشها، وتحليلٌ لبعض الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كما قدَّم انطباعاتِه حول الشخصيات التي التقاها في مصرَ, سواء من الأسرة الخديوية بداية من الخديوي إسماعيل وكبار الساسة المصريين، وكذلك الأجانب الذين عاشوا في مصر في تلك الفترة من الإنجليز وغيرهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«إنَّ التفكير في الألوان والسماوات المشمسة والنيل الغامض وغروب الشمس الرائع يجعلني على درجةٍ كبيرةٍ من الحزن والقنوط، وعندما تخترق عظامي الريح الشرقية الباردة؛ أشعرُ بالميل إلى العودة إلى مصر مرةً أخرى، ولو لأستمع ثانيةً تلك الصيحة الشرقية الحميمة: «الله أكبر.. لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسولُ الله».

صموئيل سيليج كوسيل

حديقة دورمانز، سوري.

يونيو 1914م

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة المُراجِع

وليد عبد الماجد كساب

مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي اتجهت الحملات الاستكشافية غير المعلنة من أوروبا نحو الشرق وفي القلب منه مصر التي كانت بوابة الغرب نحو ذلك العالم الشرقي المجهول؛ إذْ كانوا يرومون معرفة كل شيء عن هذه البلاد: عقائدهم، عاداتهم، معايشهم، ثقافاتهم... إلخ؛ ليتمكنوا من السيطرة على مقدراتهم واستنزاف ثرواتهم المختلفة، وهو الأمر الذي نجحوا فيه، فتحصَّلوا على وصفٍ دقيقٍ للمجتمع من شتى جوانبه، وقد سجَّل هؤلاء الرحَّالة مشاهداتهم المختلفة، وقدَّموا معلوماتٍ تفصيليةً حول حياة المصريين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومنذ العام 1858م - الذي شهد احتلال بريطانيا للهند - كانت مصر هي المحطة الرئيسة لعبور الأوروبيين والبريطانيين المسافرين إلى المستعمرات البريطانية في الهند للعمل في الجيش البريطاني، أو بغرض البحث عن منافع اقتصادية، ومن ثَمَّ راج السفر، وتهادت القوافل التجارية حاملةً ثروات الشرق المُستنزَف تُجاه الغرب الذي لا يشبع.

لقد كانت مصر آنذاك مسرحًا لتغلغلٍ بريطانيٍّ طويل هيَّأ للاحتلال المباشر فيما بعد؛ إذْ يعود تقليد توظيف المستشارين البريطانيين والأوروبيين في الحكومة المصرية إلى أوائل القرن التاسع عشر على الأقل، حيث كان محمد علي وخلفاؤه يهدفون إلى تعزيز وضع مصر بوصفها ولاية تَتمتَّع بالحكم الذاتي، وتتبع الإمبراطورية العثمانية عسكريًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا، وهو الأمر الذي نتج عنه وجود عدد كبير من الأجانب في عصر إسماعيل، فبلغ عدد الفرنسيين عشرين ألفًا، ومثلهم من الطليان، بينما بلغ عدد البريطانيين نحو عشرة آلاف، أمَّا اليونانيون فقد بلغوا نحو خمسة وعشرين ألفًا، فضلًا عن الجنسيات الأخرى من الأمريكيين والألمان وغيرهم.

وبالتزامن مع النهضة الاقتصادية التي شهدتها مصر في ظل ازدهار تجارة القطن بسبب الحرب الأهلية الأمريكية (1861 - 1865م)؛ صارت مصر قِبْلة البريطانيين الراغبين في تأسيس مشروعاتٍ اقتصادية ناجحة، ومن بين المجالات المهمة التي كان محمد علي باشا قدِ استعان بالبريطانيين فيها: زراعة القطن وصناعته، وظلَّت لهم اليد العليا في هذا الشأن، وشهدت البلاد تواجدًا كبيرًا ومؤثرًا للبريطانيين في هذا المجال المهم.

كان الشاب البريطانيُّ الطموح كوسيل (Kusel) أحدَ هؤلاء الذين قصدوا مصر عام 1863م بناءً على اختيار والده الذي أغراه اقتصادها الصاعد كما أغرى

غيره من الأوروبيين الذين كانوا ينظرون إلى هذا البلد بوصفه الأرض الموعودة لعالمٍ جديدٍ مليءٍ بالفرص والعمل.. فمَنْ كوسيل الذي قضى أكثر من نصف حياته خارج حدود بريطانيا وعاش معظمها في مصر؟ وما أهمية هذا الكتاب التي نُقدِّمه للقارئ العربي؟

وُلد صموئيل سيليج كوسيل (Samuel Selig Kusel) في ليفربول بإنجلترا في 12 يونيو 1848م، وهو ابنٌ لمهاجرَيْن ألمان تجنَّسا بالجنسية البريطانية، وقد وفد إلى مصر عام 1863م عَقِب تخرجه مباشرةً، فعمل أول الأمر في محالج القطن ومصانع الزيوت بالزقازيق، ثم انتقل إلى الإسكندرية عام 1865م، حيث عمل في عدة شركات، ثم عمل بالجمارك المصرية بالإسكندرية، وظل بها إلى أن ترك الخدمة بالحكومة المصرية عام 1884م، ثم اختير لفترةٍ قصيرةٍ قُنصلًا أمريكيًّا بالإسكندرية.

لسنا نعرف عن حياته الاجتماعية إلا النزر اليسير؛ إذْ قصر كتابه على التأريخ لفترة إقامته وعمله في مصر، لكن موقع الأنساب البريطاني الرسمي الشهير (Ancestry.com) قال ضمن سجل وفيات إنجلترا وويلز: إن وفاة كوسيل كانت عام 1916م، أي بعد نحو عام من نشر هذه المذكرات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولهذه المذكرات أهمية كبيرة من عدة مناحٍ على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي.. وغيرها، فعلى الصعيد السياسي كان كوسيل شاهد عِيانٍ على أحداثٍ مهمةٍ في تاريخ مصر الحديث بداية من سنة 1863م وهو العام الذي تُوفي فيه محمد سعيد باشا وخَلَفَه على عرش مصر إسماعيل باشا، فشهد ارتقاءه للحكم وإصلاحاتِه وإخفاقاتِه، كما حضر الحادث الأبرز وهو افتتاح قناة السويس سنة 1869م، وما صاحَبَه من احتفالاتٍ مَهيبةٍ في القاهرة والإسماعيلية وبورسعيد، وافتتاح أوبرا عايدة وقدَّم وصفًا تفصيليًّا لهما، كما كان من بين مَنْ وَدَّعوا الخديوي إسماعيل يوم خرج من مصر بعد خَلْعه وتولية ابنه محمد توفيق.

وشهد صاحب المذكرات نقل (مِسلَّة تحتمس الثالث) المِسلَّة المصرية من الإسكندرية إلى لندن سنة 1877م بعد جهودٍ دبلوماسيةٍ وسباقٍ محمومٍ بين بريطانيا وفرنسا، وقدَّم وصفًا دقيقًا للمراحل المختلفة لعملية النَقل.

ومن الأحداث الفاصلة التي كان كوسيل شاهدًا عليها الثورة العرابية ضد الخديوي توفيق في ساحة قصر عابدين يوم 9 سبتمبر 1881م، كما التقى أحمد عرابي وجهًا لوجهٍ في أخطر الأوقات وأكثرها عصبية أثناء وجود الأسطولين البريطاني والفرنسي في مياه الإسكندرية قُبيل ضربها في 11 يوليو 1882م، ولعلَّ أخطر ما ذَكَره في كتابه هو إحباطه محاولة تهريبٍ بالغة

الإثارة، فقد أتاح له موقعه في جمرك الإسكندرية أن يَحُول دون وصول آلة قيل إنَّ عرابي استقدمها من الولايات المتحدة الأمريكية بغرض تفجير السفن البريطانية والفرنسية تحت الماء على شاطئ الإسكندرية، وإذا صحَّت هذه الرواية -التي لم يذكرها غير كوسيل على حدِّ علمنا- فإن هذه الآلة ربما كانت كفيلةً بتجنيب مصر ويلات الاحتلال حال وصولها إلى عرابي على النحو الذي كان مَرْجوًّا لها.

ومن الأحداث المهمة التي شهدها صاحب المذكرات: ضربُ مدينة الإسكندرية من البحر قبل احتلالها عام 1882م، وله شهادةٌ بالغة الأهمية، وتُضيف أبعادًا جديدةً إلى المسألة المصرية؛ نظرًا لِمَا ذكره من تفاصيل جديدةٍ - وإن انحازت في مجملها إلى رواية المحتل الإنجليزي - تَتمثَّلُ في تحميله لعرابي مسئولية إشعال ثورة الإسكندرية ضد الرعايا الأجانب وما تلاها من أحداثٍ بما فيها حرق المدينة.

التقى كوسيل شخصياتٍ سياسيةً كبيرةً بدايةً من حكام مصر: الخديوي إسماعيل، والخديوي محمد توفيق، والسلطان حسين كامل، وشخصيات أخرى من وزراء مصر ورموزها السياسية كمحمد شريف باشا، وشخصيات أجنبية كديلسيبس وكتشنر وغوردن باشا، وشخصيات عربية مثل إبراهيم السنوسي والقائد السوداني زبير باشا رحمة، وقدم شهادته وانطباعاتِه بدقةٍ عن هذه الشخصيات.

والحقيقة أنه لكثرة ما حوى الكتاب من أحداثٍ محوريةٍ، فقد تَسرَّب إلينا شعورٌ لا نُنكره بأنَّ المؤلف دائمًا ما يحاول وضع نفسه في بؤرة الأحداث رغم أننا لم نحظَ فيما رجعنا إليه من مصادر تاريخية بشيءٍ عن وجوده في مصر، ولم نجد فيما كتبه مؤرخو هذه الفترة إشارةً إلى كتابه، اللهم إلا مقدمة كتاب إلياس الأيوبي عن عصر الخديوي إسماعيل(1)، وإشارة مماثلة في كتاب چوان كول (Juan Cole) حول حركة عرابي(0).

على أننا لو قارنَّا تلك الأحداث وعددها بطول الفترة التي قضاها الكاتب في مصر - والتي بلغت ربع قرن - لَعَلِمنا أنه ليس بالأمر الصعب، ولعلَّ في زواجه من شقيقة مؤسس البريد المصري الحديث تيتو تشيني (Tito Chini) ما يدلُّ على قربه من بؤرة الأحداث، فضلًا عن عَلاقته الممتدَّة بالسلطة الحاكمة في مصر طوال عقود، ولعل ذلك ما حدا بصحيفة النيويورك تايمز (The New York Times) الصادرة في 24 أكتوبر 1915م بأن تكتب في عرضها لهذا الكتاب: «من الواضح أن كوسيل يعرف - تقريبًا - كل شخصٍ في تسلسل الحكم والإدارة في مصر، ويتحدَّث عنهم بطريقةٍ عفويةٍ وسهلةٍ تدلُّ على إحاطته الكبيرة والعميقة بكل ما حدث في مصر».

ويوضح الكتاب أن اهتمام كوسيل بالشأن المصري لم يتوقف عند مغادرته البلاد، وبناءً على طلب ناشري الكتاب عام 1915م - أي بعد ترك مصر بنحو ثمانية وعشرين عامًا - خُصِّصت الخاتمة للحديث عن محمد علي باشا ودولته وخلفائه من الحُكَّام حتى السلطان حسين كامل، وإعلان الحماية البريطانية على مصر... وغيرها من الأحداث التي استجدت.

وعلى الصعيد الاجتماعي قدَّم كوسيل وصفًا دقيقًا للحياة الاجتماعية في الريف المصري، حيث أقام سنواتٍ في الزقازيق وسط الفلاحين والعمال وأصحاب المحالج ومصانع الزيوت، وفي رشيد أثناء تشغيل مصنع للطوب، وفي الإسكندرية عندما بنى طاحونةً ومِضخةً للمياه العذبة بجانبها، ووسط هذه الظروف أُتيح له معايشة المصريين، ورصد أبعادٍ من حياتهم اليومية وعاداتهم.. فعلى سبيل المثال قدَّم وصفًا دقيقًا للموالد، لا سيما مولد السيد البدويِّ بطنطا عام 1864م، وغيرها من عادات الزواج والوفاة وغير ذلك.

وفي الكتاب توثيقٌ لكثيرٍ من التراث الشعبي، لا سيما المندثر منه، كانتشار الممارسات الجنسية في الموالد بغرض إزالة العقم، وتفاصيل (الدوسة) التي ظلَّت لسنوات طويلة تجذب الأوروبيين لمشاهدتها على النحو الذي بَيَّناه في التعليق على هذه العادة التي كانت بمثابة شعيرةٍ دينيةٍ بارزةٍ حتى تم إبطالها بقرارٍ خديويٍّ.

كما أرَّخ كوسيل لوباء الكوليرا الذي ضرب القُطر المصري عام 1865م وخلَّف أكثر من ستين ألف حالة وفاةٍ، من بينها أربعة آلاف في الإسكندرية وحدها، وهو الأمر الذي ألقى بظلاله على الحياة الاقتصادية والاجتماعية آنذاك.

وعلى الصعيد الاقتصادي قدَّم كوسيل وصفًا لكثيرٍ من جوانب الحياة الاقتصادية والزراعية في مصر لا سيما الفترة التي شهدت ازدهار القطن المصري، وكيف كانت مصر مقصد الباحثين عن العمل والاستثمار، كما كان له حديثٌ مُطوَّلٌ عن البريد المصري والسكة الحديد والشركات الأجنبية الكبرى في مصر والامتيازات الأجنبية التي جعلت مصر مقصد الأوروبيين لسنواتٍ طويلةٍ.

أمَّا فيما يخص الإدارة، فقد حوى الكتاب وصفًا دقيقًا لإدارة الدولة المصرية قبل الاحتلال البريطاني وأثناءه، ويبدو اهتمامه بالفساد الإداري كبيرًا، بدايةً من حالة الفوضى التي شاهدها أثناء نزوله ميناء الإسكندرية ومرورًا بمُحصِّل القطار المرتشي، ثم ذلك الموظف الكبير الذي أراد مشاركته الطاحونة بغير جهدٍ منه، كما تحدَّث عن فساد البريطانيين أنفسهم وصراعاتهم حول ثروات

مصر، لا سيما الصراع بين الاتجاهين القديم والحديث في الإدارة البريطانية لمصر.

وقد قدَّم صاحب الكتاب وصفًا لعدة أماكن قبل أن يأتي عليها التطوُّر فيما بعد مثل مدينة القاهرة والإسكندرية ومنطقة القناة، كما نجد له حديثًا عن مستنقعات كفر الدوَّار وهجرة الخنازير البرية، كما نجد عنده وصفًا لحياة الجاليات الأوروبية في الإسكندرية وأماكن تواجدهم وأنشطتهم الاجتماعية والاقتصادية، ودورهم في السياسة المصرية حينذاك.

ومن الأمور التي تناولها كوسيل بشيءٍ من التفصيل وسائلُ النقل والمواصلات منذ هبط ميناء الإسكندرية عام 1863م، مُتمثِّلةً في قطارات السكة الحديد، والملاحة النهرية، ووسائل النقل البدائية عبر الإبل والحمير وغيرها من الدواب، قبل أن تعرف مصر الترام عام 1896م.

لقد كان لتعلُّم كوسيل اللغة العربية - كما ذكَرَ في كتابه - دورٌ كبيرٌ في فَهْمه للمجتمع المصري ورَصْدِ ظواهره الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، حتى إنه ليمكننا الجزم بأنه كان أحدَ هؤلاء الذين مَهَّدوا للاحتلال البريطاني، ورسَّخوا أقدامه فيما بعدُ لعقودٍ كثيرةٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمَّا العنوان الأصلي لهذا الكتاب فهو: «ذكريات رجل إنجليزي عن مصر من 1863م إلى 1887م» (An Englishman's Recollections of Egypt 1863 to 1887)، ومن خلال البحث تَبيَّن أنَّ الكتاب قد نُشر أول مرةٍ عام 1915م، أي قبل وفاة المؤلف بنحو عامين، ثم توالت النشرات على هذا النحو:

- نشرة جون لين، لندن ونيويورك، 1915م. (Publisher: London ; New York: John Lane, 1915).

- نشرة بودلي هيد، لندن، 1915م. (Publisher: London: Bodley Head,) 1915.

- نشرة صادرة 2010م من مكتبة لافيرغين في ولاية تينيسي بالولايات المتحدة الأمريكية، (ضمن مشروع لطباعة مختارات من الكتب القديمة المهمة). (Publisher: LaVergne, TN: General Books, 2010.).

- نشرة نابو برس 2011م، شارلستون في كارولينا الجنوبية بالولايات المتحدة. (Nabu Press (31 Aug. 2011 Publisher).).

- نشرة دار الكلاسيكيات 2013م، الولايات المتحدة الأمريكية. (Publisher: TheClassics.us (September 12, 2013).

وقد اعتمدنا في ترجمة الكتاب على طبعتيْ جون لين وبودلي هيد (London: John Lane, The Bodley Head New York: John Lane Company) التي اعتمدت عليها المجلة الجغرافية المَلَكية البريطانية في عرضها ومراجعتها للكتاب في عددها الخامس من المجلد رقم 46 الصادر في الأول من نوفمبر 1915م صفحة 389 وما يليها (The Geographical Journal, v46 n5 (19151101): 389)، وهي الطبعة نفسها التي اعتمدت عليها الطبعات اللاحقة التي وقفنا عليها.

ثم بدا لنا أن تَحْمل النسخة العربية من المذكرات عُنوانًا مغايرًا يتسق مع ذائقة القارئ المعاصر، وليس ذلك بالأمر الجديد؛ إذْ لنا أسوة فيما سبق من الترجمات، ومن ثَمَّ اخترنا عنوان: «ربع قرن في مصر: مذكرات البارون كوسيل في مصر من 1863م إلى 1887م».

والكتاب ذكرياتٌ ضافيةٌ كتبها صاحبها - بعد تقاعده - باللغة الإنجليزية، وأرَّخ فيها لنحو ربع قرنٍ عاشه في مصر (من 1863 إلى 1887م)، تنقَّل فيها داخل مصر بين الزقازيق ورشيد والإسكندرية والقاهرة وغيرها، وقد قسَّم كتابه إلى ثلاثة عشر فصلًا مرتبةً ترتيبًا تاريخيًّا، فضلًا عن خاتمةٍ مُطوَّلةٍ، وملحقٍ ببعض الوثائق المهمة منها مراسلات ترجمناها إلى العربية، وبرقيات كُتبت بطريقة الشفرة اكتفينا بإيرادها كما هي.

اقتصر المُؤلِّفُ في كتابه على سرد حياته في مصر، وما عايشه من أحداث سياسية، وما رصده من ظواهر اجتماعية واقتصادية، ومن ثَمَّ أحجم عن الحديث عن أسرته، إلا في مواطنَ قليلةٍ وردت عَرَضًا - كما ذكرنا آنفًا - فلا نعلم شيئًا عن نشأته الأولى، ولا عن أسرته وتعليمه الأوَّليِّ، وليس لدينا تفاصيل أكثر عن حياته عَقِب العودة من مصر بعد ربع قرنٍ، ولعلَّ ذلك لكون الكتاب ذكرياتٍ وليس سيرةً ذاتيةً لمراحل حياته المختلفة، وهو الأمر نفسه الذي رأيناه في مذكرات نوبار باشا الأرمني عن مصر.

أمَّا عن منهج كوسيل في الكتابة، فقد سار على المنهج الشائع لأصحاب المذكرات الأوروبيين آنذاك، حيث يبدأ الفصل بذكر العناصر التي يَتضمَّنها دفعةً واحدةً دون إعادتها كعناوين جانبية في متن الفصل.

ويمكن تقسيم هذه المذكرات من حيث مصدرُها إلى ثلاثة: أولها: خبراته الشخصية والأحداث التي مرَّ بها منذ أتى مصر حتى غادرها بعد نحو ربع قرن من الإقامة الواعية، وثانيها: استفادته من المصادر التاريخية وكتب الرحلات والسير الذاتية السابقة التي اعتمد عليها وذكرها في كتابه، وأخيرًا: تلك التي استفاد منها دون أن يُحيل إليها.

على أنه تجب الإشارة إلى تَبنِّى المؤلف وجهة نظر المحتل وتبريره لها على الدوام، ويُلاحظ أنه ظلَّ يمثل سياسة المحتل البريطاني تجاه القضايا المختلفة، ولم نجد نقدًا لها إلا عندما تعرَّض للاستبعاد من الجهاز الإداريِّ للدولة في إطار تجديد الدماء وتغيُّر سياسة المحتل البريطاني في مصر.

كما لا يخفى تحامله على الدين الإسلامي أحيانًا، وربما يرجع ذلك إلى عدم علمه الكافي بالشريعة الإسلامية كما في حديثه عن نظام الزواج في الإسلام وحقوق الجواري، كما يلمس المُطالِع للكتاب سخريته اللاذعة من بعض عادات المجتمع المصريِّ وخصوصياته الاجتماعية والثقافية.

لقد عملنا على ترجمة النص - رغم صعوبة لغته - ومراجعته والتعليق عليه بما يلزم دون إطالةٍ، كما عرَّفنا بإيجاز ببعض الأعلام حسب ما اقتضى السياق، وشرح ما غمض من المصطلحات، وتوثيق النصوص التي نقلها المؤلِّف عن غيره، وإثبات الشهادات التاريخية المتفقة معه والمخالفة له على حدٍّ سواءٍ؛ ليكون القارئ على علمٍ بما يقرأ.

والشكر موصولٌ للأستاذ الدكتور عاطف معتمد - الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة - على ما تفضَّل به من مراجعة الترجمة، وما أسداه لنا من نصحٍ وتوجيهٍ حتى استوت على سوقها، والشكر كذلك لـ(دار إشراقة) على دعمها هذا العمل الذي نأمل أن يكون أفضلَ استهلالٍ لأعمالها المرموقة.

والله ولي التوفيق

وليد عبد الماجد كساب

القاهرة في 9 جمادى الآخرة 1434 هـ

12 يناير 2022م

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(1) انظر قائمة مصادر كتابه «تاريخ مصر في عصر الخديوي إسماعيل باشا» التي صدَّر بها الكتاب، ص35.

(0) انظر: الكولونيالية والثورة الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر، ترجمة عدنان الشهاوي، ص 167، وص 200.

مقدمة المُترجِم

الترجمة جسرٌ حقيقيٌّ بين المؤلف الأصلي والقارئ للنص المُترجم، وتشبه الاستماع إلى شخصٍ يتحدَّث بلغةٍ مختلفةٍ لا يعلمها المستمع؛ وحتى تصل أفكار المتحدث ومقاصده ومشاعره إلى المستمع؛ لابد من وجود وسيط بين هذا وذاك وهو المترجم. وكي تصبح الترجمة جسراً فعلياً يضطر المترجم إلى تقمُّص شخصية المؤلف الأصلي وعقليته، وأن ينقل ما يقوله ويقصده بكلماته وعباراته دون تخفيف ولا تهويل، حتى لو كان مجافيًا للحقيقة، ودون أن يكون لثقافة المترجم الخاصة أو انتماؤه الديني أو المذهبي أي تدخل أو ظهور في النص.

ورغم عملي لفترة طويلة في ترجمة الدراسات والبحوث والمقالات والكتب الحديثة؛ إلا أن ترجمة الكتب القديمة لها مذاقٌ خاصٌّ ومتعةٌ لا تُضاهى؛ فالقرون الماضية كانت تحمل طابع البلاغة في الحديث والكتابة وإتقان السرد والتدوين بشكلٍ تنافسيٍّ، وهو ما انعكس في وجود أسلوبٍ متميزٍ لكل كاتبٍ؛ بل وفي مصطلحات خاصة به وأخرى يدرجها في كتابه بمعانٍ لا يستعملها لها غيره.. لذلك كل كتاب يُعتبر تجربة جديدة تحمل في طياتها خفايا كثيرة وتحتاج إلى الصبر في أول الأمر حتى يتكشَّف أسلوب المؤلف وتنساب الترجمة في هدوء.

محمد علي ثابت

- ديسمبر 2021

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

1863 - 1864

المغادرة إلى مصر - الوصول إلى جبل طارق - الوصول إلى الاسكندرية - ليلةٌ في محطة بنها - السفر بالسكة الحديدية في 1863 - قافلة الرقيق الأبيض - الوصول إلى الزقازيق - وصف الزقازيق عام 1863 - الحياة في محلج القطن - ضرب الموظفين العرب بالسياط - دراسة العربية - الموازين والمقاييس العربية - الإصابة بالرمد والحـُمَّى - رحلةٌ لركوب الخيل والصيد - أطلال بوبسطة - الموالد العربية - رحلة ضوء القمر - انقلاب القارب في الترعة - شخصية الفلاحين وسماتهم - قيادة قاطرة سكة حديد - بستانٌ من خضروات وزهور.

أنا رجلٌ إنجليزيٌّ وُلدتُّ في ليفربول في إنجلترا عام 1848، وتلقَّيتُ تعليمي في مدينة شلتنهام(59)؛ ولم يدُرْ بخلدي قط حين تخرَّجتُ من المدرسة أنني سأقضي حياتي كلَّها على اليابسة، فقد كنت مقتنعا آنذاك بأن ركوب البحر هو المهنة الملائمة لي تمامًا، وأنِّي قد خُلقتُ لأكونَ قبطان.

وأعتقدُ أنَّ هذه الفكرة التي كانت شائعة بين الفتيان وقتها كانت نتيجةً طبيعيةً لأحاديث كثيرةٍ دارت بيني وبين القبطان «مورتيمر»، وهو صديقٌ لوالدي، وقد زادت حماستي للأمر تلك الزياراتُ المتعددةُ التي قمتُ بها على متن السفينة الشراعيَّة الرائعة، التي كان مورتيمر قبطانها، ولعلَّ أهم هذه الزيارات كانت يوم قابلت مساعده الأول؛ فأمتعني لساعاتٍ بكثيرٍ من القصص الرائعة عن المغامرة وحياة البحر.

لعدة أسابيع بعد هذه الزيارات؛ كنت أعيشُ فيما يشبه حلمًا جميلًا، وفي أحد الأيام، بينما كنت مبتهجًا لاحتمال الذهاب في رحلةٍ إلى أمريكا ضيفًا على القبطان مورتيمر؛ أبلغني والدي بعزمه على إرسالي إلى مصر، حيث كان في الليلة السابقة يتناول العَشَاء مع بعض أصدقائه والتقى الدكتور مصطفى وزوجته. وخلال الأمسية دار الحديث عن مستقبل مصر، وكان الطبيب - وهو شريكٌ في مصنعٍ كبيرٍ لحَلْج الأقطان في مدينة الزقازيق - قد أخبر والدي بأنَّ مصر بلدٌ صاعدٌ بلا شَكٍّ، وأنَّها بمثابة بدايةٍ رائعةٍ لأي شابٍّ إنجليزيٍّ لديه طموحٌ للتكيُّف والعمل الجادِّ(58).

وأعتقدُ أنَّ الضيف تلك الليلة كان مقتنعًا بأنني أمتلكُ هذه الصفات؛ فقد اقترح على والدي أن يُرسلني على الفور إلى مصر، حتى أتَّخذ لنفسي مهنةً وأكفَّ عن افتتاني البغيض بالحياة البحريَّة.

وأيَّدَ الدكتور مصطفى هذه الفكرة، وعرض أن يأخذني معه، وهو الاقتراح الذي أسعَدَ والدي لدرجة أنَّه رتَّب في توِّه موعدًا لزيارته في اليوم التالي، وقد تفاجأتُ حقًّا عندما علمتُ بهذا الترتيب، لكن بما أنَّ مصر كانت بلا شكٍّ تمتلك إمكانَاتٍ كبيرةً، حتى من وجهة نظري الصبيانيَّة وقتها؛ فإن أفكاري تحوَّلت بسرعة البَرْق نحو هذا الأفق الجديد.

ولا أُنكر أنني قد تخيَّلتُ نفسي حينها سُلطانًا هناك أو شيئًا من هذا القبيل، فلم تكن دراسة مصر ذات أهميةٍ كبيرةٍ في مناهج الدراسة لدينا، باستثناء بعض الأماكن التي حارب فيها نابليون، والتي حقَّق فيها نيلسون نصره العظيم(57)، وكان من قبيل الصُّدْفة أنَّ أوَّل جائزةٍ أحصُلُ عليها في حياتي في مدرسة شلتنهام كانت كتابًا عن مصر، ذلك البلد الذي كان من الغريب أن أُفتتن به بشدةٍ.

حافظتُ بحماسةٍ كبيرةٍ على الموعد الذي حدَّده والدي، وكان الدكتور مصطفى وزوجته غاية في الوُدِّ واللُّطف، وأذكرُ أنني شعرتُ بالدَّهشة وقتها إذْ رأيتُ مِصريًّا يُمكِنه التحدُّث بلغتنا الإنجليزيَّةٍ بمثل هذا التَّمكُّن؛ إلى أنْ علمتُ أنَّ زوجته هي سيدةٌ إنجليزيةٌ، وأنَّ الطبيب قد تلقَّى تعليمه في إنجلترا، وحصل على شهادته من أدنبرة، ومَارَسَ الطِّبَّ في تلك المدينة بعض الوقت.

هذان الشخصان هما مَن أَشعُرُ نحوهما دائمًا بالامتنان الشَّديد للُطْفِهما معي، وتزويدي بكثيرٍ من المعلومات عمَّا ستكون عليه حياتي وأعبائي في مصر، وقد رَسَمَا لي صورةً حيةً عن هذا البلدِ الرائع، لدرجةِ أنَّني لم أتركهم إلا وقد أصبحتُ شغوفًا ومُتشوِّقًا للذهاب إلى مصر؛ بدرجة الشَّغَف نفسها التي كانت ستقودُني إلى العمل بالبحر قبل أن ألتقيَهم ببضع ساعاتٍ فحسب.

وهكذا استقرَّ الأمر على أن أُرافقهم في الأسبوع التالي في رحلة عودتهم إلى مصر، وسيكون ذلك على متن السَّفينة التي ستحملهم، وتحمل معهم كمًّا كبيرًا من المُعدَّات الجديدة التي اشتروها لأجل عمليات طحن البذور واستخراج الزيت(56)، وهي العملية التي تعلَّقتُ بها بشكلٍ كبيرٍ في غضون فترةٍ قصيرةٍ.

وبعد أسبوعٍ قصيرٍ ومشحونٍ تمامًا بكثيرٍ من الأمور التي كنت أريدُ فعلها، كشراء الملابس وتوديع الأصدقاء؛ أبحرنا في 15 سبتمبر 1863 على متن السفينة آيا صوفيا من ميناء ليفربول، وكانت السفينة تابعة لشركة (السَّادة بابياني وشركاؤه)، والذين كانوا من المروءة لدرجة أنهم أعطوني خطاب توصيةٍ إلى وكلائهم بالإسكندرية (السادة برينجو وشركاؤه) في حال احتجتُ إلى أيِّ خدمةٍ منهم.

والحقيقة أنني خلال الأيام الثلاثة الأولى من الرحلة اعتقدتُّ تمامًا أنَّ هذا الخطاب لن يره أحدٌ على الإطلاق؛ فقد كنتُ حزينًا جدًا، وتمنَّيْتُ لو تعطَّلتِ السفينة في خليج بسكاي(55)، ولا شكَّ أنَّني كنتُ سأستريحُ كثيرًا إذا ما حدث ذلك. وخلال أسوأ لحظات تعاستي تلك؛ أسأتُ الظَّنَّ بوالدي لأنَّه أرسلني في هذه الرحلة؛ لكن بعد ذلك بزمنٍ، وعندما اتَّضحتْ لي الأمور وتكشَّفت؛ كنتُ ممتنًّا له للغاية؛ لأنَّه قد حال بينيَ وبين أن أُصبحَ بَحَّارًا.

في جبل طارق(54) نزل جميع الرُّكَّاب إلى الشاطئ لبضع ساعات، كانت هذه الاستراحة في الرحلة ذات أهميَّةٍ كبيرةٍ بالنسبة إليَّ، فمثلها مثل عددٍ من الأشياء الغريبة عليّ التي قد ملأت عقلي الشابَّ المنعزل بالدهشة.

أتذكَّرُ أنني شعرتُ أول الأمر بالاشمئزاز إلى حدٍ ما، إذ نفَّرني منظر صخرة جبل طارق عندما تراها من البحر، فقد بَدَتْ جرداءَ كئيبة؛ لكنِّي نسيتُ كل هذا حالما فكَّرتُ فيما قرأتُهُ عن احتلال هذا الجبل وحصاره(53)، ومع طبيعة عقلي الاستفسارية عرفتُ كثيرًا من تفاصيل المكان، فطُولُهُ حوالي ثلاثة أميالٍ، وعرضه حوالي ثلاثة أرباع الميل(52)، وارتفاعه حوالي ألف وخمسمائة قدمٍ(51).

كما اكتشفتُ أيضًا أنَّ على الجانب الشمالي من الجبل تُوجد مساحاتٌ عُشبيَّةٌ جميلةٌ، وهناك أيضًا تنمو نباتاتُ الهِلْيُوْن(50) والصبَّار والأَلَوَة(49) ونباتات أخرى غيرها تنمو في شُقُوقِ الصُّخور، كما تُوجد أعدادٌ هائلةٌ من الحَمَام وطائر الحَجَل(48) والأرانب البرية، وأخيرًا وليس آخرًا قُرُود المَكَّاكِ البربريِّ(47)، وكان سُكَّان المنطقة أيضًا رائعين للغاية، وسُررتُ برؤية المغاربة والإسبان.

ثم ارتحلنا ثانيةً عبر البحر المتوسط الجميل والطقس المثالي، والوقت المُنْخَم بالطعام والألعاب على سطح المركب ودروس العربية التي بدأتُ دراستها بدأبٍ ومثابرةٍ، رغم مخاوفي الكثيرة ألا أتغلَّب على صعوباتها أبدًا، لكن بفضل المَشَقَّة التي تحمَّلها الدكتور مصطفى وزوجته؛ استطعتُ بمرور الوقت الذي وصلنا فيه إلى الإسكندرية أن أتكلَّم بضعَ جُمَلٍ بطريقةٍ صحيحةٍ.

ويجب ألا أنسى الإشارة إلى يومٍ كاملٍ قضيتُه في مالطا، حيث أمضيتُ وقتًا ماتعًا للغاية برفقة المسافرين الذين تمتَّعوا جميعهم برُوحٍ ودُودَةٍ، وكانت هناك كثيرٌ من الأشياء لرؤيتها وتعلُّمها؛ فرأيتُ الميناء الرائع في موقعٍ فخمٍ يتحكَّم في البحر المتوسط، وإن لم أكن في تلك الأيام أعي تمامًا تلك الأهمية الاستراتيجية الكبيرة لموقعه.

كنتُ أعرفُ أنني يجب أن أرى أشجار البرتقال وقصب السُّكَّر والصبَّارات والزهور الجميلة، وكذلك البغال والحمير والماعز والطيور ذوات الريش

المثير للإعجاب، كما كان عليَّ أن أتناول العسل المالطي، وأشرب النبيذ المالطي حتى الثمالة، وهناك طرحتُ أيضًا أسئلةً كثيرةً حول المكان، وعلمتُ أن هناك محاجر رخامٍ ومَرْمَرٍ، وأنَّ الجزيرة طولها حوالي سبعة عشر ميلًا، وعرضها تسعة أميال، وتحوي كثيرًا من الأشياء الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد غروب شمس يوم 29 سبتمبر(46) وصلنا إلى مشارف الإسكندرية، واضطُررنا إلى المبيت خارج الميناء طوال الليل، وكانت حماستي شديدةً لدرجة أنه راودتني فكرة السباحة حتى الشاطئ بعدما أضناني الانتظار لساعاتٍ طويلةٍ مُملَّةٍ، لكن في النهاية نمتُ نومًا عميقًا.

في تلك الأيام لم يكن مسموحًا بدخول الميناء إلا في ضوء النهار، كما كان يُشترط وجود دليلٍ ملاحيٍّ عربيٍّ ماهرٍ على مَتْن السفينة، وحين يسوء الطقس كانت السُّفن تُضطر أحيانًا إلى الانتظار ليومٍ أو بعض يومٍ حتى يأتي ذلك الرُبَّانْ العربيُّ ليقودها إلى الميناء بسلامٍ.

ليس بوسعي أن أصفَ المشاعر التي انتابتني عندما دخلنا إلى الإسكندرية في صبيحة يوم 30 سبتمبر، لكن أتذكرُ أنني كنتُ في حالة إثارةٍ رهيبةٍ، لم يُقلِّل منها ضجيج الهبوط من السفينة مع صرخات حشود البحارة، وصياح الصبية الذين كانوا يقودون الحمير، وتزاحم المُترجِمين والمُرشِدين، والأفواج الهادرة من سكان البلاد ذوي الوجوه السَّمراء والملابس الغريبة التي لم نألفها.

كنتُ متحمِّسًا جدًا لدرجة أن الدكتور مصطفى قد وجد صعوبةً في إفهامي أنه ليس لدينا وقتٌ لنضيعه في الوقوف والمشاهدة؛ فأمتعتُنا يجبُ أن تَمُرَّ من الجمارك، وبعدها قطارٌ لا ينتظر أحدًا يجب أن نلحق به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإسكندرية مدينةٌ ذات أعراقٍ مختلفةٍ؛ وأظنَّ أن جميع الجنسيات ممثلةٌ بها؛ وجميع العملات تُتَدَاول هناك، وكذلك كل لغةٍ معروفةٌ هناك، إنها مدينة مليئةً بالتناقضات؛ ممطرةٌ وباردةٌ في الشتاء، وقائظةُ الحَـرِّ بالصيف، وقد كتب عنها إليوت وربرتون(45)وصفًا ماتعًا، يقول:

«لقد قيل حقًا إن الإسكندرية المعاصرة لم ترث من المدينة العتيقة سوى آثارها واسمها، فرغم أن الأرض والبحر لم يتبدَّلا ولم يطرأ عليهما أيُّ تغيير؛ فإن المخيلة لا تكاد تجد موضعًا من الجدران القديمة للمدينة، أو من السور الذي كان يحيطها ويمتد طوله لخمسة عشر ميلًا، أو من الشوارع الشاسعة، أو المشهد الذي تراه من الأروقة الرخامية للزوارق الصغيرة في بحيرة مَرْيُوط(44) وهي تتبادل الإشارات مع سفن البحر، ومعبد سيرابيس(43)

الرائع على منصته التي ترتفع مئة درجة، والأربعة آلاف قصر(42)، ومنازل ستمائة ألف نسمةٍ تقطن المدينة.

كل ما تراه الآن داخل الجدران المُتقلِّصة والبالية هي مدينةٌ مُرَقَّطَةٌ، نصفها أُورُوبيٌّ بمنازله المعتادة الطويلة البيضاء والصلبة، والنصف الآخر شرقيٌّ بمبانيه من الطِّين والأسطح المُسَوَّرة كالشُّرُفات، وتتنوع فيها المساجد ذات المآذن الرفيعة؛ والضواحي المُحاطة بأكواخ الفقراء البائسين من العرب، كما تحتلُّ أكوام القمامة الهائلة ومساراتها مساحةً واسعةً بين المدينة وأسوارها؛ وكل ما بعد ذلك قَفْرٌ كئيبٌ.. ومع ذلك؛ فهذا هو الموقع الذي اختاره الإسكندر من بين أملاكه الواسعة ليبني عليه مدينته، تلك المدينة التي أكَّد نابليون أنه لا شيء يُضاهيها في الأهمية»(41).

محتملٌ جدًا أن يكون وصف إليوت وربورتون صحيحًا تمامًا، وأن الإسكندرية كانت بالفعل ذات يومٍ جميلةً وغير مسبوقةٍ من حيث الأهمية؛ فبإمكان أيِّ شخصٍ أن يقول كل ما يُرضيه عن مكانٍ ما؛ ويُمكنه أن يصفه بأنه النعيم أو الجحيم؛ لكن مع ذلك كانت الإسكندرية بالنسبة إليَّ هي المكان الأول في العالم الذي أرتحلُ إليه.. وأول مكانٍ قديمٍ في عالمي الجديد؛ لذلك كانت في ناظريَّ عجيبةً ومَهِيبَةً.. وأعتقد أن عينيَّ اقتُلعتا من رأسي تقريبًا، فكنتُ أينما التَفَتُّ وجدتُّ مشهدًا لم تسبقْ لي رؤيته من قبل، شيء يخلب لُبي سواء أكان دفقةً من لونٍ جذابٍ ومليءٍ بالحياة؛ أم حداثة كل ما يحيط بي من أشياء بالنسبة إليَّ بكل يسرٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بفضل معرفة صديقي الدكتور مصطفى بالطُّرق ووسائل المواصلات؛ لم يمرُّ وقتٌ طويلٌ حتى كنَّا نجلس جميعًا في إحدى مقصورات الدرجة الأولى في القطار المُتَّجِه إلى القاهرة، خمسةٌ في المقصورة: الطبيب مصطفى، وزوجته، والمهندس الإنجليزي، وابنه، وأنا، ومعنا كثير من الفواكه والخبز والمياه الوفيرة كنا قد اشتريناها سَلَفًا.

لم تكن الرحلة مُكلفةً؛ فقد سافرنا دون تذاكر؛ وكاد مُحصِّلُ القطار يطير سعادةً بملمس قطعة عملةٍ ذهبيةٍ وُضِعت في يده، فهي عنده أفضل من مئات التذاكر التي تُشترى بشكلٍ رسميٍّ، ولم نكن وحدنا الذين فعلنا ذلك؛ فقد سافر مُعظمُ الناس بهذه الطريقة التي لم أتعوَّدْها في بلادي.

قضيتُ مُعظم وقتي أتطلَّع من النافذة مُهتمًّا حتى بأتفه الأشياء وأدقِّها؛ كالامتداد الكبير للأرض المزروعة التي تتخلَّلها جداول مياهٍ صغيرةٍ، وحيث نَمَتْ زراعات القمح والبرسيم والقطن، وقنوات الماء على جانب الطريق،

وكنتُ من حينٍ لآخر أرى رجالًا يحفرون الأرض ولا يلبسون سوى جلودهم بُنِّيَّةِ اللون؛ ولا شيء أكثر من ذلك.

كنتُ أراقبُ الدُّرُوب، والمارَّة من الرجال والنساء والولدان، وعدد من الحيوانات المُنقادة؛ ورأيتُ نسرًا كبيرًا ينقضُّ فجأةً، كأنما ظهر من العَدَم، ليقتنص بعض القطع الصغيرة من الطعام، وشاهدت طائر أبو منجل(40) ببياضه النقيِّ يمتطي ظهر الجاموس.

كانت المحطات الصغيرة التي توقَّفنا فيها مكونةً من مَبْنَيَيْن متواضعين: واحدٌ على كل جانبٍ من الخط الحديديِّ، يُستخدم طابِقُهُ السُّفْليُّ مكاتب، بينما يُخصَّص العُلويُّ لإقامة موظفي المحطة، وكنَّا كلَّما توقَّفنا في محطَّةٍ من المحطات مكثنا فيها وقتًا طويلًا قبل السير مرةً أخرى؛ فالسائق كان يشرب قهوته ويُدخِّن سيجارة وهو يتجاذب أطراف الحديث ويُثرثِرُ مع أصدقائه، والحقُّ أنني لم أعترض على شيءٍ مطلقًا؛ فكل شيءٍ كان جديدًا بالنسبة إليَّ، وقد أحببتُ أن أرى الرُّكَّاب وهم ينزلون ويصعدون إلى القطار، وأن أسمع السَّقَّا - الذي لا تخلو منه محطةٌ - وهو يضرب أكوابه النحاسية ببعضها ويُنادي بصوت جهوري: «عطشاان؟! مايَّه»، ويبدو أن السائق ظنَّ أنَّ العامل الموكَّل إليه حركة القطارات يناديه؛ ومن ثَمَّ بدأ في التحرُّك مرةً أخرى، وهكذا سِرنا ثانيةً عبر المزيد من حقول القُطن والبِرْسِيم والقَمْح.. وكنَّا في ذلك كلِّه نَمُرُّ على المزيد من العرب والإبل والجاموس؛ حتى ظهرت المحطة التالية مع بعض أشجار النخيل والآكاسيا.

في كفر الزيات حيث يمتدُّ الجسر فوق نهر النيل، كانت رؤيتي الأولى لهذا النهر الرائع(39)؛ وأقول: «رائع» عن قصدٍ؛ فمن المؤكَّد أن هناك عددًا قليلًا في العالم من مثل هذه الشرايين المائية المفيدة؛ فلولا النيل لكانت مصر صحراء كئيبةً لا تصلح للزراعة، وحياةُ أيِّ بلدٍ مرهونةٌ بما فيه من مياه.

إنه نهرٌ غامضٌ، مُحمَّلٌ بملايين الذِّكريات عن الحياة، عن ملوكٍ أقوياء عاشوا حياتهم القصيرة ثم رحلوا، بعضهم كان مُؤلَّهًا، وبعضهم كان عظيمًا بحقٍّ، وبعضهم كان تافهًا، وعلى ضفافه تلك المعابد المشيَّدة الشَّاسعة؛ التي تكاد تكون أعظم من أن تبنيها أيدي البشر، وربما يتذكَّر النَّهر ويُحصِي أعداد الخَلْق الذين انطمروا تحت مياهه البُنِّيَّة المُوحِلَة.

وربما يُقهقِه في مَرَحٍ آثمٍ عندما يتذكَّر المواسم التي حَجَبَ فيها مياهه عن الأرض الظمآنة المتصوِّرةً جُوعًا، أو يصيبه السخط حين يتَذَكَّر فجأةً أيدي الرِّجال الذين سخَّروا تلك المياه إلى حيث أرادوا.. لكن في ذلك اليوم الذي رأيته فيه لأول مرةٍ، كان لطيفًا وودودًا تتهادى القوارب الشراعية الكبيرة فوق مياهه صعودًا وهبوطًا، أو تستلقي مشدودةً إلى ضفافه.

هنالك روى لي الدكتور مصطفى قصة المأساة التي تتعلّق بالأسرة الحاكمة في مصر، فيبدو أنه كان في هذا المكان بالضبط جسرٌ عائمٌ أو عَبَّارةٌ، وفي إحدى الليالي(38) وقعت حادثةٌ مُروِّعةٌ، فقد كان يجلس عددٌ من أفراد عائلة الخديوي في عربة خاصة فسقطوا من حافة العَبَّارة في الماء ولم يَرَهم أحدٌ ثانيةً، وبسبب هذا الحادث أصبح الراحل إسماعيل باشا وريثًا لعرش الخديوي بدلًا من أن يكون أحد هؤلاء الغرقى الذين ابتلعهم النهر، فلحُسن حظِّه يومها أنه كان مضطرًا إلى البقاء في المنزل لأمرٍ ما(37)، وفي عام 1861 تم استبدال الجسر الحديديّ بالعَبَّارة العائمة، وكان جسرًا مريحًا عرضُه يُقارب ثلاثة أمتار، ويستقرُّ على دعامات مُجَوَّفَةً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في محطة بنها، نزلنا كي نستقل قطار الخطِّ الفرعيِّ المُتَّجه إلى الزقازيق التي كانت في ذلك الوقت المحطةَ الأخيرة في هذا المسار، لكن كان علينا قضاء الليل في المحطة انتظارًا للقطار الوحيد الذي سيحملنا للزقازيق في الصَّبَاح، وقام ناظرها - الذي كان صديقًا للدكتور مصطفى وزوجته - بمنحهما غرفةً صغيرةً ملحقةً بمكتبه، بينما تشاركنا نحن الثلاثة الآخرين ديوانًا(36) في غرفة مساعد ناظر المحطة.

أعددنا وجبةً شهيةً من بعض الفواكه والبيض والخبز والقهوة، وهو ما حصلنا عليه من ناظر المحطة، وجلسنا نتسامر ونُدخِّن السجائر حتى حان وقت الراحة.

كانت قرية بنها آنذاك بعيدةً قليلًا عن المحطة، وكان من الممكن السَّيرُ إليها على الأقدام، لكن لم نفعل؛ لأنه لم يكن أيٌّ منَّا يريد إجهاد نفسه أكثر من اللازم، فقد كان الجو حارًّا بشكلٍ رهيبٍ، ولم يكن هناك ما يُبشِّر بأنه سيبردُ مع تَقدُّم الليل.

استلقيتُ بملابسي كما هي، لكن الحرارة كانت شديدة الوطأة، وكان البعوض أشد ضراوة من أي شيءٍ، لدرجة أنني لم أتحصَّل إلا على قسطٍ يسيرٍ جدًّا من النَّوم، وفضلًا عن الحرارة والبعوض فقد أقَضَّت مضاجعنا مصادرُ إزعاجٍ أخرى كنقيق الضفادع ونباح كلاب الحقول والمراعي، ممَّا جعلها ليلةً بشعةً بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، وكنتُ أستيقظُ من آنٍ لآخر أتمشَّى على رصيفِ المحطة جيئةً وذهابًا، معجبًا بجمال أول قمرٍ مصريٍّ أراه.

وفي إحدى مرَّات استيقاظي هذه، وقُبيل الفجر مباشرةً، لاحَ قطارُ البضائع القادم من الإسكندرية إلى القاهرة، وتوقَّف ببنها وسطَ جلبةٍ كبيرةٍ، وفي إحدى ناقلاته المفتوحة، رأيتُ عددًا من الأشخاص؛ فمشيتُ نحوهم ورُحتُ أتأمَّلُهم، ورأيتُ - وكنت صبيًا وقتها - منظرًا ملأني بالدَّهشة، إذْ كانت هناك

نحو سِتِّ نساءٍ يرتدين ملابس بيضاء، ويضعن اليشمك(35) أو الحجاب، كنَّ جالساتٍ أو مسترخياتٍ على بَالَاتٍ(34) أعتقدُ أنَّها تحوي بضاعةً ما، بينما يقف على حراستهن ثلاثةٌ من أكثر الأشكال حقارةً، وكلٌّ منهم يُعلِّق على جانبه سيفًا معقوفًا طويلًا، وقد دُسَّ في حزامه مُسدسان كبيران، وبينما كنت أشاهدهم، قفز اثنان منهم من الشاحنة ومرُّوا أمامي على رصيف المحطة، ومن ثَمَّ سنحتْ لي فرصةٌ رائعةٌ لرؤية تفاصيل أسلحتهم وملابسهم المُبهرَجة، وسرعان ما عادوا أدراجهم بعد بضع دقائق من المشي جيئةً وذهابًا، وخرج الرجل الثالث بدوره ليُمدِّد أطرافه ويستعيد بعض نشاطه.

سألتُ ناظر المحطة - وكان قد خرج من مكتبه لحظة رحيل القطار - عن هؤلاء الأشخاص؛ فأخبرني أنهم نَخَّاسُون، يأخذون بضاعتهم لبيعها في القاهرة، وأضاف أنَّ هؤلاء النسوة الأرقَّاء كُنَّ تُركيَّاتٍ أو شَرْكسيَّاتٍ، أمَّا الرِّجال فأكرادٌ أو فُرسٌ أو أتراكٌ كما يبدو من سِحنَاتهم؛ وأخبرني أنَّ مثل هذه المجموعات من الرقيق والنَّخَّاسين تمرُّ بطبيعة الحال عبر بنها بشكلٍ دائمٍ(33).

لم يبدُ على أحدٍ منَّا الضيق عند مغادرة هذا المكان في صباح اليوم التالي؛ وفي الطريق مررنا بريفٍ لم يكن مثيرًا للاهتمام بالنسبة إليَّ؛ فليس فيه سوى زراعات القطن فحسب، وكانت هذه المزارع تمتد في كلا الجانبين على مرمى البصر، لذا يمكنني القول إننا كنَّا سعداء جميعًا بالوصول إلى الزقازيق؛ فالسفر في تلك الأيام لم يكن مريحًا كما هو الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك الوقت كانت الزقازيق صغيرةً ومحدودة جدًا، بها شارعٌ رئيسٌ واحدٌ يمتدُّ عبر البلدة كلها، ولا أظنُّني سأنسى ما حييتُ المشهد الأول الذي لمحتْه عينيَّ عند نزولنا من القطار، إذْ أدركتُ حينها أنني في الشرق ولستُ في أوروبا.

كان الطريق بأكمله يَمُورُ بالرجال والنساء والأطفال والحيوانات الهزيلة، والإبل القبيحة ذوات الأرجل الرفيعة والمظهر الغريب، وكذا الحمير والماعز والأغنام وكلاب الشوارع التي لا يحصيها العادُّ، أمَّا الرجال والنساء فكانوا يحملون أثقالًا كثيرة، لكن حمولة الأنثى كانت كبيرةً هي الأخرى كحمولة الذكر، بينما كان السقَّاءون يتجوَّلون بحمولتهم من الماء على ظهورهم وقد عبَّأوها في قرب من جلود الماعز، كما كان الطريق يموجُ بحشودٍ أخرى هادرة من البشر.

على جانبي الطريق كانت هناك متاجر أو بازارات، وعدد لا بأس به من المقاهي العربية والبقَّالين اليونانيين.. إلخ، وهي أماكن من المؤكد أنها

تستهوي الشخص الذي اعتاد ارتياد المتاجر الإنجليزية المُنمَّقة القَيِّمة، وقد ازدهرت محالُّ البقالة اليونانية في كل أنحاء مصر، إذ كان اليونانيون يبيعون فيها كل شيءٍ تقريبًا: البِقالة، والخُبز، والجُبن، والنَّبيذ، والمشروبات الرُّوحية بكل أنواعها، والبنادق، والمسدسات،.. إلخ. وعادةً ما يبدأ أصحابُها بشكلٍ محدودٍ؛ وربما يظلون هكذا ولا يصيبهم الثراء.

كان الجوُّ حارًّا جدًّا بالنسبة إليَّ كأوروبيٍّ، وكنا نسلك طريقنا ببطءٍ عبر كل هذه الحشود ويتبعنا الحَمَّالون العُرْبان الذين يحملون عنَّا أمتعتنا، وأستطيع القول إننا كنَّا نسير على الطريق الترابي المُغَبَّر بخطىً بطيئةٍ كالحلزون، حتى عبرنا الجسر فوق الترعة، حينها وصلنا إلى جزءٍ من المدينة أقلَّ كثيرًا في كثافة السكان.

ويصفُ رَجُلٌ إنجليزيٌّ الزقازيق عندما مَرَّ بها ذات يومٍ في طريقه إلى الإسماعيلية - فبات ليلةً في العام 1863.. يقول:

«أجارك الله من الاضطرار إلى قضاء ليلةٍ في الزقازيق؛ فندقٌ بائسٌ، وطعامٌ لا يُستساغ، وسريرٌ يخجل أَوْضَعُ نُزلٍ من تقديمه لزبائنه، ولاستكمال بؤسه تَطِنُّ أسراب البعوض في أُذنيك وتغمُرُك بِلدغاتٍ كما لو كانت محفوظةً للمسافر المتعوس الذي ربما اضطرَّته الظروف إلى التَّوقُّف في هذا المكان.. ليلةٌ بلا نومٍ، ونهارٌ مَرَّ في انتظار مغادرة قارب الشركة إلى الإسماعيلية؛ شيءٌ جعلني مُتَعَكِّرَ المِزَاج، ولم تُفلح رحلةٌ مُدَّتها سبعة عشر ساعةً في البَارِجَةِ - التي خصصتها هيئة النقل لاستخدام المسافرين - في إصلاح مزاجي مرةً أخرى. كان القارب يُسحب بواسطة جَمَلَيْن(32)، واللذان لم يُفكِّر سائقهما قط في الالتفات أو الانتباه لأي شيءٍ سواهما، وبما أنَّ السائق غالبًا ما يكون نائمًا؛ فإن حَبْلَ السَّحب كان يشتبك باستمرارٍ في الشُّجيرات والأوتاد والسَّواقي وكلِّ أنواع العوائق في الطريق؛ لذلك كانت هناك صدماتٌ وارتطاماتٌ مفاجئةٌ ومتواصلةٌ مع ضفَّة النَّهر. وبالطبع كان من المألوف أنَّ تتعرَّض الدَّهَبِيَّات(31) للتَّحَطُّم أثناء تَعرُّضها لهذه الأفعال السيئة، وكان شاغلوها كثيرًا ما يُفاجَؤون بحَمَّامٍ باردٍ من الترعة نتيجة صدمات السفن المارَّة بهم، كانت هذه هي الجَنَّةُ الأرضيَّةُ التي سأقضي فيها عامين من وجودي».

في مصنع حَلْجِ القطن كانت هناك محنةٌ جديدةٌ لي وللآخرين، لأنَّ جميع العاملين من الرجال والفتيان والفتيات، قد خرجوا لاستقبالنا بكثيرٍ من السَّلامات وتقبيل الأيدي، ومستمرِّين في الحديث بطلاقةٍ بالعربية التي لا أفهمها، وهو ما أحبطني كثيرًا، وكان الوضع صاخبًا جدًّا.

لم تكن الغرفة التي خُصِّصت لي في حقيقة الأمر سوى عِلَيَّة(30) فوق المخزن، ولسوء الحَظِّ تقع على مقربةٍ شديدةٍ من الغلَّاية، الأمر الذي جعلني أقضي أوقاتًا سيئةً جدًا، لكني اعتدتُّ الاهتزاز، ولم يكن هناك سبيلٌ للوصول إلى الغرفة إلا عن طريق درجاتٍ خشبيَّةٍ خارج المبنى، ومع ذلك كانت لها شُرْفةٌ صغيرةٌ تُطلُّ على ضفاف الترعة، مع إطلالةٍ رائعةٍ على المدينة.

وفيما بعد كنت كثيرًا ما أجلس في هذه العِلِّيَّةِ في أمسياتٍ رائعةٍ أُسَلِّي نفسي بالعزف على الكونسرتينا(29)، وبدا لي أيضًا أن عزفي يُسلِّي عددًا من العرب الذين كانوا يجلسون للسَّمَر والتدخين على ضفاف الترعة، ولستُ أدري إذا كانوا حقًّا يُحبُّون عزفي للموسيقى الإنجليزية على مثل هذه الآلة أم لا، لكن بعد قليلٍ عندما تعلَّمتُ عزف بعض ألحانهم الشرقية الخاصة، كان تصفيقُهم لي بلا حدودٍ، وأصبح لديَّ جمهورٌ عريضٌ جدًا يُظهرون استمتاعهم بأصوات تقديرٍ ممطوطةٍ وطويلةٍ «آآآه... الله.. الله».. وأستطيع القول إنني لم أتحصَّل على مثل هذا التصفيق من الجانب الأوروبي من مجتمع الأجانب في مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مصنع حَلْج القطن عبارةً عن مبنىً طويلٍ من طابقٍ واحدٍ، وكان بناؤه خاليًا من أي لمسةٍ جماليَّةٍ، وقد تمَّ تقسيمه من الداخل إلى أقسام مختلفة، كما كانت هناك غرفةٌ طويلةٌ مليئةٌ بآلات حلج القطن، وما إلى ذلك.

ولو سألني أحد أن أصف نبات القطن، فسأقول: «إنه نوعٌ من الشُجيْرات، ينمو مرتفعًا، وتنفجر قرون البذور عندما تنضج أو شيء بهذا المعنى؛ لكنَّ الوصف العلمي سيكون على النحو الآتي: نبات القطن - Gossypium tricuspidatum، ثم أنتقلُ إلى الحديث عن السِّيقان والأوراق والفُصُوص.. وما إلى ذلك.

عند إحضار القطن إلى غُرفة الحَلْج يكون مليئًا بالبذور، ويكونُ عمل المحالج هو تنظيفه وفصله عن البذور، ثم يُؤخذ القطن إلى غرفةٍ أخرى ويُحوَّل إلى بَالَاتٍ بواسطة مكابس هيدروليكية، وتُلفُّ كلُّ بَالَةٍ بقماشٍ، ويتمُّ تثبيتها بشرائط حديديَّةٍ، ثم تُوزن وتُجهَّز للشحن، إمَّا عن طريق القوارب، وإمَّا بواسطة السكك الحديديَّة.

في البداية لم تكن مهامِّي معقدةً كثيرًا؛ فقد كان عليّ أن أُوقِّعَ على ورقة كلِّ عاملٍ يوميًّا، وأحتفظَ بالسجلات، فضلًا عن الإشراف على الحسابات، والمساعدة في صرف المدفوعات الأسبوعيَّة؛ لذلك كان لديَّ الوقت الكافي لمواصلة دراسة العربيَّة، وقد حقَّقْتُ تقدُّمًا كبيرًا في التَّحدُّث بها، ثم تولَّيتُ أمورًا أخرى، أحيانًا لفتراتٍ طويلةٍ، وأحيانًا لفتراتٍ أخرى قصيرةٍ.

وفي الوقت الذي لا أكونُ فيه مشغولًا بالعمل، كنت أمتِّعُ نفسي بالتَّعلّم على الآلات قَدْرَ الإمكان، فعلى سبيل المثال كان أحد أهم مراحل عملية حلج القطن هي ضبط السكاكين المزدوجة، والتي كانت تدور في الماكينة بواسطة بَكَرَات الجلد بحيث تفصل القطن عن البذور بطريقة تسقط فيها قطعة القطن التي تم تنظيفها أمامها، بينما تتجمَّع البذور أسفل الماكينة، وكان في المصنع رجلٌ أوروبيٌّ خبيرٌ في هذا المهمة، ولا يفعل شيئًا آخر، حيث يُدفع له عشرون جنيهًا إسترلينيًّا شهريًّا مقابل خدماته.

كنتُ أستمتع جدًّا بمشاهدة براعته في العمل، وأحيانًا أضبط الشفرات بنفسي حتى أصبحتُ ماهرًا في ذلك الأمر، بل حذقت ذلك لدرجة أنني كنتُ أقومُ بهذه المهمة عندما يتغيب العامل المنوط به ذلك الأمر، وحدث مرَّةً أنه كان يعاني من الحُمَّى، واستمرت هذه المعاناة ثلاثة أسابيع كاملة؛ فلم أجد بُدًّا من الحضور الدائم لأجل ضبط الشفرات، وأوقنُ أنني كنتُ فخورًا جدًّا بنجاحي الدائم وعدم حدوث خطأٍ في هذه العملية الدقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتذكَّر أيضًا حادثةً واحدةً ربما كانت ستتحول إلى كارثةٍ خطيرةٍ؛ فقد كنَّا بالليل نُنظم مناوبتين بشكلٍ دائمٍ، رغم أنَّ الرِّجال وحدهم هم مَنْ كانوا يعملون في مناوبة الليل، وأثناء تَجوُّلي في غرفة الحَلْج لاحظتُ ضعف ضوء مصباح من المصابيح، وبفحصه وجدتُ أنه لم يتم تنظيفه بشكلٍ صحيحٍ، وأن الفتيل به طبقةٌ مُتفحِّمة؛ فأزلتُ هذه الطبقة بقلمي الرَّصاص، لكنها لم تسقط في قاع المصباح كما أردتُّ لها؛ بل على كومةٍ من القطن أسفل منه، وهو ما أدَّى إلى اشتعالها بسرعة البَرْق.

صرختُ من أجل إيقاف الآلات، وطلبتُ المساعدة الفوريَّة من الجميع، وسرعان ما أخمدنا الحريق، ومن حُسْن الحظِّ أنَّ القطن كان في حالته الخام؛ لأنه لو كان محلوجًا لكان أكثر قابليةً للاشتعال، ولاحترقَ المصنعُ بكامله؛ لذلك كان الضَّررُ محدودًا، لكنَّ الجانبَ الأكثر كوميديَّة في الحدث؛ كان ظهور الشركاء الثلاثة في أكثر ملابس النوم إثارة للدهشة، بعد أن استيقظوا من نومهم فزعين على صوت العرب وهم يصرخون: حريق.. حريق، وكنتُ قد توقَّعتُ منهم تعنيفًا شديدًا، لكن عندما سمعوا توضيحي لِمَا حدث؛ طلبوا منِّي الامتناع عن لمس المصابيح مستقبلًا، وهو الأمر الذي لبَّيتُه بالتزامٍ بصارمٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مهمةٌ أخرى لم أستمتع بها قَطُّ، وهي التي كان يؤدِّيها عربيٌّ عجوزٌ يُدْعَى منصور يعمل مُشْرِفًا في المصنع، فيُراقب العُمَّال من أهل البلد وهم يعملون، ويحرص بدقة على تنفيذهم التعليمات؛ لأنَّ معظمهم كانوا بطبيعتهم كُسَالَى،

ولم تكن مُهمَّة منصور هيِّنةً قط، فنظرًا لأنَّ الإقناع الأخلاقي كان قليل الفائدة؛ فكان يحمل الكرباج بشكلٍ دائمٍ ولا يفارقه، لحثِّ الرجال والفتيان على العمل.

وقد جرى العُرْفُ في المَصنع على تسليم أي شخصٍ يسرقُ أو يرتكب جريمةً أخطر لقسم الشرطة ليتلقَّى العقاب المناسب، وكان يقع على عاتقي عبء مرافقته إلى هناك، وشرح الجريمة لكبير الضباط الذي كان يأمر بثلاثين أو أربعين جلدةً بالكُرْباج على باطن قدميه، ثم أعود بعد التأكُّد من أنه قد جُلد كما ينبغي، وغالبًا ما كنتُ آخذُ واحدًا أو أكثر في كلِّ مرةٍ، غير أنه كان يُدهشني الهدوء والاستسلام وشبه الفرحة التي كان يسير بها هؤلاء بجانبي في طريقنا إلى مركز الشرطة رغم ما ينتظرهم من جَلدٍ بالسياط؛ وكانوا بعد الجَلْد يمشون أو يحجُلون أو يتقافزون في طريق عودتهم إلى العمل جرَّاء الضرب.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فيروي السيد باركر في كتابه عن سوريا ومصر(28) قصة رجلٍ كانت تُوقَّع عليه هذه العقوبة، فاستمر في الصراخ المتواصل قائلًا: «آه يا ظهري آه يا ظهري! آه يا ظهري!»؛ فقال له المارَّة: أنت أحمق؛ فما تتألَّمُ منه هي قدمك وليس ظهرك؛ فقال: لا؛ لو كان لي راعٍ قويٌّ يقف في ظهري ويحميني؛ لما كنتُ الآن أُضربُ بالعصا، إن حاجتي إلى هذه الحماية هي التي تجعلني أندبُ قلةَ سَنَدِي وسوءَ حظِّي، وفي أغلب الأحيان كانت صرخات أولئك المساكين طلبًا للرحمة تُحفِّزني على التَّشفُّع لهم قبل انتهاء نصف عقوبتهم، وكانت شفاعتي لهم مقبولةً في تخفيض ما ينالونه من ضرباتٍ(27).

كان محمد أفندي من بين موظَّفينا أيضًا، وهو كبير الوَزَّانين وأوَّل مَن علَّمني الأوزانَ والمقاييسَ العربيَّة، وأراني كيف يتمُّ وَزن القطن، كما ساعدني كثيرًا في دراستي للُّغة العربية، حيث أبدى اهتمامًا كبيرًا بذلك، فكان يُكرِّرُ كل كلمةٍ أو جملةٍ مرارًا حتى أتمكَّن من نطقها على الوجه الصحيح، كما كان مُدمنًا على الأفيون، وإذا لم يُدخِّنه كان يتناوله على شكل أقراصٍ يحتفظ بكميةٍ كبيرةٍ منها ملفوفة بعنايةٍ فائقةٍ.

وفضلًا عن ذلك كان محمد أفندي يتمتَّع بروح الدُّعابة، وفي كثيرٍ من الأحيان - بعدما اكتسبتُ قدرًا كبيرًا من الكفاءة في الحديث بلغته - كنتُ أُترجِمُ له مقتطفاتٍ من بعض الصحف الهَزْليَّة، فكان يُبالغ في الضحك حتى يستلقي على ظهره، ويركل بساقيه الهواء، وتسيل دموعه غزيرةً على خَدَّيْهِ، وكنت دائمًا أظنُ أن ذلك راجع إلى حُبِّه الشديد للفكاهة، لكن ربما كانت هي آثار المُخدِّر الذي أحبَّه بشراهةٍ، وكثيرًا ما عرض عليَّ واحدًا من أقراصه الصغيرةِ الشِّريرةِ، فكنتُ غالبًا أرفضها، وهو السلوك الذي اتبعتُهُ دائمًا وكان يثير خيبة

أمل الأصدقاء من أهل البلاد، الذين كانوا يعرضون عليَّ كثيرًا في السنوات اللاحقة غُلْيُون الأفيون، ويجب أن أعترف أن السبب الرئيس لرفضي؛ كان خوفي من الآثار السلبية اللاحقة للمخدِّر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل إغلاق المصنع مباشرةً في الصيف، تعرضتُ لنوبةٍ من التهاب العيون، وبعدها أُصبتُ بالحُمَّى، وتعافيتُ من كليهما بسبب العناية الكبيرة التي أولاها لي الدكتور مصطفى، وعلى الأرجح كانت مشكلة عيني ناتجةً عن حرارةِ الشمس ووَهَجِها الذي لم تعتده، إذْ كانت معتادةً على رؤية الخُضرةُ الإنجليزيَّة.

وقبل أن يبدأ الصيف بقليلٍ توصَّلتُ إلى استنتاجٍ مفادُهُ أنَّني لا أتحصَّلُ على قدرٍ كافٍ من التمارين الرياضيَّة، وهو ما يجعلني عُرْضة للمرض، ومن ثَمَّ كان لابدَ من البحث عن علاجٍ لهذا الأمر، وفي النهاية اشتريتُ حمارًا صغيرًا مُجهَّزًا بسَرْجٍ ولِجامٍ عربيٍّ، وكان هذا الحيوان الجميل مصدر بهجةٍ كبيرةٍ بالنسبة إليَّ، فقد كنتُ كل مساءٍ أركبُهُ وأُهرولُ به على طولِ ضفاف الترعة.

كانت هذه الرحلة تبدأ غالبًا قُبيل غروب الشمس، والحقيقة أنني لم أَمَلَّ قط من رؤية هذا المشهد الرائع، كان كل شيءٍ يبدو آنذاك مغمورًا في ضَبابٍ من الذَّهب والوُرود، وكنت ألتقي في طريقي بأعداد من العُرْبان، كان الرجال منهم عادةً يمتطون الحمير أو الجواميس، بينما يتبعهم النساء سيرًا على الأقدام حاملاتٍ حزمًا كبيرةً على رءوسهن؛ وفي الغالب كُنَّ يُغطِّين وجوههن بحجابهن أثناء مروري.

وأحيانًا تمُرُّ سلسلةٌ من الإبل ذات المظهر الغريب وهي تنخرُ وتزأرُ وتمشي متمايلةً، أو يمرُّ قطيعٌ ثانٍ من الحمير يقوده صبيٌّ بدويٌّ لا يكفُّ عن الصُّرَاخ فيها. وفي الترعة نفسها كانت قوارب النيل بأشرعتها الكبيرة المثلثة، تنزلق بسرعةٍ على وجه المياه، متجهةً من الزقازيق وإليها.

وأيًّا كانت مهنتهم، فبمجرد أن تغرب الشمس كان العرب يسجدون على الأرض بتفانٍ شديدٍ؛ لأن أتباع النبي محمدٍ يأخذون دينَهم على محمل الجدِّ، وهو جزءٌ مهمٌ جدًا من حياتهم اليومية(26).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لي صديق شابٌّ كُورسِيكيٌّ(25) قد درس العربية جيدًا؛ غير أنه لا يستطيع تحدُّث الإنجليزية، وبما أنني لم أكن أتحدثُ الفرنسية أو الإيطالية في ذلك الوقت؛ فقد كنَّا نتحدثُ دائمًا بالعربية، وهو ما كانَ ذا فائدةٍ كبيرةٍ وساعدني في اكتساب تلك اللغة.

وكثيرًا ما ذهبنا في نزهات تمشيةٍ طويلةٍ وركبنا الدوابَّ معًا، وأحيانًا كنَّا نذهبُ إلى بوبسطة(24) ونتجوَّل هنالك، لكن لم يدُرْ بخلدنا قط أنَّ هذا المكان سيشهد في قابل الأيام استكشافاتٍ أثريةً عظيمةً(23)، ولم يكن لدينا أدنى علمٍ بأنَّ تحتَنَا تكمن أطلال واحدةٍ من أقدم المدن في مصر، وقد شهدت ذروة ازدهارها في ظل الأسرة الثانية والعشرين(22) عندما ثبَّتَ شيشنق(21) هذا المكان مقرًّا رئيسًا له، وكان ذلك - تقريبًا - منذ ألف عامٍ قبل الميلاد.

ويُقدِّم هيرودوت الذي زار هذا المكان بعد سنواتٍ روايةً برَّاقةً عن جماله كما رآه، ولكن عندما اعتدنا أن نركب دوابَّنا فوق ذلك المكان لم يكن هناك أي شيءٍ غير أكوامٍ وتلالٍ من الأنقاض. ولعلك تعجَبُ أشدَّ العَجَب عندما تتفكَّر في الأمر، تخيَّل مثلًا أن شخصًا ما في يومٍ ما قد يُحلِّق فوق نفاياتٍ قاحلةٍ، ثم يطوي جناحيه ويستقرُّ على كومةٍ من الأنقَاض لتناول غدائه، ولا يدور بمخيلته أبدًا أن تحته مدينةً رائعةً كانت تُسمَّى لندن، حيث الملايين من النفوس البشرية كانت تعمل، أو تلعب، أو تمارس الحب، أو تلعن حكومتها، وربما بعد ذلك ببضع سنواتٍ يسحب التربة والقمامة من خلال منطادٍ بمضخة شفطٍ كبيرةٍ ليكشف عن بناءٍ لامعٍ، وسيقول بعضهم على متن ذلك المنطاد: «بحَقِّ جوبيتر(20)، هذا نُصْب ألبرت التذكاري(19)؛ أنا أذكر هذه الرموز العشرة القديمة».

بالعودة إلى الحديث عن صديقي الكورسيكي؛ فلم يكن يحمل معه خنجرًا(18) قط، ولم يكن مزاجُهُ جامحًا؛ بل كان رفيقًا لطيفًا ومبهجًا، واعتدنا معًا حضور الموالد الشعبية التي تُقام في قرىً مجاورةٍ، وبهذه الطريقة - ولكوننا منجذبين نحو المصريين - فقد ظننَّا أننا بارتدائنا الطربوش مثلهم؛ سنتمكَّن من تكوين فكرةٍ جيدةٍ عن الحياة الداخلية لجيراننا الشرقيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتذكَّرُ إحدى هذه الرحلات بشكلٍ خاصٍّ، ففي ليلةٍ صيفيةٍ مقمرةٍ، ذهبنا إلى قريةٍ تبعد نحو عشرة أميالٍ عن الزقازيق حيث يُقام المولد، وركبنا جَيَّاسَةً(17) مزدحمةٍ جدًّا، وكان كلُّ مَن على متنِها من العرب باستثنائي أنا وصديقي الكورسيكي، وعليها أيضًا عددٌ من الشُّبَّان الأفندية العرب أبناء بعض تُجَّار القطن، ونحو خمسٍ أو سِتٍّ من الفتيات الراقصات، تصحبُهنَّ فرقةٌ موسيقيَّةٌ محليَّةٌ يَدُقُّون الطُّبول وغيرها.

سارت الرحلة بشكلٍ رائعٍ، وهبَّت علينا رياحٌ طيبةٌ، وأخذتنا الأشرعة الكبيرة مثلثة الشكل بسرعةٍ جيدةٍ، وسرعان ما وصلنا إلى وجهتنا، وهنالك وجدنا القرية مُزَيَّنةً بفوانيس معلقةٍ عبر الطريق، ونُصبت السرادقات الكبيرة من أجل الضيوف.

ورغم الوجود الطاغي للقهوة؛ إلا أن البقَّالين اليونانيين كانوا يصيحون بصخبٍ: «العَرَق"(16)، - وهو ويسكي رديء -... إلخ إلخ. وطوال الوقت كان بائعو الفاكهة والحلوى يتنقَّلون جيئةً وذهابًا بين الزبائن، يعرضون بضاعتهم على المُشْترين مع مجاملاتٍ لطيفةٍ بالعربية، واستمرَّ الرقص والغناء مصحوبًا بالشُّرب والتدخين، حتى بعد منتصف الليل بكثيرٍ، وبين الفينة والأخرى كانت تُوضع شموعٌ جديدةٌ في الفوانيس.

أخيرًا، وفي الساعات الأولى من الصباح، تجمعنا استعدادًا في رحلة العودة، رغم أن التجمع كان بمشقةٍ كبيرةٍ، ثم احتشدنا مرةً أخرى في القارب، وكان من الواضح أن الأفنديات الشباب هم الأسوأ في نزهتهم، فهم يُحدِثون ضوضاء مخيفةً، يصرخون ويُغنُّون مقطعًا غنائيًّا يُشبه إلى حدٍّ كبيرٍ المقطع الذي يُغنِّيه الإنجليز والقائل: «لن نعود إلى البيت حتى الصباح»(15). ومن بين ضجيجهم أمكن سماع صراخ رَيِّس القارب الذي كان يُناشد رُكَّابه ويرجُوهُم أنَ يهدأوا ويجلسوا، وهو ما حدث؛ فقد ساد الهدوء مرةً أخرى، وسار القارب وارتفع الشراع ومضينا في طريقنا.

بعد فترةٍ وجيزةٍ توقَّفت الريح تمامًا، فقام رئيس المركب وأحد أفراد الطاقم بالتجديف وساعدناهم، كان التقدُّم بطيئًا لكنه كان منتظمًا، وكان من المفترض أن نصل إلى الزقازيق بعد وقتٍ قليلٍ، لكنَّ اثنين من الأفندية كانا قد جلبا معهما إلى متن القارب جَرَّةً من الخَمْر، وشرعا في الشرب كأسًا بعد كأسٍ، حتى قضيا على كلِّ ما في الجَرَّة، وعلى ما يبدو، فإن هذه الجَرَّة إضافة إلى ما استهلكوه من قبل على الشاطئ؛ كانت أكثر من اللازم بالنسبة إليهم، فتخطَّى الأمر حدَّ المرح الجامح إلى الشِّجار.

وتدخَّلت الراقصات ووجَّهن السباب إلى الشُّبَّان، وردَّ الرجال عليهن؛ فضربت إحداهن أفنديًّا كان جالسًا على جانب القارب؛ فاختل توازنه وسقط مختفيًا في مياه الترعة، وهاج المركب وماج، وكانت الضجة هائلةً وجَهنميَّة، حتى إنني سددتُ أُذني خوفًا من أن تُثقب طَبْلَتُها، فقد كانوا جميعًا يصطرخون ويتسابُّون، ونزع أحد المراكبية قميصه - وكانت رداءه الوحيد - وقفز في الماء، ومرَّ بعض الوقت قبل أن يتمكَّن من الوصول إلى الأفندي، ومن ثَمَّ سحبه نحو الضِّفة.

توجَّه الرَّيِّس بالمركب إلى الضفة، وقفزتُ أنا وصديقي إلى الشاطئ؛ وأمسكنا بالرجل شبه الميت وخلعنا عنه ملابسه وقَلَبْنَاه على وجهه، وفعلنا ما في وسعنا لإفاقته، والحقيقة أنه كان معتلًّا بشكلٍ مخيفٍ، بعد أن ابتلع كثيرًا من المياه القذرة، التي لم تكن تتناسب مع الخمر الذي شربه من قبل.

هذا المشهد بأكمله كان مثيرًا للسخرية تمامًا، فضوء القمر قويٌّ للغاية يُضيء المكان، والراقصات يَنْتَحِبْن ويصرُخن، والرجال يصيحون على كل شيءٍ، ويُقسِمون أنهم سيقتلون الجميع، والأفندي مستلقىً عاريًا على وجهه، ومُنقِذُه أيضًا يقف عاريًا بالقَدْر نفسه، راضيًا عن نفسه وهادئًا تمامًا.

ما إنْ تعافى الأفنديُّ قليلًا حتى بدأ ينتحب في ضَعفٍ شديدٍ؛ لذلك رفعناه على مَتْن القارب مرَّةً أخرى، ثم كان على رئيس المركب أن يصيح بأعلى صوته ليستقر كلٌّ في مكانه؛ فلم يستجب له الجميع في البداية؛ إلا أنه قد أجبرهم على الإذعان له حين أقسم أنه سيتركهم جميعًا ليعودوا إلى الزقازيق على أقدامهم، إذا لم يلزم كلُّ واحدٍ مكانه هادئًا.

حمدنا الله كثيرًا عندما هبَّ النسيم فحرَّك القارب بوتيرةٍ سريعةٍ، وتخيَّلنا أننا عمَّا قليلٍ سنصل مقصدنا لنأخذ راحةً استحققناها؛ وبكل أسفٍ لم يحدث ذلك. وكان مُقَدَّرًا أن يخيب أملنا، إذْ بعد وقتٍ قصيرٍ جدًا، وعندما انعطفنا في الترعة؛ صَدَمَنا مركبٌ أكبر منَّا بكثيرٍ، وكانت ضربةً قويةً كادت أن تقلب قاربنا تمامًا، لكنها أمالته على جانبه فحسب، وامتلأ القارب بالماء بعد أن ألقى برُكَّابه في الترعة، ولحسن الحظِّ كنَّا بالقرب من ضفة الترعة؛ فقفزتُ في الماء الذي غطَّاني حتى خِصري، ووجدتُّ فرصةً لمساعدة الآخرين في الوقوف على أقدامهم. كان من حُسن حظِّنا أنه لم يغرق أحدٌ، لكن كنَّا مبتلِّين تمامًا. وكنتُ أنا وصديقي قد رأينا من هذه الرحلة ما يكفينا؛ ومن ثَمَّ انطلقنا بمفردنا لنقطع الأميال الثلاثة المتبقية إلى الزقازيق سيرًا على الأقدام؛ ولاحت تباشير الصباح قبل أن أصل إلى المصنع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى موسم العمل الآن، وتم إصلاح جميع الآلات، ومن ثم كانت هناك فترةٌ من الخمول، ونظرًا لأني كنتُ أحملُ بداخلي شهوة الصبيِّ الإنجليزيِّ في الصيد وقتل أي شيءٍ، لذلك غالبًا ما كنت أركبُ في الصباحِ الباكر لأتفقَّد الطيور التي يُمكنني صيدها، وبلا ريبٍ؛ أحسستُ كأنني الملكَ النمرود(14)، والحقيقة أنني استمتعتُ كثيرًا بهذه الرحلات الصغيرة، واكتسبتُ معرفةً وإعجابًا كبيرًا بالفلاحين الذين كنتُ أُعاملُهم دائمًا بأقصى درجات اللياقة.

أتذكَّرُ مثلًا ذلك الصباح الذي ابتعدتُ فيه عن الزقازيق بمسافةٍ غير مسبوقة، عندها شعرتُ بالفزع لأنني ضللتُ الطريق، وزاد الموقف صعوبة أني نسيتُ شطائري أيضًا، وأعتقد أنَّ هذا الأمر الأخير كان الأكثر تأثيرًا عليَّ؛ لكنني سرتُ في الطريق فصادفتُ ثلاثةَ عربٍ، كانوا يجلسون على الأرض ويتناولون وَجْبَتَهم؛ فرحَّبوا بي حين كنتُ أمرُّ بهم وقال أكبرُهم: «بسم الله.. اتفضل»، طالبًا مني أن آكل معهم، وقبلتُ دعوتهم بامتنانٍ، وتناولتُ وجبةً رائعةً من التَّمر والخبز العربيِّ والبِطِّيخ.

وبعد أن شكرتُ لهم، طلبتُ أن يُوجِّهوني إلى المَدِينة، وأصرَّ أحدهم على مُرافقتي لمسافةٍ كبيرةٍ ليدُلَّني على الطريق، فلمَّا هَمَّ بالعودة دسستُ يدي في جيبي وأعطيتُه كلَّ السجائر التي كانت في حقيبتي؛ لكنَّ الرجل أعاد إليَّ نِصفهم بلطفٍ بالغٍ بحجة أنني سأحتاجُ إليهم في رحلة العودة، فكان تصرفًا مهذبًا للغاية، وهو ما أدهشني في الحقيقة؛ لأنهم كانوا مجرَّد فلاحين بسطاء.

وحين يتعلَّق الأمر بالفلاحين الذين شعرتُ بإعجابٍ كبيرٍ بهم؛ فيجب القول إنهم سلالةٌ مثابرةٌ في عملها للغاية، وذوو مزاجٍ جيِّدٍ، ولا يحتاجون إلى شيءٍ سوى التدريب المناسب والقدوة الجيدة، وإلى القليل من التعليم لجعلهم مصدر قوةٍ رائعٍ لبلدهم.

أمَّا بيوت الفلاحين أو أكواخهم؛ فمبنيةٌ من الآجُرِّ الطِّيني، وهي مُغطَّاةٌ بالقَشِّ والنخيل، والنافذة عبارةٌ عن فتحةٍ مربعةٍ أو مستديرةٍ، أمَّا الباب فيكون في الغالب صغيرًا جدًا، مما يستلزم انحناء الداخل حين يجتازه.

وأمَّا لباس الرِّجال فيتكوَّنُ من سراويل قطنيَّةٍ واسعةٍ، وثوبٍ - من القطن أيضًا - طويلٍ أزرق اللون مفتوحٍ عند الرَّقبة يُسمَّى (الجلَّابية)، ويرتدون طاقيةً بُنيَّةً مُحكَمةً على رءوسهم، وأمَّا النساء فترتدي الواحدة منهنَّ ثوبًا مفتوحًا عند العُنُق، ويكون مصنوعًا هو الآخر من القطن، وذا لونٍ أزرق أيضًا، وبالطبع يُغطِّين وُجوههن بنقابٍ أسود.

ومثل أسلافهم في الأزمان المُبكِّرة؛ يستخدم الفلاحون الأدوات نفسها في حراثة الأرض، وفي الغالب يستعينون بالثيران والجاموس في الحَرْث، وأحيانًا يُقرنُ الجَمَلُ والحمار معًا. أمَّا طعام هؤلاء الفلاحين فيكون عادةً من النوع البسيط جدًا كالتَّمر والذُّرة والأسماك والخضروات والجُبْن والخِيار والسَّلَطة والفِجْل، إلخ.

ويجدر بنا أنْ نأخذ بعين الاعتبار الحُريَّة التي يتمتَّع بها الفلاحون المصريُّون الآن في ظلِّ الاحتلال البريطانيِّ، ومقارنتها بالاستبداد الذي عانوا منه في عهد محمد علي، كما وصفها إدوارد لين(13) في كتابه «المصريُّون المُحْدَثُون»(12)، والقضية الآتية ستُقدِّم فكرةً عن حال الفلَّاحين المصريين في بعض المناطق:

«في إحدى الليالي ذهب سليمان آغا(11) التركيُّ المشهور بارتكاب أعمالٍ بربريةٍ(10) عدةٍ، وكان واليًا على مدينة طنطا في الدلتا، إلى مخزن الحُبوب الحكوميِّ في تلك البلدة، فوجد اثنين من الفلاحين نائميْن هناك؛ فسألهما عن هويتهما وعمَّا يفعلانه في هذا المكان؛ فقال أحدهما إنه أحضر 130 إرْدَبًّا(9) من الذرة من قريةٍ قريبةٍ، وقال الآخر إنه أحضر 60 إرْدَبًّا من الأرض التابعة للمدينة؛ فقال الوالي لهذا الأخير:

- أيها الوغد؛ هذا الرجل يجلب 130 إرْدَبًّا من أراضي قريةٍ صغيرةٍ، وأنت لم تأت من أراضي المدينة بغير 60 فقط؟!

أجاب فلاح طنطا: هذا الرجل يجلب الذرة مرةً واحدةً في الأسبوع فحسب؛ وأنا أجلبها كل يومٍ.

فقال الوالي: اخرس.

ثم أشار سليمان إلى شجرةٍ قريبةٍ، وأمر تابعًا له بشنق الفلاح على أحد فروعها؛ فأطاع الخادم الأمر، وعاد الحاكم إلى بيته.

وفي صباح اليوم التالي ذهب سليمان مرةً أخرى إلى المخزن، ورأى رجلًا يجلب كميةً كبيرةً من الحبوب؛ فسأل: مَن هذا وما الكمية التي أحضرها؟ فأجابه جلاد الليلة السابقة: هذا يا سيدي هو الرجل الذي شنقتُهُ الليلة الماضية حسب أوامرك، وقد أحضر 160 إرْدَبًّا.

- صرخ الحاكم ماذا؟!.. هل قام من بين الأموات؟!

فأجابه الجلاد: لا يا سيدي، لقد شنقتُهُ حتى لامست أصابع قدميه الأرض، وعندما غادرتَ أنت المكان فككتُ الحبل، فأنت لم تأمرني بقتله.

فتمتم التركي: أَهَا.. الشَّنق والقتل أمران مختلفان!! إنَّ العربية غزيرة المعاني.. في المرة القادمة سأقول: «اقتل».. هذا ما أعنيه يا أبا داود (لقب الجلاد)"(8).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حَدَثٌ آخر قد يكون مرتبطًا بالموضوع هنا؛ باعتباره توضيحًا إضافيًّا لطبيعة الحُكم الذي خضع له شعب مصر في ذلك الوقت؛ فأحد الفلاحين جرى تعيينه ناظرًا أو حاكمًا لمنطقة المنوفية في جنوب الدلتا؛ ثم طالب فلَّاحًا فقيرًا بمبلغ ستين ريالًا (حوالي 135 قرشًا أي ما يعادل حوالي 30 شلنًا انجليزيًا) ضريبة؛ فقال الرجل الفقير إنه لا يملك من الدنيا سوى بقرة بالكاد تمنحه القُوت لنفسه ولأسرته.

وبدلًا من اتباع الطريقة المُعَّتادة في مثل هذه الحالة، عندما يعلن أحد الفلاحين عدم قدرته على الدفع، وهي الحكم عليه بعقوبة ضربٍ شديدةٍ؛ أرسل الناظر شيخ البلد ليُحضر بقرة هذا الفلاح المسكين؛ ثم طلب من بعض الفلاحين شراءها؛ لكنهم قالوا إنهم لا يملكون ما يكفي من المال لذلك؛ وعندئذٍ طلب جزَّارًا وأمَرَه أن يذبح البقرة، ففعل الجزار ذلك، ثم طلب منه تقسيمها إلى ستين قطعةً، وعندما طلب الجزَّار أجرَه أعطاه رأس البقرة، ثم جمع ستين فلاحًا وأجبرهم على أن يشتري كلٌ منهم قطعةً من البقرة.

وذهب صاحب البقرة باكيًا وشاكيًا إلى رئيس الناظر، وكان وقتها الراحل محمد بك الدفتردار(7)؛ وقال له: «يا سيدي؛ أنا مُضطهدٌ وفي بؤسٍ، ولم أكن أملك من الدنيا إلا بقرةً حلوبًا واحدةً، أعيش على لبنها أنا وعائلتي، وكانت تحرث أرضي، وأعتمد عليها في جُلِّ أعمالي. أخذها الناظر وذبحها، وقطَّعها إلى ستين قطعةً، وباع القطع لجيراني بريال لكلِّ قطعة، وحصل على ستين ريالًا فحسب مقابل البقرة كلها، في حين أن قيمتها كانت تساوي مائة وعشرين ريالًا وربما أكثر. أنا مضطهدٌ وبائس، فضلًا عن أنني غريبٌ في المكان؛ فأنا من قريةٍ أخرى، ورغم ذلك لم يرحمنيّ الناظر، وصرتُ أنا وعائلتي متسوِّلين، ولم يتبق لنا شيءٌ.. أستحلفك بعِرْضك أن ترحمني وتُنصفني».

هنا أمر الدفتردار بإحضار الناظر أمامه، وسأله: أين بقرة الفلاح؟!

فقال الناظر: لقد بعتُها.

- بكم بعتها؟!

- مقابل ستين ريالًا.

- لماذا ذبحتَها وبعتَها؟!

- كان مدينًا للأرض بستين ريالًا؛ فأخذتُ بقرته، وذبحتُها، وبِعتُها بالمبلغ.

- فأين الجزَّار الذي ذبحها؟!

- في منوف(6).

وأرسلوا في طلب الجزَّار وأحضروه، وقال له الدفتردار: لماذا ذبحتَ بقرة هذا الرجل؟

أجاب الجزَّار: لقد طلب الناظر مني ذلك، ولم أستطع معارضته، ولو كنتُ حاولتُ معارضَتَه؛ لضربني ودمَّر منزلي.. لذا ذبحتُها، وأعطاني الناظر الرأس كأجرٍ لي.

قال الدفتردار: يا رجل؛ هل تعرف الأشخاص الذين اشتروا اللحم؟

فأجاب الجزَّار بأنَّه يعرفهم؛ وعندئذٍ طلب الدفتردار من كاتبه تسجيل أسماء الستين رجلًا، وأمر شيخ قريتهم بإحضارهم إلى مُنُوف حيث قُدِّمت هذه الشكوى.

أمر الدفتردار بوضع الناظر والجزَّار في الحبس حتى صبيحة اليوم التالي إلى أن جاء شيخ القرية(5) ومعه الستون فلَّاحًا، ثم أُحضر السجينان أمام الدفتردارِ الذي قال للشيخ والفلاحين الستين: هل قيمة بقرة هذا الرجل

ستين ريالًا؟ أجابوا: يا سيدنا؛ كانت قيمتها أكبر من ذلك؛ فأرسل الدفتردار طلبًا إلى قاضي منوف، وقال له: إنَّ هذا الرجل مظلومٌ من قِبَل هذا الناظر الذي أخذ بقرته وذبحها، وباع لحمها مقابل ستين ريالًا.. فما هو حكمك؟

أجاب القاضي: إنه طاغيةٌ قاسٍ يضطهد كلَّ مَنْ تحت سلطته، ليس الأمر مجرد أخذ بقرةٍ تساوي مائة وعشرين ريالًا أو أكثر، وبيعها مقابل ستين ريالًا؛ لكن هذا طغيانٌ على المالك. حينئذ قال الدفتردار لبعض جنوده: خذوا الناظر وجرِّدوه من ملابسه وأوثقوه، ففعلوا ذلك. ثم قال للجزَّار: ألا تخاف الله؟ لقد قتلت البقرة ظلمًا؛ فجادل الجزَّار مرةً أخرى بأنه كان يُطيع الناظر؛ فقال له الدفتردار: إذا طلبتُ منك أن تفعل أيَّ شيء فهل ستفعله؟ أجاب الجزَّار: نعم؛ سأفعل ذلك. فقال له الدفتردار: اذبح الناظر.

وعلى الفور قبض عددٌ من الجنود الموجودين على الناظر وألقوه أرضًا، وقطع الجزَّار رقبته بالطريقة الشرعية المُتَّبعة في ذبح الحيوانات التي تؤكل لحومها، ثم قال له الدفتردار: الآن قَطِّعه إلى ستين قطعةً، وقام الجزَّار بذلك، وكلٌّ من كان معنيًّا بالقضية وآخرون كثيرون ينظرون إليه وهو يفعلها، لكن لا أحد منهم يجرؤ على النطق بشيءٍ.

ثم استدعى الستين فلَّاحًا واحدًا تلو الآخر، فكان كلُّ واحدٍ منهم يأخذ قطعةً من لحم الناظر، ويدفع مقابلها ريالين، بحيث جمع منهم مائةً وعشرين ريالًا، ثم طُردهم؛ لكنَّ الجزَّار ظل باقيا في المكان، وسأل الدفتردار القاضي عمَّا يجب أن يكون أجرُ الجزَّار؛ فأجاب بأنه يجب أن يُدفع له مثل ما دفعه الناظر.

وهكذا أمر الدفتردار بإعطاء الجزار رأس الناظر، فغادر حاملًا بين يديه أسوأ عبءٍ، وشاكرًا الله أنَّه لم يُصب بأسوأ من ذلك، ولم يُصدق أنه نجا إلا حين وصل إلى قريته، أمَّا المال الذي دُفع مقابل لحم الناظر فقد أُعطي لصاحب البقرة(4).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك الصيف وقع حدثان فرضا نفسيهما على ذاكرتي، الأول يتعلَّق بمسكني الخاص؛ فنظرًا لأنني أشرتُ عدَّة مراتٍ إلى الإزعاج الذي سبَّبته لي الغَلَّاية عندما كنتُ أقيم في العِلِّيَّة، فقد أُتيحت لي غُرفةٌ في الطابق الأرضي بجوار مخزن النفط، وفي الحقيقة كانت غرفةً رائعةً، وقد قبِلتُها بفرحٍ وأقمتُ بها، واعتنيتُ بترتيب بعض التُّحَفِ الرخيصة في مسكني الجديد. لكن في الليلة الثالثة بعد استقراري بالغرفة؛ استيقظتُ من النوم على ضوضاء غريبةٍ؛ فاستدرت في السرير ورأيتُ في منتصف الأرضية مجموعةً من الفئران الكبيرة جالسة يتراقص فوقهم ضوء القمر المتسلل عَبْر النافذة.

بدا اجتماع الفئران كما لو كان مؤتمرًا رسميًّا، فقد جلسوا على مؤخراتهم وجعلوا يُصدرون أصواتًا وصريرًا غريبًا، وبين الحين والآخر يجمعون أنوفهم معًا، كما لو كانوا يتآمرون في همساتٍ. كان الأمر - بلا شكٍ - ماتعًا للغاية، لكن في رأيي كان نومي أكثر أهميةً، وسرعان ما رَوَّعهم زوجٌ من الأحذية طار ناحيتهم ففرُّوا صارخين.

في الصباح اكتشفتُ أنهم أحدثوا حفرةً عبر مخازن النِّفط، فأحضرتُ أعرابيًّا ساعدني في سدها. وظلَّ الهدوء مستمرًّا طيلة أسبوعٍ، لكنهم عاودوا الكَرَّة وغزوا الغرفة مرةً أخرى، واضطررت إلى سد الحفرة مرةً أخرى بالإسمنت والزجاج المكسور، واعتقدتُ أن ذلك سيُبعدهم عنِّي لا محالة. لكن خاب ظنِّي ثانيةً، فبعد أسبوعٍ أو أسبوعين، داهموا الغرفة مرةً أخرى؛ فلم أجد بُدًّا من العودة إلى مسكنِي القديم فوق المِرْجَل، حيث كنتُ على الأقل خاليًا من هذه الآفات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحادثة الأخرى تخص واقعةً كاد الطَّيْش فيها يؤدي إلى حادثٍ خطيرٍ، وكنت قد كوَّنتُ صداقاتٍ مع مفتِّش خطِّ القطار بين بنها والزقازيق، وكثيرًا ما كنتُ أُرافقه من هذه الأماكن وإليها، ونظرًا لأننا كنا نسافر دائمًا في القاطرة؛ فقد أصبحتُ على معرفةٍ جيدةٍ بالسائق، وكان يسمح لي أحيانًا بالقيادة بنفسي.

في ذلك اليوم ترجل المفتِّش في مكانٍ صغيرٍ يُسمَّى ميت غمر، وأخذ السائق تعليماتٍ بالتوجُّه إلى بنها، ثم اصطحاب المفتش عند عودتنا، وبمجرد أن أخذنا طريقنا، ألححتُ على السائق في أن يسمح لي بقيادة القاطرة، وتحيَّنتُ ذهابه لتفقد بعض الأعطال، وعندها قُدتُّ القطار.

لفترةٍ وجيزةٍ سار الأمر بشكلٍ جيِّدٍ، ثم بعد ذلك تراءى لي أن أزيد السرعة أكثر؛ فضغطتُ على الرافعة قليلًا؛ لكنَّ ذلك لم يمنحني السرعة المرغوبة، ودفعتُ الرافعةَ دفعةً صغيرةً أخرى، وهكذا دواليك حتى أصبحنا نسير بسرعةٍ هائلةٍ، كان سائق القاطرة منهمكًا في إصلاح الأعطال ولم يلحظ زيادة السرعة، لكنَّ القطار تجاوز بعض التحويلات وكاد أن يُلقي بنا خارج القاطرة؛ فتنبَّه السائق لما فعلتُهُ، وتدارك الأمر وتمكَّن من تهدئة الوحش، ثم استدار نحوي وأبدى رأيه مطولًا في شخصيتي، وبلغةٍ عدائيةٍ غير مهذبةٍ.. وهكذا لم يسمح لي بالقيادة مرةً أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلف المصنع، كانت هناك قطعة أرضٍ كبيرةٌ زُرعت كحديقة زهورٍ وخضروات، كانت تربتها شديدة السواد لكنها عالية الخصوبة، وازدهر الورد والياسمين والبنفسج والدِّفْلِى(3)، كما حصلنا على خضرواتٌ وافرةٌ مثل الفول والبصل

والخَسِّ والخيار والبِطَيخ والجَزَر واللَفْت، وكمية كبيرة من الفِجْل، واعتاد السيد ميتشل - أحد الشركاء في المصنع - الاعتناء بهذه الحديقة، وكانت هوايته المُفَضَّلة.

نهر النيل (اسمه يعنى الفيضان)(2) يرتفع بشكلٍ عامٍ في شهر يوليو، وعندما يحدث الفيضانُ؛ يجلب مع المياه المندفعة طينًا أسود كثيفًا شديد الخصوبة، وأحيانًا يُغطِّي الجزء الأكبر من الدِّلْتا، وهذا يُفسِّر جزئيًّا الخصوبة الرائعة للتُّرْبة المصريَّة.

وتُزْرع المحاصيل بشكلٍ عامٍ على النحو الآتي:

في الصيف: القُطْن، والتَّبْغ، وقصب السُّكَّر، والأُرْز.

وفي الشتاء: عندما ينحسر النيل؛ يُزرع البرسيم، والعَدَس، والشَّعِير، والقمح، والذُّرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(59) شلتنهام Cheltenham: بلدة تقع في جنوب غرب إنجلترا.

(58) في فترة الحرب الأهلية الأمريكية (1861 - 1865م) شحَّ القطن في العالم، واتجهت أنظاره صوب شرق المتوسط، وهو ما جعل الخديوي إسماعيل يتجه إلى زيادة مساحات القطن المزروعة، وارتفع سعره ارتفاعًا جنونيًّا، ففي عام 1862م بلغت عائدات التصدير أربعة ملايين جنيه، وبلغت بعد عامين نحو أربعة عشر مليونًا، ولم يتوقع أحد انتهاء الحرب الأمريكية بشكل مفاجئ لتنخفض أسعار القطن مرة أخرى. للمزيد انظر «الإمبراطورية المصرية ففي عهد إسماعيل» لمحمد صبري السربوني، 1/189.

وحسب چون مارلو فإنَّ متوسط صادرات القطن إلى إنجلترا قد بلغ في عهد سعيد نحو 500,000 قنطار، وبلغ سعر الرطل في ليڤربول سبعة بنسات، وارتفعت الصادرات عام 1862 - 1863 إلى نحو 1,200,000 قنطار بمتوسط سعر 22 بنسًا للرطل، وفي الموسم التالي 1863 - 1864 زادت الصادرات فبلغت 1,750,000 بمتوسط 29 بنسًا للقنطار، وفي العام التالي تجاوزت الصادرات 2,000,000 قنطار. انظر: تاريخ النهب الاستعماري لمصر، ص 172.

(57) انتصرت البحرية الإنجليزية بقيادة نيلسون على الأسطول الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت في معركة أبو قير البحرية في الثاني من أغسطس عام 1798م.

(56) يقصد استخراجه من بذرة القطن.

(55) خليج بسكاي (Bay of Biscay): يقع شمال المحيط الأطلسي بين الجزر البريطانية وفرنسا.

(54) منطقةٌ مهمةٌ تقع في أقصى الجنوب من شبه جزيرة إيبيريا وتطلُّ على البحر الأبيض المتوسط.

(53) سُمِّي الجبل باسم الفاتح طارق بن زياد وكان تابعًا لمملكة غرناطة الإسلامية، ثم استولى عليه الإسبان بعد إسقاط دولة المسلمين في الأندلس، وفي سنة 1704 سيطرت إنجلترا عليه، وبموجب معاهدة أوترخت عام 1714 تنازلت إسبانيا عنه لصالح إنجلترا بشكلٍ دائمٍ، على أن إسبانيا حاصرت الجبل بمساعدة الفرنسيين نحو ثلاث سنواتٍ بدايةً من سنة 1779 غير أنهم لم ينجحوا في استرداده، وهو الآن من مناطق الحكم الذاتي.

(52) ما يساوي 2075,1 كم.

(51) ما يساوي 2,457 مترًا.

(50) من النباتات العشبيَّة الربيعية المُعمِّرة المعروفة منذ القِدَم، نقشها المصريُّون القدماء على حوائط معابدهم.

(49) نبات من الفصيلة الزنبقية، ينبت في البلدان الحارة، وإذا أُحرقت ساقه كانت لها ريحٌ طيبةٌ.

(48) طائرٌ من رتبة الدَّجاجيّات في حجم الحَمَام يمتاز بمنقاره ورجليه الحمراوين.

(47) نوعٌ من القرود بلا ذيلٍ يعيش في جبال أطلس في الجزائر والمغرب وجبل طارق.

(46) عام 1863م.

(45) إليوت وربورتون Elliot Warburton (1810 - 1852): رحالةٌ وروائيٌّ إيرلنديٌّ، مؤلف كتاب (الهلال والصليب: الخيال والحقائق في رحلة للشرق The Crescent and the Cross 1845 or Romance and Realities of Eastern Travel 1845.

(44) كانت البحيرة فيما مضى متَّصلة بالنيل من ناحية الجنوب، وقد تقلَّصت مساحتها كثيرًا بمرور الزمن، ولا يزال الصيَّادون يقصدونها، كما يُستخرج الملح من ضفافها.

(43) سيرابيس إله ابتدعه البطالمة في عهد مؤسسهم بطليموس الأول للتوفيق بين المصريين واليونانيين، وكان له معبدٌ كبيرٌ في «أبو قير» شرق الإسكندرية يقصده البطالمة بغرض طلب الشفاء، وقد دُمِّر بعد دخول المسيحية مصر. راجع: الإسكندرية تاريخ ودليل، ص 200 - 201.

(42) يذهب بعض المؤرخين إلى أنَّ الإسكندرية يوم دمَّرها يوليوس قيصر سنة 48 ق.م كان بها نحو أربعة آلاف قصرٍ ومثلهم من الحَمَّامات وأربعمئة مكتبة.

(41) Eliot warburton,Travels in Egypt and the Holy Land.Philadelphia. (1859).

(40) طائرٌ مائيٌّ من فصيلة أبو ملعقة، يمتاز بمنقارٍ وساقٍ طويلين، وقد سُمي بذلك لأن منقاره يشبه المنجل.

(39) يقصد فرع رشيد.

(38) في وقفة عيد الفطر 15 مايو 1858م. راجع تفاصيل الحادث في مذكرات نوبار، ص 269 - 271.

(37) يروي المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن الخديوي سعيد باشا أقام حفلا بالإسكندرية للعائلة العلوية سنة 1858؛ لكن إسماعيل كان مريضًا فاعتذر، وحضر أخوه الأكبر الأمير أحمد رفعت بن إبراهيم باشا، والأمير عبد الحليم بن محمد علي (حليم)، وفي أثناء عودتهم إلى القاهرة، سقطت عربة القطار في النيل فغرق رفعت ونجا عبد الحليم، وصار إسماعيل وليًّا للعهد حسب عرف الأسرة في وراثة العرش. وهناك مَن يذهب إلى القول بأن الحادث كان مدبرًا من قِبل إسماعيل. انظر: عصر إسماعيل، 1/76 لعبد الرحمن الرافعي، وكتابه الآخر الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي، ص 121. وانظر الحادثة بتوسع في: «تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة 1863 إلى سنة 1879م» لإلياس الأيوبي، ص 14.

(36) كان الديوان مكوَّنًا من أريكتين متقابلتين يفصلهما عن باقي الغرفة ستارٌ خشبيٌّ يُستعمل كاستراحةٍ.

(35) غطاءٌ شفَّافٌ للوجه والرأس كان منتشرًا آنذاك، ويتكون من قطعتين من القماش الشفَّاف أو الشبكي.

(34) أكياسٌ ضخمةٌ تُعبَّأ فيها البضائع خاصةً الأقمشة.

(33) منع محمد علي باشا تجارة الرقيق؛ لكن المنع لم يكن فعالا، ثم حظرها سعيد باشا؛ لكن سرعان ما عادت مرة أخرى في عهد الخديو إسماعيل الذي حاربها وأرسل حكمدار السودان موسى باشا سنة 1863 ليتعقب تجار الرقيق ويقضي على تجارتهم، وقد وقع إسماعيل على اتفاقية تجريم الرق عام 1877، كما تم التوقيع فيما بعد على اتفاقية جنيف لتحريم الرق سنة 1926م. انظر: الإمبراطورية المصرية في عهد إسماعيل والتدخل الأنجلوفرنسي (1863 - 1879)، للدكتور محمد صبري السربوني، ترجمة ناجي عطية، ص 45 - 56.

(32) كان أصحاب السفن يسحبونها بواسطة جملٍ أو جملين يسيران في البر نظرًا لركود الماء وعدم انحدار المجرى المائي.

(31) مراكب كبيرةٌ ذات شراعين بها غرفٌ للمسافرين يتراوح طولها بين أربعين إلى خمسين قدمًا.

(30) حجيرةٌ صغيرةٌ كان الريفيون يجعلونها في الطابق الثاني من المنزل ويُطلقون عليها: السَّنْدَرَةُ.

(29) آلةٌ موسيقيةٌ هوائيةٌ حرةُ الريشة تُشبه الأكورديون والهارمونيكا، وتتكون من منفاخ وأزرار أو مفاتيح على الجانبين.

(28) Syria and Egypt under the Last Five Sultans of Turkey, Samuel Tinsley 1876.

(27) أفرد اللورد كرومر الفصل (49) من كتابه للحديث عن إلغاء الكرباج، وتباهى بالدور الإنجليزي في ذلك، لاسيما دور المفوض البريطاني اللورد دوفرين الذي نجح في استصدار قرارٍ من الخديوي توفيق بمنع استخدام الكرباج في عام 1883. انظر: «مصر الحديثة»، 2/479 - 488. وانظر: تاريخ المسألة المصرية، ص 169.

ويرى المسيو تيودور روذستين (Theodore Rothstein) أن الإلغاء ورقيًّا قد أنجز قبل منشور دوفرين، ومن حيث الواقع لم يحدث إلا بعد عدة سنين من هذا المنشور، ولم يكن نتيجة الأمر العالي؛ لكن نتيجة للتطور الاجتماعي للمجتمع المصري، بل يرى أن استعمال الكرباج قد بطل بعض الشيء في عهد الأنظمة السابقة، وما تبقى منه فقد تعمَّد الإنجليز أنفسهم الإبقاء عليه. انظر كتابه «تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني»، ص 435.

(26) هكذا أوردها ويقصد: المسلمين.

(25) نسبة إلى كورسيكا Corsica: وهي جزيرةٌ بجنوب شرق فرنسا في البحر المتوسط.

(24) تل بسطة أو «بوبسطة»، وبالمصرية القديمة «باستيت»، كانت مركزًا دينيًّا مُهمًّا، وإحدى عواصم مصر القديمة، ولا تزال أطلالها موجودةً خارج مدينة الزقازيق.

(23) في عام 1890م، أعلن عالم المصريات إداوراد نافيل عن اكتشاف تل بسطة بالقرب من مدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية بعد تنقيب دام نحو ستة أشهر. انظر ما نشرته مجلة (المقتطف) حول هذه الاكتشافات في العدد الخامس - فبراير 1890، ص 301 - 309.

(22) أسرةٌ من أصلٍ أجنبيٍّ حكمت مصر، قيل إنهم كانوا في الأصل من سلالة بعض الأسرى أو وُلِدوا لمهاجرين استوطنوا مصر، وقد اتخذت هذه الأسرة تانيس (صان الحجر) أو باستيت (تل بسطا) عاصمةً لهم.

(21) شيشنق الخامس: آخر ملوك الأسرة المصرية الثانية والعشرين من المشوش بربر ليبيا الذين حكموا مصر السفلى.

(20) إله السماء والرعد وملك الآلهة في الأساطير الرومانية القديمة.

(19) بُني في حدائق كنسينغتون بأمرٍ من الملكة ڤيكتوريا (1819 - 1901) تخليدًا لروح زوجها الأمير ألبرت.

(18) كان حمل الخناجر من المظاهر المألوفة بين الطبقات المختلفة في ذلك العصر.

(17) قاربٌ عربيٌّ.

(16) شرابٌ مُسْكِرٌ يتم تخميره من البلح، كما يمكن تخميره من العنب أيضًا.

(15) أغنية كان يتغنى بها رواد الحانات في إنجلترا، وتعود إلى أوائل القرن التاسع عشر، وقد أعدها ولحنها «وليام كليفتون»، وانتقلت إلى أمريكا مع المهاجرين بريطانيين.

(14) هو ملك «شنغار» ويُذكر في الإنجيل بأنه كان «جَبَّارَ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ» انظر: سفر التكوين 10: 9، وهو موطن الشاهد من كلام «كوسيل».

(13) إدوارد وليم لين Edward William Lane (1801 - 1876): مستشرقٌ إنجليزيٌّ، اهتم بدراسة التاريخ المصري، وزار مصر لأول مرةٍ سنة 1825م وعاش فيها نحو اثني عشر عامًا، وقد قدم وصفا للحياة في مصر مشفوعًا بعددٍ كبيرٍ من اللوحات.

(12) Edward William Lane, The Modern Egyptians, 1846.

وقد ترجم الكتاب إلى العربية عدلي طاهر نور وطُبع في مصر عدة طبعاتٍ تحت عنوان: «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم».

(11) سليمان باشا السلحدار (ت 1845): مسئولٌ تركيٌّ ترقَّى في المناصب زمن محمد علي، وكان متسلطًا متجبِّرًا، ذكره الجبرتي في تاريخه. انظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار 3/ 622.

(10) وصف الأعمال الهمجية غير المتحضرة والمتجاوزة بـالبَرْبَرِيَّة خطأٌ جسيمٌ في حق البَرْبَر أو الأَمَازِيغ إذا قُصدوا بذلك، ولمصطلح البَرْبَر ظلالٌ أخرى لا يتسع المقام هنا لبسطها.

(9) يختلف وزن الإردب باختلاف النوع، فالذرة مثلًا يكون في نحو مائةٍ وأربعين كيلو جراماتٍ أو يزيدون.

(8) انظر القصة في: المصريون المحدثون، ترجمة عدلي طاهر نور، ص 117.

(7) ما يعادل وزير المالية حاليًا. وأصلها كلمة مركبة تعني صاحب الدفتر أو القابض عليه.

(6) مدينة مصرية تتبع محافظة المنوفية شمال مصر، وتبعد عن القاهرة بنحو ستين كيلومترًا.

(5) منصبٌ دون منصب العُمدة، وكانت تُخوَّل له بعض السلطات للتعامل مع الفلاحين.

(4) انظر القصة في: المصريون المحدثون، ص 118.

(3) نباتٌ مزهرٌ شديد السُّمِّيَّة يستوطن حوض البحر الأبيض المتوسط ويمتد حتى الصين شرقًا.

(2) يُرجع بعضهم أصل الاسم إلى الكلمة اليونانية (نيلوس) Neilos وتعني: الوادي، أو وادي النهر. وقد نقل ياقوت الحموي أن النيل هو تعريب «نيلوس» من الرومية. انظر معجم البلدان، 5/334. وهناك آراء أخرى يضيق المقام هنا لتفصيلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

1865 - 1864

زيارةُ القاهرةِ - فندق النيل - أسواق خان الخليلي - الاحتفالات الدينية - الدُّوسَة - الدراويش في حلقات الذكر - زيارة الأهرامات - العودة إلى الزقازيق - عشاء عيد الميلاد في الزقازيق - لقاء إسماعيل بك يسري وأمين أفندي الشرباصي - زيارة طنطا - المصنع مغلق في الصيف - تفشي الكوليرا - ذهابي إلى الإسكندرية - الوصول إلى الإسكندرية - فندق بي آند أم - زيارة مينا البصل - بيع بذور القطن - وصول الدكتور مصطفى وزوجته - تفشي وباء الكوليرا بالزقازيق - توجهي إلى الزقازيق - الوصول إلى الزقازيق - الكوليرا في المنزل - إصابة والدة الدكتور مصطفى - مزيج الكوليرا ينقذ الأرواح.

أوشكنا على استئناف العمل بالمصنع مرةً أخرى؛ فاقترح صديقان إنجليزيان كانا يعملان مهندسَيْن بمصنعٍ مجاورٍ أن نذهب معًا إلى القاهرة لمدة أسبوعٍ نزور فيه الأهرامات، وبالطبع لم أتردَّد في قبول هذا الاقتراح مسرورًا، وما هي إلا أيامٌ حتى كنا نستقل القطار إلى القاهرة.

هناك نزلنا في (نايل هوتيل) الواقع بالقرب من المُوسْكِي، وكانت به حديقةٌ كبيرةٌ تكثر فيها أشجار نخيل الزينة والتمر، والموسكي هو الشارع الرئيس المؤدِّي إلى الحي العربي وإلى أسواق خان الخليلي المعروفة، وهي الأكثر إثارةً للاهتمام، ومعظم المتاجر فيها يملكها العرب والفُرْس، أمَّا الفندق فيديرُه رجلٌ ألمانيٌّ بالغ اللُّطف والكرم مع الجميع رجالًا ونساءً من جميع الجنسيات، وأعتقد أنَّ هذه كانت المرة الأولى التي رأيتُ فيها تجمُّعًا من أعراقٍ مختلفةٍ مثل هذا.

قضينا الأيام القليلة التالية في زيارة معالم القاهرة.. ولم تكن بالطبع كقاهرة اليوم؛ لكن تلك القاهرة القديمة بدون ترام(81) أو وسائل راحةٍ حديثةٍ؛ بل لم يكن بها جسرٌ لعبور النيل.. هناك زرنا القلعة، وأسواق خان الخليلي ذات السُّمعة العالمية، وركبنا الحمير وتجوَّلنا عبر القاهرة القديمة، ثم إلى تلال المقطم ومقابر الأنبياء(80).

في أسواق خان الخليلي الشهيرة مصنوعاتٌ ذهبيَّةٌ وفضيَّةٌ وعاجيَّةٌ، وتَمَائِم لإبعاد شرِّ الحسد، وهناك الخرز والقلائد من جميع الأنواع والألوان، والسيوف الدمشقيَّة، والدروع القديمة، والأسلحة المختلفة، أمَّا الحِرَاب والرِّماح فمن السودان، وتضمُّ - فضلًا عن ذلك: الأحجار الكريمة، والياقوت، والزمرد، والفيروز... إلخ. وكذلك الروائح، وأشغال التطريز الفاخرة، والأواني المصنَّعة

من النحاس الأحمر والنحاس الأصفر.. إلخ، أمَّا السَّجَّاد فمن بلاد فارس وداغستان.

وتعمل هذه الأسواق العظيمة بشكلٍ دائمٍ؛ لكنها في ظل حكم المماليك كانت تُغلق أحيانًا لمدة أسبوعٍ أو نحو ذلك، حينما كان الأمراء المتنافسون يتقاتلون وينهبون الشوارع المحيطة بالسوق، ولا أعتقد أن طبقة التجار مروا بأوقاتٍ طيبةٍ آنذاك، لا سيما في القاهرة.

إنَّ قلةً من الناس يُدركون المكانة المهمة التي كانت عليها مصر آنذاك بوجود هذه الأقلية من النخبة العسكرية، فلم يكن المماليك في الأصل إلا عبيدًا محاربين، جرى أسرُهم في الحرب أو اشتُرُوا ليكونوا محاربين، ثم دُرِّبوا على السلاح، وكان السواد الأعظم من هؤلاء المماليك من الأتراك، وقد وُجدوا في السلطة في القرن الثالث عشر، وظلوا يقاتلون طويلًا في فترة وجود نابليون.

ولإعطاء فكرةٍ عن أهمية سلطان مصر في حوالي عام 1284م؛ سأقتبس من كتاب لين بول: «تاريخ مصر في العصور الوسطى» عن السلطان قلاوون، يقول:

«لقد حافظ على علاقاتٍ وديةٍ مع إمبراطور القسطنطينية، وملوك فرنسا وقشتالة وصقلية، وجمهورية جنوا، ورودولف إمبراطور هابسبورغ، وأبرم مع جِنْوا معاهدةً تجاريةً، بينما أقام ألفونسو ملك قشتالة وچيمس الصقليِّ تحالفًا دفاعيًّا فعليًّا مع السلطان المسلم (العثماني) ضد كل مَن يُهددونه، وأرسل إليه ملك اليمن هدايا باهظة الثمن، حتى إنَّ حاكم سيلان أرسل سفارةً برسالةٍ لم يتمكَّن أحدٌ في القاهرة من قراءتها، وبرسالةٍ شفهيَّةٍ أكثر وضوحًا يدعو فيها إلى التجارة مع بلده الغني ويُقدِّم له عشرين سفينةً. كان قلاوون رجل دولةٍ بعيد النظر، وبذل قصارى جهده لجذب التجار إلى مصر، وكانت إجازات المرور التي يُصدِرُها تضمن الحماية في جميع أنحاء مملكته للتُّجَّار الأجانب، وكانت سارية المفعول حتى تصل الهند والصين»(79).

إنَّ أغرب ما في هذه الفترة بالنسبة إليَّ؛ هو الحب الشديد الذي كان يُكنُّه عددٌ من السلاطين والأمراء الكبار للفنون، والتي شجَّعوها بشكلٍ اعتياديٍّ، وأعتقدُ أن بناء أرقى المساجد قد تمَّ في ذلك الوقت، وكانت المشغولات المعدنية والأثاثات بديعةً بحقٍّ.

كم كانت القاهرة مكانًا رائعًا آنذاك! وكم كانت مليئةً بالسِّحر! حتى إنه لم يُصبني التعب قط من النظر إلى الحشود المتلألئة من العرب في أرديتهم ذات الألوان المختلفة: الكَرَزِيُّ والأزرق الباهت، أو الملابس الأرجوانية التي

يرتديها خدم المنازل، وكذا (الجلابية) الزرقاء الداكنة للفلاحين، ولون الطربوش القُرْمزيِّ.

كان من حُسن حظِّنا أن نرى الاحتفال الديني العظيم الذي يُسمَّى الدُّوسَة(78) حيث وُجد تجمعٌ هائلٌ للعرب الذين يتدافعون ويُدفعون، يشترون الحلوى والكعك والمُكسَّرات من الباعة المتجوِّلين، وكان السَّقَّاءون أيضًا يبيعون الكثير من الماء، لكنَّنا تمكَّنا من العثور على موقعٍ بالقرب من متجر للعطور العربيةِ، حيث حصلنا على إطلالةٍ جيدةٍ لهذا المنظر الرائع.

بشَّر العُرْبان بالموكب بقرع الطُّبول وترديد الدعاء ورفع الرايات الخضراء، ثم ظهر شيخ الإسلام(77) على جوادٍ رماديٍّ رائعٍ يتبعه عددٌ من الدراويش ذوي المنظر الفظِّ بشعرهم الطويل المتدفِّق، وألقى عددٌ من الأعراب أنفسهم أمام الحصان على الأرض وتراصّوا على مقربةٍ من بعضهم، ومرَّ الحصان الذي يقوده سائسٌ من كل جانبٍ فوق أجسادهم، وكانت الحشود تصرخ طوال الوقت: «الله.. الله!»، وما إن مَرَّ الحصان فوقهم، حتى تقافز العرب، واتبَّعوا الموكب دون أن يُصابوا بأذىً على ما يبدو.

كان الاندفاع الذي أعقب ذلك عظيمًا، لدرجة أننا انجرفنا معه بسهولةٍ لمسافةٍ رغمًا عنَّا، ثم تمكَّنَّا بصعوبةٍ بالغةٍ من تخليص أجسادنا المسكينة التي انضغطت وارتفعت حرارتها بسبب الحشد، وقد ألغت السلطات هذا الطقس لعدة سنوات.

ذهبنا أيضًا لرؤية الدراويش في تمايلهم، كانوا متحلِّقين حول شيخهم يُردِّدون آياتٍ من القرآن، ويرتَدُون ملابس بيضاء طويلةً مرسلةً وطواقيَ مدببةً من الشَّعْر، وسرعان ما بدأوا بالوقوف تباعًا على أقدامهم، والإمساك بأذرع بعضهم بشكلٍ مستقيمٍ وشرعوا في الدوران على وقْع موسيقى رتيبةٍ حزينةٍ تعزفها الآلاتُ الوَتَرِيَّة، مصحوبة بطَبْلَةٍ تُقرع طوال الوقت، ثم ازدادت وتيرة دورانهم حتى صار له أزيزٌ إلى حد ما، وفي النهاية أخذوا يتساقطون على الأرض، واحدًا تلو الآخر، بينما كانت تخرج من أفواههم رغوةٌ كأنما أصابتهم نَوْبَةٌ.

لم يكن مشهدًا ذا طابعٍ ثقافيٍّ، وكنَّا سعداء بالابتعاد عنه، ونظرًا لكونها أحداثًا دينيَّةً، فربما الأفضل هنا تقديم مقتطفٍ من كتاب سيمون هنري ليدر المعروف بـ(أسرار مصر المحجوبة):

«أول ناموسٍ في الشرق هو الصلاة إلى الله، وسواءٌ أكانت القِبْلة إلى القدس أم مكة أو أي مكانٍ؛ فإنَّ حرمة العبادة تُحيط بالمُريد وتحمي الحاج، وكل صلاةٍ مقدسةٌ في نظر الشرقيِّ أيًا كانت عقيدتها أو شكلها، ولا يُعقل

بالنسبة إليه أن يُظهر أي إنسانٍ الازدراء من مظهر أي رجلٍ آخر منخرطٍ في الصلاة أيًا كانت.

يأتي الإنجليزيُّ إلى هذه الحياة، وهو الذي غالبًا ما يفتقر إلى أدنى درجات التعاطف مع صلوات أي شعبٍ، أو مع الإيمان بأية عقيدةٍ؛ لذلك فإنَّ حُكمنا في الشرق قد اعتمد بشكلٍ دائمٍ على أسنَّة الرماح وسيبقى للأبد معتمدًا عليها.

لم نتجاوز قط مرحلة الغزو، ولم نستوعب قط أيَّ شعبٍ ولم نستَمِلْه إلينا، وفيما يبدو فإنَّ الصفات التي تجعل الأنجلوساكسوني ناجحًا في الغزو هي الصرامة والاعتزاز الدائم بالثقة بالنفس؛ وهي صفاتٌ من الممكن أن تُنفِّره ولا تؤهله للمهمة الدقيقة والحسَّاسة، المُتمثِّلة في استيعاب الأجناس الخاضعة له وكسب ثقتهم وعاطفتهم.

ومن الغريب - على سبيل المثال - كيفية تحدُّث بريطانيٍّ حسن النية عن كنيسةٍ أجنبيةٍ أو معبدٍ، كما لو أنها تظهر لعقله بالصورة نفسها التي تبدو عليها مدينة لندن كغنيمة في عين الطراد الألماني بلوخر.

نحن لا نفتقد التعاطف فحسب؛ بل نغرس انعزالية أذهاننا بشكلٍ يجعل من المستحيل علينا تقريبًا اكتساب أي معرفةٍ حقيقيَّةٍ بالناس الذين نحكمهم، والاحتقار المتضافر مع تصوُّرٍ ضيقٍ مسبقٍ لابد أن يُولِّد الجهل؛ لأن ازدراء شعب الشَّرق الحسَّاس والفخور؛ يغلق كلَّ السُّبل أمام أي شيءٍ يقترب من فهم طرق تفكيرهم وطريقة حياتهم.

لقد قال اللورد كرومر(76): «لا شيء مألوفٌ في هذه الأراضي الغريبة»؛ وهذا صحيح؛ فالحقيقة المجرَّدة أن كل ما يفعله أو يُفكِّر فيه الشرقيُّ يكاد يكون مناقضًا تمامًا لأفعال شعوب الغرب وأفكارها؛ هي وحدها التي تُفْسِّر ذلك، وأُعطي بعض الأمثلة على ذلك:

- في الغرب نرتدي أفضل ملابسنا عندما نذهب إلى الكنيسة، بينما لا يحتاج الذهاب إلى المسجد لأي شيءٍ سوى الملابس البسيطة؛ وفي صلوات الأعياد العظيمة يضع عرب الصحراء كل أرديتهم الرائعة جانبًا، ولا يرتدون سوى ملابس بسيطة بيضاء غير مزخرفةٍ.

- الالتزام بالمواعيد عندنا يُدرس على أنه فضيلةٌ؛ ولهذا الغرض يكون طموحنا المبكر هو امتلاك ساعة؛ بينما أصدقائي العرب يضحكون من اجتهادي الدائم في الحفاظ على المواعيد، حتى وإن كانت غير مهمَّةٍ. وقال لي أحدهم بطريقته الفاتنة: سيدي؛ إنك تحملُ في جيبك سلطانًا صغيرًا يتحكَّمُ بك»(75)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم جاء ذلك اليوم العظيم عندما نظرتُ لأوَّل مرةٍ إلى روائع العمل البشريِّ تلك.. إنها أهرامات الجيزة؛ فيا له من يومٍ، ويا له من عناءٍ، فلم تكن رحلةً قصيرةً في سيارةٍ على طول طريقٍ مُمَهدٍ جيدًا كما هو الحال الآن مع وسائل الراحة التي تنتهي بفندقٍ فخمٍ؛ لكنَّها كانت رحلة يومٍ طويلٍ، تنطوي على قدرٍ كبيرٍ من الإرهاق الجسدي، ويجب أنْ نتذكَّر أنني أتحدَّثُ عن عام 1864.

في البداية، كان علينا أن نوفِّر مسبقًا قاربًا لنقلنا إلى الضفة المقابلة لنهر النيل، ونبعث دليلًا ليتأكد من وجود عددٍ كافٍ من الحمير التي ستحملنا جميعًا.

انطلقنا في الساعة الرابعة صباحًا حيث ركبنا إلى ضفة النهر، لكنَّا تأخرنا بعض الوقت بعدما وجدنا صعوبةً كبيرةً في شحن الحمير على متن القارب، لكن في النهاية أُرخي الشراع المُثَلَّث الضخم وحُملنا بسرعةٍ عبر النهر، حتى وصلنا إلى مكانٍ مناسبٍ للهبوط على الجانب الآخر من النيل، وبعد تأخيرٍ بسيطٍ آخر بسبب إنزال الحمير من على متن القارب؛ استأنفنا رحلتنا على البَرِّ.

لم يكن هناك طريقٌ مُعبَّدٌ إلى الأهرامات، بل مجرد مِدَقٍّ ضيقٍ فحسب، وعلى طول هذا المِدَقِّ كانت حميرنا تتحرك ببطءٍ شديدٍ، لكنها كانت تُسرع السير عندما يهمزها الصبيُّ العربيُّ الذي يركض خلفنا بعصا طويلةٍ يحملها، وعندما يُطلق الصبي صيحةً مُعينةً فإنَّ الحمير تركض بسرعةٍ، وللأسف فقد سقط كلٌّ منَّا من فوق حماره مرتين أو ثلاثًا.

وصلنا إلى الأهرامات أخيرًا، والحقيقة أنَّ الرهبة قد اعترتني عند رؤيتها؛ كانت مذهلةً يكتنفها الغموض، وأدركتُ حينها أنه لا يوجد أيُّ تفسيرٍ يمكن أن يجعل الناس يفهمون إعجازها العجيب، فارتفاع الهرم الأكبر (453) قدمًا(74)، وحجمه (2600000) ياردةٍ(73)، ويُغطِّي مساحةً تزيد على أحد عشر فدانًا إنجليزيًّا(72).

وقفتُ مشدوهًا أنا وأصدقائي، وظللنا نُحدِّق لفترةٍ طويلةٍ دون أن نتحدَّث بكلمةٍ واحدةٍ، ثم بترتيبٍ مع الشيخ الدليل شرعنا في تسلُّق الهرم، أو بالأحرى كنا نُسحب فوق كتل الحجارة الهائلة؛ كلٌّ واحدٍ منا يساعده أعرابيان، وكان الاثنان اللذان معي رجلين رائعين، يتمتعان بقوةٍ عضليةٍ هائلةٍ، ولعل اسميهما على ما أذكر: عثمان ومحمد.

أمسك كلٌّ منهما بأحد ذراعيَّ، وجذباني نحو الأعلى طبقةً بعد الأخرى حتى انقطعت أنفاسي تمامًا، وعندها اضطُررت إلى الصراخ طلبًا للتوقف، وأخذنا استراحةً قصيرةً، ثم استأنفنا الصعود مرةً أخرى، حتى وصلنا إلى القمة حيث وقفنا جميعًا نشرب الماء في هذا الهواء المنعش الجميل، ونحدِّقُ بإعجابٍ شديدٍ في المشهد من حولنا.

نَظَرْنا من أعلى إلى سفح الهرم فبدت الحمير والصبيان مثل النمل، وظهر الطريق الذي سلكناه مثل خيطٍ من القطن، وعلى البُعد كان يظهر خط النيل الكاسح، وعلى مسافة أبعد تظهر المدينة التي غادرناها في ذلك الصباح؛ وعلى الجانب الآخر كانت الصحراء شاسعةً ومخيفةً؛ على الأقل بالنسبة إليَّ.

بعد ذلك، وبعد أن شبعنا من النظر، بدأنا في النزول، وكان أسوأ من الصعود لأنني شعرت بالدوار، وأظن أنه لولا مساعديَّ العربيان كنتُ سأسقط بالتأكيد.

استكشفنا داخل الهرم أيضًا، وهو ما استلزم كثيرًا من الزحف والحَبْو رغم وجود رجلٍ عربيٍّ في الأمام يَسحَبنا، وفي الخلف ثمة آخر يدفعنا، وفي النهاية وصلنا إلى غرفةٍ بها تابوتٌ حجريٌّ، من المفترض أن يكون تابوت الملك خوفو، وكانت مساحة هذه الغرفة حوالي ثمانية عشر قدمًا في نحو عشرين قدمًا.

كان الجو حارًّا للغاية والهواء خانقًا، وعندما وصلنا مرةً أخرى إلى الهواء الطلق، غمرني العَرَق من الرأس إلى القَدَم، وكان الإجهاد العضلي قد بلغ مني مبلغًا كبيرًا، لدرجة أنهم رأوا من الضروري رفعي فوق حماري، وكان حيوانًا ذكيًّا بلا شكٍ، يعلم تمام العلم أنه عائدٌ إلى المنزل، لذا لم يكن بحاجةٍ إلى أي نوعٍ من الحثِّ على السير.

كانت رحلة العودة ماتعةً، حيث حرارة النهار قد خفَّت إلى حدٍّ كبيرٍ، واقتربنا جدًا من غروب الشمس، وقد استغرقت تلك الرحلة ذهابًا وعودةً ما يزيد قليلًا على أربع عشرة ساعةً، وقد اختلف الأمر الآن، حيث يوجد في الوقت الحاضر جسران عبر النيل، ويمتدُّ الآن خط ترامٍ كهربائيٍّ حتى سفح الأهرامات، يوجد أيضًا فندقٌ رائعٌ يُسمَّى: (مينا هاوس) يقعُ قبالتها مباشرةً.

كدتُ أنسى أبا الهول الذي فحصناه باهتمامٍ؛ لكن لا أعتقدُ أنَّ أحدًا منَّا شعر بالرهبة الشديدة التي من المفترض أن يشعر بها كثيرٌ من الناس عند رؤية هذا العمل الرائع بجسد أسدٍ ورأس إنسانٍ.

ربما، في حالتي، كانت ضخامة الأهرامات هي التي ابتلعت كل خلجات الغموض التي كنت سأشعر بها لو رأيتُ أبا الهول وحده، أو ربما كان التفسير الأفضل هو أنني لم أكن أمتلك الخيال اللازم.

وقد كتب السيد فلندرز بيتري(71)، المرجع العظيم عن مصر القديمة، أنه لا يوجد دليلٌ على عمر أبي الهول؛ لكنه يسبق تحتمس الرابع الذي عاش حوالي عام 1423 ق.م، وعقب خفرع الذي عاش حوالي عام 3900 ق.م، مما يعطي عدة سنواتٍ للاختيار من بينها(70).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي عُدْنا إلى الزقازيق واستأنفتُ عملي في المصنع، لكن شتاء عام 1864 كان هادئًا للغاية، ولم يحدث شيءٌ ذو أهميةٍ خاصةٍ، لكن مع اقتراب العام من نهايته، اختمرت في ذهني فكرة أن يجتمع الإنجليز الذين يعيشون هنا في المنطقة معًا، ويحتفلون بعيد الميلاد بتناول عشاءٍ جيدٍ على الطراز القديم، وقد سارع الجميع في الموافقة على الاقتراح، وتم تحديد الساعة السابعة مساءً بالمطعم اليوناني المعروف لنا جميعًا.

لا أعرف سببَ إصرارِهم على أن أُقدِّم الطعام إلا أن يكون ذلك بسبب كوني أصغرهم سنًا، ومن ثم وثقوا بي لـتأدية تلك المهمة بشكلٍ جيدٍ؛ لكنهم تركوها كلها لي، وقضيتُ كثيرًا من الوقت في ترتيب قائمة الطعام، وكان البساط المفروش الذي جلسنا عليه نحن العشرة هائلًا، وخلفنا يقف أتباعنا من الغلمان العرب الذين أحضرناهم معنا.

ليس معي نسخة من قائمة الطعام الذي أُعدَّ وقتها، لكنِّي أذكر أنه كان ضمن القائمة: نصف خروفٍ مشويٍّ، وديكٌ روميٌّ، وبطٌّ، وسجقٌ وفطائر اللحم المفروم القادمة من إنجلترا، ومجموعةٌ من الحلويات والفاكهة المختلفة، وكل ذلك ابتلعناه بالنبيذ والبيرة والويسكي، ثم شعرنا جميعًا بالامتلاء بعدما تناولنا ما يكفي من الطعام، فأرسلنا غلماننا العشرة إلى غرفةٍ مجاورةٍ ليروا ما يُمكنهم فعله ببقايا الوليمة؛ وقضوا على كل شيءٍ.

ليلتها شربنا بكل ولاءٍ نَخْب الملكة صاحبة الجلالة، وغَنَّينا: «حَفِظَ الله الملكة" (69) على أنغام آلة الكونسرتينا الخاصة بي، وقضينا أمسيةً مرحةً من الأغاني والأناشيد وشرب الخمر، وانفضَّت الحفلة في الساعات الأولى من الصباح، وأعتقد أن بعض أعضاء مجموعتنا كانوا سعداء بوجود غلمانهم معهم ليقودونهم إلى المنزل.

يجب أن أذكر رَجُلين كان من دواعي سروري أن ألتقيهما في ذلك الوقت، أحدهما إسماعيل بك يسري، وهو صديقٌ كبيرٌ للدكتور مصطفى، وقد أصبح فيما بعد باشا، وعضو مجلس إدارة السكك الحديدية المصرية، وأمين أفندي الشرباصي، وهو تاجر أقطانٍ عربيٍّ ثريٍّ، وكان صديقًا كبيرًا لعرابي الشهير والذي كان آنذاك ضابطًا في مركز الشرطة بحيِّ الزَّقازيق، وهو الذي كان باستمرار مع عرابي قبل أزمة عام 1882 مباشرة(68)، لدرجة أنه تمَّ اعتقاله للاشتباه في تآمره على الحكومة ومكث في السجن بعض الوقت، ولكن في النهاية أُطلق سراحُهُ حيث عاد إلى الزقازيق، وأعتقد أنه لا يزال يعيش هناك، وهو الآن باشا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولن أنسى قط زيارتي الأولى لطنطا.. كان ذلك بمناسبة المولد أو المهرجان الكبير الذي أقيم على شرف السيد البدوي(67)؛ الذي كان وليًّا ذائع الصيت، ومن المفترض أنه استقرَّ هناك أثناء عودته من مكة، وبعد وفاته نُسب إليه عددٌ من الخوارق العجيبة.

ذهبنا في هذه الرحلة، كنا أربعة جميعنا من الإنجليز، ويمكن أن أعترف بصدقٍ بأنني اندهشتُ بشدةٍ من الأشياء التي رأيناها؛ ولم أكن قد أمضيتُ وقتًا طويلًا في الشرق لأفهمها جيدًا.. كانت جميع الأماكن المفتوحة حول المدينة مليئةً بالخيام من جميع الأحجام والألوان والأحوال، وكان بالقرب من هذه الخيام مربط خيولٍ وحميرٍ وإبلٍ، وتجمعٌ هائلٌ من الرجال والنساء والأطفال، وكانت هناك الخيام المبهرجة للراقصات، اللاتي كُنَّ على يقينٍ دائمٍ من وجود جمهورٍ مُعجبٍ بهن، ثم كان هناك مَنْ يكسب رزقه عبر سرد القصص الرومانسية أو حكي الحكايات الرائعة.

لم يكن ثمة شك في أنه كان مهرجانًا للمتعة رغم كونه دينيًّا، وأيضًا لأولئك الذين يرغبون في التجارة الواسعة في الخيول والماشية، وفي تلك السنة أيضًا كانت هناك التجارة في العبيد بشكلٍ علنيٍّ تمامًا، لكنَّ هذه التجارة قد جُرِّمت بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ(66)؛ على الأقل من الناحية العلنية، وأعتقد أنَّ جانبًا كبيرًا من هذه التجارة كان يجري بشكلٍ سرِّيٍّ.

لقد كان مشهدًا رائعًا، غير أني في البداية شعرتُ بالدوار، وربما كان مردُّ ذلك إلى الضوضاء والارتباك والحشد دائم التغير، والتنوع الهائل من الأشياء التي يُمكن مشاهدتها.

أتخيَّلُ أنَّ ما أذهلنا جميعًا أكثر من أي شيء آخر هو الحرية المسموح بها لممارسة الجنس، كان الأمر مُروِّعًا حقًّا، ولا أعتقدُ أنه يُمكن التفكير في تجاوزاتٍ أكبر، وكلُّ ذلك بشكلٍ علنيٍّ، كان أحد أصدقائي قد ذهب إلى طنطا من قبل، وأخبرنا عن سبب ذلك، أو بالأحرى السبب الذي قد يحلو لنا أن نقبله أو لا نقبله. وقال إنه لم يتفاجأ كثيرًا بذلك السبب، لأنَّ الوليَّ السيد البدوي كان ذا قوةٍ مؤكَّدة لعلاج العقم لدى النساء، ومن ثم كان عليهن أن يقصدن طنطا حاجَّاتٍ وإلى مسجد السيد البدوي بالتحديد. وأستطيع أنْ أُصدِّق تمامًا مما رأيناه أنَّ عددًا من العلاجات قد تم إجراؤها في هذه الموالد، لذا ليس مستغربًا أنَّ النساء في مصر يحملن صفة كونهن الأكثر فجورًا بين جميع الأمم المُتحضِّرة(65).

أتذكَّر تمامًا في هذا المولد أو المهرجان متعة الاستماع إلى الحكواتي(64)؛ كانت رواياته الرومانسية رائعةً ومليئةً بالأحداث المُدهشة منها قصصٌ عظيمةٌ عن عنترة الشاعر العربي، تتحدَّث عن عدد من المعجزات والنبوءات، وبدت

لي هذه الأخيرة حينها هراءً كبيرًا، وقارنتُها في عقلي بما أتذكّره من القصص الخيالية الإنجليزية؛ لكن عندما يفكر المرء أنَّ هذه الروايات الشاعرية قد سُردت لعدة سنواتٍ وأُدِّيت بنجاحٍ؛ فمن المؤكد أنها تمتلك من المقومات ما تفتن به المصري؛ وهو ما لا يستطيع الإنجليز العاديون إدراكه بشكلٍ عامٍ.

ثم كان هناك المُشعوِذون، وفنانو أداء حِيَل خِفَّة اليد، والذين كانت حيلُهم إمَّا بسيطةً بشكلٍ يبعث على السُّخرية أو سخيفةً، وفي أغلب الأحيان غير محتشِمةٍ.

وكما قلتُ؛ فقد كان هناك في هذا المولد كثيرٌ من الأشياء الكريهة جدًا، ومع ذلك كانت تجربةً جديدةً؛ وهو ما أثار اهتمامي. ولا أعتقد أنه يمكن لأي شخصٍ أن يمتلك معرفةً حقيقيةً عن المصريين إلا إذا رأى مثل هذا التجمُّع؛ إنه حدثٌ شرقيٌّ بشكلٍ مُكثَّفٍ.

وبعد فترةٍ وجيزةٍ من رحلتي لذلك المولد، تمَّ منع كثيرٍ من هذه التجاوزات، وبُذلت الجهود للحفاظ على مظهرٍ أكثر احتشامًا، وأعتقد - إلى حدٍّ كبيرٍ - أن هذا يرجع إلى العدد المتزايد من الأوروبيين الذين يزورون طنطا في هذه المناسبات، وربما سيُصبح المكان معتدلًا يومًا ما مثل إيرلز كورت(63) أو وايت سيتي(62).

في نهاية الموسم، أُغلق المصنع، وكان النجاح الماليُّ للأعمال التجارية كبيرًا للغاية، وعاد الشريكان الإنجليزيان إلى الوطن لقضاء العطلة؛ وبقي الدكتور مصطفى في مصر وأنا معه.

كنَّا قد أرسلنا آخر شحنةٍ من بذور القطن إلى الإسكندرية عن طريق القوارب، وتوقَّعنا بثقةٍ أن نسمع عن وصولها الآمن، ومن ثم بيعها من جانب وكيلنا هناك؛ لكن مرَّ بعض الوقت ولم نسمع شيئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم بلغَنَا نبأٌ عن تفشِّي وباء الكوليرا في القاهرة، ووفيات أخرى كثيرة في الإسكندرية من بينها وفاة وكيلنا، وكان أمرًا مؤسفًا للغاية، واستلزم ذلك أن يذهب أحدنا ليتسلَّم البذور الخاصة بنا ويبيعها.

ونظرًا للاعتراض الشديد لزوجة الدكتور مصطفى على ذهاب زوجها؛ فقد تطوَّعتُ للذهاب غير آبهٍ مطلقًا بالخطر الذي قد أتعرَّض له، لكن فكرة زيارة الإسكندرية كانت ماتعةً بالنسبة إليَّ، وأسعدني جدا الرغبة في بعض التغيير، ولم ينتقص من حماستي توارد الأخبار التي تُفيد تزايد عدد الضحايا بشكلٍ يوميٍّ، وأظنني كنتُ صغيرًا بحيث لم أفكر حينها في أن الموت قد يصيبني.

أخذتُ جميع التعليمات بشأن ما يجب عمله عند الوصول إلى الإسكندرية، وكذلك ما يجب أن أفعله بالمال الذي سأحصلُ عليه من بيع البذور، وأذكر أن مدام مصطفى أعطتني كيسًا صغيرًا من الكافور لأربطه حول رقبتي، وأوصتني بأن أشرب الماء المعدنيَّ أو المغليَّ فحسب، مع خلطه ببضع قطراتٍ من البراندي.

وأخيرًا انطلقتُ في رحلتي، وبالطبع كان القطار شِبه خالٍ، وقال لي ناظر المحطة: إنك مجنونٌ بلا شكٍّ، فكيف تغادر الزقازيق وتذهب إلى الإسكندرية حيث يموت الجميع بسبب الكوليرا القاتلة؟!

عند وصولي أخذتُ عربةً، وأخبرتُ الرجل بأن يذهب بي إلى فندق ((P&O 61)) في الميدان الكبير(60)، وبالتأكيد لم أشعر بالشجاعة في نهاية تلك الرحلة كما كان الحال عندما بدأتُ، حيث بدا الأمر لي كما لو أنني ألتقي في كل زاويةٍ بعربٍ يحملون النُّعوش، وتتبعهم نساءٌ يصرخن بطريقةٍ مُروِّعةٍ؛ وحينها سألتُ السائق: هل هذه هي ساعة معينةٌ للدفن؟ فقال: ليست هناك ساعةٌ خاصةٌ بذلك؛ فالأمر مستمرٌ يوميًّا من طلوع الشمس حتى غروبها، وأثناء إجابته ظهر نعشٌ آخر..

بدأتُ أُدركُ أنَّ زيارتي هذه للإسكندرية كانت خطأ كبيرًا، لكن عندما اغتسلتُ وتناولتُ وجبةً جيدةً شعرتُ بتحسنٍ، وخرجتُ للتنزه في بعض الشوارع الرئيسة؛ لكنني تعبتُ من رؤية الأشخاص المنتحبين الذين أمر بهم؛ فعُدتُّ إلى الفندق حيث أويت إلى الفراش بعد قراءة بعض الصحف الإنجليزية القديمة، ولم أنم كثيرًا في تلك الليلة؛ فقد كانت أفكاري تتجوَّل باستمرارٍ بين النعوش وصراخ النساء، ولذا سعدتُ بطلوع الصباح حتى أنهض من السرير.

بعد فترةٍ وجيزةٍ من الإفطار في اليوم التالي، توجَّهتُ إلى مينا البصل (وتعني ميناء البصل الذي تُفرغ حمولاته هناك)، حيث المكان الذي تُفرغ فيه القوارب حمولتها، وبالقرب من سوق القطن.. ووجدتُّ بعد الاستفسار أنَّ قواربنا كانت لا تزال في العطفة التي تقع على الطرف الآخر من ترعة المحمودية، وليس متوقعًا وصولها قبل عدة أيامٍ.

لم يكن أمامي شيءٌ سوى الانتظار بصبرٍ؛ لذا عدتُّ إلى الفندق، وكتبتُ رسالةً إلى الدكتور مصطفى أشرح له الأوضاع، وأعربتُ عن رغبتي في العودة إلى الزقازيق.

كررتُ زيارة مينا البصل لعدة أيام دون أن أعثر على قواربنا، وفي كل يومٍ كانت هناك زيادةٌ في ضحايا الكوليرا، وبما أنه لم يكن لديَّ أصدقاءٌ في المدينة؛ فقد كان الوقت يمرُّ بطيئًا جدًا حتى جاء شابٌ إنجليزيٌّ التقيتُ به -

وهو يعمل في تصنيف القطن لدى شركةٍ ألمانيةٍ - فقدَّمني إلى بعض أصدقائه الذين كانوا لطفاءَ جدًا.

وأعتقدُ أنه كان المفترض حينها أن أبدأ في الاستمتاع بالرحلة، لولا النبرة شديدة الكآبة للمحادثات بشكلٍ عام، فقد كان الوضع المألوف حينها أن يُقال: «مسكينٌ فلانٌ! قد مات للتوِّ!»، أو: «هل تعلم فلانًا؟... لقد وقع صريع الكوليرا!». لذلك ربما يمكن تصور كيف انتُزِعت البهجة من قلوب الجميع.

بعد أيامٍ قليلةٍ وصلت القوارب؛ لكن حتى وقتها لم أستطع الابتعاد عن الإسكندرية؛ لأن المشترين كان يسيطر عليهم انطباع أنني مُجبرٌ على البيع بأي سعرٍ، بسبب رغبتي في مغادرة المدينة، ومع ذلك أخبرتُ السمسار بأنَّه إذا لم أحصلْ على السعر المُحدَّد من قِبل الإدارة؛ فسوف أبقى في المدينة حتى أتحصَّل عليه، وواضح أنَّ هذا الموقف قد حسم الأمر وتمَّ البيع على النحو المطلوب، وبدأ التسليم الذي استغرق بضعة أيامٍ، وفي النهاية تمت الصفقة بأكملها ودفع المبلغ المتفق عليه.

وبعد أنْ أرسلتُ الأموال في طردٍ باسم الشركة في الزقازيق؛ كتبتُ لهم رسالةً وأرسلتُ معها إيصال الاستلام، وأبلغتُهم بأنني سأعودُ في صباح اليوم التالي بعد أنْ أمضيتُ نحو أسبوعين بعيدًا عنهم.

عند وصولي إلى الفندق بعد ظهر ذلك اليوم، فوجئت بوجود الدكتور مصطفى وحرمه ينتظران عودتي بفارغ الصبر، وعلمتُ منهم أنه بعد مغادرتي بوقتٍ قصيرٍ، تفشَّت الكوليرا في الزقازيق أيضًا، بدأت بأعدادٍ قليلة، ثم سرعان ما أصبحت أكثر ضراوة، وبالطبع لم يقتصر هجومها على العرب فحسب؛ ولكن كان الأوروبيون واليونانيون من بين مَن أصابتهم الجائحة، وأصبحت مدام مصطفى خائفةً وعصبيةً جدًّا، لذلك قرر الطبيبُ القدوم إلى الإسكندرية، ولم يتركوا في المصنع غير عددٍ قليل من العرب فضلًا عن خادمات المنزل، كان ذلك مؤسفًا للغاية؛ لأنني لم أقم بإرسال الأموال بالبريد إلا في ذلك الصباح، وهو ما يعني أنها ستبقى في مكتب بريد الزقازيق حتى يتقدم أحدٌ لتسلّمها، إذْ لم تكن هناك خدمةٌ بريديةٌ حكوميةٌ في ذلك الوقت؛ بل كان حمل الرسائل والطرود وما إلى ذلك تقوم به شركةٍ إيطاليةٍ خاصةٍ.

لم تكن مدام مصطفى ستسمحُ تحت أيِّ اعتبارٍ بعودة الدكتور إلى الزقازيق من أجل المال؛ ولذا بعد مداولاتٍ كثيرةٍ قررتُ العودة؛ لأنَّ مساعد مدير البريد كان هو الأوروبيَّ الوحيد الباقي في الزقازيق، وقد أصابته الكوليرا هو الآخر، وكدتُ أفقد الأمل في إمكانية استرداد أموالنا إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادرتُ في صبيحة اليوم التالي ومعي حقيبة الكافور بعد إعادة تعبئتها، إضافة إلى قارورةٌ من البراندي، وزجاجةٌ كبيرةٌ من مزيج علاج الكوليرا، وعندما بدَّلتُ القطارات في بنها وجدتُّ أنني كنتُ الأوروبي الوحيد الذي يسافر إلى الزقازيق، وعند وصولي قيل لي إنَّ صديقي ناظر المحطة قد تُوفي في اليوم السابق، وهو خبرٌ أصابني بصدمةٍ كبيرةٍ، ومع ذلك لا يمكن مقارنته بالصدمة التي تلقيتها عند وصولي إلى الشارع الرئيس؛ فالطريق الذي كنتُ أراه دائمًا مليئًا بالحياة والحركة الدائبة؛ لا ترى فيه الآن كائنًا واحدًا في أي مكان؛ فالمحلات التجارية والبقالات والمقاهي والمطاعم اليونانية جميعها مغلقة، وعلى طول الطريق تأكل النيران المشتعلة أكوام القمامة.

لم أبتعد كثيرًا قبل أن تستوقفني دوريةٌ من الشرطة التركية، وسألني الضابط المسئول: مَن أنت وما حاجتك في مدينة الموتى؟ قلتُ: إنني جئتُ لتسلُّم بعض الرسائل، وسأعود في اليوم التالي إلى الإسكندرية؛ لكن الضابط قال لي: آمل أن تتمكَّن من العودة، إذا لم تَمُتْ قبل طلوع الصباح.

كادت هذه الكلمات أن تقضي عليَّ، إذْ كنتُ أشعر بالخوف من قبل أن أسمعها، لكنني وصلتُ إلى المصنع دون مزيدٍ من المواجهات غير السارَّة؛ وصُعقت كلٌ من زارا وعمرة خادمتا البيت السوداوان عندما رأيتني، وأسرعتا تحيطان بي وتسألانني ألف سؤالٍ عن سيدهما وسيدتهما؛ فلمَّا قلت لهما إني تركتهما على ما يرام بالإسكندرية؛ أخبراني بعض الأخبار الخطيرة للغاية، واتضح أن والدة الدكتور مصطفى، وهي سيدةٌ عربيةٌ عجوزٌ تعيش في القاهرة؛ وصَلَتْ في اليوم السابق لتُقيم مع ابنها؛ لكنَّه للأسف كان قد غادر إلى الإسكندرية قبل وصولها.

وحتى تصبح الأمور أسوأ ما يمكن، أُصيبت السيدة العجوز بالكوليرا في ذلك الصباح، وكانت في تلك اللحظة مستلقيةً تعاني في إحدى الغرف العلوية، ونظرًا لأنني كنتُ أعرف السيدة العجوز جيدًا، أخذت الأَمَتَيْن السوداوين، وصعدنا معًا لنرى ما يمكن فعله، ووجدتُّ أنها كانت واعيةً تمامًا رغم الألم الرهيب الذي كانت تُعاني منه، وتعرفتْ عليَّ على الفور، وسألتْ عن أخبار ابنها، وعندما بشَّرتُها عنه قالت: «الحمد لله»، وبَدَتْ مرتاحةً للغاية.

ولأنني سمعتُ أن الأمر الأهم في علاج مرضى الكوليرا هو تنشيط الدورة الدموية بشكلٍ جيدٍ؛ عن طريق تدليك المعدة ووضع الزجاجات أو القماش القطني الساخن عليها؛ لذا خلعتُ مِعطَفي وبدأتُ في تدليك معدة السيدة العجوز حتى سال عَرَقي متدفِّقًا، وعندما أُنهكتُ تذكرتُ فجأةً تلك الزجاجة الكبيرة من خليط علاج الكوليرا الموجودة في حقيبتي، فتركتُ إحدى الأَمَتَيْن تأخذ مكاني وركضتُ لأحضرها؛ لكن كانت هناك مشكلةٌ أخرى؛ إذْ لم أكن

أعرف مقدار الجرعة الصحيحة؛ حيث لا توجد إرشاداتٌ مكتوبةً على الزجاجة، لذا سقيتُها نصفها.

ثم طلبتُ من (عمرة) إحضار بعض الخبز العربيِّ ووضعه في الفرن، وبمجرد أن يسخن جيدًا تُحضره إلى الطابق العلوي وتضعه على بطن المريضة، سواء أعجبها ذلك أم لا، صرخت العجوز عندما أصدرتُ هذا الأمر قائلةً إن الخبز الساخن سيحرقها؛ لكنني أخبرتُها أنه إذا لم تفعل ما يُقال لها فستموتُ بالتأكيد، وفي النهاية رضخت للأمر.

ثم أرسلتُ زارا لذبح اثنين من الطيور وصنع حساءٍ بها، وأخبرتُهما بإعطاء المريضة كوبًا مملوءًا من الشوربة بين الحين والآخر، ثم غادرتُ إلى غرفتي الخاصة منهكًا جدًا، وبعد أن تناولت قليلًا من الشاي، كان الأمر التالي الذي يتعين عليَّ عمله هو فتح الرسائل وأخذ الإيصال البريدي؛ ففعلتُ ذلك ثم اصطحبتُ معي البوَّاب إلى مكتب البريد، وبعد أن تسلَّمتُ المال عُدتُ إلى المصنع.

تحسنت حالة والدة الدكتور مصطفى الآن، وأصبحت أقل تألمًا عن ذي قبل، رغم أنَّ الخبز الساخن - الذي كان يتم تغييره بشكلٍ متكررٍ - كان مؤلمًا أيضًا بقدر الكوليرا.

بعد حوالي نصف ساعةٍ من ذلك، ظهر البستانيُّ وهو يبكي بشكلٍ مثيرٍ للشفقة، وأخبرني أن زوجته أُصيبت هي أيضًا بالمرض، ومرةً أخرى بدأتُ أقوم بدور الطبيب، فتركتُ عمرة لتعتني بوالدة الدكتور مصطفى، وأخذتُ زارا وما تبقَّى من خليط علاج الكوليرا، وذهبتُ إلى الأكواخ الطينية التي بُنِيَتْ من أجل للعاملين العرب، ووجدتُّ كوخ البستانيِّ ممتلئًا بالدخان جرَّاء حرق الخشب بداخله، مما جعل من العسير رؤية أي شيءٍ في البداية؛ ولكن بعد قليلٍ رأيتُ الزوجة المسكينة (محبوبة) تئن وتتوجع في الزاوية.

طلبتُ من زارا أن تخلع عن المريضة جلبابها؛ لكن احتاج الأمر إلى قدرٍ كبيرٍ من الشرح للبستانيِّ قبل أن أتمكَّن من المُضي قُدُمًا في العلاج. ولم يُسمح لنا بالتصرُّف إلا بعد إقناعه بحقيقة أننا فعلنا الشيء نفسه مع والدة الدكتور مصطفى؛ وحتى وقتها بدا تعيسًا لدرجة أنني أمسكتُهُ من ذراعه وأخرجتُهُ من الكوخ.

عالجناها على نحو ما فعلنا مع مريضتنا الأولى؛ وكنتُ أنا وزارا نتناوبُ على التدليك، ثم أعطيتُها النصف الآخر من خليط الكوليرا، وتركتُ زوجها يضع لها الخبز الساخن، وبغضِّ النظر عن الإجراءات القاسية التي فعلناها من أجل علاجهما؛ فإنَّ كلا المريضتين قد عاشتا لسنواتٍ طويلةٍ بعد ذلك.

في اليوم التالي حزمتُ صندوقًا آخر مليئًا بالملابس، فلم أكن أعرف متى سأعودُ إلى الزقازيق ثانيةً، وهذا ما حدث بالفعل؛ فقد مرَّت سنواتٌ طويلةٌ قبل أن أعود إليها.

كان الدكتور والسيدة حرمه سعداء برؤيتي وقد عُدْتُ بأمانٍ، وامتنَّ الطبيب كثيرًا لما فعلتُهُ في مساعدة والدته، وكتب لها على الفور طَالبًا منها أن تلحق بهم في الإسكندرية؛ لكنها فضَّلت البقاء حيث هي.

لم يحدث انحسارٌ في شدة الكوليرا - أو الهواء الأصفر كما يسمونه - وبمرور الأيام ارتفع عدد الوفيات بشكل مُريع، إذْ كان المرض مُعديًا ووبائيًّا؛ ومن الحقائق الغريبة أنه يهاجم البالغين بشكلٍ عامٍ، كما يستهدف الرجال أكثر من النساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(81) كانت بداية تشغيل الترام في القاهرة يوم 12 أغسطس 1896م.

(80) ربما يقصد المشهد الفاطميَّ الذي يُعرف بمشهد إخوة نبيِّ الله يوسف بن يعقوب بالأباجية أسفل المقطم، حيث ذهب البعض إلى أنهم أنبياء.

(79) انظر الكتاب، ترجمة: أحمد سالم، مراجعة وتقديم د. أيمن فؤاد سيد، ص 524.

(78) الدُّوسة هي أن ينبطح المريدون أو أتباع الطريقة على وجوههم فى صف طويل، ثم يدوسهم شيخ الطريقة فوق حصانٍ يقوده اثنان من أتباعه. وقد ألغى الخديوي توفيق هذا التقليد الصوفي ونُشر القرار في العدد 1038 من جريدة الوقائع المصرية الرسمية في 15 فبراير عام 1881م. انظر: الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة، د سمير عمر، ص 200. وقد اهتم المستشرقون والرحَّالة بهذا الطقس نظرًا لغرابته. انظر على سبيل المثال: المصريون المحدثون، ص 380، وص 369. ومصر وكيف غُدر بها، ص 56 وما بعدها. وذكريات أميرة مصرية، ص 63، وص 312. وانظر تفاصيل أخرى في: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية لأحمد أمين، ص 363.

(77) كثيرًا ما يخلط المؤلف في توظيف هذا المصطلح، ولعله هنا لا يعني ذلك المنصب الديني الرفيع في الدولة العثمانية، أو شيخ الأزهر أو ما يعادله في ذلك الوقت؛ بل يقصد الرجل المُوكَّل بركوب الحصان أثناء الاحتفال.

(76) السير إيفلين بارنج Evelyn Baring (1841 - 1917): المعتمد البريطاني في مصر منذ عام 1883 حتى 1907، كان عضوا ممثلًا لبريطانيا في صندوق الدَّين منذ عام 1877، وقد اعتزل العمل بمصر عام 1907 فيما قيل إنه بسبب حادثة دنشواي.

(75) Veiled Mysteries of Egypt and the Religion of Islam, p375 - 376.

(74) نحو (139) مترًا.

(73) نحو (22,2173931) مترًا مربعًا.

(72) الفدان الإنجليزي (acre): هو وحدة قياس مساحة الأراضي المستخدمة في بريطانيا والولايات المتحدة وتساوي (4840) ياردة مربعة أو ما يوازي (4047) مترًا مربعًا.

(71) وليام ماثيو فلندرز پتري William Matthew Flinders Petrie (1853 - 1942): عالم مصريات، ورائد منهاج منظم في علم الآثار. نقَّب عن الآثار في عددٍ من المواقع الأثرية المهمة في مصر مثل: أبيدوس والعمارنة. ومن أهم اكتشافاته نصب مرنپتاح.

(70) Flinders Petrie, A history of Egypt from the XIXth to the XXXth dynasties,London, 1918.

(69) يقصد النشيد الوطني البريطاني.

(68) يقصد الثورة العرابية، وسيأتي ذكرها فيما بعد.

(67) يقصد الاحتفال الشهير بمولد السيد أحمد البدوي.

(66) سبقت الإشارة إلى ذلك.

(65) رأيٌّ فيه تجنٍّ كبيرٌ من المؤلف الذي اعتاد إلقاء مثل هذه التهم التي لا أساس لها من الصحة.

(64) راوٍ شعبيٌّ يجيد سرد القصص في جمع من الناس في المنازل وعلى المقاهي وفي المناسبات المختلفة.

(63) إيرلز كورت Earl's Court: حيٌّ بالقرب من منطقة كنزينغتون يُعرف بكثرة الفنادق والمحال والمسافرين والعروض المختلفة للموسيقى والمسرح والغناء.

(62) وايت سيتي White city: منطقة في بريطانيا كانت تستخدم كموقع للمهرجانات البريطانية والفرنسية، وسميت بالمدينة البيضاء بسبب الرخام الأبيض الذي كان يكسو أجنحة المعارض.

(61) يبدو أنه كان نُزُلًا تابعًا لشركة بواخر بحرية تحمل الاسم نفسه، عُرفت قديمًا باسم شركة شبه الجزيرة (الآيبيرية) والشرق للملاحة البخارية (Peninsular and Oriental Steam Navigation Company) وهي شركة نقل ركاب وشحن تأسست أوائل القرن الـ 19، وقد تعاقدت الشركة عام 1840 لتسليم البريد إلى الإسكندرية في مصر.

(60) يُقصد به ميدان المنشية حاليًا، وعُرف بميدان القناصل، وكان يُطلق عليه قبل ذلك: ميدان محمد علي الذي أمر بتصميمه عام 1830م ليكون مركزًا لمدينته الجديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث

1865 - 1871

العودة إلى الإسكندرية - العمل مع شركة (باركر وشركاؤه) - نادي الشباب الإنجليزي - تزايد الكوليرا - القيادة في ضوء القمر - ليالي الإسكندرية عام 1865 - تراجع الكوليرا - استئناف الحياة العادية - الحياة المكتبية في شركة (باركر وشركاؤه) - شركة روباتينو الإيطالية للملاحة البخارية - عطلة إلى إنجلترا - براندون توماس - لقاء سيدي إبراهيم السنوسي - مقابلة الزبير باشا الشهير - الطلاق في مصر - حملة الخنازير البرية - مرور الحجيج - افتتاح قناة السويس - الإمبراطورة أوچيني - مشهد في بورسعيد - ضيوف الإسماعيلية - السيد ديليسبس - حفلة راقصة في الإسماعيلية - سهم قناة السويس - حفلة إلى إمبراطور النمسا - ألكسندر سيزر - دعابات تمثيلية - دوجلاس چيبس من شركة إيسترن تلغراف - جلالة الملك ستانلي - چورچ سيريلي - صيد البط البري - السيد جرينفيلد - الكابتن چورچ هايد - أوبرا عايدة لڤيردي في القاهرة.

بعد فترةٍ وجيزةٍ من عودتي من الزقازيق، غادر الدكتور مصطفى الفندق، وأخذ منزلًا صغيرًا في الحيِّ العربي بالقرب من قصر رأس التين، وأخذتُ غرفةً في منزل طبيب أسنانٍ يُدعى سيريوني، حيث كان يعيش بعض الإنجليز الآخرين.

كانت الحياة في الفندقِ مملةً وكئيبةً، لذلك شعرتُ بسعادةٍ أكبر برفقة الشباب المرح، وبدأتُ أفكِّر في أنني أودُّ البقاء في الإسكندرية. وبدخول هذه الفكرة في رأسي، ذهبتُ إلى شركة (برينجو وشركاؤه)، وقدَّمتُ خطاب التوصية الذي تلقيته سابقًا من شركة (بابياني وشركاؤه)، وبعد استقبالٍ ودِّيٍّ للغاية، شرعتُ في توضيح وضعي الخاص، وألمحتُ إلى أنني على أتم استعدادٍ للبقاء بشكلٍ دائمٍ في الإسكندرية، إذا تمكَّنتُ من العثور على وظيفةٍ تُناسبني.

بعد أيامٍ قليلةٍ تلقَّيتُ منهم خطابًا يطلبون حضوري إلى مكتبهم، وقد فعلتُ ذلك، وقيل لي إنَّ شركة (باركر وشركاؤه) وكلاء (خطوط الملاحة البخارية والتجارية العموميون)، يبتغون شابًّا إنجليزيًّا يتحدَّث العربية للعمل في مكتبهم، ونصحني السيد برينغو بمقابلة السيد باركر في الحال، إذا كنتُ أعتقد أنَّ هذه الوظيفة تناسبني؛ ولكن قبل عمل أيِّ شيءٍ آخر في هذا الشأن؛ قرَّرتُ استشارة الدكتور مصطفى واتباع نصيحته.

استقبلني الدكتور بلطفٍ شديدٍ، وشكر لي على ما أدَّيتُه من واجباتٍ، لاسيما الطريقة التي دأبتُ على التعامل بها مع أهل البلاد، وأخبرني أنه كان يفكر بجديةٍ في التقاعد من الشركة في غضون عامٍ، وقال لي: إذا أمكنك أن تجد وظيفةً تضمن لك مستقبلًا جيدًا؛ فلن أقف في طريق مصلحتك بأيِّ حالٍ من الأحوال، ونصحني أيضًا بالذهاب لرؤية السيد باركر، ومعرفة المهام المطلوبة بالضبط، ثم العودة إليه، ومن ثَمَّ يمكننا اتخاذ قرارٍ في المسألة معًا؛ ففعلت ذلك، وعندها نصحني بقبول العرض المُقدَم، وعلى الفور وافق على قبول استقالتي، وفي اليوم التالي انضممتُ إلى شركة (باركر وشركاؤه)، وكان ذلك في يوليو 1865.

ونظرًا لأنَّ الإنجليز الذين ألتقي بهم كلَّ يومٍ - أثناء وجبات الطعام - كانوا جميعًا صحبةً طيبةً للغاية؛ فقد اتخذتُ الترتيباتِ اللازمة لتأكيد البقاء في منزل سيريوني، حيث تمكَّنَّا من الحفاظ على معنوياتنا مرتفعةً رغم الأوقات الحرجة التي كنا نمر بها، وامتنعنا عن الحديث عن أي شيءٍ يتعلَّق بالكوليرا، واتفقنا على أن يتم تغريم أيَّ شخص يذكر كلمة: (كوليرا) زجاجةَ براندي، وبما أنَّ سعرها في ذلك الوقت كان مرتفعًا جدًا؛ فقد حرصنا جميعًا على عدم التحدث في هذا الموضوع.

عشنا معًا بشكلٍ مريحٍ جدًا، وحسب الاتفاقِ المسبق مع الشركة؛ فقد تعهدتُّ بالحضور إلى مقر إدارة الشركة، حيث وُكِّل إليَّ التعامل مع المستخدمين، وما إلى ذلك؛ إذْ كنتُ أتحدَّثُ العربية بشكلٍ أفضل من الآخرين، وكانوا سعداء بوجودي لإنجاز هذه المهامِّ.

في نهاية الشهر الأول عند فحصنا لتقارير العمل كانت النتائج مُرضيةً للغاية؛ لدرجة أنهم طلبوا مني الاستمرار في العمل رئيسًا للمكتب، وقد فعلتُ ذلك لمدة ستة أشهر أو نحوها، وبانقضاء المدة كنتُ قد اكتفيتُ من هذه الوظيفة، أَحَلْتُ العمل إلى شخصٍ آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يمكن القول إنَّ شوارع الإسكندرية كانت ماتعةً خاصةً بعد حلول الظلام، فلم تكن هناك طرقٌ معبَّدةٌ أو إضاءةٌ بالغاز، وكان عددٌ من الأشخاص السيئيين يتجوَّلون فيها، وكثيرًا ما ارتُكبت عملياتُ سطوٍ وجرائم قتل كل ليلةٍ تقريبًا؛ وكان من الضروري حمل فانوسٍ صينيٍّ صغيرٍ مصنوعٍ من الورق حتى لا يضل المرء طريقه.

في غالب الأمسيات بعد العشاء، كنَّا جميعًا نتمشى إلى مقهى دي فرانس الموجود في الميدان الكبير، وكان هذا المكان ملتقى غالبية الشباب الإنجليز وغيرهم للتجمُّع ولعب البلياردو.

ورغم البلاء الرهيب الذي كان يمزِّق المدينة، تمكّنّا من قضاء وقتٍ ماتعٍ إلى حدٍّ ما من وجهة النظر الشبابية، وأتذكر ذات ليلةٍ بعد أمسيةٍ مرحةٍ أكثر من المعتاد، اقترح بعض المغامرين بيننا أن نستأجر أكبر عددٍ ممكنٍ من عربات الحنطور، ونقودها حول المدينة. ولاقت الفكرة قبولًا وموافقةً، وعثرنا على أربع عرباتٍ، احتشد فيها نحو عشرين منَّا، وجلس السائق العربيُّ في مقعدٍ جانبيٍّ، بينما تولَّى في كلِّ عربةٍ رجلٌ إنجليزيٌّ مِقْوَدَ الخيل.

كانت الشوارع في ذلك الوقت خاليةً تمامًا، إلا من رجال الشرطة الأتراك الذين كانوا يقومون بدورياتٍ في البلدة، وكانوا يصيحون من وقتٍ لآخر: «واحد واحد»؛ وتعني: كل شيءٍ على ما يُرام، وهو أمرٌ لا يتَّفق معه أحدٌ؛ فقد كانت النيران مُوقدةً في أركان الشوارع لتنقية الهواء(128) مانحةً مظهرًا غامضًا إلى حدٍّ ما على الشوارع.

تجولنا في الميدان الكبير، ثم دخلنا شارع المحمودية الذي قادنا نحو الحي العربي، ثم بدأ شخصٌ منا يُنشد: «سَبِّح.. سَبِّح.. سبحان الله!!»، ولا يدرك أننا كنَّا في مدينة الموتى، وأنَّ الناس يموتون من حولنا، وشاركناه جميعًا الإنشاد بأعلى أصواتنا.

في تلك اللحظة أوقفتْ إحدى الدوريات العربات، واضطررنا إلى السير نحن والعربات إلى (الزبطية)(127)، وعند وصولنا إلى هناك قادونا إلى الداخل، ومرةً أخرى بدأ هذا الرجل المجنون في الغناء، ومرةً أخرى انضممنا جميعًا إليه بأعلى أصواتنا.

كان كبير الضباط - وهو تركيٌّ عجوزٌ - نائمًا على مكتبه؛ وأيقظه دخولنا الصاخب، وازدادت دهشته عندما جلس بعضنا على الديوان بجانبه؛ وراح في النوم أو تظاهر بذلك.

في النهاية أوضح رئيس الدورية أننا كنا نُقلق راحة النائمين، وبشكلٍ عامٍ نسيءُ التَّصرُّف، وسألنا التركي العجوز من نكون؛ وعندما أخبرناه بأننا إنجليزٌ، قال: «ما شاء الله! إنجليز، مجانين!».

جهَّزوا قطعةً من الورق، وطُلب منا التوقيع عليها بأسمائنا، حتى يتم إرسالها إلى القنصل في الصباح، وكتبنا جميعًا الأسماء، وبالتأكيد لم تكن أسماءنا الحقيقية؛ لكنها أرضت المسئول العجوز، وسُمح لنا بالمغادرة، ورافقتنا الدورية حتى الميدان الكبير.

في اليوم التالي، أُرسلت قائمة الأسماء إلى القنصلية البريطانية مع طلب بفرض عقوبةٍ علينا، ومن نافلة القول أنَّ القنصل لم يتعرَّف على أيٍ من الأسماء الموجودة على الورقة، ورغم إجراء التحقيقات، فلا يبدو أنَّ أحدًا

عرف أيَّ شيءٍ عنها، وتم إسقاط الأمر، ومع ذلك أتخيَّل أنَّ القنصل كان لديه شكٌّ قويٌ للغاية تجاه بعض الجانحين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام المنزل الذي كنتُ أعيشُ فيه، كان يوجد مقهىً يونانيٌّ، يرتاده حشدٌ متنوعٌ للغاية من الزبائن، وفي معظم الليالي كان القتال ينشب بينهم، وأتذكَّر ذات مرَّةٍ أن الصراخ والضجيج في الشارع كانا هائلين لدرجة أنني قفزتُ من السرير لأستطلع ما يجري، وفتحتُ نافذتي فرأيتُ رجلًا يقف وظهره إلى الحائط بينما يهاجمه ثلاثة يونانيين بالسكاكين، وكان يمسك بكرسيٍّ في يده، واستطاع إبعادهم عنه لفترةٍ من الوقت حتى انكسر الكرسي، ثم أخذ يضربهم بقبضتيه، واستمرَّ في القتال بعنادٍ، وتراجع إلى الوراء حتى أصبح في نطاق ضوء مدخل المقهى، وتعرفتُ عليه وهو أحد أصدقائي ويُدعى: ساندرز، وكان ابن القنصل.

كان ساندرز مُلاكمًا قويًّا للغاية، ضرب أحد اليونانيين وجعله يدور حول نفسه حرفيًّا، ما دفعني إلى الهتاف: برافو، ساندرز برافو! مضيفًا بالعربية: «الدورية قادمةٌ.. الدورية قادمةٌ»، وهو الأمر الذي أخاف مهاجميه على ما يبدو؛ لأنهم استداروا وانطلقوا في شارعٍ جانبيٍّ، مما أفاد ساندرز كثيرًا؛ لأنه أخبرني في اليوم التالي أنه كان قد استنفد قواه تقريبًا.

كان صديقًا جيدًا لي ومستعدًا دائمًا لتقديم الخدمات بوُدٍّ، وأتذكَّر ذات مرةٍ، أنه - وبحسن نيَّةٍ رائعةٍ - أعارني أحد خيوله، وأرسله إلى منزلي بعد ظهر أحد أيام الأحد، حتى أتمكَّن من الذهاب في رحلة إلى (ميزون دي أور) في طريق الرمل، والذي كان في ذلك الوقت الملتقى الأكبر للمجتمع في أيام الجُمَع والآحاد.

كان السائس الذي أحضر الحصان للمنزل مهملًا إلى حدٍّ ما، وترك عنان الفرس قبل أن أركب بشكلٍ صحيحٍ، وهو ما جعل الحصان يحاول أن يطرحني أرضًا، ثم انطلق مباشرةً عبر السوق إلى سوق اللحوم، ونخستني لمرةٍ أو مرتين تقريبًا خطَّافات اللحوم المُعلَّقة أمام المحلات التي تصطفُّ على جانبي الشارع، وبطريقةٍ ما تمكَّنتُ من التمسُّك بقدمي في الرِّكَاب، وفي النهاية نجحتُ في إيقافه بعد الوصول إلى مكانٍ مفتوحٍ بالقرب من البحر.

وصلتُ الكورنيش؛ والحقيقة أن بقية الرحلة لم تكن سارَّةً؛ لأن الحصان كان لعوبًا للغاية، وكنتُ أتألَّم بشدةٍ بسبب جموحه؛ ومع ذلك قابلت ساندرز في ميزون دي أور، وتبادلنا الأدوار؛ فامتطي هو الحصان إلى المنزل، بينما عُدتُّ أنا في عربته.

خلال شهر أغسطس في هذا العام 1865 تلاشت الكوليرا، وعادت الحياة إلى هدوئها المعتاد(126)، وكان الجنرال ستانتون(125) هو القنصل العام البريطاني، والوكيل الدبلوماسي البريطاني في مصر في ذلك الوقت.

ومن 1865 حتى 1868 تنوعت واجباتي في شركة باركر؛ ففي البداية تم إيفادي إلى إدارة القطن بسبب معرفتي بالعربية، ممَّا مكنني من تولي الأمور، وتنفيذ المعاملات اليومية مع التجار العرب، وإعداد حساباتهم وتسويتها.

وسرعان ما اكتشفتُ أنَّ جهلي باللغتين الإيطالية والفرنسية كان عائقًا كبيرًا بالنسبة إليَّ؛ لذلك شرعتُ في تعلُّمهما، وخاصة الإيطالية التي كانت آنذاك اللغة الأوروبية الأولى المستخدمة في الإسكندرية، ومن ثم خصَّصتُ معظم لياليَّ لدراستها.

ولأنَّ لدينا موظفين إيطاليين في المكتب؛ فقد تمكَّنتُ من التحدُّث معهم يوميًّا، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى استطعتُ التحدُّث بها بطلاقةٍ، وأتاحت لي هذه المعرفة أن أتولَّى مسئولية إدارة الشحن المتعلِّق بشركة (روباتينو للسفن البخارية الإيطالية)، التي كانت شركة (باركر وشركاؤه) وكلاءها في مصر، والتي افتتحت للتوِّ خدمةً مباشرةً من البواخر بين جنوا والإسكندرية، لنقل البريد والركاب والبضائع في ليغورن(124) ونابولي وكاتانيا(123) وميسينا(122).

كانت واجباتي فيما يتعلَّقُ بهذا العمل تملأ كل دقيقةٍ من اليوم، فمن وقت وصول الباخرة حتى مغادرتها، كان عليَّ أن أكون حاضرًا لأعتني بالحمولة، وسندات الشحن، وأوراق السفينة، وتخليصها عبر القنصلية الإيطالية والمكتب الصحي، وقبل مغادرة السفينة مباشرة؛ أتسلم البريد من مكتب البريد وأرسله بأمانٍ إلى متنها، وكان هذا العمل ماتعًا للغاية حين يكون الطقس جيدًا؛ ولكن حين يسوء الطقس لا يكون العمل لطيفًا أبدًا، وأثناء الطقس السيء لا يكون أمامي في الميناء سوى بعض فرصٍ ضئيلةٍ للهَرَب منه، فقد كان يتعيَّن عليَّ أن أصعد على متن السفينة بغضِّ النظَر عن مدى هياج البحر.

بشكلٍ عام، كانت البواخر تبقى في المرفأ نحو أسبوعٍ لتقوم بالتفريغ ثم تحميل حمولتها، وبطبيعة الحال أصبحتُ مُقرَّبًا للغاية من جميع القباطنة، وغالبًا ما كنتُ أتناول الغداء أو العشاء على متن السفن.

في الأوقات التي لا تكون فيها ثمة بواخر لشركة روباتينو في الميناء؛ كنتُ أنشغلُ بالعناية بالسفن الأخرى التابعة (للسادة بيرنز وماكيفر) التي مقرها ليفربول، وخطوط ويلسون ومقرها هول(121)، و(شركة بالمر وهال وشركاؤهما) ومقرها نيوكاسل. وعندما توجد ثلاثٌ أو أربعُ بواخر في الميناء

في الوقت نفسه - كما يحدث أحيانًا - كان عملي يتشتت بينهم، لكن ذلك كان يُبقيني منشغلًا تمامًا، ومرَّت عليَّ شهورٌ دون أن أشعر بها تقريبًا.

فضلًا عن المعرفة التي اكتسبتُها في هذا القسم؛ تعلَّمتُ الكثير أيضًا عن التأمين؛ لأننا كنَّا وكلاء لعددٍ من الشركات الإنجليزية الكبيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال عام 1868 عُدتُ إلى إنجلترا لقضاء عطلةٍ لمدة ثلاثة أشهر، وعندما غادرتُ ليڤربول في طريق عودتي إلى مصر في سبتمبر على متن الباخرة (كيدار) التابعة لـ(شركة بواخر كونراد)، بقيادة القبطان موير، جاء صديقي القديم براندون توماس؛ الذي اشتهر وقتها بكونه مؤلف رواية (عمة تشارلي)؛ ليراني ويتمنَّى لي رحلةً مبهجةً.

وأعتقدُ أنني كنتُ سعيدًا بالعودة إلى مصر؛ لأنني كوَّنتُ عددًا من الأصدقاء هناك، وبدأتُ أنظر إلى الإسكندرية على أنَّها موطني الثاني.

في ذلك الوقت تعرَّفتُ إلى سيدي إبراهيم السنوسي(120)، أحد أقارب السنوسي الشهير(119)، وكان عربيًّا ثريًّا جدًا، والمُمثِّل لسلطان المغرب في مصر(118)، وكان إلى حدٍّ ما أحد رجال السياسة مُهمًّا في الديانة الإسلامية. وكانت إقامته في ذلك الوقت في الحي العربي بالقرب من قصر رأس التين، وكثيرًا ما كنتُ أزوره، وبدا أنه يُسعده إجراء محادثاتٍ طويلةٍ بالعربية؛ والمتعلقة بالسياسة بصفةٍ عامةٍ.

والسنوسي رجلٌ ذكيٌ للغاية، تربطه صداقةٌ بشيخ الإسلام(117) ومختلف العلماء، وإذْ تحدَّث معي فبلطفٍ شديدٍ وبدون أيِّ تحفُّظٍ؛ لأنَّ ثقته بي كانت كبيرةً جدًّا، وكان مقتنعًا تمامًا بأن أي شيءٍ يقوله لي لن أُفشيه لأحدٍ أبدًا.

في منزله التقيتُ وفودًا إسلاميةً أو وكلاء من الهند وأفغانستان، ومن جميع أنحاء إفريقيا وآسيا، حيث كان معظمهم يُقيم في منزل السنوسيِّ عند المرور من الإسكندرية. وقد عرَّفني السنوسيُّ على الزبير باشا(116) الشهير، وأتذكر أنه عند تقديمي له أطلق عليَّ لقب: (أخينا)، وأخبره أنه يمكن أن يثق بي تمامًا كثقته بالسنوسيِّ نفسه، ولم ينس هذا التقديم مطلقًا، وبعد بضع سنواتٍ تمكَّنتُ من تقديم خدماتٍ معيَّنةٍ للزبير باشا سأتحدَّثُ عنها لاحقًا.

اكتسبتُ من هؤلاء القوم معرفةً كبيرةً بالأمور المصرية، وعرفتُ آراءهم حول القوانين والأمور الدينية والمدنية، وفي المقابل كنتُ أتحدَّثُ معهم غالبًا عن القوانين الإنجليزية التي بدت مهمةً لهم، وأتذكَّر دهشتي عندما عرفتُ لأوَّل مرةٍ وجهات نظرهم حول الزواج والطلاق، والآن حين أُفكِّر في الأمر، فإنَّ النساء في البلدان الإسلامية لو تحقَّق لهُنَّ بعض العدالة سيكُنَّ مناصراتٍ

لحق المرأة في التصويت؛ لأنهن يلاقين أسوأ ما يمكن رؤيته في شئون الحياة. فعلى سبيل المثال إذا كَرِه الرجل زوجته فيمكنه أن يُطلِّقها بمجرد أن يقول: «أنت طالق»؛ ويُمكنه أن يردَّها ثانيةً إذا رغب في ذلك ودون أي مراسم أخرى(115)، ويمكنه أن يفعل ذلك مرتين، ولكن إذا طلقها الثالثة وأراد استعادتها؛ فيجب عليها أن تتزوج رجلًا آخر، ثم تُطلَّق منه قبل أن تعود إلى الأول مرةً أخرى(114).

والزوج غير مُلزَم بإبداء أي سببٍ للطلاق، يطردها فحسب(113) ويدفع لها حوالي ثُلث المهر الذي أحضرته معها(112)، وتأخذ أيضًا أي أثاثٍ تمتلكه، وفيما يتعلَّق بالأطفال؛ لا يُفرَّق في الأولاد بين ولد الزوجة وولد الأَمَة ما دام الأب يُقرُّ بأنه من صلبه، لذا فإنَّ مصطلح نَغِلٌ(111) أو ابنٌ غير شرعيٍّ لا يكون وصمة عارٍ(110).

ويروي السيد باركر في كتابه «سوريا ومصر» القصة الآتية:

«تشاجر صاحب مَنْجَرٍ تركيٌّ مع زوجته، وأعلن طلاقها البائن، وطردها، وبموجب الشريعة الإسلامية لم تستطع العودة إلى زوجها قبل أن تتزوَّج من شخصٍ آخر ثم طلاقها منه، وكان ابناها البالغان من العمر خمسة عشرة وسبعة عشرة عامًا محزونين جدًا لفقدان والدتهم، وفكروا في خطةٍ لاستعادتها مرةً أخرى، فذهبوا إلى تاجر عبيدٍ وحملوه على صبغ والدتهم باللون الأسود وبيعها لأبيهم على أنها عبدةٌ حبشيَّةٌ، وعندما بدأت الصبغة في التلاشي بدأ أبوهم يشكُّ أن تاجر العبيد قد خدعه؛ لكنه لم يتعرَّف على زوجته إلا بعدما أصبحت بيضاء مرةً أخرى، وهو الأمر الذي أسعد الطفلين، اللذين استطاعا الحفاظ على شرعية الأمر. ويقول الخبر إنَّ الزوج ندم على تلاشي الصبغة، وتمنَّى لو أنَّها بقيت على حالها»(109).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال موسم الصيد، تمكَّنتُ من بعض القنص وصيد السِّمَّان؛ ولكن كانت هناك رحلةٌ واحدةٌ أستمتع بتذَكُّرِها، رحلةٌ خرج فيها عددٌ منا لقتل خنزير بري، وحدث الأمر على النحو الآتي:

جاءت الأخبار إلى الإسكندرية من الفلاحين الذين يعيشون في كفر الدوار، وهي قرية تبعد بضعة أميالٍ عن الخط الرئيس للقاهرة؛ أنَّ الخنازير البريَّة ظهرت في المستنقعات القريبة من القرية، وتسبَّبتْ بقدرٍ كبيرٍ من الضرر للمحاصيل؛ وأنهم يطلبون المساعدة في القضاء عليها.

وظنَّ عددٌ قليلٌ من أصدقائي - ممن كانت لديهم كل غرائز الصيادين وربما دون أيِّ خبرةٍ - أنَّ هذه ستكون فرصةً رائعةً لترتيب رحلة قنصٍ، لذلك شرعوا في ترتيب الأمر، والتقينا في وقتٍ ومكانٍ محدَّدَيْن؛ حيث كنا أحد عشر فردًا،

كل واحدٍ يحمل في عقله نمرودًا حقيقيًّا، وكلّ رجلٍ معه بندقيةٌ مزدوجة الماسورة، ومسدس كولت، وسكين صيدٍ أو خنجر.

بدأنا عند الفجر، وأتخيَّلُ أنَّ مظهرنا الحربيَّ كان كافيًا لتخويف أيِّ حيوانٍ، وكنَّا جميعًا نرتدي أفرولات من المطاط الهندي، والتي كان من المفترض أن تكون قادرة على حمايتنا من البلل؛ فقد كان يتوجَّب علينا أن نستعد للمطاردة عبر أرض المستنقعات في الماء الذي يصل حتى خصورنا.

أحدنا، وهو شابٌّ مالطيٌّ يُدعى (جرانت)، نظرنا إليه على أنه صيادٌ مخضرمٌ؛ فقد سبق أن قتل عددًا من الخنازير البرية بنفسه، لذلك تمَّ تكليفه برئاسة الحملة، كما تمَّ تكليف عددٍ من العرب بالقَرْعِ لإخراج الحيوانات من مَكَامِنها، وشرح لهم جرانت بالتفصيل ما يجب عليهم فعله.

وبعد أن نجح في إفهامهم أرسلهم على مدقٍّ للمشاة إلى الطرف الآخر من المستنقع الذي كان مغطًّىً بالبوص والأغصان المقطوعة، وتكون في بعض الأحيان مرتفعةً وأعلى من الرجال أنفسهم، وكان من المفترض أن يتقدَّموا في طابورٍ ويصيحون بأعلى صوتٍ ممكنٍ، ويضربون البوص وغيره بالعِصيِّ، لتخويف الخنازير ودفعهم نحونا، ومن ثم أخذنا أماكننا، وتموضعنا خمسةً في صفٍّ وثلاثةً في صفٍّ على كلا الجانبين.

من الغريب جدًّا ما يفعله الرجال ويُفكِّرون فيه عندما يكونون في رحلةٍ قصيرةٍ ماتعةٍ، فالمضايقات التي يواجهونها، والمخاطر التي يتعرَّضون لها، بالطبع كانت ستثير اشمئزازهم لو حدثت في المدينة؛ لكن ضع سلاحًا في أيديهم، وأطلقهم خلف بعض الحيوانات، وسوف يتحمَّلون أيَّ شيءٍ بمرحٍ، وهذا ما حدث معنا؛ فقد كانت الحرارة هائلةً، وكان وهج الشمس مروِّعًا، بينما الرائحة الكريهة المنبعثة من المياه الراكدة كانت تقريبًا أكثر مما يمكننا تحمله. كان الأمر مُروِّعًا تمامًا، وظللتُ لأيامٍ بعد الرحلة وكأنني أشمُّ الرائحة، وأتذكَّر أنني في ذلك الوقت كنتُ أشعرُ بالغَثَيَان.

بين الحين والآخر كنَّا نتوقَّف ونقف صامتين، ثم نتحرَّك مرةً أخرى ونحن نسمع أصوات القارعين من بعيد، وكنا جميعًا آنذاك نشعر بالإحباط؛ لأننا لم نر الفريسة، ولكن بين الحين والآخر كنَّا نجدُ آثارًا جديدةً لها، وهذا كان من شأنه أن يُجدِّد آمالنا ويدفعنا للمُضِيِّ قُدُمًا إلى الأمام.

أووف! كم كان الجو ساخنًا، وازدادت سخونته أكثر، ومضت ساعاتٌ من التعقُّب المرهق وبدون نتيجةٍ، ولم يكن من المُستَغْرَب أنَّ آمالنا تراجعت أكثر فأكثر، ثم تعالى عندئذٍ صياحٌ عظيمٌ وصوت أسلحةٍ ناريِّةٍ؛ لأنَّ عددًا من العرب كانوا يحملون أسلحةً ناريةً خاصةً بهم.

بشعورٍ كبيرٍ من الارتياح توقّفنا واستعددنا للعمل، مُحدِّقين فيما حولنا وكل أعصابنا في حالة تأهبٍ، ولم ننتظر طويلًا؛ فبسرعة سمعنا صوت تحطُّم أغصان، وخرج أمامنا مباشرةً خنزيرٌ أسودُ ضخمٌ؛ فأطلقنا جميعًا النار، ما عدا واحدًا منَّا تعطَّلت بندقيته، وحدث أنَّه كان قريبًا من الخنزير، ورغم إصابة ذلك الحيوان، فقد وثب واندفع نحوه مباشرة؛ فأطلق صاحبنا صرخةً محمومةً وسقط في المستنقع، ولحسن حظِّه، قضت دفعةُ رصاصاتٍ أخرى من بنادقنا على الحيوان.

بعد ذلك أوقفنا صديقنا على قدميه مرةً أخرى وأعطيناه جرعةً من البراندي؛ لأنه كان مرتعبًا جدًا، ثم استدعينا القارعين، الذين سرعان ما وضعوا حبلًا حول الخنزير وسحبوه إلى حافة المستنقع، ووُضع على عربةٍ أحضروها من القرية المجاورة، ثم أخذوه إلى محطة السكة الحديد، وكان هناك ما يشبه الموكب يسير خلف العربة، وحماسةٌ كبيرةٌ في المحطة، وكان علينا أن ننتظر ساعةً حتى موعد القطار.

في الإسكندرية تمَّ وضع الغنيمة على عربةٍ أخرى، لكنَّنا لم نرغب قط في أن نغفل عنها لدرجة أننا مشينا جميعًا خلفها، وكان مشهدًا مُسلِّيًا جدًا للمارَّة، وعندما وصلنا إلى منزل جرانت، سمحنا بنقل الخنزير إلى محل الجزار، بينما دخلنا نحن الصيادين العظماء المنزل لترطيب أنفسنا.

يؤسفني أن أقول إنَّ تكملة الرحلة كانت غير سارَّةٍ أبدًا؛ لأن تسعةً من الأعضاء الأحد عشر قد رقدوا عدة أشهرٍ مصابين بالملاريا، وكنتُ أنا وجرانت الشخصين المحظوظين بالنجاة منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال عام 1869 كنَّا مشغولين للغاية، ليس فقط فيما يتعلَّق بخَطِّنا العادي من البواخر، ولكن أيضًا بسبب تعاملنا مع حركة الحَجيج التي كانت تقتصر عمومًا على السفن البخارية غير النظامية، وكانت الغالبية العظمى من الحَجيج متَّجهين إلى المغرب وطرابلس وتونس، عائدين إلى ديارهم عبر الإسكندرية وقادمين من مكة، وتمكَّنا من وضع ما بين أربعمائة وخمسمائة على متن كل سفينةٍ.

كانت الباخرة ترسو أمام محطة السكة الحديد في القبَّاري، وعندما تصل القطارات يتم وضع الحَجيج على الفور في صنادل كبيرةٍ وتُسحب إلى جانب الباخرة. ويكون هناك حاجزٌ في منتصف الطريق على متن الباخرة، وعندما يصل العرب إلى الحاجز كان عليهم دفع أجرة السفر قبل الدخول إلى الباخرة، وحسبما أتذكَّر جيدًا فإنَّ الأجرة كانت حوالي خمسة أو ستة دولاراتٍ،

وكان كل حاجٍّ عندما يدفع نقوده؛ يحصل على بطاقةٍ يتوجَّب عليه الاحتفاظ بها وتسليمها حين يصل إلى وجهته.

وفي الغالب عندما يدفع معظم الركاب الأجرة ويذهبون إلى الجانب الآخر من الحاجز؛ يكون البحارة منتشرين هناك لمنع الاندفاع، ويتبقَّى عددٌ معيَّنٌ من الذكور والإناث، يتظاهرون بأنهم لا يمتلكون في هذا العالم سوى دولارًا أو دولارين فحسب، ويُقسم آخرون أنه لم يتبق معهم قرشٌ واحدٌ، وعندها يصبح مشهدًا لا يُوصف، حيث يرفضون مغادرة السفينة، ويشرعون في الصراخ والوَلْوَلَة.

في المرة الأولى التي رأيتُ فيها ذلك شعرتُ بالأسف الشديد تجاههم؛ لكنني كنتُ وحدي الذي شعر بذلك؛ لأن جماعتنا من المتعاملين معهم كانوا يفهمون تمامًا تلك الأساليب الطريفة الماكرة التي يتبعها الحُجَّاج.

كان عامل التحميل - واسمه حسن - هو الذي يعتني بجميع البواخر لدينا، ومعه اثنان من الزنوج الأقوياء تحت قيادته يعتنيان بالحُجَّاج ويحافظان عليهم؛ ومع ذلك كانت مُهمَّتهم الكبرى تفتيش أولئك الذين رفضوا دفع الأجرة، وكان يتمُّ القبض على هؤلاء واحدًا تلو الآخر، وأخذُهم لأسفل السفينة حيث يجري تجريدهم وتفتيشهم بدقةٍ متناهية، وتكون النتيجة هي العثور على الأموال مخبأةً في أكثر الأماكن إحراجًا، وغالبًا ما تكون أكثر كفاية لدفع أجرة السفر بل تزيد، ولم يكن الرجال وحدهم الذين يُضطَّر الشخص للتعامل معهم بهذه الطريقة، فغالبًا ما كانت الإناث هنَّ أسوأ الجُناة، حيث يُفضِّلن الخضوع للتجريد والتفتيش، بدلًا من الدفع، وفي العادةً كان يتبقَّى القليل ممن لا يملكون شيئًا بالفعل، وعندها يُسمح لهم بالسفر مجانًا؛ ومع ذلك كانت البواخر تتأخر دائمًا عدة ساعاتٍ بسبب هذه الألاعيب.

بحلول هذا الوقت، وبعد أن أتقنتُ الإيطالية جيدًا، بدأتُ في العمل لتعلُّم الفرنسية، ونظرًا لأنِّي تحصَّلتُ على قدرٍ معينٍ منها في المدرسة؛ فلم تمر فترةٌ طويلةٌ قبل أن أتمكَّن من التحدُّث بها بسهولةٍ إلى حدٍّ ما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في 16 نوفمبر عام 1869 تم افتتاح قناة السويس رسميًّا، وقد استغرق هذا العمل العظيم عشر سنواتٍ لإكماله بتكلفةٍ حوالي سبعة عشر مليون جنيهٍ إسترلينيٍّ، وكان من حُسن حظِّي أن أكون حاضرًا الافتتاح، حيث تشرفتُ بدعوتي كواحدٍ من ضيوف صاحب السمو الخديوي(108).

وغادرت الإسكندرية متجهًا إلى هناك في الخامس عشر من ذلك العام، في إحدى بواخر شركة روباتينو، التي أتت من إيطاليا ومعها عددٌ من الضيوف المميَّزين على متنها.

أثناء خروجنا من الميناء، كان (إيجل) يخت الإمبراطورية الفرنسية يستعد للمغادرة، وأتذكَّر أننا أثناء مرورنا إلى جانبه رأينا صاحبة الجلالة الإمبراطورة أوچيني(107)، تقف على الجسر محاطةً بحاشيتها، ويُمكنني أن أقول باطمئنانٍ إنَّ كل العيون كانت مركزةً عليها.

في اليوم التالي: الثلاثاء 16 نوفمبر؛ وصلنا إلى بورسعيد حيث وجدنا المرفأ مزدحمًا بالسفن، خاصة الفرنسية والإيطالية والنمساوية، بينما ترسو خارج المرفأ خمسة سفنٍ حربيةٍ بريطانيةٍ:

- لورد واردن: وترفع علم السير أرثر ميلن.

- رويال أواك.

- الأمير كونسورت.

- كاليدونيا.

- بيليروفون(106).

هذا فضلًا عن قوارب انتشارٍ سريعة، وبارجتين مدرعتين نمساويتين، وبعض السفن الإيطالية.

عندما وصل إيجل في حوالي الساعة الثامنة صباحًا، كان الأسطول محتشدًا وأطلق تحيَّةً كبيرةً بالمدفعية، ورَسَا اليخت الامبراطوري الفرنسي بجانب اليخت الخديوي المحروسة، وعلى الجانب الآخر رَسَا اليخت النمساويُّ الإمبراطوريُّ.

في الساعة الثالثة بعد الظهر، ارتفعت دعوات علماء الدين الإسلامي، وصلوات رجال الدين الأقباط والكاثوليك واليونانيين، وأقيم سرادقٌ على شاطئ البحر لهذا الغرض، وكانت القوات المصرية تصطف أمامه، بينما أُقيمت سرادقات أخرى للخديوي وضيوفه الملكيين، وبما أنها كانت على بعد حوالي ربع ميلٍ من منصة النزول إلى اليابسة؛ فقد تمَّ تشكيل موكبٍ نحو المنصة.

وقاد وليُّ عهد مصر(105) الطريق مع أميرة هولندا، والإمبراطورة أوچيني تستند على ذراع إمبراطور النمسا(104)، والخديوي إسماعيل وولي عهد بروسيا(103) يسيران جنبًا إلى جنبٍ، ودوق روسيا الأكبر ميخائيل(102)، وأمير هولندا(101)، والأرشيدوق ڤيكتور شقيق إمبراطور النمسا(100)، والأمراء: أوغسطس أمير السويد(99)، وأماديوس أمير ساڤوي(98)، ولويس أمير هيسن(97) يتبعهم كوكبة لامعٌة من الضباط الفرنسيين والنمساويين والإيطاليين والمصريين، وبينهم مشى السيد ديليسبس والعقيد ستانتون

القنصل العام البريطاني، وعدد من الشخصيات البارزة الأخرى، وبعد المراسم الدينية، ألقى الأسقف المونسنيور باور، كاهن الاعتراف الخاص بالإمبراطورة أوچيني خطابًا شديد البلاغة(96).

كانت بورسعيد في تلك الليلة - مدينةً وميناءً - مضاءةً ببراعةٍ، وكان القمر الساطع يضيف كثيرًا إلى روعة هذا المشهد، وفي اليوم التالي الأربعاء 17 نوفمبر، في الساعة 8 صباحًا، تم افتتاح قناة السويس رسميًّا، ومرَّ موكبٌ من حوالي سبعين باخرةٍ من مختلف الجنسيات بقيادة اليخت الإمبراطوري إيجل يحمل إمبراطورة فرنسا.

وفيما يلي أسماء السفن التي لم يكن غاطسُ أيٍّ منها أكثر من ثلاثة عشر قدمًا في الماء:

- اليخت الإمبراطوري النمساوي: ويحمل إمبراطور النمسا.
- فرقاطةٌ بروسيَّةٌ: وتحمل ولي العهد.
- اليخت السويديُّ: ويحمل الأمير أوسكار أمير السويد.
- سفينةٌ حربيةٌ روسية: مع الدوق الكبير ميخائيل.
- سفينة الأدميرال الروسي.
- الزورق الحربي الهولندي (سيغا): ويحمل أمير هولندا وأميرتها.
- قارب انتشار إنجليزي: ومعه السفير الإنجليزي في القسطنطينية.
- السفينة السويدية (بيلوز).
- الباخرة الفرنسية (رابيد) التابعة لشركة ميساجريه ماريتم.
- زورق مسلح سريع إنجليزي.
- الباخرة الفرنسية (فولكان) التابعة لشركة ميساجريه ماريتم.
- السفينة الحربية النمساوية (فوربين).
- زورق حربي فرنسي.
- الباخرة الفرنسية (كامبريا).
- اليخت الإنجليزي (ديدو) مع مالكه السيد أشبوري.
- باخرة تلغراف إنجليزية.
- يخت بخاري إنجليزي.

- سفينة سويدية.
- سفينة حربية بريطانية.
- باخرة تابعة لشركة ميساجريه.
- الباخرة (هوك) التابعة لشركة ليويد النمساوية.
- باخرة إنجليزية تحمل إلى السويس طرف كابل التلغراف البريطاني الهندي.
- باخرة تجارية روسية.
- الباخرة (الوشق) التابعة لشركة بواخر ميساجريه.
- الباخرة الإنجليزية (برينسيبي توماسو).
- الباخرة الإنجليزية (برينسيبي أودون).
- الباخرة الإيطالية (برينسيبي أورادس).
- باخرة إيطالية.
- الباخرة النمساوية (سيلا).
- فرقاطة حربية إيطالية.
- الباخرة (شابين) التابعة لشركة ليويد النمساوية.
- باخرةٌ الحكومة المصرية (الفيوم).
- باخرةٌ تابعةٌ للحكومة المصرية؛ وهذه يتبعها عددٌ كثيرٌ آخر(95).

وصل اليخت الإمبراطوري إيجل ويخت الخديوي بعد مرور اثنتي عشرة ساعة إلى الإسماعيلية، وتبعه الآخرون لاحقًا، ومع وصول الضيوف الملكيين، نقلهم الخديوي إلى القصر الجديد الذي بناه بالخصوص لهذه المناسبة.

بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، مرتْ الإمبراطورة أوچيني وإمبراطور النمسا، على ظهور الإبل، برفقة السيد ديليسبس الذي كان على مُهرٍ أبيض، متجاوزين المعسكر العربي باتجاه الصحراء، وعند عودتهم دخلوا على عربة مهورٍ صغيرةٍ، وطافوا بعض الوقت في الشوارع.

لم يُنْس الضيوف الأقل أهمية؛ ففي أجزاء مختلفةٍ من المدينة أُقيمت سرادقاتٌ كبيرةٌ، حيث تنتظر الطاولات المُزيَّنة بشكلٍ جميلٍ أولئك الذين يرغبون في تناول الطعام أو الشراب، واستُورِد كلُّ طعامٍ شهيٍّ من جميع أنحاء العالم، بينما توفَّر النبيذ من جميع الأنواع وأكثرها جودةً لأي ضيفٍ

صادف مروره، أمَّا النوادل والخدم فكانوا يرتدون أكثر الملابس الخديويَّة فخامةً، ويُهرعونَ إلى الخدمة عند أقل طلبٍ من جميع الحاضرين.

لن أنسى أبدًا روعة الحفلة الراقصة في القصر الخديويِّ الجديد في ذلك المساء؛ لأنها كانت واحدةً من أروع المشاهد التي شاهدتُها على الإطلاق لا سيما الموكب الملكيُّ، وهو يمرُّ عبر القاعة الرئيسة للحفلة، في طريقه إلى العشاء، فقد كان في حدِّ ذاته شيئًا يخلد في الذاكرة لفترةٍ طويلةٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي، غادر معظم الضيوف الملكيِّين الإسماعيلية مُتَّجهين إلى السويس؛ لكنَّ عددًا من الضيوف الآخرين توجَّهوا مباشرةً إلى القاهرة بالقطار، حيث مكث بعضهم أسبوعين أو ثلاثة أسابيع(94)، يتجوَّلون ويستمتعون على حساب الخديويِّ، حتى إنَّ الخديوي إسماعيل دفع حساب العربات التي استأجروها. وبذلك انتهت الاحتفالات التي أُقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس، ولابد أن نفقات الخديويِّ كانت هائلةً(93).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقب (الخديوي) منحه السلطان لإسماعيل باشا عام 1867(92)، ومنذ ذلك الحين استخدمه هذا الأخير لقبًا رسميًّا له؛ والكلمةُ مشتقةٌ من الفارسية (خيديف) وتعني: «نائب السلطان العثماني في مصر»، ومن ثم فهو لقبٌ أكثرُ كرامةً من اللقب السابق: (والي مصر).

ربما يكون الأشخاص الذين لم يسبق لهم السفر عبر هذه القناة مهتمين بالتفاصيل التالية لهذا العمل الكبير، فعند مغادرة بورسعيد يعبر المرء بحيرة المنزلة، وهي بحيرةٌ ضحلةٌ من المياه المالحة تشبه بحيرات مدينة البندقية، ثم يتجه لمسافة سبعة وعشرين ميلًا نحو بلدة القنطرة، التي كانت سابقًا محطَّ القوافل الرئيس في الطريق من مصر إلى سوريا.

في الإسماعيلية، يُقابِل المرء بحيرةً أخرى يبلغ طولها خمسة أميالٍ(91)، وهذه هي النقطة المحورية أو منتصف القناة، وفي وقت الافتتاح لم يكن بالإسماعيلية سوى عددٌ قليلٌ من المنازل، ولكن بعد فترةٍ وجيزةٍ ظهرت بلدةٌ صغيرةٌ لطيفةٌ بها فيلاتٌ ومتاجرُ ومَقَاهٍ وفنادقُ؛ وما إلى ذلك من مبانٍ، وشوارع وساحاتٌ رائعةٌ؛ أمَّا الآن فتوجد هناك محطة سكةٍ حديدٍ مركزيةٌ، يمكن للمسافرين من خلالها السفر إلى السويس أو القاهرة أو الإسكندرية.

إلى جوار هذه القناة العظيمة الصالحة للملاحة التي تقصر المسافة بشكلٍ رائعٍ بين أوروبا والشرق الأقصى، توجد ترعة مياهٍ عذبةٍ، تم إنشاؤها لتزويد السكان بالمياه في نقاطٍ مختلفةٍ على هذا الخط، وتمتدُّ هذه الترعة من النيل إلى الإسماعيلية على بحيرة التمساح(90)، ومن الإسماعيلية إلى السويس

على الجانب الغربي من القناة، ومن الإسماعيلية إلى بورسعيد، وهذه الأخيرة ليست ترعةً مثل القسمين الأولين؛ ولكنَّها تتكون من أنبوبٍ حديديٍّ كبيرٍ يتمُّ من خلاله نقل المياه إلى المحطات المتنوعة.

عندما بدأ حفر القناة لأول مرةٍ في عام 1859 كان من الصعب جدًا الحصول على المياه العذبة، حيث كان يتوجَّب نقلها في القوارب من دمياط عبر بحيرة المنزلة، وفي عام 1863 فحسب تمَّ مدُّ الأنبوب الحديديّ بين بورسعيد والإسماعيلية.

والميزة الكبرى للقناة هي تقصير المسافة بين أوروبا والشرق الأقصى، فمن لندن إلى بومباي عن طريق قناة السويس تكون المسافة حوالي (6,300) ميلا، بينما تكون من رأس الرجاء الصالح نحو (11,000) ميل، ومن مرسيليا إلى بومباي عن طريق الرأس تكون المسافة (10,000) ميل، وباستخدام قناة السويس تكون (4,600) ميلٍ، وتمرُّ البواخر عمومًا عبر القناة بمعدل سرعة 5 إلى 6 عقدة.

ويمكن أن أُشير إلى أنه في عام 1875، اشترت الحكومة البريطانية من الخديوي أسهمه في القناة، ودفعت أربعة ملايين جنيه إسترليني مقابل (176,602) سهم، من إجمالي (400,000) سهم، وقد حقَّقت الأسهم استثمارًا جيِّدًا جدًّا.

في 25 نوفمبر 1869، أقامت الجالية النمساوية والألمانية في الإسكندرية حفلة لصاحب الجلالة إمبراطور النمسا، وتمَّ ذلك في حجرات نادي محمد علي، التي كانت في ذلك الوقت في الطابق الأول من مبنىً راقٍ، وكانت بورصة الإسكندرية تشغل الطابق الأرضي منه، وكنتُ حاضرًا في هذه المناسبة واستمتعت بها استمتاعًا جمًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولن أنسى أبدًا دعابةً تمثيليةً أداها أمامي صديقٌ تعرَّفتُ عليه في هذا الوقت، وكان نمساويًّا يُدعى ألكسندر سيزار، وهو ابن رجلٍ إسكندرانيٍّ مشهورٍ، كان قد جمع ثروةً كبيرةً أثناء عمله كموظفٍ تابعٍ لسعيد باشا نائب الملك السابق لمصر، وكان سيزار قد تلقَّى تعليمه في إنجلترا، وكان رياضيًّا وموسيقيًّا ممتازًا، وعندما قرَّرت عائلته مغادرة مصر والعودة إلى بلدتهم الأصلية ترييستي (89)، عشنا معًا أنا وهو في أحد المنازل التي يملكها والده، وكان يحتفظ ببعض الخيول الرائعة، فكنا نتجوَّل أو نتنزه على ظهرها كل يومٍ؛ وفي الأمسيات يأتينا عددٌ قليلٌ من الأصدقاء لتناول القهوة والاستماع إلى بعض الموسيقى.

وذات مساءٍ تأخَّرتُ في العودة، ووجدتُّ بعض الزملاء الذين كانوا سيتناولون العشاء معنا ينتظرون وهم يُدخِّنون، فأسرعتُ إلى غرفتي لتغير ملابسي، وبينما كنتُ أُشعلُ شمعتي، أُغلق الباب فجأة، وفي اللحظة نفسها أمسك شيءٌ ما بساقي؛ فنظرتُ إلى الأسفل برعبٍ، وأتذكَّر - حتى يومنا هذا - الصدمة الفظيعة التي أخذتُها، لقد كان وجهًا مُشوَّهًا رهيبًا يُحدِّق في وجهي، وفي الضوء الخافت المرتعش رأيتُ هذا الوجه المُخيف السمين المُشْعِر يعلو جسمًا صغيرًا مُشوَّهًا، ولم أستطع إدراك ما إذا كان إنسانًا أم لا فقد كان يغمغم بشكلٍ مُروِّعٍ، وكانت ذراعاه الطويلة تتشبَّث بركبتي.

سقطتِ الشمعة من بين أصابعي، وقفزتُ على الفور إلى الباب صارخًا، ولم أستطع فتحه وصرختُ مرةً أخرى، وزحفتْ تلك الأذرع مرةً أخرى حول ركبتي، متشبثةً بها مثل اللصقة، وطوال الوقت كانت الأصوات غير المفهومة تأتي من تلك الشفاه الحقيرة، وفجأةً فُتح الباب، ووقف سيزار هناك ومعه مصباحٌ، بينما وقف الرجال الآخرون حوله وهم يرتجفون من الضحك.

أربكتني الصدمة للغاية، وبدأوا يعتقدون أنَّ المزحة قد تمادت بعض الشيء، واتضح أنَّ هذا الوحش الفظيع تم إحضاره من اليونان لعرضه للناس على أنه شيءٌ من العجائب الغريبة، كان سيزار قد رآه سرًّا بعد ظهر ذلك اليوم، وحثَّ اليوناني الذي كان مسئولًا عنه على إحضاره إلى المنزل، ولطالما كرهتُ هذا النوع من الدُّعابات منذ ذلك الحين، ولا أعتقدُ أن سيزار فعلها ثانية بعد ذلك؛ لأنني لم أسمع أنه فعل، وقد قضيتُ بعض الإجازات المبهجة معه ومع أسرته لاحقًا، في مكانهم الجميل في ساحل استريا(88).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعرَّفتُ على السيد چيبس؛ المدير العام للشركة الشرقية للتلغراف بالإسكندرية، وأصبح هو وزوجته صديقيَّ الحميمين، وقضيتُ كثيرًا من أوقات فراغي في منزلهم، الذي كنت أقابل فيه الشخصية المثيرة للاهتمام وهي (مدام چيبس)، كانت امرأةً خلابةً وطيبة القلب وكريمةً، واعتادت إقامة عددٍ من المناسبات الاجتماعية، وكانت تلك المناسبات دائمًا تحظى بحضورٍ جيِّدٍ، واعتُبرت سمةً من سمات المجتمع السَّكَنَدَريِّ العالميِّ، وكانت فارسةً رائعةً، وكانت تُمثِّل لوحةً جميلةً وهي على ظهر الخيل؛ كما كانت أيضًا واحدةً من أفضل راقصي الفالس (87) في مصر.

في إحدى الليالي من عام 1869 تقريبًا تناولتُ العشاء مع المستكشف (إتش إم ستانلي)(86)، وكنا ضيوفًا على عائلة چيبس، وأتذكَّر أنني استمتعتُ كثيرًا، وقد أدهشتني في ذلك الوقت محادثة ستانلي، والتي كانت أكثر إثارةً للاهتمام، حيث روى عددًا من النوادر عن رحلاته في ذلك الوقت، إذْ كان يُشكِّل لجنةً متنقلةً بوصفه مراسلًا لصحيفة (نيويورك هيرالد)، وكان قد عاد

لتوه من عدن، حيث كان يحاول الحصول على معلومات حول الدكتور ليفينجستون(85)، الذي كان من المفترض أن يكون في طريقه عائدًا إلى الوطن من إفريقيا.

وقد قابلت ستانلي مرةً أخرى في وقتٍ لاحقٍ، وعرفتُ أيضًا عن كثبٍ الجرَّاح (بارك) من القسم الطبيِّ بالجيش، الذي كانَ صديقه ومستشاره الطبيَّ في الرحلة الاستكشافية للعثور على أمين باشا(84) في وسط إفريقيا.

وسوف أتذكَّر دائمًا السيد سيريلي، الملحق في القنصلية الفرنسية، والذي لم يُفوِّت قط أيًّا من الحفلات المسائية، كان عازف بيانو رائعًا يجلس لساعاتٍ على البيانو يعزف الموسيقى الراقصة أو المقطوعات الكلاسيكية والأوبرالية، كما كان رجلًا لطيفًا للغاية، ودائمًا ما كان عليه طلبٌ كبيرٌ من مضيفاتٍ مختلفاتٍ يُقمن الحفلات الترفيهية.

وقبلتُ دعوةً من صديقي سيزار للخروج معه ومع صديقنا المشترك چيبس لقنص البطِّ البريِّ، في بعض الممتلكات المملوكة له على بعد حوالي ثلاثين ميلًا من الإسكندرية إلى الداخل، ولم يكن بوسعنا سوى قطع جزءٍ صغيرٍ من الطريق بالقطار، أمَّا الباقي فكان على ظهور الحمير والبغال، وكانَ هذا الجزء من الرحلة متعبًا للغاية، وكانت قواي قد استُنفِدت تمامًا عندما وصلنا المنزل - إنْ جازت تسميته بهذا الاسم المحترم - إذْ كان مبنيًا من الطوب اللبن بأكثر الطرق بدائية، لكنَّه كان مريحًا إلى حدٍّ ما من الداخل.

وكان يعتنى بهذا المكانِ خادمٌ نمساويٌّ عجوزٌ تابعٌ لـسيزار، ولمَّا كنَّا قد أحضرنا معنا خادمًا عربيًّا؛ فقد تولَّى هذان الشخصان مسئولية السَّلة التي تحوي المؤن كالويسكي والصودا وما إلى ذلك.

وبما أنَّ ذلك النمساويَّ كان طبَّاخًا ممتازًا، فلم يمض كثير من الوقت حتى وجدنا أنفسنا نستمتع بعشاءٍ طيِّبٍ للغاية، ثم مكثنا بالمنزل لقضاء المساء بشكل اجتماعي قدر الإمكان.

وبفضل كئوس الشراب المتنوِّعة وكثير من التدخين، تمكَّنَّا من قضاء الوقت جيدًا حتى قرَّرنا أنَّ الوقت قد حان للذهاب إلى السرير، فقد كانَ يتحتَّم علينا أن نبدأ رحلتنا في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، كانت هناك ثلاثة أَسِرَّة مخيمٍ مريحةٍ، لكن للأسف لا توجد ستائر لمنع البعوض (ناموسية)، وهو ما لم ندركهُ قبل ذلك الوقت، والآن ونحن على حالنا هذا من التعب، نظرنا إلى بعضنا برعبٍ وكنا خائفين من فكرة النوم في الفراش.

كان لدينا إصرارٌ عنيفٌ على عدم النوم، لكنَّا في النهاية أوينا إلى الفراش، ثم أُطفئت الأنوار، ومن أسفٍ فقد حدثت كثيرٌ من الحوارات العمياء لمدة نصف

ساعةٍ، وكانت عبارةً عن مجادلاتٍ صغيرةٍ بيننا نحن الكائنات البشرية الثلاثة وبعض الشياطين المُجنَّحة، فأولًا تسمع صوت يدٍ مفتوحةٍ تسقط ضاربةً بعنفٍ، «قتلتك أيها.. أيها الـ...» ثم صفعة.. وصفعة أخرى وأنين. وإضافة إلى هذا الاقتتال والطنين المجنون للبعوض؛ كان هناك نقيق تلك الضفادع الحقيرة في الخارج. وبعد عذابٍ دام نصف ساعةٍ؛ سمعتُ سيزار يقفز من على سريره، ويذهب إلى الباب وينادي خادمه ويعطيه بعض التعليمات؛ ثم قفز مرةً أخرى إلى السرير وهو يتنفس الصعداء ويقول؛ الآن يا أصدقائي، انتظروا لحظةً فقط.

رغم الإرهاق الشديد كنتُ مستيقظًا تمامًا، أضرب البعوض برفقٍ أو بعنفٍ حسبما تكون الحالة، كانت أعصابي ترتعش بسبب الرغبة البشعة في النوم، ثم حدث شيءٌ مفاجئ أشعل حَلْقي وأنفي وسعلتُ، وعلى الفور جاوبني من سرير چيبس، ثم بدأ سيزار أيضًا يسعل.

«ماذا...؟!»، بدأ چيبس ثم سعل، وقلت: «مَن الذي...؟!» وسعلتُ، وفركتُ عيني التي كانت تحرقني بشدَّةٍ. ولم يقل سيزار شيئًا؛ لكن يُمكنني أن أتخيَّل ما كان سيقوله لو لم يكن يسعل أيضًا.

في اللحظة نفسها قفزنا نحن الثلاثة من أسِرَّتنا واندفعنا نحو البابِ، وفتحناه على مصراعيه على أمل الابتعاد عن هذا الدخان الخانق؛ لكن بدلًا من ذلك، اندفعنا إلى داخل الدخان مباشرةً، لأنَّ سيزار طلب من خادمه أن يُشعل نارًا من أعواد نبات القطن والقصب، معتقدًا أنَّ الدخان سيطرد الضيوف المجنحين. ربما كانت فكرةً ممتازةً حقًا؛ لكن في حالتنا هذه كانت المعاناة من نصيبنا نحن وليس البعوض.. وعلى أية حالٍ، عندما أصبحت غرفتنا قابلةً للحياة بها مرةً أخرى، ذهبنا إلى الفراش ثانيةً، لكنني لم تغفل عيناي إلا قبل انبلاج الصبح بقليلٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت منطقة الصيد التي سنقصدها هي بحيرةً صغيرةً لا تبعُّد كثيرًا عن المنزل، وقد تأكَّد خادم سيزار أنَّ القوارب كانت جاهزةً لاستقبالنا؛ ولكن عندما نُودي علينا للذهاب، كنتُ قد استغرقتُ لتوي في النوم، وأقسمتُ حينها أنه لا شيء على أرض الله سيجعلني أقوم من فراشي؛ لذا ارتدى سيزار وچيبس ثيابهما وذهبا بمفردهما؛ وأخبراني أنهما سيأخذان القارب الكبير ويتركان لي الصغير الذي في أعلى البحيرة.

بعد نحو ثلاث ساعاتٍ استيقظتُ مرَّةً أخرى، وبعد فنجانٍ كبيرٍ من القهوة شعرتُ بتحسنٍ واضحٍ، وسرعان ما ارتديتُ ملابسي وذهبتُ في طريقي. ودون أيَّ صعوبةٍ وجدتُ القارب الصغير راسيًا على حافَّة البحيرة، فركبتُه

ومضيتُ بحذرٍ قدر الإمكان حول البحيرة، مع الاجتهاد في إخفاء نفسي والقارب بين أحراش القصب والغاب المحيطة بالماء.

لم يكن لديَّ أي فكرةٌ عن مكان وجود القارب الكبير الذي يحمل سيزار وچيبس، وافترضتُ أنهما لابدَّ أن يكونا على الجانب الآخر من البحيرة بين الأحراش، وظهر كثيرٌ من البطِّ، وحطّ بعضه على الماء، وفي الحال بينما كنت أشق طريقي رويدًا رويدًا حول حافة البحيرة، رأيت بطة برية رائعة تعوم في الماء برفق بالقرب مني.

في لحظةٍ أمسكتُ بندقيتي وصوَّبتُ بعنايةٍ فائقةٍ وأطلقتُ النار، ثم جدَّفتُ نحو الطائر بأقصى ما أستطيعُ وأمسكتُ به، فظهر أنها قد ماتت؛ اقتربت منها لكنني لم أستطع سحبها من الماء، ويبدو أنها كانت مثبتةً بطريقةٍ ما، وكان هذا للأسف أمرًا طبيعيًّا تمامًا، حيث كانت بطَّةً صناعيةً وضعها سيزار هناك بنفسه لخداع البط الحقيقي.

كان صوت الرصاص قد أثارهما، وظهر سيزار وچيبس في مكان الحادث. وطوال الدقائق القليلة التالية، سمعتهم يصفونني ببعضٍ من الأشياء المهينة، ومنعني إحساسي بالخزي من الانتقام، رغم أنني لم يكن عليَّ لومٌ، حيث لم يكن لديَّ أيُّ معلومةٍ عن الفخِّ الذي نصبوه، وعندما أحسُّوا أنهم قد قالوا ما فيه الكفاية، واستطعتُ أن أرفع رأسي الخجلان منهم، أخبرتهم أنه للتعويض عن خطئي، سأراهنهم على أنني سأصيد بطًّا أكثر من أي منهما، ووافقوا على الرهان وذهبوا للصيد، فلمَّا أصبحتُ وحدي مرةً أخرى، خطر في ذهني فجأةً أنني تهوَّرتُ في الرهان على مهارتي؛ لكن نظرًا لأنَّ ما حدث قد حدث؛ كان عليَّ أن أستفيد منه بأقصى ما يمكن، وتحيَّرتُ بشأن الطريقة الصحيحة للبدء.

ثم سيطرتْ عليَّ فكرةٌ رائعةٌ - وعلى الأرجح أنني كنتُ قد قرأتُ شيئًا ما في طفولتي وتذكَّرتُه دون وعيٍ - لذلك قطعت عددًا من البوص، وثبَّتُّها حول القارب - الذي كان لحسن الحظِّ صغيرًا. ربطتها بإحكامٍ شديدٍ؛ مستخدمًا قطعةً من الخيط، وعندما أنتهيتُ من تثبيتها، توجَّهتُ بهدوءٍ شديدٍ نحو جزءٍ مفتوحٍ من المياه، حيث كنتُ قد لاحظت أن عددًا من البط قد هبط هناك.

لم أبتعد كثيرًا عن الغاب المزروع، بالقدر الكافي فحسب كي يكون البط في مدى الطلقة النارية، وقد نجحتْ حيلتي وفاقتْ توقُّعاتي، واصطدتُّ نحو سبع أو ثماني بطَّات، بينما لم يحصل صديقاي الاثنان إلا على خمسةٍ فحسب، وهو ما جعلني أسخر منهما بلا رحمةٍ من أجل استعادة كرامتي، وأخبرتهم بأنه عليهم في المستقبل أن يفهموا أنَّ العقل له قيمةٌ أكبر بكثيرٍ من مجرد الأمور المادية.

في عام 1871م التقيتُ السيد جرينفيلد من (شركة جرينفيلد وشركاؤه) الإنجليزية التي كانت تقوم ببناء حواجز الأمواج وأرصفة الميناء والأرصفة البحرية في الإسكندرية، والتي بلغت تكلفتها الإجمالية حوالي مليونيْ جنيهٍ إسترلينيٍّ.

ويتكوَّن حاجز الأمواج من حوالي (30000) قطعة من الخرسانة أو الحجر الاصطناعي يزن كل منها 20 طنًا، والقسم الداخليُّ منه مغطىً بـ (55000) طن من أحجار الأنقاض، و(85000) طن من بلوكات المحاجر التي تزن من 2 إلى 6 أطنان لكل منها، بينما يبلغ عرضه أكثر من عشرين قدمًا في القمة، ويرتفع عشرة أقدامٍ فوق مستوى سطح البحر.

ويحتوي الطرف الجنوبي على فنارٍ بارتفاع ثلاثين قدمًا فوق مستوى سطح البحر، ويبعد حوالي ألف ياردةٍ من الشاطئ، وقد تمَّ الانتهاء فعليًّا من العمل بأكمله في 1873م.

أتذكَّر مقابلةً في هذا الوقت مع الكابتن چورچ هايد الذي كان يقود الباخرة بيرا التابعة لشركة P&O، وهو شخصيةً مفضلةً لدى معظم الهنود الإنجليز، وكان من المشاهير المعروفين جيدًا بين رجال السلك البحريِّ، وكان لقبه في الشركة هو: چورچ العظيم، وكان بالفعل رجلًا رائعًا وسيمًا، وغالبًا ما كان يقيم مآدب غداءٍ وعشاءٍ صغيرةً على متن سفينته، ولأنه رجلٌ ذواقةٌ، فقد حرص على أن تكون المآدب جيدةً حقًا، كان يتحدَّث قليلًا من الإيطالية التي كان فخورًا بها للغاية، حيث يبثها للناس كلما سنحت له الفرصة، مضيفًا في نهاية بعض الجمل عالية الصوت هذه من (دانتي).

وفي بعض الأحيان كان يكتب قوائم طعامه بالإيطالية، وأحد الأصناف التي كانت توجد بشكلٍ عامٍ هو لسان العصفور المطهو في ماء الورد، وبالطبع يتوقَّع ضيوفه أن يروا في هذا الصنف بعض لمسات الطهي الرائعة، لكن عندما ظهر الطبق، كان مجرد طبق من الكريمة مع قطع من الكيك الإسفنجي تطفو فوقه.. وعمومًا، كان ما يقدمه من كأس متلألئ من خمر «الموزيل» بمثابة حلمٍ ونعمةٍ في يومٍ صيفيٍّ حارٍّ، وقد مات چورچ منذ بضع سنواتٍ في لوردز(83) أثناء مشاهدة مباراة كريكيت.

كنت على الدوام متحمسًا بشكلٍ كبيرٍ لكل ما يتعلَّق بالموسيقى، لذا عندما أُعلن أن الخديوي إسماعيل باشا قد كلَّف ڤيردي(82) بكتابة أوبرا يكون موضوعها من مصر؛ تطلعنا جميعًا باهتمامٍ كبيرٍ إلى عرضها الأول، الذي أقيم في دار الأوبرا في القاهرة في 24 ديسمبر عام 1871، وكان من المتوقع أن يأتي ڤيردي إلى القاهرة لإخراج هذا العرض الأول لأوبرا عايدة بنفسه، لكن

مع الأسف منعه رعبه وخوفه من البحر من قبول دعوة إسماعيل باشا، وذهبتُ إلى القاهرة لأكون حاضرًا فيما كان حدثًا عظيمًا بالنسبة إليَّ.

كان الجمهور الأكثر ألقًا محتشدًا بـدار الأوبرا؛ وحضر الخديوي ومعه جميع الأمراء، وكانت الملكة حاضرةً، والأميرات المصريات في مقصورات الحريم الملكية، التي غُطيت واجهاتها بمشربياتٍ شبكيةٍ رفيعةٍ يمكن من خلالها رؤية أشكالٍ مشوشةٍ للسيدات بألماسهن وأحجارهن الكريمة المتلألئة أثناء انتقالهن ذهابًا وإيابًا في المقصورة الملكية الكبيرة.

كذا حضر كل القناصل وزوجاتهم، والوزراء وضبَّاط الأركان الخديويون بزيهم اللامع، في حين كان داخل كل مقصورةٍ عددٌ من النساء الجميلات اللواتي يتألَّقن بالجواهر، وكان هذا الأداء الأول لـأوبرا عايدة مثاليًّا، وغادرتُ المسرح في الساعات الأولى من الصباح بعد أمسيةٍ كانت سماويةً بالنسبة إليَّ.

كان طاقم العمل على النحو الآتي:

- الملك: توماس كوستا.. باسو.

- أمنريس: إليونورا غروسي... ميزو سوبرانو.

- عايدة: أنتونيتا بوزوني.. سوبرانو.

- راداميس: بيترو مونجيني... تينور.

- رامفيس: باولو ميديني.. باسو.

- أموناتيو: فرانشيسكا ستيلر.. باريتون.

- المبعوث: ستيتشي بوتاردي... تينور.

- قائد الفرقة الموسيقية: مريسترو بوتيسيني؛ عازف الكمان الشهير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(128) كانوا يُوقدون النار في جوانب الشوارع والأزقة لتحريك الهواء وقتل مسببات الكوليرا والأوبئة.

(127) كلمةٌ تركيةٌ تُطلق على مركز الشرطة المركزيِّ.

(126) تذكر بعض الإحصاءات أن الكوليرا خلفت آنذاك أكثر من ستين ألف وفاة من بينها أربعة آلاف في الإسكندرية وحدها. انظر: «أرواح في خطر.. الصحة العامة في مصر القرن التاسع عشر» لافيرن كونكة، ترجمة: د. أحمد زكي أحمد، ص 94.

(125) الجنرال السير إدوارد ستانتون Edward Stanton (1827 - 1907): عسكريٌّ بالجيش البريطاني ودبلوماسيٌّ، عُيِّن وكيلا للخارجية البريطانية وقنصلا عامًّا في مصر عام 1865.

(124) ليغورن أو ليفورنو Leghorn: مدينةٌ ساحلية إيطاليةٌ مهمة وعاصمة مقاطعة ليفورنو بإقليم توسكانا.

(123) كاتانيا أو قَطَانِيَةُ Catania: عاصمة مقاطعة كاتانيا، وهي ثاني أكبر مدن جزيرة صقلية جنوب إيطاليا، وكان العرب يسمونها (بَلَد الفِيل) أو (مَدِينَة الفِيل).

(122) مَسِّينَةُ (Messina): مدينة إيطالية في جزيرة صقلية تقع على «مضيق مسينة»، ويعد ميناؤها أحد أكبر الموانئ في البحر المتوسط.

(121) هول (Hull) هي إحدى مدن شرق إنجلترا، تقع على الضفة الشمالية لنهر الهمبر بالقرب من مصبه في بحر الشمال.

(120) إبراهيم بن إدريس السنوسي (ت 1887): وُلد بفاس، ثم انتقل الى الإسكندرية، ثم الى القاهرة، وتوفي بها، من تصانيفه: سيف النصر بالسادة الكرام أهل بدر نظمًا ونثرًا.

(119) محمد بن علي السَّنُوسِي (1787 - 1859): زعيم الطريقة السنوسية الأول ومؤسسها، وُلد في مستغانم بالجزائر، وتعلَّم بالمغرب، وجال في الصحراء إلى الجنوب من الجزائر يعظ الناس، ثم زار تونس وطرابلس وبرقة ومصر ومكة، له نحو أربعين كتابًا ورسالةً.

(118) السلطان الحسن الأول (1836 - 1894م) الذي تولى السلطنة منذ عام 1873 حتى 1894م.

(117) لعله هنا يعني ذلك المنصب الديني الرفيع في الدولة العثمانية، أو شيخ الأزهر أو ما يعادله في ذلك الوقت، أو أحد العلماء أو المتصوفة الكبار آنذاك.

(116) الزبير باشا رحمت منصور (1830 - 1913): فريقٌ بالجيش المصري، تاجرٌ وإداريٌّ. وسيأتي الحديث عنه في فصول قادمة. للمزيد انظر: معجم تراجم أعلام السودان، ص 217، وتاريخ مصر لإلياس الأيوبي 2/42، وانظر تفاصيل أخرى في كتاب: الزبير باشا يروي قصته في منفاه بجبل طارق، خليفة العبيد.

(115) ليس كذلك في كل الأحوال، فلا يمكنه ردَّها بعد انتهاء فترة عدتها إلا بموافقتها، وبعقد ومهر جديدين.

(114) يُطلق على الرجل الذي يتزوج المرأة ليُحلِّلها للزوج الأول: «التَّيْس المُستعار»، وهذا منهيٌّ عنه؛ إنما المراد إذا تزوجت زواجًا غير مؤقت ثم طُلقت لعلة أخرى.

(113) التعبير بطرد الزوجة بعد الطلاق تعبيرٌ مغرضٌ لا أصل له؛ فالمرأة تتمتع بحقوقٍ كثيرةٍ بعد الطلاق كالنفقة والسكنى وحق المتعة والصداق وغيرها مما لا مجال لتفصيله هنا.

(112) ليس في الفقه رأي يقول بالثلث، وهي لا تقدم مهرا ولا تتكلف شيئا وليس عليها أية نفقة في بيت الزوجية.

(111) يقصد الولد الناتج عن زنا، وهو لا ينطبق على ابن الجارية.

(110) يقصد إذا ولدت الجارية أو الأمَةُ ولدا. وهذا مختلف عن الزنا أصلًا.

(109) SYRIA AND E&TPT UNDER THE LAST FIYE SULTANS OF TURKEY: BEING EXPERIENCES, DURING FIFTY YEARS, 2/233. OF MR. CONSUL - GENERAL BARKER. London, SAMUEL TINSLEY, 1876.

(108) الخديوي إسماعيل.

(107) أوچيني دي مونيتو Eugenia de Montijo (1826 - 1920): وُلدت بإسبانيا وتعلَّمت في فرنسا، وقد أُعجب بجمالها وذكائها الإمبراطور نابليون الثالث وتزوَّجها عام 1853، وحظيت بشعبيةٍ كبيرةٍ حتي أطلقوا على ابنها الذي وضعته: ابن فرنسا.

(106) انظر تفاصيل اليوم في: افتتاح قناة السويس.. رحلة الملوك، ماريوس فونتان، ترجمة عباس أبو غزالة، ص 55 - 56.

(105) الأمير محمد توفيق الذي تولى العرش فيما بعد.

(104) فرانز چوزيف الأول Franz Joseph I (1830 - 1916م) وقد تولى العرش في الفترة (1848 - 1916م).

(103) فريدريك (فريدريش) جيوم ويلهلم Friedrich III: فريدريش الثالث (1831 - 1888): كان قيصرًا للرايخ الثاني الألماني، تربَّع على العرش بعد وفاة أبيه القيصر فيلهلم الأول في عام 1888، ولكنه مات بعد 99 يومًا.

(102) أعتقد أن هذا وَهْمٌ كبيرٌ من المؤلف؛ فالذي يتحدث عنه - وكان هو دوق روسيا الأكبر في ذلك الوقت (1865) - هو نيكولاس نيكولايفيتش (1831 - 1891) ابن قيصر روسيا نيقولا الأول الذي تولى قيادة الجيش الروسي على نهر الدانوب في الحرب الروسية التركية، 1877 - 1878، أمَّا المذكور في الكتاب باسم ميخائيل، فهو الدوق الأكبر ميخائيل أليكساندروفيتش من روسيا وهو ولد 4 ديسمبر 1878 - توفي 13 يونيو 1918، وبالطبع لا يمكن أن يكون هو الذي حضر الحفل.

(101) الأمير وليم فريدريك هنري William Frederick Henry (1820 - 1879): ابن ملك هولندا فيلم (وليم) الثاني (William Frederick)، وأخو الملك فيلم (أو وليم) الثالث وقد لُقِّب بـ (المستكشف).

(100) الأرشيدوق ڤيكتور لودفيغ ڤيكتور Archduke Ludwig Viktor Joseph Anton (1842 - 1919 م): أرستقراطي نمساوي شقيق إمبراطور النمسا، ولد في ڤيينا ويحمل رتبة فريق أول.

(99) أغسطس دوق دارلارنا August Duke of Dalarna وأمير السويد والنرويج (1831 - 1873): ابن ملك السويد أوسكار الأول.

(98) أماديوس أمير ساڤوي هو أماديو الأول Amadeo I (1845، 1890): هو النجل الثاني لفيتوريو إمانويلي الثاني ملك إيطاليا، عـُرف معظم حياته بدوق أوستا، وحكم إسبانيا لفترةٍ وجيزةٍ من عام 1870 حتى 1873.

(97) لويس أمير هيسن Louis IV, Duke of Hesse (1837 - 1892): لويس الرابع، واسمه الحقيقي كارل فريدريش فيلهلم لودفيغ، وكان الدوق الأكبر لهسن والراين، توج من 13 يونيو 1877 حتى وفاته.

(96) راجع ذلك بالتفصيل في: رحلة الملوك ص 61، وتاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل للأيوبي، 1/425.

(95) انظر الوثيقة المنشورة في كتاب رحلة الملوك ص 85 وتتضمن اسم السفينة وجنسيتها واسم قائدها.

(94) أمر الخديوي إسماعيل بتسجيل وصف هذه الاحتفالات في كتاب جمع لوحات الفنان ريو تحت عنوان: (رحلة الملوك وافتتاح قناة السويس)، وبتكليف من الخديوي أيضًا صدر بالفرنسية كتاب (خط سير رحلة ضيوف الخديوي لحضور احتفالات قناة السويس أثناء إقامتهم بالقاهرة وقيامهم برحلة على نهر النيل) أعده عالم المصريات الفرنسي أوجست ماريت الذي أورد في هذا الكتاب جدول تفاصيل ثلاثين ليلة يقضيها الضيوف قبل افتتاح القناة في طول مصر وعرضها. انظر: دليل رحلة ضيوف الخديوي إسماعيل لزيارة آثار مصر بمناسبة احتفالات افتتاح قناة السويس 1869، أوجيست ماريت، ترجمة عباس أبو غزالة، ص 15 - 16.

(93) قدر إسماعيل نفقات الاحتفالات بمبلغ 165 ألف جنيه مصري؛ لكن كثيرًا من المصادر الموثوقة قالت إن المبلغ كان مليونًا وأربعمائة ألف جنيه. انظر: عصر إسماعيل 1/100 وما بعدها، والحياة الاجتماعية في مصر في عصر إسماعيل، ص 89.

(92) أصدر السلطان العثماني عبد العزيز الأول فرمانًا بتاريخ 8 يونيو 1867م منح بموجبه إسماعيل لقب (الخديوي) مقابل زيادة في الجزية، وقبلها كان الفرمان الصادر في عام 1866م ويقضي بتعديل نظام انتقال الحكم ليصبح حقًّا لأكبر أبناء الخديوي سنًا. انظر بعض التفاصيل في: مذكرات نوبار، ص 426، وعصر إسماعيل للرافعي 1/73 وما بعدها. والحياة الاجتماعية في مصر في عصر إسماعيل من 1863 - 1879م، د. صالح رمضان، ص 75 - 79.

(91) هي البحيرة المُرَّة الكبرى، إحدى البحيرات المُرَّة التي تقع بين الجزء الشمالي والجنوبي من قناة السويس. وتتكون من بحيرتين: الكبرى والصغرى.

(90) بحيرة تبلغ مساحتها نحو 14 كيلو مترًا مربعًا، وتمر بها قناة السويس، والبحيرة في أغلبها ضحلةٌ لا يتعدَّى عمقها المتر الواحد.

(89) ترييستي Trieste: مدينة ساحلية وميناء في شمال شرق إيطاليا قرب الحدود مع سلوڤينيا.

(88) إستريا (Istria): أكبر شبه جزيرة في شمال شرقي البحر الأدرياتيكي، وتقع بين خليج تريستا وكفارنير.

(87) رقصة الفالس (بالإنجليزية: Waltz): قالبٌ إيقاعيٌّ بدأ في النمسا وألمانيا وتحوَّل فيما بعد إلى رقص، ثم انتشر في أنحاء كثيرةٍ من العالم.

(86) السير هنري مورتون ستانلي Henry Morton Stanley (1841 - 1904): صحافيٌّ ومستكشفٌ إنجليزيٌّ يُعرف باستكشافاته لأفريقيا. أصدر كتابًا بست

لغاتٍ تحت عنوان: (في مجاهل أفريقيا).

(85) ديفيد ليفينغستون David Livingstone (1813 - 1873): مستكشف اسكتلندي لوسط أفريقيا، وهو أول أوروبي يرى شلالات ڤيكتوريا، وهو الذي أطلق عليها هذا الاسم.

(84) أمين باشا (1840 - 1892): ضابط ألماني ولد في بولندا، اسمه الأصلي: إدوارد شنيتزر Isaak Eduard Schnitzer، مدير ومكتشف في إفريقيا، وعمل طبيبًا. ثم انتقل إلى السودان. وفي عام 1878م أصبح حاكمًا للاستوائية، وقد قتله الإفارقة أثناء حملة استكشافية.

(83) ملعب لوردز Lord's للكريكيت بسانت چون وود، لندن.

(82) ڤيردي Giuseppe Verdi (1813 - 1901): مؤلفٌ موسيقيٌّ إيطاليٌّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

1872 - 1878

إقامة السباق في الرَّملة - سمو الأمير توفيق باشا - العقيد دو تشيل لونغ - العقيد بتلر القنصل العام الأمريكي - عشاء الكولونيل بتلر - دوق ساذرلاند - اللورد سوڤيلد - السير چورچ إليوت - النائب السير چون بيندر - النائب العام جوردون - السير چيمس أندرسون - زواجي - الخدمة البريدية - شيني إخوان - السيد ڤيڤيان القنصل العام البريطاني - السيد سكريفنور مدير عام الجمارك - دائرة الحكومة المصرية - التعيين في الجمارك المصرية - موريس بيك المفتش العام - خدمة خفر السواحل - تعلم القراءة والكتابة بالعربية - إدارة سكك حديد مسلَّات كليوباترا إلى الرمل - السير ريتشارد بيرتون - التعيين رئيسًا للإدارة - تهريب الحشيش - التبغ اليوناني - معارك بين خفر السواحل والمهربين - هيكاليس باشا - السير وليم جريجوري - معاهدة التجارة مع اليونان - حِيَلُ المُهرِّبين.

في يونيو 1872 رأى عددٌ من الشباب الإنجليز أنَّ إقامة سباقٍ للخيل سيكون لونًا جميلًا من المتعة، وبعد عددٍ من الاجتماعات، وبعد أنْ رُتِّب كلُّ شيءٍ بشكلٍ صحيح، تقرَّر أن نلتمس من سمو الأمير توفيق باشا ثم من الخديوي السماح لنا بإجراء السباق تحت رعايته؛ فكانت موافقته الكريمة، ليس هذا فحسب؛ بل وعدنا أيضًا بتشريفنا بحضوره، ولذا عُقد الاجتماع في الرملة على بُعد حوالي خمسة أميال من الاسكندرية، على شاطئ البحر في 19 يونيو 1872. ومن نسخة لديَّ من البرنامج الأصلي للسباق؛ كانت الشروط العامة على النحو الآتي:

1) أن تكون الخيولُ عربيَّةً، وأن يدفع المشتركون جنيهًا إسترلينيًّا فما فوقه لتمويل السباق.

2) ألا تكون لجميع الخيول سابق مشاركةٍ في أي سباقات نُظِّمت في مصر قبل هذا السباق.

3) على الفرسان المشاركين أن يرتدوا ملابس ملونةً لتمييزهم، وبالطبع يكون ذلك بعد تسديد قيمة الاشتراك.

4) يُعاقب أيُّ جوادٍ يُكتشف أنه سبق وفاز في أي سباق هواةٍ سابقٍ بغرامةٍ قدرها سبعة جنيهاتٍ، وأيُّ جوادٍ حلَّ في المركز الثاني في أيِّ سباقٍ من هذا القبيل يُعاقبُ بدفع ثلاثة جنيهاتٍ.

5) يُسمح لإناث الخيل والخيول الخَصِيَّة بالاشتراك مقابل ثلاثة جنيهاتٍ.

6) لا يجوز أن يحمل أي حصان وزنًا يفوق 182 رطلًا (82,5 كيلو جرامًا).

7) يكون قرار المُنظِّمين نهائيًّا في جميع الأحوال، وهم:

· الحكم: هـ ل چيسبورن.

· مُطلق إشارة البدء: سي إي داوسون.

· كاتب المِضْمار: ماكيلوب بيك.

· كاتب الموازين: ج تاكر.

وقد حضر سمو الأمير توفيق باشا ومعه سكرتيره الخاص دي مارتينو بيك، حتى السباق الأخير، وأعرب عن سعادته بفترة بعد الظهيرة المبهجة التي قضاها.

وأعتقدُ أنني شخصيًّا قدَّمت عرضًا سيئًا للغاية، حيث جاء حصاني في المركز الرابع في السباق الأول، وجاء خامسًا في السباق الثالث؛ لكن كان الأمر ماتعًا جدًّا، وقد عُوِّضتُ عن ذلك بالفوز برهانات اليانصيب في كلا السباقين، وأنهى معظمنا هذا اليوم الماتع بحضور حفل رقصٍ وعشاءٍ قدَّمته السيدة چيبس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غالبًا ما كنتُ أتنزه في الشتاء مع الضباط الأمريكيين التابعين للجيش المصري، ومن بينهم العقيد دو تشيل لونغ، والعقيد بوردي، وآخرون، وكانت السيدة چيبس عادة تصحبُ المجموعةَ، كما التقيتُ أيضًا بـالعقيد بتلر القنصل العام الأمريكي، الذي تقاربتْ صداقتي معه للغاية، وغالبًا ما كنتُ أتناول الغداء والعشاء في منزله في الرملة، وزوجته - التي كانت فيما سبق ممثلةً أمريكيةً مشهورةً تدعى روز إيتريك - مضيفةً ساحرةً بشكلٍ خاصٍ، وكان الكولونيل بتلر(154) نفسه هو ابن شقيق الجنرال بتلر الشهير صاحب معركة نيو أورليانز(153).

أتذكَّرُ أنه أقام ذات مرةٍ مأدبة عشاءٍ حضرها بعض ضباط أركان الجيش المصري، في فندق أنجليتير(152) الذي كان يقع بالقرب من البحر، ولا يبعد كثيرًا عن ساحة محمد علي الكبرى(151). وبدأ العشاء - الذي كان فائق الجودة - في الساعة الثامنة مساءً، وفي منتصف الليل كنَّا لا نزال على المائدة، ونظرًا لأنَّنا كنَّا مرهقين إلى حدٍّ ما؛ فقد رأينا أنا وچيبس أنَّ وقت الانصراف قد حان، لذلك غادرنا المائدة بهدوءٍ.

وتوجَّهنا إلى غرفة الانتظار، حيث يُفترض أن نجد قبَّعاتنا ومعاطفنا، لكن سرعان ما أصابتنا الدهشة حين اكتشفنا أنَّ الغرفة كانت مقفلةً، وكذلك باب

مدخل الفندق، وأخبرنا البوَّاب أنَّ ذلك تمَّ بناءً على أمرٍ من العقيد بتلر، وأنه أخذ المفتاح معه، ومن ثم لم يكنْ بُدٌّ من العودة إلى غرفة الطعام، وهناك دار چيبس حول المائدة إلى حيث كان يجلس بتلر، وأوضح له أننا نرغب في المغادرة؛ لكن مضيفنا لم يستمع إليه، وقال: إن الليلة لا تزال في بدايتها. ورغم اعتراضنا على ذلك؛ فلم يمكننا فعل شيءٍ سوى الجلوس والانتظار.

لم تمر إلا بضع ساعاتٍ، حتى ذهبنا إلى الغرفة الخارجية وأمسكنا بأحد النوادل، وكان نائمًا على أريكةٍ، وعرضنا عليه عشرين فرنكًا إذا استطاع الحصول على المفتاح وتمكيننا من الخروج، وبحلول ذلك الوقت كان الكولونيل بتلر ومعظم الضيوف نائمين، وهو أمرٌ ليس مستغربًا بالنظر إلى كمِّ الشمبانيا التي شربوها في تلك الليلة، وهكذا غاب النادل لبضع لحظاتٍ، ودخل إلى غرفة الطعام، وبعد فترةٍ وجيزةٍ عاد ومعه المفتاح، وأثناء تمكينه لنا من الخروج سألتُه أين وجد المفتاح؟ فقال: في جيب العقيد بتلر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن بين المشاهير الذين قابلتُهم في منزل چيبس دوق ساذرلاند واللورد سوفيلد، اللذين كانا يسافران معًا، وكان دوق ساذرلاند قد اشترى أرضًا ومنزلًا في القاهرة، وبَنَى بعض التجمُّعات الجميلة جدًا من المنازل في وسط المدينة، وكان صديقي القديم المهندس المعماري طومسون مُكلَّفًا برسومات تلك المباني وتصميماتها، كما عمل أيضًا كوكيلٍ للدوق في القاهرة.

التقيتُ أيضًا السير چورچ إليوت - النائب بالبرلمان عن مقاطعة دورم(150) - الذي كان مهتمًا بإنشاء حاجز الأمواج في الإسكندرية، وكان يزور مصر سنويًّا.

والتقيت أيضًا صديقًا آخر له، وهو السير چون بيندر عضو البرلمان، ورئيس مجلس إدارة شركة (إيسترن تلغراف)، ومن ثم رئيس السيد چيبس، وكان السير چون ودودًا جدًا معي، وسعدتُ بصداقتهِ عدة سنواتٍ؛ علاوةً على ذلك، كان من أشد الداعمين لي في وزارة الخارجية في داونينج ستريت بعد ذلك بسنوات عندما غادرتُ مصر.

في فبراير 1874 قابلتُ لأول مرةٍ الجنرال جوردون(149)، الذي كان قد وصل لتوِّه لتولِّي منصب الحاكم العام لخط الاستواء. وكانت الحكومة الإنجليزية قد أذنت له بقبول المنصب، على أمل أن يتمكَّن جوردون من إيقاف تجارة الرقيق في السودان، وقد أرسى بالفعل قدرًا معينًا من النظام ووضع عددًا من المحطات العسكرية على طول نهر النيل؛ لكن الحكومة المصرية لم تدعمه إلا بطريقةٍ فاترةٍ للغاية في الوقت الذي كان يواجه فيه صعوبةً كبيرةً في التعامل مع غدر الحكام المحليين العدائيين، والذين بدلًا من مدِّ يد العون

له، كانوا على استعدادٍ دائمٍ للتآمر ضده وإحباط مخططاته كلما سنحت لهم الفرصة.

وأثناء العشاء في منزل صديقي طومسون معماري القاهرة، تعرَّفتُ على الجنرال جوردون وكان طومسون صديقًا شخصيًّا مقربًا له، وعمل أيضًا كوكيل له في القاهرة، وقد استمتعنا بحفلةِ عشاءٍ سعيدةٍ جدًا، وكانت المحادثة ماتعةً للغاية لدرجة أننا لم نفترق قبل حلول الساعات الأولى من الصباح.

وقد أدهشني أن جوردون يملك معرفةً كبيرةً بالكتاب المقدس، واقتباساته منه متعددة؛ ودائمًا تكون مناسبةً، وسأظل أتذكَّر دائمًا ملاحظةً واحدةً سمعتُه يقولها والتي أعتقدُ أنها تُظهر معرفةً كبيرةً بالبشرية، وإن كنتُ لا أذكر المناسبة التي قيلت بها؛ حيث قال: في أُمَّة الكذَّابين، غالبًا ما تكون الحقيقة خادعةً بشكل أكثر مرارة من الباطل.

عندما تولَّى الجنرال جوردون مهامه، كان معظم السكان في السودان عبيدًا، وكان صائدو العبيد وتجَّارهم قد اجتاحوا البلاد، وقيل إنَّ مَنْ هم في السُّلطة يساعدونهم ويحثُّونهم، بينما أولئك الذين لم يقعوا في العبودية كانوا ينظرون إلى الوافدين الجدد على أنهم أعداء، لكنَّ هذا لم يمنعهم من مقايضة أطفالهم مقابل الحبوب وغيرها، كما كان عدد السكان يتناقص بسرعةٍ ليس فقط بسبب الموت والمرض؛ ولكن أيضًا بسبب غارات تُجَّار الرقيق التي أسرعت في تدمير البلاد في الوقت الذي كانت الاتصالات شبه مستحيلةٍ، وكان مختلف الزعماء في الداخل في حالة حربٍ مع بعضهم بشكلٍ أو بآخر.

قرب نهاية عام 1876، وبعد أن تملَّكه الاشمئزاز التام، ولكونه وحيدًا من الناحية العملية - حيث إنَّ معظم رفاقه ماتوا أو عادوا إلى الوطن مُعاقين - تخلَّى جوردون عن قيادته وعاد إلى إنجلترا؛ ولكن لم يلبث سوى بضعة أسابيع فحسب، ثم عاد إلى القاهرة بناءً على طلب الحكومة البريطانية بعد اتفاقٍ على أن تتوسَّع سلطاته، وأن يحظى بالسيطرة الكاملة على السودان التي دخلها في منتصف فبراير تقريبًا بعد أن وافق الخديوي إسماعيل باشا على تعيينه حاكمًا عامًا للسودان.

ورغم طاقته وكفاحه الصادق لوقف تجارة الرقيق؛ فإن زعماء المقاطعات المختلفة وحكامها الذين عارضوه قد جعلوا نجاحه في ذلك مستحيلًا، وفي عام 1879 غادر السودان للمرة الثانية، ولم أره مرةً أخرى حتى يناير 1884، عندما مَرَّ بـالقاهرة في رحلته الأخيرة إلى السودان بناءً على طلبٍ من الحكومة البريطانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صيف عام 1874 عدت إلى إنجلترا لمدة ثلاثة أشهرٍ، وسافرتُ برًّا عبر إيطاليا وفرنسا، وأتذكر هذه العطلة جيدًا؛ لأنني رأيتُ سباق الديربي يجري للمرة الأولى - وربما أقول الأخيرة - وذهب ثلاثةٌ منا: شقيق السير چيمس أندرسون وابنه وأنا للتنزُّه في عربة أجرةٍ يجرُّها حصانان، واستمتعنا بتلك النزهة كثيرًا، وكنتُ جاهزًا لقبول الدعوة لحضور حفل بلوغ كينيث سن الرشد وهو ابن السير چيمس أندرسون، وكان صديقًا قديمًا وحميمًا لي.

ودَعتني السيدة أندرسون بلطفٍ شديدٍ للبقاء في منزلهم خلال ذلك الأسبوع، وقضينا وقتًا رائعًا، مليئًا بحفلات العشاء، ومآدب الغداء، والحفلات الراقصة، وما إلى ذلك، وفي الواقع، كان من الصعوبة بمكانٍ أن أبتعدَ عن هذا الجو، لكن نداء الواجب، وإجازتي التي كانت تقترب من نهايتها، قد اضطراني إلى توديعهم جميعًا والإسراع بالمغادرة، لألحق في الوقت المناسب بباخرتي العائدة من ليڤربول. وكان السير چيمس أندرسون قد قاد سابقًا «سفينة الشرق العظيم» أكبر باخرةٍ في العالم، وهو الذي وضع أول كابل عبر الأطلسي بين هذا البلد وأمريكا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي 17 مايو 1876 تزوَّجتُ من سيدةٍ إيطاليةٍ، هي السنيورينا إلفيرا تشيني الابنة الكبرى لـكليتو شيني السيد في ليجهورن(148) والقاهرة، والإخوة تشيني هم من أسسوا أوَّل نظام بريديٍّ في مصر؛ وفي نحو عام 1820 نظَّموا خدمةً رائعة لتسليم الرسائل والنقود... وما إلى ذلك، حيث كان من المحتم في تلك الأيام المبكرة إرسال طرودٍ من الدولارات الذهبية والفضية إلى القرى لشراء القطن، ولم تكن هناك بنوكٌ موجودة في عمق البلاد في ذلك الوقت.

ونظرًا لعدم إصدار أيِّ طوابع وقتها؛ فقد كان يتمُّ دفع ثمن جميع الرسائل وما إلى ذلك عند إرسالها، ولم تكن مسألة الدفع عند التسليم قد وُجدت حينها، وتمَّ توظيف سعاة البريد من أهل البلاد بين القرى في الداخل؛ واستخدام النيل والقنوات في النقل، وعندما أُنشِئَ خطُّ السكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة(147)؛ تمَّ استخدامه أيضًا.

ومع مرور السنين وتطوُّر البلد؛ كان الاحتكار الذي أسسه الأخوة تشيني ذا أهميةٍ كبيرةٍ، وفي النهاية قرَّرت الحكومة المصرية الاستيلاء عليه، وإعادة شراء الامتياز مقابل مبلغٍ كبيرٍ من المال، أمَّا في الوقت الحاضر؛ فلا يُوجد مثل الخدمة البريدية المصرية في العالم.

وحتى في العصور الوسطى، كان لدى مصر خدمةٌ بريديَّةٌ جيدة التنظيم، ويصف لين بول كيف أنَّ السلطان المصري بـيبرس قد أنشأ نظامًا شاملًا

للبريد، ويكتب قائلًا:

«كانت مناوبات الخيول جاهزةً في كل دار بريدٍ، وكان السلطان يتلقَّى ويَردُّ على التقارير الواردة من جميع أنحاء المملكة مرتين في الأسبوع، وبجانب البريد العادي، كان هناك أيضًا مركزٌ للحمام الزَّاجل يُدار بعنايةٍ لا تقل عن ذلك، وتتمُّ تربية الحمام في أكنان في القلعة وفي محطاتٍ مختلفةٍ تكون أبعد من تلك التي تصل إليها الخيول. ويتم تدريب الطائر على التوقُّف عند أول موقع أكنانٍ بريديةٍ، حيث تُرفق رسالته بجناح حمامةٍ أخرى لتطير بها المرحلة التالية. وكان للحمام الملكيِّ علامةٌ مميزةٌ، وعندما تصل إحداها إلى القلعة ومعها رسالة؛ فلا يُسمح لأحد بفصل الرَّق الذي يحوي الرسالة سوى السلطان نفسه. ومهما كانت القواعد الصارمة في عدم إزعاجه أثناء تناول الطعام أو النوم أو في الحمام؛ فقد كان يتم إبلاغه على الفور بوصول الحمام؛ فينتقل على الفور لأخذ الرسالة من الطائر. وقد استُخدم الحمام أحيانًا في الحرب؛ لنقل الرسائل إلى القادة العسكريين على مسافات بعيدة" (146).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظللتُ بعض الوقت أتساءل عما إذا كان من المستحسن أن أبدأ العمل لحسابي الخاص أم لا؛ فرغم أنني كنتُ في منصبٍ جيدٍ جدًا مع شركة (السادة باركر وشركاؤهم)؛ إلا أنني لم أر لنفسي مستقبلًا كبيرًا معهم، وقد صادف أن طلبتُ مشورة صديقٍ لي يعمل في الخدمة القنصلية، واقترح عليَّ الدخول في خدمة الحكومة المصرية، وذلك نظرًا لمعرفتي باللغات: العربية والفرنسية والإيطالية، وهو أمرٌ مرغوبٌ بشدةٍ.

لذا في زيارتي التالية للقاهرة، اتصلتُ بالسيد هـ ڤيڤيان(145) القنصل العام البريطاني - والذي أصبح بعد ذلك اللورد ڤيڤيان - وكان يعرفني جيدًا على المستوى الشخصي، وقد كان لطيفًا ومشجعًا للغاية، وأخبرني أنه باستطاعتي الحصول على وظيفةٍ في الخدمة الحكومية الواقعة تحت الوصاية الأنجلوفرنسية التي كانت قد أُنشئت لتوِّها في ذلك الوقت، وقد اقترح عليَّ أن أذهب إلى السيد سكريفنور(144)؛ وهو رجلٌ إنجليزيٌّ قد وصل لتوِّه إلى مصر، وتم تعيينه - بناءً على توصيةٍ من الحكومة البريطانية - مديرًا عامًا للجمارك، ووعد بالكتابة إليه ليوصيه بي.

لم أُضيِّع كثيرًا من الوقت، وعلى الفور قابلت السيد سكريفنور، وشرحتُ له الأمور بشكلٍ مفصلٍ، وبعد حديثٍ طويلٍ، اتفقنا على أن أعمل معه في أقرب وقتٍ ممكنٍ، وأخبر السيد سكريفنور السيد ڤيڤيان بما رتَّبه لي، وبعد أيامٍ قليلةٍ قدَّمني إلى سمو الأمير حسين باشا وزير المالية(143)؛ ومن ثم دخلتُ الخدمة المصرية في يناير 1877 رئيسًا للقسم الأوروبي بمصلحة الجمارك.

في ذلك الوقت كان القسم في حالةٍ فوضويَّةٍ رهيبةٍ، وظهر في البداية أنه من المستحيل تقريبًا تطهير مثل هذه الزريبة القذرة(142)، وكان هناك كثيرون ممن أيَّدوا الرأي القائل بهذه الاستحالة، بل وشعروا بالأسى تجاه السيد سكريفنور في المهمة الملقاة على عاتقه، وهي المهمة التي تفوق طاقة البشر، فقد كان من الضروري هدم النظام القديم وسط معارضة المسئولين المحليِّين، الذين وجدوا في النظام القديم فائدةً كبيرةً لهم من الناحية الماليَّة وغير المالية أيضًا.

ونظرًا للأهميَّة القصوى للإحصاءات في حسن إدارة عمل الجمارك؛ فقد تلقَّيتُ تعليماتٍ بإنشاء إدارةٍ خاصةٍ بالإحصاء، وهو الأمر الذي تطلَّب قدرًا كبيرًا من الدراسة والتفكير المتأنِّي، إذْ كان علينا إنشاء نظامٍ مناسبٍ للاعتماد عليه، ليس في جمارك الإسكندرية فحسب؛ ولكن أيضًا في الفروع التابعة للخدمة، فضلًا عن الفروع الموجودة في مصوع(141)، وسواكن(140)، وزيلع(139) على البحر الأحمر، وهي الموانئ التي كانت تقع تحت سلطتنا آنذاك.

ولمَّا كان من اللازم إنشاء سجلَّاتٍ ونماذج جديدةٍ وطباعتها باللغتين العربية والفرنسية؛ فقد مرَّ بعض الوقت قبل أن نبدأ وينتظم العمل، ولكن تمَّ تطوير قسم الإحصاء وتحسين أدائه عامًا بعد عامٍ، أمَّا الآن؛ فقد أصبح يناظر أي قسمٍ موجودٍ في أيِّ حكومةٍ أوروبيةٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت خدمة خفر السواحل أيضًا تحت إدارة الجمارك، وأصبحتُ مقربًا جدًا إلى الرائد موريس بيك - الذي كان مسئولًا عن خفر السواحل - ومساعديْه: بوبي جراي الذي أصبح فيما بعد قائدًا لسفينة التلغراف آمبر، وألفريد بروستر الذي مُنح فيما بعد رتبة البكوية ليصبح مدير الجمارك ومساعد حاكم سواكن، ومن هناك تولى منصب السكرتير الإنجليزي الخاص للخديوي توفيق باشا، وعند وفاة الأخير شغل المنصب نفسه مع خليفته عباس باشا الثاني؛ وما زال كذلك في الوقت الحاضر، وكنت أتوقع منذ فترة سماع ترقيته إلى رتبة باشا.

بعد إنشاء دائرة الإحصاء، سعيتُ تدريجيًّا إلى تغيير نظام الحسابات الحالي، وهي خطوةٌ لم تُقابل بشكلٍ إيجابيٍّ من جانب الكَتَبَة الأقباط، الذين كانوا يكرهون أيَّ تغييرٍ لما تعوَّدوا عليه طوال حياتهم، ولا أظنُّ أنَّ هذا كان تعصُّبًا خالصًا من جانبهم؛ لأنَّ نظام الحسابات في البلاد كان موجودًا منذ دهورٍ بشكلٍ معقدٍ للغاية، وقد كان يتمُّ توظيف مئات الكَتَبَة لإمساك السجلات، رغم أنه كان من الممكن للعمل أن يتمَّ بشكلٍ جيِّدٍ بدونهم، وهو ما أعطى الفساد فرصةً كبيرةً، ورغم ذلك فقد عمل معي واصف أفندي كبير الموظفين الأقباط بإخلاصٍ، واستطعنا فيما بيننا تقويم الأمورِ في النهاية.

كانت الخطوة المهمة التالية؛ هي تنفيذ أشكالٍ جديدةٍ من الإعلانات الجمركية المطبوعة باللغتين العربية والفرنسية، وكانت تصدر في السابق بالعربية فحسب، ومن ثمَّ خُصْنا فترةً من العمل الشاقِّ، وغالبًا ما كنَّا نعمل فيها من الصباح حتى منتصف الليل، وفي نوفمبر 1877 حللتُ مؤقتًا محل المراقب العام للجمارك، الذي كان قد استقال.

في هذا المنصب وجدتُّ من الضروري للغاية أن تكون قادرًا على قراءة العربية وكتابتها؛ لذلك كنتُ أتلقَّى دروسًا لمدة ثلاث ليالٍ في الأسبوع، حتى أتمكَّن من إنجاز الأمرين بشكلٍ جيِّدٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذا العام نُقلت مسلة كليوباترا من مصر بعد أن ظلَّت ترقد لقرونٍ على رمال شاطئ البحر في الإسكندرية، وبالتحديد أمام المكان الذي كنتُ أعيشُ فيه، بالقرب من محطة سكة حديد الرَّملة، وكان تحتمس الثالث قد نصب هذه المسلة في هليوبوليس نحو 1500 عام قبل الميلاد تقريبًا، وأضاف إليها رمسيس الأكبر نقوشًا بعد قرنين تقريبًا، ونُقلت أثناء حكم السلالة الإغريقية إلى الإسكندرية التي كانت المدينة المَلَكيَّة لـكليوباترا، حيث أُعيد نصبها في عام 12 قبل الميلاد في عهد القيصر أغسطس، وفي عام 1819 ميلادي قدَّمها محمد علي - والي مصر آنذاك - هديةً إلى الأمة البريطانية.

والحقيقة أنني كنتُ أهتم للغاية بالمسلة كلما مررتُ بها يوميًّا، بسبب تلك الشائعات التي تتردَّد حول شحن العمود الضخم إلى لندن، وعندما بدأ العمل في بناء الغلاف الحديديِّ حوله وهو راقدٌ على الرمال؛ لم أكن أتغيَّب عن مشاهدة تطوُّر العمل بشكل يوميٍّ، حيث كان يشرف على هذا العمل السيد چون ديكسون، الذي أدار العملية باقتدارٍ، وهو مهندسٌ مدنيٌّ أعرفه؛ فشرح لي بلطفٍ شديدٍ كيف ينوي تنفيذ الأعمال وبناء أسطوانة الغلاف الحديديِّ لاحتواء المسلة في رحلتها البحرية.

عملوا عدة أشهرٍ تحت أشعة الشمس المصرية الحارقة في بناء هذه الحاوية، وعندما اكتملتْ أخيرًا؛ تمَّ حفر طريقٍ مُعبدٍ للبحر، وإنشاء مِنَصَّةٍ منحدرةٍ قصيرةٍ تؤدِّي إلى المياه العميقة. حيث جرى بعد ذلك دحرجة الأسطوانة بهدوءٍ، ثم إضافة سطح المركب والصواري والتجهيزات الأخرى، وقد سُميت الحاوية البارعة المكسوَّة بالحديد باسم: (كليوباترا)، وقادها الكابتن كارتر ومعه طاقمٌ من ثمانية رجالٍ، وفي 21 سبتمبر 1877 غادرت الإسكندرية تجرُّها الباخرة أولجا المتجهة إلى لندن(138)، وللحصول على سردٍ لتلك الرحلة، يجب أن أُشير إلى حديث الكابتن كارتر نفسه:

«سارت الأمور على ما يُرام حتى قرب منتصف خليج بسكاي، رغم الطقس القاسي الذي شهدته منذ دخولها الخليج، ولم تبلل قطرة ماءٍ السطحَ الرئيسَ فوق الحاوية.

وعندما كانت الحاوية تنخفض كثيرًا في الماء، كانت مقدمة السفينة تُغطِّيها كل موجةٍ تتلامس معها؛ لكن الأعمدة الأمامية التي دعمت السطح العلوي كانت تُقسِّم كل موجةٍ، وتُلقي بنصفيها على كل جانبٍ، ويظلُّ السطح نظيفًا دون بللٍ. ورغم أنَّ التأرجح كان كبيرًا - وهو ما لا يمكن تجنُّبه بسبب شكل المسلة - لكن نظرًا لأن الوزن موزعٌ بالتساوي؛ فقد كان التدحرج صفريًّا من الناحية العملية، فالشكل الأسطواني للبَدَن كان يسمح للبحر بالانزلاق فوقه، دون التسبُّب في أيِّ اضطرابٍ.

خلال العاصفة العاتية في 14 و15 أكتوبر، طاحت كليوباترا على جانبيها، وانكسر حبل الجَرِّ. وقد أُنقذ القبطان كارتر وطاقمه بصعوبةٍ وخطورةٍ شديدةٍ بواسطة قوارب السفينة أوليجا، وللأسف غرق ستةٌ من رجال الإنقاذ أثناء إنقاذ البحَّارة الآخرين.

وتُركت كليوباترا في خليج بسكاي، ثم التُقطت بعد ذلك بواسطة سفينةٍ بخاريَّةٍ تُسمَّى فيتز موريس متجهة إلى فالنسيا، وبقيت المسلة آمنةً في علبتها الحديدية في فيرول(137)، ثم سُحبت بعد ذلك إلى لندن ووُضعتْ على نهر التايمز في عام 1878، وبلغت تكلفة هذه العملية الصعبة عشرة آلاف جنيه إسترليني، وتم تمويلها عبر الهبة السخيَّة التي قدَّمها السيد إيراسموس ويلسون الجرَّاح البارز"(136).

ويقول البروفيسور ماهافي:

«من المُرجَّح أنَّ تُرسِّخ المسلة المصرية في ذهن المُتفرِّج ذلك الانطباع المُستمدَّ من مسرحية شكسبير، بأنَّ كليوباترا كانت مصريةً داكنة البشرة، ومختلفةً كثيرًا عن السيدات الرومانيَّات الجميلات، ويظنُّون أنها كانت على اختلافٍ كبيرٍ في العِرْق معهم. لكنها لم تكن مصريَّةً ولا هنديَّةً؛ بل كانت مقدونيَّةً خالصةً، من عِرقٍ أقرب إلى اليونانيين، وربما أكثر جمالًا منهم».

علاوةً على ذلك، يذكرنا البروفيسور أن بلوتارخ(135) يقول صراحةً:

«إنَّ سحرها لم يكن في جمالٍ منقطع النظير؛ ولكن في مزيجٍ من الجمال الأكثر من المتوسط، مع عددٍ من جاذبيات الشخصية الأخرى».

وكتب دوجلاس سلادين، في كتابه (أشياءٌ غريبةٌ عن مصر)(134)، من هي كليوباترا؟:

«- كليوباترا السادسة هي سادسة خمسة أسلافٍ بالاسم نفسه تقاسمن عرش مصر، وهي ابنة بطليموس أوليتس، وقد وُلِدت حوالي عام 68 قبل الميلاد.

- تزوجت كليوباترا من شقيقيها: بطليموس الرابع عشر الذي كان أكبر منها، وبطليموس الخامس عشر الذي كان أصغر منها، وقد غرق الأول في هجومٍ على يوليوس قيصر. بينما أعدم أخوها الأصغر وأختها أرسينوي على يدِ أنطونيو بناء على طلبها، وتم إرسال هذا الأخير مُقيَّدًا بالأغلال إلى روما للاحتفال بانتصار القَيْصر.

- ويعرف معظم الناس أنها كانت عشيقة مارك أنطونيو، ولكن قبل ذلك، استسلم يوليوس قيصر نفسه لسحرها، وقيل إنها كانت أيضًا عشيقة ابن بومبيوس.

- كانت كليوباترا آخر ملكةٍ لمصر، وكان أسلافُها قد حكموا أو تقاسموا العرش لمدة أربعة آلاف عامٍ، وبوفاتها انتهت مملكةٌ كانت لها سجلات حضارةٍ أقدم من أي حضارةٍ أخرى في العالم.

- كان القصر الملكي للبطالمة يقف في وسط شاطئ الخليج الشرقي للإسكندرية تقريبًا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بداية هذا العام، أصبحتُ مُسهِمًا في سكة حديد الرملة، لكن بعد فترةٍ قصيرةٍ اكتشفتُ أنَّ الأمور كانت تُدار بطريقةٍ سيئةٍ للغاية، وأنَّ الإدارة الداخليَّة تتطلَّب إصلاحًا شاملًا؛ لذلك بدأتُ في التحريض بهدوءٍ بين بعض كبار المُسهِمين، والذين لم يكونوا مرتبطين بأيِّ شكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر بالمجموعة الداخلية التي كانت تُدير السكة الحديدية في ذلك الوقت، والتي كانت تعمل لمصلحتها الخاصة أكثر من مصالح المُسهِمين.

وحالفني الحظُّ في الحصول على مساعدة مدير البنك الإمبراطوريِّ العثمانيِّ بالإسكندرية، حيث يمتلك البنكُ عددًا كبيرًا من الأسهم له ولعملائه، وكانت النتيجة أنه في الاجتماع السنوي العام للمُسهِمين الذي عقد في السابع من ديسمبر 1877، تم - بالإجماع - قبول الاقتراح الذي طرحتُهُ على الاجتماع وأسماء مجلس الإدارة الجديد. وانتُخب الأشخاص الآتية أسماؤهم:

- السيد ويلسون - رئيس مجلس الإدارة.

- السيد ج. زيرفوداتشي.

- السيد سورسوق.

- دكتور فورنهيرست.

- السيد أ. كابرارا.

وكانت إحدى التعديلات في النظام الأساس تتعلَّق بمكافأة أعضاء مجلس الإدارة، بحيث تكون بمعدَّل جنيهٍ إسترلينيٍّ لكل عضوٍ عن حضور كل اجتماعٍ لمجلس الإدارة، بدلًا من خمسةٍ بالمئة من إجمالي الإيرادات التي كانت تُدفع في الماضي، وأن تكون مدةُ تعيين كل مديرٍ عامين؛ بدلًا من خمس سنواتٍ على النحو الذي كان معمولًا به حتى وقتها.

وقد لاقت الإصلاحات والتعديلات المُتَّفق عليها استحسانًا كبيرًا، ليس من جانب المُسهِمين جميعًا فحسب؛ ولكن أيضًا من جانب الصحف المحلية التي كانت كريمةً لدرجة ربط اسمي بالموضوع بصفتي المُسهِم الوحيد الذي عمل لفترةٍ طويلةٍ على الأمر، وكانت لديه الشجاعة للهجوم وتفكيك المجموعة القويَّة التي كانت تُدير الأمور حتى ذلك الوقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قابلتُ السير ريتشارد بيرتون(133) للمرة الثانية في أبريل، وكان أوَّل لقاءٍ لي معه في العام السابق، عندما جاء إلى مصر لمحاولة حثِّ الخديوي إسماعيل باشا على الاهتمام بمخطَّطٍ يتعلَّق بمناجم الذهب في أرض مدين. لكن الأمر - لسوء الحظ - وبعد إنفاق مبلغٍ مُعيَّنٍ من المال، انتهى إلى لا شيءٍ(132).

كان السير ريتشارد عائدًا من البعثة، عندما وصلت الليدي بيرتون قادمةً من ترييستي لمقابلته، وكان من دواعي سروري أن أتعرف إليها في القاهرة.

أدهشني السير ريتشارد كرجلٍ رائعٍ ذي شخصيةٍ هائلةٍ، وذكَّرني بجوردون باشا في صراحته الواضحة، فقد كانت معارفه مذهلةً؛ لكنَّ العجيب أنه كان مؤمنًا بالخرافات، وهو خللٌ شائعٌ بين الذين عاشوا وارتبطوا ارتباطًا وثيقًا بأمم الشرق. وتحدَّثنا بالعربية بعض الوقت، وندمتُ كثيرًا أنني لم أقابله أكثر من ذلك، وقد كانت له - على ما أتذكَّر - مقولةٌ مفضَّلةٌ تقول: «شاوِرْ المرأة، وخالِفْ رأيها»، وتعني: اسألوهن النصيحةَ؛ وافعلوا العكس دائمًا.

وفي شهر مايو، عُينتُ رئيسًا لهيئة الشئون الإدارية، وفي الوقت نفسه حللتُ محل الأمين العام الذي كان حينها في إجازةٍ. وفي يونيو ويوليو، كنتُ أشغلُ ثلاثة مناصب: أمين عام، وكبير محاسبين - والذي كان هو الآخر في إجازة - فضلًا عن وظيفتي الخاصة؛ لذلك يمكنُ التخمين أنَّ وقتي كان مُتخمًا جدًا.

إحدى أكبر الصعوبات التي كان علينا مواجهتها في الجمارك هي تهريب الحشيش، وكانت هذه تجارةً عمل عليها المُهرِّبون ببراعةٍ لدرجة أنها تطلَّبتْ ذكاءً كبيرًا من جانب مفتِّشي الجمارك للكشف عنها.

كان هناك صراعٌ مستمرٌ بين الطرفين، ولكن بعد مرور بعض الوقت، وبعد أن تمَّت مصادرة جميع الأفيون المُكتَشف وفرض عقوباتٍ شديدةٍ على المهربين؛ انخفض الاستيراد غير المشروع بشكلٍ كبيرٍ.

كان البارود والتبغ اليونانيُّ من السلع الأخرى المحظورة في ذلك الوقت، ورغم ذلك كان يتم تهريبهما إلى البلاد، حيث يتم جلبهما في سفنٍ ساحليةٍ صغيرةٍ تصل بعد حلول الظلام مباشرةً، ويتسلَّلون إلى أقرب نقطةٍ ممكنةٍ من الشاطئ؛ ويُفرغون حمولتهم في قوارب تجديفٍ صغيرةٍ يُقودها اليونانيون، الذين يُنزلون التبغ وبراميل البارود في مكانٍ ما على الساحل بين الإسكندرية وأبو قير، ثم يحملونها إلى داخل المدينة على ظهور الإبل، وغالبًا ما كانت تحدث معاركٌ دمويةٌ بين اليونانيين ورجال خفر السواحل، ولكن رغم هذه الاشتباكات استمرت تجارة التهريب؛ لأن الربح كان وفيرًا جدًا.

وفي أوقاتٍ أخرى؛ يحالف الحظ رجال خفر السواحل فيتمكنون من المصادرة، ليس مصادرة البضائع فحسب؛ ولكن السفن التي تحملها أيضًا، حينها تظهر مشكلةٌ كبيرةٌ وارتباكٌ في المحاكم المختلطة(131)؛ لأن جميع السفن الأجنبية وقوارب الصيد والقوارب الساحلية المملوكة لليونانيين والمالطيين كانت معفاةً من التفتيش على يد ضباط الجمارك؛ الذين لا يتمكَّنون من القبض على الشحنة إلا عند إنزالها للبر؛ وهذا بطبيعة الحال أعطى الفرصة لتهريبٍ واسع النطاق؛ فضلًا عن ذلك لا يمكن دخول منزل أيِّ أجنبيٍّ بالقوة دون علم قنصله وموافقته، كما كانوا معفيِّين من الضرائب؛ وفي الواقع كان الأجانب مُميزيَّن بشكلٍ خاصٍ في كل شيءٍ.

كان هيكاليس باشا(130) رجلًا ذا تأثيرٌ كبيرٌ في إدارة الجمارك، وأحد محاميِّ الحكومة المصرية، وكان مفوضًا بشكلٍ خاص إلى الجمارك كمستشارٍ قانونيٍّ.. ولقد كان ذكيًّا للغاية، وماهرًا جدًّا وماكرًا، ودمث الخلق لدرجة أنه تمكَّن من اكتساب عددٍ من الأصدقاء؛ فضلًا عن تعاطف بعض القضاة الذين ترأسوا المحاكم المختلطة وكانوا من جنسياتٍ مختلفةٍ.

وقد ربطتني علاقةٌ جيدةٌ بـهيكاليس باشا، لا سيما في القضايا المُتعلِّقة بالتهريب وما إلى ذلك، حيث كنتُ أترأس غالبًا اللجنة الدائمة للجمارك، وهي نوعٌ من المحاكم يعقدها عددٌ من كبار مسئولي الجمارك لمحاولة الفصل في مثل هذه القضايا، وفي هذا الأمر مكَّنتنا المشورة القانونية لـهيكاليس باشا في أكثر من مناسبة، من إصدار الأحكام والابتعاد عن أي عثراتٍ قد تتسبَّب لنا في صراعٍ مع السُّلطات القنصلية المختلفة، بينما نتَّخذ في الوقت نفسه قراراتٍ كانت تُعدُّ بشكلٍ عامٍ عادلةً ومنصفةً؛ ولكن نادرًا ما تكون لصالح الجُنَاة.

احتل هيكاليس باشا مكانةً اجتماعيةً بارزةً في مجتمع الإسكندرية والقاهرة، وكان أيضًا مالكًا ورئيس تحرير جريدة (فنار الإسكندرية)، وهي صحيفة يومية تُطبع بالفرنسية في الإسكندرية، وكان مُكرَّسًا نفسه لمصالح إسماعيل باشا والسلالة الخديوية.

يقول السير وليم جريجوري، في كتابه عن مصر(129):

«سأجازف بالقول إن تسعين بالمئة من أبناء وطني لا يعرفون بالظلم الذي يعمل في ظله المصريون؛ فالقصور الفخمة التي بناها الأوروبيون ومَن حصلوا على الجنسية الأوروبية - بوسائل مشكوكٍ فيها للغاية في كثيرٍ من الحالات - غير خاضعةٍ للضريبة، بينما المسكن المتواضع للمصريين بجانب هذه القصور، يخضع للضريبة بنسبة 12 في المئة حسب التقييم، لكن كل هذا يجري عبر امتيازاتٍ مقدمةٍ من تركيا، سيُقال إنَّ هذا الأمر سليمٌ ولا غُبار عليه، ولكن من الأفضل تمامًا لإنجلترا أن تأخذ زمام المبادرة، وأنْ نجعل المصريِّين يعلمون بأننا سنقود السعي نحو التخفيف عنهم فيما يخص هذه الامتيازات الأجنبية، وبالحماية المناسبة لهم. وأكرر القول مرةً أخرى؛ إذا مارس مالطيٌّ أو يونانيٌّ أو إيطاليٌّ التجارة أو ساق عربةً تجرُّها الخيول؛ فإنه يكون معفيًّا من الضريبة على المهن باعتباره خاضعًا للحماية الأوروبية؛ لكن لو أن مصريًّا سعى لكسب العيش بالوسيلة نفسها؛ فإنه يكون خاضعًا للضريبة».

في عام 1884م أبرمتِ الحكومة المصرية معاهدة تجارةٍ مع اليونان نصت على تنظيم تجارة التَّبْغ، وجرى رفع الحظر المفروض على استيراده، وتمَّ فرض رسومٍ جمركيةٍ بواقع خمسة قروشٍ لكلِّ أُوقية.

أصبحت رسوم التبغ الآن من أهم بنود إيرادات الحكومة المصرية، وفي عام 1883م بلغت قيمة محصلات الجمارك من التبغ (861695) جنيهًا مصريًّا، وفي عام 1890م بلغت (727788) جنيهًا مصريًا، بينما بلغ إجماليها في عام 1896م نحو (1006526) جنيهًا مصريًّا. وفي عام 1883م بلغ إجمالي الواردات إلى مصر (7866042) جنيه مصري، كما بلغت الصادرات (12177065) جنيه مصري، وفي عام 1904م زادت الواردات إلى (20559588) جنيهًا مصريًّا، بينما بلغت الصادرات (20811000) جنيه مصري. وفي عام 1891م تم حظر زراعة التبغ المحليِّ في مصر تمامًا.

كان المُهرِّبون بارعين للغاية في أساليبهم لتمرير البضائع إلى المدينة، وكانوا يتفنون في خداع مسئولي الضرائب المتمركزين عند البوابات، وفي عدة مناسبات كانت عربةٌ فخمة للحريم يجرُّها زوجان من الخيول الرائعة، تندفع مسرعةً نحو بوابات المدينة، كما لو كانوا قادمين من قصر الخديوي في

الرملة، وكانت الأبواب والنوافذ مغلقةً بإحكام، كما هي العادة عندما تكون هناك سيداتٌ داخل العربة، وتدفع صيحات السائق والمظهر الرائع للعربة حرس البوابة إلى افتراض أنها تخصُّ إمَّا الخديوي أو أحد الباشاوات، وربما يظنون أنها تخصُّ وزيرًا، فيُقدِّم الحرَّاس التحية لهم بالسلاح.

تكرر الأمر لبضعة أشهرٍ بواقع مرةٍ أو مرتين في الأسبوع، ثم في أحد الأيام، بينما كانت العربة تمرقُ عبر البوابات، انزلقت الخيول وسقط كلاهما بقوة على الأرض، وعندها هرع الضابط المسئول عن البوابة إلى العربة لمساعدة السيدات على النزول منها، ولكن عندما فتح الباب لم يجد الجَمَال الذي كان يؤمل رؤيته فيها؛ بل وجد عددًا من عبوات الأفيون والتبغ، وكانت هذه غنيمةً كبيرةً لمسئولي الضرائب الذين استولوا على الخيول والعربة والمحتويات، في حين تمَّ سجن الحوذيِّ العربيِّ والمرافق له.

وحدث مرَّةً أخرى أنَّ جنازةً عربيةً كانت تمر عبر بوابات البلدة، عندما شوهدت عربةٌ بها زوجان من الخيول تقترب بسرعةٍ مرعبةٍ، ونجح السائق في إبقاء العربة في منتصف الطريق الضيق للغاية عبر البوابات، لكن عندما رأى من يقودون الجنازة أنه لا توجد مساحةٌ كافيةٌ لتفادي العربة؛ ألقوا النعش على الأرض وتقهقروا للخلف، واصطدمت العَرَبَة بالنَّعش، وعندما ذهب الحراس لرؤية ما حدث للجثة، وجدوا بدلًا منها حمولةً كبيرةً من الأفيون والتبغ، وكانت قبلها بشهورٍ تمرُّ جنازاتٌ من هذا النوع عبر البوابات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(154) بنجامين فرانكلين بتلر Benjamin Franklin Butler (1818 - 1893): ضابطٌ ومحامٍ وسياسيٌّ أمريكيٌّ، كان جنرالًا سياسيًّا رئيسًا في جيش الاتحاد خلال الحرب الأهلية الأمريكية.

(153) وقعت المعركة في الولايات المتحدة الأمريكية في الثامن من يناير عام 1815 بين الجيشين البريطاني والأمريكي، وقد مُني البريطانيون بهزيمةٍ كبيرةٍ في هذه المعركة.

(152) فندق أنجليتير أو فندق إنجلترا: فندق قديم كان يقع في شارع المغربي المعروف حاليا بشارع عدلي.

(151) هو ميدان المنشية كما أسلفنا.

(150) دورم (Durham): مدينة تقع في شمال إنجلترا، وهي عاصمة مقاطعة درم.

(149) تشارلز جوردون Charles George Gordon (1833 - 1885): عسكريٌّ بريطانيٌّ، كان حاكمًا على جنوب السودان، ثم حاكمًا عامًا لها.

(148) Leghorn مدينةٌ ساحليةٌ إيطاليةٌ، وتدعى بالإيطالية ليفورنو.

(147) افتتح في عهد سعيد سنة 1856م.

(146) انظر: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ص 468. والجالية البريطانية، ص 220.

(145) هوسي ڤيڤيان Hussey Vivian (1834 - 1893): دبلوماسيٌّ بريطانيٌّ، وهو ابن البارون الثاني تشارلز ڤيڤيان، وقد أرسل قنصلًا عامًّا في الإسكندرية في سنة 1878، ثم تولى عدة مناصب دبلوماسية أخرى.

(144) كان مستر سكريفنور Scrivenor خبيرًا بالعمل في الجمارك، إذ تقلَّد عدة مناصب جمركية في البرتغال والبرازيل، وأدخل عدة إصلاحات على مصلحة الجمارك المصرية ولا سيما على حساباتها، غير أنه ما لبث أن اتُّهمت المجموعة الأوروبية التي عاونته في إدارة الجمارك بالرشوة والاختلاس على مرأىً ومسمعٍ منه. انظر: تاريخ مصر في عهد إسماعيل، ص 159. وانظر بعض تفاصيلٍ توليه إدارة الجمارك في «تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا»، 2/161. وانظر: «الجالية البريطانية في مصر» د. ناهد زيان، ص 91، 188.

(143) السلطان حسين كامل (1853 - 1917): ابن خديوي مصر إسماعيل باشا، تعلَّم في مصر، ثم التحق بجامعة أكسفورد، شغل نظارة (وزارة) الأوقاف والمعارف والأشغال العمومية، ثم نصَّبه الإنجليز حاكمًا على مصر، ودُعي بالسلطان خلفًا لابن أخيه عباس حلمي.

(142) استخدم المؤلف عبارة زرائب أوجياس «Augean stables» وأوجياس كما في الأساطير اليونانية القديمة شخصٌ كانت لديه زرائب تضم آلاف الماشية، وقد ظلت نحو ثلاثين عامًا دون تنظيف، حتى صار الروث كثيرًا جدًّا بدرجةٍ يستحيل معها التنظيف، ثم أُوكل أمر إزالتها إلى (هرقليس) الذي لم يتمكَّن من تنظيفها في المدة المحددة إلا من خلال تحويل نهرٍ كبيرٍ ليجرف أكوام الروث.

(141) إحدى مدن إريتريا وتُطل على ساحل البحر الأحمر.

(140) مدينةٌ تقع على البحر الأحمر شمال شرق السودان.

(139) مدينةٌ صوماليةٌ تقع في الشمال الغربي على ساحل خليج عدن المقابل لجيبوتي.

(138) كان هناك تهافت من الدول الغربية على الحصول على المسلات المصرية بشكلٍ كبيرٍ. وللوقوف على تفاصيل نقل مسلة أخرى إلى فرنسا انظر: الرحلة الكبرى للمسلة لروبرت سولين، ترجمة زينب الكردي. وللوقوف على تفاصيل إهداء مسلة أخرى إلى أمريكا يُنظر كتاب: مصر وكيف غُدر بها، ص 136 - 184.

(137) Ferrol: هي إحدى بلديات مقاطعة لاكرونيا في شمال غرب إسبانيا.

(136) السير وليم چيمس إيراسموس ويلسون William James Erasmus Wilson (1809 - 1884): جراحٌ إنجليزيٌّ وطبيب، كانت له إسهمات خيرية كبيرة، منها إنشاء المكتبة الطبية بمتحف هانتيريان بلندن، وفي عام 1878 نال شكر الأمة على تحمله نفقات جلب المسلة المصرية التي نُصبت على جسر التايمز.

(135) بلوتارخ Plutarch (46 - 127م): مفكرٌ ومؤرخٌ يونانيٌّ، تعلَّم الفلسفة وصار من أتباع الأفلاطونية، كما تعلَّم في الإسكندرية، تولَّى بعض الوظائف المحلية في بلاده، وفي نحو سنة 95م صار كاهنًا في معبد دلف.

(134) Douglas Sladen, Queer things about Egypt, 1910.

(133) السير ريتشارد فرانسيس بيرتون Sir Richard Burton (1821 - 1890): رحالةٌ ومستكشفٌ ومستشرقٌ وعسكريٌ إنجليزيٌ، درس عدة لغات،

اشتهر بترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة. وله نحو أربعين كتابًا.

(132) كتب بيرتون عدة كتب عن مَدْيَن منها كتابه: «مناجم الذهب في مدين وأطلال المدن المدينية (The gold - mines of Midian and the ruined Midianite cities) وقد صدر عام 1878.

(131) تأسَّست المحاكم المختلطة 1875 - 1876 بعد مفاوضاتٍ طويلةٍ بين مصر وأصحاب الامتيازات الأجنبية، بموجب ذلك اختصت بمحاكمة الأوروبيين المتهمين بارتكاب جرائم قانونيةٍ وجنائيةٍ. وقد أُبطلت المحاكم المختلطة بموجب معاهدة مونترو 1937، وتعيَّن إغلاقها سنة 1949م.

(130) كان هيكاليس باشا (Haicalis Pasha) مستشارًا لشركة العزيزية للملاحة البخارية في عهد الخديوي إسماعيل الذي اشتراها سنة 1873م، وأصبحت مصلحةٍ حكوميةٍ سميت: «وابورات البوستة الخديوية»، ثم عُيِّن مستشارًا لإدارة الجمارك وإدارة السكك الحديدية، وغيرها من المناصب الحكومية.

(129) Sir William Henry Gregory, Egypt in 1855 and 1856, publication date 1859.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

1878 - 1879

امتياز البارود - ألفريد شوتز - كورتيس وهارڤي - ألفريد چارود - إسكندر بك فهمي - مارتن آرشر شي - سيطرة جوشين وچوبير - إسماعيل باشا - نوبار باشا - ثورة الضباط المصريين - ريفرز ويلسون - شريف باشا - التعيين مراقبًا لإدارة البارود - تنحية الخديوي إسماعيل باشا - الأمير توفيق باشا يصبح الخديوي - مقابلة مع إسماعيل باشا - رحيل إسماعيل باشا وحاشيته - ما فعله إسماعيل باشا لمصر - الأمير إبراهيم باشا حلمي - النقيب برودريك.

عندما انضم السيد سكريفنور إلى إدارة الجمارك المصرية في عام 1877، لم يكن مسموحًا رسميًّا بدخول البارود بأي شكلٍ من الأشكال إلى مصر؛ لكن نظرًا لأن الأوروبيين والعرب على حدٍّ سواءٍ كانوا يذهبون بكثرةٍ لرياضة الصيد، فلا يمكن إلا أن نفترض أنَّ البارود الذي يستخدمونه كان مُهرَّبًا، وإدراكًا منه أنَّ أمامه فرصةً جيدةً لزيادة الإيرادات؛ فقد اقترح السيد سكريفنور مخططًا يمكن من خلاله دخول البارود للأغراض الرياضية تحت السيطرة المباشرة للسلطات الحكومية، وبهذه الوسيلة منع قدرًا كبيرًا من البضائع المهربة.

وقد وافق وزير المالية تمامًا على هذا المخطط، على أساس أن إدارة الجمارك ستقوم بالتنظيم والتأكُّد من تنفيذ التفاصيل بشكلٍ صحيحٍ، وقد تم تكليفي بمهمة وضع مخططٍ تفصيليٍّ، يمكن بمقتضاه تسهيل بيع البارود لأغراض الرياضة للأوروبيين ولأهل البلاد في الإسكندرية والقاهرة، مع إبقاء البيع تحت السيطرة المُحكَمَة للسلطات.

وعندما تم ذلك، وضع وزير الحربية تحت تصرفنا حصنًا حكوميًا، كان من المفترض أن نُخزِّن فيه كل البارود الوارد من الخارج، وتم اتخاذ الترتيبات اللازمة مع معظم صانعي الأسلحة من الأوروبيين والمحليين، حيث سُمح لهم ببيع بارود الصيد بموجب تصريحٍ خاصٍّ من السلطات.

وفي غضون ذلك، كتبنا إلى بعض مُصنِّعي البارود الرئيسين في أوروبا للاستفسار عن أسعارهم، وردَّا على إحدى الرسائل للسادة كورتيس وهارڤي، الشركة العريقة المعروفة؛ استقبلنا زيارةً من مُمثِّلهم السيد إدوارد كونستابل كورتيس، الذي تمكَّنا معه من إجراء جميع الترتيبات الخاصة بالشحنة الأولى من البارود.

وعندما وصلت بوليصة الشحن في الوقت المناسب، وجدنا أنفسنا في مأزقٍ مضحكٍ إلى حدٍّ ما؛ لأنه لم يفكر أحدٌ في الدفع مقابل الشحنة، كان كلُّ شيءٍ قد استقرَّ؛ لكن هذا الأمر المهم كان قد غُفل عنه تمامًا، ولمَّا لم يكن هناك اعتمادٌ لمثل هذه النفقات في الميزانية، ووزير المالية لن يأذن بالدفع من تلقاء نفسه؛ لذلك وجدنا أنفسنا في طريقٍ مسدودٍ، ومن أجل تجنُّبِ الظهور بمظهر الحمقى في حال رفض بوليصة الشحن؛ فقد دفعتُ المبلغ بصفةٍ شخصيةٍ عن طريق شيكٍ على بنك كريديت ليونيز، وبالطبع استعدتُ المبلغ بعد فترةٍ وجيزةٍ.

ولمَّا كان شريف باشا(190) رئيس الوزراء صيادًا كبيرًا؛ فقد تمَّت بشفاعته الموافقة على المخطط، وعُيِّن السيد ألفريد شوتز مديرًا لإدارة البارود، وكان السيد شوتز عضوًا في إحدى العائلات الهولندية العريقة التي استقرَّت في مصر لسنواتٍ عدةٍ؛ أمَّا شقيقه فكان هو القنصل الهولندي في الإسكندرية، وسارت الأمور بشكلٍ طيبٍ بعض الوقت، ثم أُخذت إدارة البارود من أيدي سلطات الجمارك، ومُنحت كامتيازٍ شخصيٍّ للسيد ألفريد شوتز.

وقد طوَّر شوتز العمل عدة سنواتٍ، ولكن لسوء الحظِّ وبسبب طباعه حيث كان رجلًا مرحًا ومحبوبًا وهادئًا؛ لم يستطع السيطرة بكفاءة على تجار التجزئة وغيرهم من الذين حصدوا المكسب الذي كان يجب أن يكون له، وفي النهاية، ومن أجل تعويض نفسه؛ عرض بيع امتيازه فاشترته شركة كورتيس وهارڤي التي احتفظت بـالسيد شوتز كوكيلٍ لها في مصر.

ثم جرى إلحاق قسم البارود بوزارة الحربية، واستمرت تجارة التجزئة كما كانت من قبل. وفي عام 1892 اتصل اللورد كتشنر(189) - الذي كان حينها سردار الجيش المصري - بـكورتيس وهارڤي بهدف الحصول على الموافقة على إلغاء الامتياز؛ لأنه رغب لأسبابٍ خاصةٍ به في الاحتفاظ بتجارة البارود بأكملها بين يدي وزارة الحربية المصرية.

تمسُّكًا بالروح الكريمة التي تميز تعاملاتهما في العالم التجاري، وتماشيًا مع الآراء التي عَبَّر عنها اللورد كتشنر؛ تنازل السادة كورتيس وهارڤي عن الامتياز الذي اشتروه من السيد شوتز، دون المطالبة بأيِّ تعويضٍ مهما كان، واستمروا في إرسال شحناتهم بانتظامٍ إلى وزارة الحربية في القاهرة، حتى عام 1900 عندما تلقوا إخطارًا يفيد بأن جميع الشحنات التالية ستُوجَّه إلى شركة الملح والصودا المصرية؛ التي كانت تعمل كوكيلٍ للحكومة المصرية لصالح البيع بالتجزئة، وهي لا تزال تقوم به حتى الآن(188).

إنَّ مصر بشكلٍ عامٍ؛ بلدٌ جيدٌ لرياضة الصيد، وجميع سكانها تقريبًا من الأوروبيين والمصريين صيادون إلى حدٍّ ما، ويمكن العثور على طيور السمان

بأعدادٍ كبيرةٍ، ويوجد كثيرٌ من طائر الشنقب(187) في الدلتا، كما توجد طيورٌ أخرى، مثل طائر القطا(186) والحجل(185) والبط البري والزقزاق(184). إلى جانب أعدادٍ كبيرةٍ من الطيور من فئاتٍ عدةٍ تمرُّ عبر وادي النيل، سواء في الذهاب إلى المناخات الباردة؛ أم عند العودة منها.

كما يوجد عددٌ قليلٌ جدًّا من الحيوانات البرية في مصر؛ على حين تتوافر الخنازير البريَّة والضباع والماعز البري وابن آوى والذئاب والقطط البرية بكثرةٍ، ويوجد نادٍ للرماية على الحَمَام بالرَّمْلة قرب الإسكندرية؛ حيث تُقام بعض المباريات الممتازة.

حتى هذا الوقت، كانت إدارة السكك الحديدية في حالةٍ من الفوضى، إلى أن عُيِّن رجل إنجليزيٌّ يُدعى: ألفريد چارود رئيسًا للمهندسين، وقد نجح في نهاية المطاف، وبفضل كثيرٍ من العمل الشاق في إعادة تنظيم إدارته وتحسين الخدمات؛ كانت له مسيرةٌ مهنيةٌ رائعةٌ في روسيا قبل مجيئه إلى مصر، ولسوء الحظ، فبعد فترةٍ من الوقت داهمته الحُمَّى إثر ضربة شمسٍ، وعلى إثر ذلك ترك الخدمة، وقد أعرب جميع الموظفين عن أسفهم لرحيله، وذهب للعيش في نيوبورت(183)، بلدة مونماوث(182).

كنَّا أصدقاء مقربين، وبعد ذلك بسنواتٍ قضيتُ معه هناك بعض الأيام السعيدة، وأتذكر دائمًا ببغاءَه الذي كان يستقبلني عادةً بقوله: «تعال وتناول شرابًا، أيها الرجل العجوز».

كما كان لي صديقٌ قديمٌ آخر هو فريد چورچ، وكان كبير المهندسين في خدمة التلغراف المصرية التابعة لإدارة السكك الحديدية، وقد أمضى سنواتٍ عدَّةً في مصر، ويتحدَّث العربية بشكلٍ جيدٍ جدًا، وكان معروفًا لدى أهل البلاد ومحبوبًا بكثرةٍ؛ إذ كان يمتلك شخصيةً هادئةً، وكانت نصيحته لأيِّ شابٍ إنجليزيٍّ وصل لتوِّه إلى البلاد أن يأخذ الأمور بهدوءٍ، ويؤدي عمله جيدًا، وأن يكون منصفًا دائمًا مع أهل البلد، وفي نهاية المطاف؛ حصل على معاشه التقاعدي، وعاد إلى منزله في إنجلترا ليعيش ويُتوفَّى هناك.

بعدها تم تعيين إسكندر بك فهمي الذي أصبح باشا بعد ذلك - وهو قبطيٌّ يتحدَّث الإنجليزية والفرنسية بشكلٍ حسنٍ وجيدٍ - رئيسًا لقلم إدارة المرور، وكان رجلًا استثنائيًا ومنظمًا ورائعًا، وظل لسنواتٍ على رأس هذه المصلحة؛ لكنه تقاعد الآن ويحصل على معاشٍ تقاعديٍّ يستحقه تمامًا ويعيشُ في القاهرة.. وهو من أقدم أصدقائي الذين أُكنُّ لهم احترامًا وإعجابًا كبيرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أغسطس 1878 تم تعيين السيد مارتن آرشر شي مفتشًا عامًا للجمارك تحت إشراف السيد سكريفنور، وكان قبل ذلك مُلحقًا بالجمارك الصينية تحت

قيادة السير روبرت هارت، وقد ترددت شائعات بأنه كان له صهرٌ في وزارة الخارجية في الوطن، وسرعان ما انتشر هذا الخبر بين الموظفين المحليين، الذين كان لديهم انطباعٌ بأن وجود قريبٍ له في منصبٍ رفيعٍ في وزارة الخارجية الإنجليزية؛ سيمنح المفتش العام الجديد نفوذًا وسلطةً أكبر بكثيرٍ من رئيسه السيد سكريفنور، وبالطبع لم يكن الأمر كما صوروه؛ لكن هذه الشائعات كان لها تأثيرٌ سيءٌ على بعض أهل البلاد، الذين لم يكن يسعدهم شيءٌ أكثر من إثارة الفتنة، خاصةً عندما يمكنهم وضع رجلٍ إنجليزيٍّ في مواجهةٍ مع انجليزيٍّ آخر، وأعتقدُ أن أحداث العام التالي كانت في الحقيقة نتيجةً للإشاعة السخيفة التي ذكرناها للتوّ.

في هذا الوقت تقريبًا، تبيَّن أنَّ المخطط المالي الذي قدَّمه السادة جوشين(181) وچوبير(180) في عام 1876 لم يكن يعمل بشكلٍ جيدٍ؛ ومن ثم شُكِّلت لجنة تحقيقٍ كان السيد ريفرز ويلسون(179) أحد أعضائها، وكان قد شغل سابقًا منصبًا مهمًا في الخزانة الإنجليزية.

وقد أعدَّت هذه اللجنة تقريرًا لتسوية مالية مصر على أسسٍ سليمةٍ، وعُرض على الخديوي إسماعيل باشا؛ فقرَّر تقديم عطاءاتٍ شخصيةٍ معينةٍ منه، وتنازل لهذه اللجنة المالية عن جميع ممتلكاته الخاصة. وتأسَّى به وريثه الأمير توفيق، والأمير حسن - الابن الثاني للخديوي - وكذلك والدته.

وبعد ذلك شكَّل الخديوي وزارةً جديدةً برئاسة نوبار باشا(178)، وهو أرمنيٌّ، والسيد ريفرز ويلسون وزيرًا للمالية بموافقة الحكومة البريطانية، والسيد دي بلينير(177) الفرنسي وزيرًا للأشغال العامة.

كان نوبار باشا من كبار رجال مصر، وأعني بذلك المنصب الذي كان يشغله؛ لكن هذا لم يفاجئني قط لأنه يمتلك الصفات التي تبعث على الإعجاب به، فقد كان الأمر في رأيي حالةً من البراعة في مقابل الشخصية؛ فالأولى هي هبةٌ مطواعةٌ يمكن للرجل بواسطتها أن يُسيطر على الجموع ويكسب ثقةً ومكافأةً كبيرةً دون أن يكون مفيدًا لبلده؛ بينما الشخصية قد تكون أقل لمعانًا؛ لكنها أعمق بكثيرٍ في تأثيرها، وهو يمثل أصلًا ذا قيمةٍ كبيرةٍ في الحياة الوطنية.

جاء نوبار إلى مصر عام 1845 ليعمل مترجمًا في القصر، وكان قد نشأ في فرنسا وأصبح عالمًا بارعًا، ويتحدث الإنجليزية بلباقةٍ، وأعتقد أنَّ عمَّه(176) كان هو الآخر في خدمة محمد علي الذي امتدَّ امتنانه إلى تلك العائلة، وسرعان ما لفت نوبار الانتباه بطاقته الوفيرة؛ فعيَّنه محمد علي سكرتيرًا لابنه الأكبر إبراهيم باشا، ورافق الأخير إلى القسطنطينية وأوروبا.

بعد وفاة إبراهيم باشا قام عباس باشا الأول وسعيد باشا بتوظيف نوبار، ولفترةٍ من الوقت كان مديرًا لسكك حديد الدولة، وفي النهاية أصبح وكيلًا سريًّا لإسماعيل وأرسل لإجراء بعض المفاوضات المهمة، من بينها تلك المتعلقة بوراثة عرش مصر، وبسببِ مهارته الدبلوماسية وفهمه لطبيعة الحكام الشرقيين؛ استطاع الحصول على الفرمان اللازم لمنح لقب: (الخديوي)، وكذلك السماح بتولِّي الابن البِكر ولاية العهد(175).

وعندما عاد من القسطنطينية أصبح وزيرًا لأول مرةٍ، فتقدَّم سريعًا، وبرز دوره الفعال في إنشاء المحاكم المختلطة التي لم يستطع إسماعيل التنبؤ بتأثيرها، ولم يكن نوبار ليتراجع عنها؛ نظرًا لأن غايته العظيمة التي كبرت إلى جانب ثروته ومكانته؛ كانت هي العمل على تقييد سلطة الخديوي.

أنا شخصيًّا لا أستطيع أن أتخيَّل كيف كان بإمكانه - بمعرفته الأكيدة عن المصريين - أن يرغب في التقليل من هيبة سيده، علمًا بأنه في جميع البلدان الشرقية كان حكم الفرد المطلق - الأوتوقراطية - المقترن مع قدرٍ من العدالة بالتوافق مع الواقع؛ هو النظام الأنسب، وربما يمكنني أن أشمل بلدانًا أخرى غير شرقيةٍ؛ لأنه إلى أن تتطوَّر البشرية بصورةٍ أكبر بكثيرٍ مما هي عليه الآن؛ فإن الأوتوقراطية ستكون - بالتأكيد - أقل أشكال الاستبداد ضررًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويبدو أيضًا أنه مع جميع الحكومات التي يُستحسن فيها استخدام القوة في الحكم؛ يجب اللجوء إلى الرشوة بشكلٍ أو بآخر؛ فالرشوة اللطيفة تصرفُ الغضب كما قال بعض الحكماء. وبالعودة إلى نوبار؛ فإنه اعتقد يقينًا أن المسئولين الأوروبيين كانوا شرًّا لا غنى عنه في حالة مصر؛ لكنه لم يكن متوافقًا معهم دائمًا فيما يتعلَّق بالطريقة التي ينبغي أن يمارسوا بها سلطتهم، وقد أدَّى هذا إلى بعض الاحتكاك.

كان من أول أعمال توفيق باشا عندما أصبح حاكمًا؛ إرسال برقيةٍ إلى نوبار في باريس، تمنعه من العودة إلى مصر حتى تأتي تعليماتٌ أخرى، ولا شك أنَّ توفيق قد شكَّ في تآمره لإقالة إسماعيل، وربما اعتقد أنَّ وجود مثل هذا الرجل في مصر لم يكن في مصلحة منصبه، وأتخيل أيضًا أنَّ هناك دوافع شخصية للتحيُّز وعدم الثقة أدَّت إلى نفيه لنوبار؛ ومع ذلك فقد سمح له فيما بعد بالعودة.

عندما تمزق جيش هيكس باشا(174) إلى أشلاء؛ رأت الحكومة البريطانية وجوب إخلاء السودان من القوات المصرية؛ لكن شريف باشا ورياض باشا(173) - رؤساء الوزراة - رفضا التوقيع على المرسوم؛ فتم استدعاء نوبار لتشكيل وزارةٍ وتنفيذ سياسة حكومة صاحبة الجلالة.

وظلّ نوبار في السلطة عدة سنواتٍ؛ ولكن توتَّرت العلاقات بينه وبين الخديوي، وطُلب منه الاستقالة في عام 1888، وقد تُوفي نوبار باشا في باريس بعد عشر سنوات، بعد أن رأى قوة الخديوي تتقوض شيئًا فشيئًا، ورأى أثر ذلك على مصر أيضًا، وربما ندم على مشاركته في تحقيق هذا الأمر.

كان سمو الخديوي قد اتخذ قراره وقتها بالقبول بحكومةٍ دستوريةٍ على النظام الأوروبي، وبصفته أوتوقراطيًّا فلابد أنَّ هذا القبول قد تسبَّب له في ضغطٍ وإجهادٍ هائلٍ، وأنا على يقين أنه لو عُومل بالاحترام المناسب لمنصبه، وأُظْهِرَت له روح تصالحيةٌ من وقتٍ لآخر؛ لكان النظام بأكمله قد حقَّق نجاحًا كاملًا؛ ولكنَّ نوبار باشا كان معاديًا له، وعقد عزمه على أن يُقلِّل من هيبة الخديوي، وأن يحاول تقليص سلطته، وأن يمنحه مجرد منصبٍّ شكليٍّ يرتبط بالحكومة، وبطبيعة الحال كان هذا الموقف مثيرًا للاستياء بدرجةٍ كبيرةٍ، وكانت النتيجة نزعةً مناوئةً تجاه الوزارة التي يترأسها.

وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، قام حوالي ثلاثمائة ضابطٍ مفصولٍ بمظاهرةٍ أمام وزارة المالية وأهانوا نوبار باشا والسيد ريفرز ويلسون(172)، وفي اليوم التالي استقال نوبار باشا الذي كان وزيرًا مكروهًا، وكذلك السيد ريفرز ويلسون والسيد دي بلينير.

ثم شكَّل الخديوي وزارةً جديدةً يرأسها نجله الأمير توفيق(171)، بينما استأنف السيد ريفرز ويلسون ودي بلينيه مناصبهم في الوزارة؛ لكنها لم تدم طويلًا، حيث تمَّ حلُّ الوزارة في أبريل من ذلك العام، وجرى تشكيل وزارة محلية بدلًا منها يرأسها شريف باشا(170).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان شريف باشا من هؤلاء الرجال الذين يمتلكون صفات تجعلهم موضع إعجابٍ حتى من جانب أعدائهم، وقد تلقَّى تعليمه في فرنسا، وعند عودته إلى مصر تزوج سيدة فرنسية هي ابنة العقيد سيف الذي أصبح فيما بعد (سليمان باشا)(169).

شغل شريف باشا مناصب: وزير الداخلية ووزير الخارجية، كما شغل عدة مراتٍ منصب رئيس الوزراء، وعُيِّن مرتين وصيًّا على العرش خلال غياب الخديوي إسماعيل باشا في أوروبا، وكان على درجةٍ عاليةٍ من النزاهة والشرف والصراحة والإخلاص المطلق، لقد كان بايارد(168) عصره في مصر. كما كان وَفِيًّا للصيد والقنص بجميع أنواعه، واعتُبر من أفضل الرماة في مصر، إلى جانب شغفه الكبير بالإطار الشرقيِّ للعقل فيما يتعلَّق بالمستقبل، أي إنه كان قدريًا بالغ الإيمان بالقضاء والقَدَر.

تعرَّفتُ على ابنه محمد بك شريف - وكنتُ مقربًا جدًا منه - وهو الذي شغل بعض الوقت منصب وكيل وزارة الخارجية للشئون الخارجية، وسمعتُ منه كثيرًا عن والده، وهو ما أكَّد الاحترامَ الكبيرَ الذي أُكنُّه له.

عندما كتبتُ عن نوبار باشا؛ ذكرتُ أن شريف باشا استقال بدلًا من التوقيع على مرسوم إخلاء السودان والتخلِّي عنه بتحريضٍ من الحكومة البريطانية، وقد دافع عن موقفه بصراحةٍ مشرفةٍ معتادةٍ، وذكَّر أنه رغم اضطراره إلى هجر الخديوي، الذي يدين لعائلته بكثيرٍ من الفضل؛ إلا أنَّ مثل هذه الأزمةَ كانت مؤلمةً للغاية بالنسبة إليه؛ ولكن بصفته مصريًّا وجنديًّا قديمًا ومسئولًا رفيعًا لم يكن أمامه خيارٌ آخر؛ إذْ كان يرى أن المرسوم قد أسهم في خراب بلاده، وأعلن أنَّ كل إنسانٍ هو المسئول عن صون شرفه.

تُوفي شريف عام 1887 في جراتز(167) بالنمسا، وأُحضر جثمانه إلى مصر في إحدى بواخر شركة ليويد النمساوية، ودُفن في الإسكندرية، وكانت الجنازة من أكثر المراسم فخامةً، وتم إغلاق جميع المحلات التجارية في الشوارع الرئيسة التي مرَّ بها الموكب، وتبع الموكب الجنائزيَّ أناسٌ من جميع الجنسيات، بما في ذلك الوزراء والمسئولون الحكوميون وضباط الجيش وشيوخ الإسلام والعلماء وأعضاء جميع الهيئات الدينية، وكان محمد بك شريف في صدارة الجنازة خلف الجثمان مباشرةً وبرفقته السيد ألكسندر أديب، وهو صديقٌ قديمٌ لوالده من ناحيةٍ، وأنا من الناحية الأخرى.

وفي مارس(166) تم تعييني رئيسًا للمحاسبين، وفي الوقت نفسه حللتُ محل المراقب العام للجمارك، وفي مايو تم تعييني أيضًا مراقبًا لقسم البارود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفيما يتعلَّق بالوضع السياسي لم يطرأ أي تغيير حتى 19 يونيو، عندما ذهب القنصلان العامان: الإنجليزيُّ والفرنسيُّ معًا إلى قصر عابدين في القاهرة، ونصحا الخديوي إسماعيل باشا بالتنازل عن العرش لصالح ابنه توفيق باشا، وأشارا إلى أنه في حال رفضه التنازل؛ ستضطر حكوماتهم إلى اللجوء إلى السلطان(165)، وفي هذه الحالة سيتم عزله بالتأكيد، ولن يكون قادرًا على ضمان خلافة نجله على العرش، ولا يمكنه ضمان حصوله على معاش تقاعدٍ، وفي 26 يونيو، خلع السلطان إسماعيل باشا بالإرادة الإمبراطورية، ومنح الخديويةِ لتوفيق باشا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أيامٍ قليلةٍ من مغادرة سمو إسماعيل باشا مصر، تشرَّفتُ أنا والسيد سكريفنور - المدير العام للجمارك - باستقبال سموِّه لنا في لقاءٍ خاصٍّ في قصر عابدين، وكان الباشا دائمًا أكثر لطفًا وودًا مع السيد سكريفنور، الذي

اعتقد أن جزءًا من واجبه هو طلب مقابلةِ وداعٍ للباشا، وذلك ليشكره على لطفه السابق وحسن نيته تجاهنا جميعًا.

كان سموه جذَّابًا كالعادة، ويتحدَّث بلطف عن الأشياء بشكلٍ عام، وبدا مبتهجًا للغاية يتمتع بسحرٍ كبيرٍ في الأسلوب، ويجعلك تشعرُ أثناء المحادثةِ أنك حظيتَ باهتمامه الكامل، وعند مغادرتنا شكر الخديوي السيدَ سكريفنور مرةً أخرى على ما أنجزه في الجمارك، وتمنَّى لنا السعادة والازدهار.

أتذكَّر في تلك المقابلة أنَّ كلًّا منا قد حظي بواحدٍ من السيجار الرائع الخاص به؛ وكان يحمل معه دائمًا نوعين من السيجار في جيبين من جيوبه، أحدهما من علامةٍ تجاريةٍ عاديةٍ جيدةٍ؛ ولكن النوع الآخر كان فائق الفخامة، وأؤكِّدُ أنَّنا قدَّرنا الامتياز الذي اختصنا به، ولا أعتقد أنني دخَّنتُ أفضل من ذلك السيجار قط.

غادر إسماعيل باشا الإسكندرية متوجهًا إلى نابولي مع حريمه وحاشيته وولديه: الأمير حسين باشا والأمير حسن باشا في اليخت الخديوي المحروسة في 30 يونيو 1879م(164).

والحقيقة أنَّ إسماعيل باشا قد قام في عهده بأشياء رائعة لمصر، وخاصة في قسم الأشغال العامة؛ فتمَّ توسيع السكك الحديدية، وإنشاء الموانئ، ونصب المنارات، وكذلك حواجز الأمواج، والأرصفة الجديدة، والقنوات الصالحة للملاحة.

كما أدخل زراعة القطن والسكر، وأدخل كثيرًا من التحسيناتٍ في جميع أنحاء البلاد، وبعضًا منها في الإسكندرية، أمَّا القاهرة فقد تحوَّلت إلى مدينةٍ رائعةٍ وفريدةٍ؛ لكن الشيء الوحيد الذي برز بشكلٍ بالغٍ في عهده هو جعل قناة السويس واقعًا، كما سعى إلى قمع تجارة الرقيق في السودان، من خلال السير صموئيل بيكر(163) والجنرال جوردون باشا.

وقبل عام 1876 لم تكن هناك محاكم عدلٍ نظاميةٌ في مصر، وقبل هذا التاريخ لم يكن من الممكن محاكمة الجناة من الجنسية الأوروبية إلا أمام محكمتهم القنصلية؛ ولكن في ظلِّ نظام إسماعيل، تم إنشاء محاكم مختلطة للحكم في القضايا بين المواطنين والأجانب، ومع ذلك استمرَّت كل قنصليةٍ في ممارسة الولاية القضائية على القضايا بين أفراد الجنسية نفسها، وفي عهده كان بإمكان الرجل الإنجليزيِّ السفر بمفرده في جميع أنحاء البلاد في أمانٍ تامٍّ، وكان يفي بكلمته وعهده، ولسوء الحظِّ فإنَّ هذا لم يعد هو الحال في الوقت الحاضر.

في وقتٍ لاحقٍ رأيتُ إسماعيل باشا كثيرًا في نابولي، وكرَّمني بدعواتٍ للغداء في عدة مناسباتٍ في لافاڤوريتا وهو قصر يتبع ملك إيطاليا(162) وتفضل بوضعه تحت تصرُّف الخديوي السابق، وأثناء وجودي هناك، أصبحتُ مقرَّبًا للغاية مع صاحب السمو الأمير إبراهيم باشا حلمي الابن الأصغر للخديوي، وهي صداقةٌ استمرت عدة سنواتٍ، وكان هذا الأمير هو الذي كتب كتابًا عنوانه: «أدب مصر والسودان من الأزمنة الأولى حتى عام 1885 إجمالًا»، وهو ببليوجرافيا تضم أوراق البردي القديمة والمخطوطات والخرائط وما إلى ذلك، وقد أهدى الكتاب إلى والده، وقدَّم لي واحدةً من النسخ الأولى، والتي أعتزُّ بها كثيرًا.

كان الأمير قد وُلد عام 1859، وتلقَّى تعليمه في إنجلترا، ودخل أكاديمية وولويتش العسكرية(161)، حيث اجتاز امتحاناته في سلاح المدفعية؛ ولكن لكونه ليس من رعايا جلالة ملكة بريطانيا؛ لم يستطع أن يمارس العمل هناك، وعندما اندلعت الأزمة في مصر عام 1882، تطوَّع الأمير بخدماته لشقيقه الخديوي توفيق؛ لكن عرضه قوبل بالرفض، ورقَّاه السلطان عبد العزيز إلى رتبة مشير، ولو عاش هذا الأخير لكان زوَّجَ إبراهيم حلمي من ابنته(160).

قبل وقتٍ قصيرٍ من مغادرة سمو إسماعيل باشا نابولي إلى القسطنطينية، أعرب القنصل البريطاني الكابتن برودريك هارتويل، - الذي كنتُ مقرَّبًا منه كثيرًا - عن رغبته في أن أقدِّمه إلى سُموِّه، حيث كان يُكِنُّ له إعجابًا كبيرًا. لذلك انتهزتُ الفرصة الأولى لإبلاغ الكونت سورماني الذي كان يعمل ياوران الباشا؛ فنقل الأمر إلى إسماعيل باشا الذي أعرب عن ترحيبه برؤية القنصل الإنجليزي، وفي اليوم التالي قصدنا «فندق رويال»، ووصلنا في الموعد المحدد في تمام الساعة الرابعة مساءً، وأُدخلنا على الفور إلى حضرة إسماعيل باشا.

كانت غرف الاستقبال الرائعة في الطابق الأول من الفندق يشغلها سُمُوَّه بشكلٍ عامٍ، وأقام بها مراسم استقبالٍ قصيرةً، مستقبلًا فيها أصدقاءه الذين لا يرغب في تكبدهم عناء الذهاب إلى قصر لافاڤوريتا، حيث كان يقع على بعد بضعةِ أميالٍ خارج المدينة.

وبعد أن قدَّمتُ الكابتن هارتويل، صافحه سُمُوِّه وذهبا إلى الطرف الأبعد من الصالون الكبير، حيث جلسا لأكثر من نصف ساعةٍ يتحدَّثان بحميميةٍ كبيرةٍ، وبعد توزيع المرطبات على الحاضرين انسحب إسماعيل باشا وحاشيته، وكان الكابتن هارتويل مفتونًا بهذا المقابلة، وشكر لي بشدةٍ لتقديمي إياه إلى سموه.

بعد أيامٍ قليلةٍ دُعيتُ إلى تناول الغداء في لافاڤوريتا، حينها سألني سموُّهُ عن الكابتن هارتويل الذي بدا أنه كان معجبًا به، فقد كان يرغب في معرفة كل شيءٍ عنه، وما إذا كان له أيُّ تأثيرٍ في لندن، وإذا ما كان صحيحًا أنَّ صهره كان وكيلًا للورد سالزبوري.

أتذكَّر المرة الأولى التي تشرَّفتُ فيها بدعوتي لتناول طعام الغداء في لافاڤوريتا، وطُلب منِّي أن أكون حريصًا للغاية عند التحدُّث مع سموِّه وعدم ذكر اسم مصر أبدًا، إذْ كانت الكلمة الوحيدة المحظورة في القصر.

وقبل يومين من رحيل الخديوي السابق إلى القسطنطينية، ذهبتُ إلى القصر لتوديعه وتوديع جميع أصدقائي هناك، وحينها طُلب مني البقاء لتناول الغداء. وبدا سموُّه مسرورًا ومبتهجًا بشكلٍ خاصٍّ، وكالعادة كانت المأدبة جيدةً بدرجةٍ تفوق الوصف، وعند تناول الحلوى شربنا متمنِّين لصاحب السمو الصحة الجيدة ورحلةً ماتعةً وأن نلتقي به ثانيةً، وأُفرغت كئوس الشمبانيا عند هذا النخب، ونظر بعضنا إلى بعضٍ في صمتٍ؛ كنا جميعًا نتمنى أن يكون اللقاء القادم في مصر؛ فقد كان هناك اعتقادٌ سائدٌ بين حاشية الخديوي السابق أن فكرته وأمله الكبير في الذهاب إلى القسطنطينية؛ على اعتبار أنها ستكون مجرد نقطة انطلاقٍ للعودة مرةً أخرى إلى مصر بصفته (الخديوي).

كان يوم مغادرته نابولي على متن الباخرة الإيطالية «ريجينا مارغريتا»، التي كان قد استأجرها من أجل أن تُقِلَّه ومعه الأمراء والحريم والحاشية يومًا لن أنساه أبدًا.. كان المشهد على متن الباخرة خلَّابًا للغاية، حيث وصل كل فردٍ من الحاشية برفقة سيدةٍ محجبةٍ وخصيان وعبيدٍ، إلخ.. ورافقني القبطان هارتويل على متن السفينة، وبعد الغداء كنَّا من بين آخر من غادر السفينة، وصافحنا الخديوي السابق بحرارةٍ عندما قلنا له: «وداعًا».

وثبت بالفعل أنه الوداع الأخير، حيث توفي إسماعيل باشا في القسطنطينية في 2 مارس 1895، ودُفن الجثمان بعد نقله إلى مصر في مسجد محمد علي بالقاهرة(159).

ومما يمكن أن أستنتجه من كتابات المؤرخين المعاصرين عن مصر؛ أنهم لا يُفكِرون في إسماعيل باشا بشكلٍ إيجابيٍّ؛ ويبدو أن جميعهم تقريبًا يعتبرونه رجلًا كل إنجازه الشخصي هو إغراق بلاده في حالةٍ من المديونية التي تسبَّبت في خرابها التام، والحقيقة أنه ورث ديونًا وبشكلٍ خاصٍّ عقدًا سيئًا يتعلَّق بقناة السويس، بسبب الامتياز الذي منحه سعيد باشا(158)، وقد حاول إسماعيل محاربة ذلك الامتياز؛ لكن خصومه أثبتوا أنهم أقوى منه بكثيرٍ.

لا أُنكرُ أنه كان يمضي بغير هدىً من الناحية المالية؛ لكني أرفضُ فكرة أنه كان يفعل ذلك من أجل مجدٍ شخصيٍّ، بل كان طموحه أن يجعل مصر دولةً

أفريقيةً عظيمةً؛ وليست المقصورة على المصريين فحسب، ولتكون القادرة على القيام بدورٍ في تاريخ العصر الحديث.

وسمعتُ أن إسماعيل اعترض على شق قناة السويس، وربما يكون صحيحًا أنه فعل ذلك في البداية، ولا يمكن لأيِّ شخصٍ منصفٍ أنْ يجده مخطئًا في ذلك. فقد اعترض على إرغام البلاد على توفير عمالةٍ مجانيةٍ، وعلى إجبار رعاياه الفلاحين على العمل بلا انقطاعٍ في مشروعٍ لم تربح مصر منه إلا القليل؛ لكنه بعد ذلك قدَّم للعمل أكبر قدرٍ ممكنٍ من المساعدة، وأعتقدُ أنَّني محقٌّ في القول إنه أسهم عمليًّا بنصف رأس المال اللازم للمشروع.

كان إسماعيل في أوائل الثلاثينيات عندما خَلَف سعيد باشا، لذلك يجب أن نفهم أنه كان رجلًا يحمل أفكار الرجال - وليس صبيًّا يصوغه معلموه حسب طريقة تفكيرهم - قد ورث مكانةً عظيمةً، وكان سليلًا حقيقيًّا لـمحمد علي؛ لكنه مع ذلك لم يكن قاسيًا، وحدث ثانيةً أن أساء الكُتَّاب الأوروبيُّون الحكم عليه، وهم يشيرون إلى العمل القسريِّ للفلاحين الذين كانوا يكدحون تحت ضربات الكرباج، ويحكمون على الأخلاق والعادات وأفكار الحياة الشرقية وفقًا لمعاييرهم الأوروبية الخاصة، ومعاييرهم الطبيعية التي عرفوها طوال حياتهم؛ لكنها ليست معايير طبيعيةً على الإطلاق بالنسبة إلى الشرق؛ فقد كان إسماعيل شرقيًّا يحمل كل العقل الشرقيِّ، وقادرًا على التعامل مع الأمة التي دُعي إلى حكمها.

حصل إسماعيل لأسبابٍ سياسيةٍ على قدرٍ مُعيَّنٍ من الغطاء الأوروبي - إذا أمكن استخدام مثل هذا المصطلح - والشيء الرئيس الذي أفسده هو السهولة التي تمكَّن بها في البداية من اقتراض مبالغ كبيرةٍ من المال من الأوروبيين بسبب الثقة الائتمانية الكبيرة في مصر التي سهَّلت له نيل القروض، إذْ كان إسماعيل بحاجة إلى أموالٍ، بل إلى كثير من الأموال لتنفيذ مخططاته، وكانت النتيجة أنَّ مصر أصبحت مدينةً لأوروبا، وكونها مدينةً لهذه المجموعة من الدول الغربية القوية، يشبه كثيرًا رجلًا أُطلق سراحه من السجن بإفراجٍ مشروطٍ(157). كان كل منهم يريد قطعة من الكعكة، وحصل عليها.

وبمجرد أن أصبحت القناة أمرًا واقعًا، كانت إنجلترا ملزمةً بشكلٍ أو بآخر بوضع يدها هناك بكل قوة وليس مجرد الوجود؛ لأن الممر المائي الجديد كان له الأهمية الأولى بالنسبة إلى ممتلكاتها الهندية، وكانت فرنسا أيضًا مهتمةً به للغاية، ولولا سقوط الأسرة النابليونية؛ لكان إسماعيل على الأرجح قد استمر في مصر لآخر عمره.

ۛ

لكن في سيدان(156) انتهت آمال إسماعيل، ولم يعد بإمكانه التطلّع إلى الفرنسيين للحصول على دعمٍ ماليٍّ فَعَّالٍ، ومن العبث والسخافة التكهُّن بما كان سيحدث لو انتهت تلك الحملة العسكرية بشكلٍ مختلفٍ، ولكن من المؤكد تمامًا أنَّ إنجلترا لم تكن لتحتل المكانة التي تشغلها الآن في مصر لولا نتائج تلك المعركة، وأيضًا لم يكن تمرد عرابي ليحدث قط، ولا حدث الانسحاب من السودان ثم إعادة احتلاله مرة أخرى.

وبالحديث عن هذا الأمر الأخير، يجدر بنا ملاحظة أن أفكار إسماعيل قد نفَّذها البريطانيون بالضبط بعد رحيله بعدة سنواتٍ. ولطالما تساءلتُ عمَّا إذا كانت مصر - بغير عِلْم إسماعيل - قد أدَّت دورًا في السياسة الأوروبية، وعمَّا إذا كان لمصلحة وجود إنجلترا في ذلك البلد أن تقف فرنسا بمفردها ضد خصمها التوتوني(155).

كثيراً ما يحدث أن يتفوَّق الضئيل على الضخم الكبير، وبالتأكيد كانت هذه الثمانون ميلًا من القناة مسئولةً عن كثيرٍ، وقد فُقدت من أجلها كثيرٌ من الأرواح بشكلٍ غير مباشرٍ؛ لكنَّ خسارة الأرواح دائمًا رخيصةً حين تُقاس بخسارة كثيرٍ من المال؛ والذي يزن أكثر من الأرواح، ولقد كانت القناة مسئولة عن توسُّع الإمبراطورية البريطانية وتدمير سلطة الأسرة الحاكمة لمصر؛ ووقوع سابقة تقسيم شمال أفريقيا.

حتى النيل تغيَّر، لكنَّ الفلاحين فحسبُ هم من ظلوا على حالهم، برغباتهم وعاداتهم وتقاليدهم التي امتلكوها لقرونٍ في ظل الغزاة المتعاقبين، وهي الموروثات التي ستظل لديهم لقرونٍ قادمةٍ، بغض النظر عن الأمة التي تهيمن على أرضهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(190) محمد شريف باشا (1826 - 1887): ولد بالقاهرة، وتلقى تعليمه العسكري في فرنسا. تولَّى رئاسة الوزراء أربع مرات، وتوفي عام 1887 بالنمسا، ودفن بالقاهرة.

(189) إيرل هوراشيو هيوبرت كتشنر Horatio Herbert Kitchener (1850 - 1916): المعتمد البريطاني في مصر من 1911 - 1914، وكان قبلها الحاكم العام وقائد الجيش في السودان.

(188) أي سنة 1878.

(187) طائرٌ خوَّاضٌ كبير الحجم ذو لونٍ بُنيٍّ تتخلله خطوطٌ بيضاء، يبدو داكنًا من أعلاه وفاتحًا من الأسفل، يتمتع بأرجل قصيرةٍ ومنقارٍ مستقيمٍ طويلٍ.

(186) أحد الطيور المهاجرة ذات الأقدام الصغيرة، ويرتبط كثيرا بالماء، وينتشر في أنحاء كثيرةٍ من العالم، وأعداده في تناقصٍ كبيرٍ بسبب الصيد الجائر.

(185) طائرٌ متوسط الحجم ينتمي لفصيلة الدجاجيات، وهو من الطيور غير المهاجرة، إذ لا يمكنه الطيران لوقتٍ طويلٍ، ويتعرض للتناقص هو الآخر بسبب الصيد الجائر.

(184) ويُسمَّى أيضا: عصفور الدوري، وهو طائرٌ من الفصيلة الزقزاقية رتبة الزقزاقيات، ويشتهر بارتباطه بالتمساح؛ إذ يتغذى على بقايا اللحم من بين أسنانه.

(183) نيوبورت (Newport): مدينة كبرى في ويلز غرب بريطانيا.

(182) مونماوث (Monmouth): مدينة تابعة لويلز، وتقع شمال شرق كارديف بنحو 48 كم مربع، وعلى بعد نحو 182 غرب لندن.

(181) چورج يواكيم جوشين George Joachim Goschen (1831 - 1907): رجل أعمالٍ بريطانيٍّ، كان مستشارًا للملكة، وأُرسل إلى مصر سنة 1876 مندوبًا لحاملي السندات المصرية البريطانية لترتيب تحويل الدين المصري.

(180) جان ادموند چوبير Joubert - Edmond Laroche - Jean (1820 - 1884): كان صناعيًا فرنسيًا وسياسيًا ونائبًا في البرلمان. وانظر تفاصيل مجيئهما مصر في: «تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا» 2/358.

وانظر تفاصيل إنشاء صندوق الدين بتوسع في: عصر إسماعيل للرافعي، 2/58.

(179) السير تشارلز ريفرز ويلسون Wilson - Rivers (1831 - 1916): ولد في لندن، جاء مصر سنة 1876 وعُيِّن مديرًا لشركة قناة السويس، ثم وزيرًا للمالية، ثم رئيسًا لهيئة تصفية الدين المصري.

(178) نوبار باشا (1825 - 1899): وقد شُكِّلت هذه الوزارة في 28 أغسطس 1878.

(177) إرنست دي بلينير Ernest de Blignières (1834 - 1900م): ولد في باريس، ومثل فرنسا في فترة الرقابة الفرنسية الإنجليزية على مصر، كما تولى وزارة الأشغال العامة في حكومة نوبار باشا عام 1878م.

(176) وقيل لم يكن عمه؛ بل خاله، وهو بوغوص بك يوسفيان (1775 - 1844) الذي قدم مصر وكان مقربًا من محمد علي باشا، فتولَّى نظارة الخارجية والتجارة، وهو أول مسيحي يحصل على البكوية في مصر. انظر: تراجم مشاهير الشرق لچورچي زيدان، 1/243.

(175) سبقت الإشارة إليه، راجع تفاصيل ذلك في: عصر إسماعيل للرافعي، 1/67 وما بعدها. وعلاقات مصر بتركيا في عهد الخديوي إسماعيل للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، ص 55 - 71.

(174) وليم هيكس باشا Hicks Pasha (1830 - 1883): عسكريٌّ بريطانيٌّ، خدم في الهند، وعين سنة 1883م فريقًا في الجيش المصري.

(173) محمود رياض باشا (1835 - 1911): عمل مستشارًا زراعيًّا للخديوي إسماعيل، وتولَّى حقيبة الداخلية في وزارة نوبار، وترأس الوزارة ثلاث مرات في الفترة بين عامي 1879 و1893.

(172) 18 فبراير 1879.

(171) في 10 مارس 1879.

(170) 7 أبريل 1879.

(169) سليمان باشا الفرنساوي Joseph Anthelme Sève (1788 - 1860): الكولونيل سيف، واسمه: چوزيف انتيلمى سيف. استخدمه محمد علي باشا في تحديث الجيش المصري، ثم أسلم وتسمَّى باسم: سليمان، وشارك إبراهيم باشا في حروبه في اليونان وسوريا. ومات بمصر ودُفن بها.

(168) شوفالييه دي بايارد Chevalier de Bayard (1476 - 1524م): أحد فرسان العصور الوسطى، أُطلق عليه لقب: (الفارس الصالح أو النبيل). واعتُبر مثالًا جميلا للفروسية وأحد القادة العظام ذوي المهارة.

(167) جراتز Graz: ثاني أكبر المدن النمساوية بعد ڤيينا، وتقع جنوب شرق النمسا على ضفاف نهر مور.

(166) سنة 1879.

(165) السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي تولَّى الخلافة في الفترة بين (1876 - 1909م).

(164) انظر: تفاصيل خلع إسماعيل في: عصر إسماعيل للرافعي، 2/230 وما بعدها.

(163) صموئيل هوايت بيكر Samuel Baker (1821 - 1893): ضابطٌ بريطانيٌّ، اهتم بالتاريخ الطبيعي وخرج في رحلات إلى إفريقيا لاكتشاف منابع النيل، وأنشأ لمصر مديرية خط الاستواء وترأسها لأربع سنواتٍ، وتحصَّل على لقبيْ: (لواء)، و(باشا) في مصر.

(162) أومبيرتو الأول Umberto I الذي تولَّى الحكم في الفترة بين (1878 - 1900م).

(161) أكاديمية وولويتش العسكرية Royal Military Academy, Woolwich: كليةٌ عسكريةٌ تأسَّست سنة 1741 وكانت مركزًا لتدريب ضباط الجيش البريطاني.

(160) كانت وفاة السلطان عبد العزيز في 4 يونيو 1876م.

(159) انظر تفاصيل الامتياز في: عصر إسماعيل للرافعي، 2/235.

(158) انظر المرجع السابق 1/57 وما بعدها، وجهود إسماعيل الحثيثة في إلغائه، 1/92 وما بعدها.

(157) يقصد أن مصر أصبحت تحت رحمة الدائنين؛ مثلما يصبح المفرج عنه شرطيًا تحت رحمة إدارة السجون التي يمكنها أن تعيده إلى السجن وقتما تشاء.

(156) يقصد نتائج معركة سيدان (Sedan) التي وقعت خلال الحرب الفرنسية البروسية في أول سبتمبر 1870، وأسفرت عن القبض على الإمبراطور نابليون الثالث، وكان الألمان قد دحروا الفرنسيين بعدة معارك فرعيةٍ صغيرةٍ، وكانت هذه المعركة هي الفاصلة.

(155) التوتونيون: القبائل الجرمانية، والمقصود بذلك هنا هو العداء الألماني الفرنسي الذي كان دائرًا آنذاك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

1879 - 1881

عهد توفيق باشا - الصراع بين السيد سكريفنور وآرشر شي - لجنة التحقيق - إسماعيل باشا يسري رئيسًا - إيقاف السيد سكريفنور وآرشر شي - تعيين علي باشا صادق - ترك السيد سكريفنور وآرشر شي الخدمة المصرية - خطاب من السيد سكريفنور - تعيين السيد چيلارد - تعييني مراقبًا عامًا للجمارك - حفل راقص في قصر عابدين - السير هنري والسيدة ميوكس - مصنع رشيد للطوب - التقليد بوسام من ملك إيطاليا - التعيين مديرًا بالإنابة - الاستياء العام في الجيش المصري - عرابي بك - عرابي يحاصر قصر الخديوي بالجنود - السير أوكلاند كولفين - السيد كوكسون - مطالب عرابي - قبول الخديوي - تراجع القوات - تعيين شريف باشا رئيسًا للوزراء - تقليد نيشان الافتخار بالأمر التركي.

استهلَّ سمو توفيق باشا عهده بتشكيل وزارةٍ برئاسة رياض باشا(233)، ومن الصعوبة بمكانٍ إجراء مقارنةٍ بين إسماعيل المخلوع والخديوي الجديد توفيق؛ لأن وضع مصر عندما تولَّى هذا الأخير كان يُمثِّل تحديًا لسلطة أيِّ شخص يحاول التأثير عليها، فقد كان إسماعيل ضعيفًا، وكان توفيق أكثر منه ضعفًا؛ لأنه لم يكن لديه المعرفة نفسها بالبشرية ولا الجاذبية الشخصية لوالده، إذْ كان يعيش حياته منعزلًا، يُفضِّل الزراعة الهادئة لأراضيه على المكائد والبذخ الموجودين في بلاط والده.

وعلى عكس إخوته غير الأشقاء، لم يسبق له أن زار أوروبا، ولم يتحصَّل على الكثير من التعليم الأجنبي، بل نال كل تعليمه تقريبًا على يد المعلمين المسلمين؛ ومن ثم يجهل كل شيءٍ أو حتى يعرف النزر القليل عن عقائد البلدان الأخرى وأفكارها وحضاراتها، والحقيقة أنَّ قانون تولي الابن البكر في حالة توفيق لم يكن أمرًا سعيدًا بالنسبة إليه؛ فلم يكن يمتلك المؤهلات الضرورية، والحكم لم يكن مهنته.

كان ودودًا ولطيفًا دائمًا - أو على الأقل هكذا وجدتُه دائمًا - وكانت أفكاره تركيةً، وحياته المنزلية أخلاقيَّةً تمامًا، كما كان زوجًا صالحًا، وبصفته الخديوي كان إداريًّا جيدًا، وكانت نواياه من أفضل النوايا، وعند التفكير فيه أميل إلى تشبيهه بـلويس السادس عشر ملك فرنسا(232)، بالطبع كانا مختلفين في أمورٍ بسبب قوميتيهما؛ لكنهما يمتلكان بعض الصفات المتشابهة، فكلاهما دُعي إلى الحكم في وقتٍ كان المسار الصحيح للأحداث في حاجةٍ إلى رجلٍ قويٍّ ليحكم، وربما كانت فضائلهم في حدِّ ذاتها تعمل ضدهم، حيث يبدو أن

هناك قاعدة تقول إنَّ الفضائل الداخلية - وبشكلٍ عامٍ - لا مكان لها في نفوس الملوك العظماء.

كان توفيق سيئ الحظِّ بشكلٍ استثنائيٍّ عندما تولَّى الحكم؛ فكانت الخزانة فارغةً، والدائنون يطالبون بسداد ديونهم، وإنجلترا وفرنسا تضغطان لتعيين اثنين من المراقبين يكونان ذوي سلطاتٍ واسعةٍ، وإلى جانب ذلك، كان هناك حشدٌ هائلٌ من المُعَالِين من الأسرة الخديوية الذين يجب الاعتناء بهم، وعددٌ من القصور التي يجب الحفاظ عليها سليمةً، وألفُ إسرافٍ يجب القضاء عليه أو بتره؛ أمَّا المتسكِّعون الذين عانوا من هذه التخفيضات في النفقات؛ فلم يفكروا - كما قد يتخيَّل بعضنا - في أن توفيق كان حريصًا على الاقتصاد؛ ولم يحسبوها له فضيلةً؛ بل اعتبروها عكس ذلك.

كما أُجبر توفيقٌ عمليًّا على الاستجابة لمطالب القوتين العظميين: بريطانيا وفرنسا، ولا بد أنَّ فِعْل ذلك كان له مرارة العلقم في حلقه؛ لأنه - بصرف النظر عن الضربة التي لحقت بهيبته - كان هناك جانبٌ دينيٌّ للمسألة؛ فتوفيق - الذي كان مسلمًا متديِّنًا يحمل كل ازدراء المسلم للمسيحية وأتباعها - لابد أنَّ كونه محكومًا عمليًّا من جانب المسيحيين قد جعله يشعر - تقريبًا - بأنَّ ذلك تدنيسٌ لمقدساته(231).

وبعد كل هذا، فإن فكرة حكم دولةٍ شرقيةٍ من جانب هيئةٍ أجنبيةٍ كانت اختراعًا صدمه باعتبار أنه غير قابل للتنفيذ؛ فقد كان يعلم أنه لكي تحكم الشرقيين بشكلٍ صحيحٍ؛ يجب أن يكون هناك قائدٌ حازم اليد والرأس، وليس حكومةً مختلطةً صنعها أجانب.

ويُمثِّل الشكل الهرمي نوع الحكومة التي اعتاد المصريون عليها، وألفوها لقرونٍ عدَّةٍ؛ لذلك لا عجب من أنَّ توفيق الذي فهم هذا الأمر على طبيعته، كان في داخله غاضبًا من عجزه وانعدام سلطته، وكانت هذه الأشياء المختلفة في السنوات الأولى من حكمه هي التي وفَّرت الأرضية اللازمة للمُحرِّضين للعمل ضده، وازدهرت البذور التي زرعوها باستمرارٍ خلال تلك الفترة بعد ذلك بقليلٍ في تمرُّدٍ كاملٍ مزدهرٍ.

لم يكن توفيق في منصبٍ يُحسد عليه، ولم تكن حياته سعيدة؛ لأنَّ القيود التي قيَّدته بها تلك الظروف نخرت روحه، وجعلته يتوق إلى أن يكون مجرد نبيلٍ مصريٍّ يعتني بممتلكاته فحسب، كما جعلته يأسف بشدةٍ لخلع والده، وأنا شخصيًا على يقين أنه لو عاد إسماعيل إلى مصر؛ فإن ابنه توفيق لن يُبدي أي مقاومةٍ تُذكر في استعادته العرش الخديوي.

ولمساعدته في تنفيذ أفكاره الخاصة؛ اختار توفيق رياض باشا رئيسًا لوزارته الأولى(230)؛ وفي هذا الاختيار أظهر أنه - رغم قلة خبرته - كان يملك عينًا

حريصةً على فهم الشخصية، فقد كان رياض باشا متوافقًا معه أكثر من أيِّ وزيرٍ آخر متاح.

كان رئيس الوزراء الجديد قد صعد بقدراته وطاقته الذاتية، وشق طريقه إلى الأمام بالحياة المقتصدة والعمل الجاد والاستقلالية، كما كان يمتلك رصيدًا من الفطرة الحصيفة التي مكنته من رؤية الأشياء على حقيقتها، وليس كما يتمنَّى لها أن تكون، وهي نقطةٌ قويةٌ تُحسب لصالح رجل دولةٍ؛ فكثير من الناس تعميهم أفكارهم ومُثلهم الخاصة عن رؤية الآثار المباشرة لأفعالهم؛ لكن رياض - رغم كونه محافظًا عتيدًّا ومؤمنًا كبيرًا بالحكم الشخصي - أدرك بحصافةٍ أن الواقع يتطلب بشدةٍ عملًا جذريًّا، وبدا له أنَّ الاحتلال البريطاني في الوقت الحالي هو أقل الشرور ضررًا؛ لذلك كان مستعدًا لبذل قصارى جهده للعمل وفقًا لاقتراحات السلطات البريطانية.

كان شديدًا في حبه لدينه، ويكاد يكون مُتعصِّبًا، وكان يُرى عادةً وهو يحمل مسبحةً في يديه؛ لكنه لم يسمح لإيمانه بالإسلام بالتدخل في آرائه السياسية، كما كان لديه نفورٌ شديدٌ من أيِّ شيء يقترب من الفوضى أو التبذير، وكان مُنظمًا جيدًا.

بعد تمرُّد عرابي، عندما كان وزيرًا للداخلية، استقال رياض من منصبه بدعوى اعتلال الصحة(229)؛ لكني أعتقد أنه استقال لاختلافه تمامًا مع المعاملة التي نالها عرابي ورفاقه الرئيسين، وأستطيع أن أتفهم جيدًا أنَّ رياض الذي نشأ في ظل النظام القديم كان يرى عدم التسامح مع ما يعتبره أسوأ خيانةٍ، أو أن تكون العقوبة مخففةً، وأنَّ الخونة يجب أن يُحالوا إلى التقاعد الفعلي وفقًا لآرائه التي ربما قد تبدو متطرفةً في أيامنا هذه، حيث يُنظر إلى جريمة المرء ضد بلده بتسامحٍ، وفي أغلب الأحيان يتم تدليل المجرم باعتباره مفكرًا مبدعًا وعبقريًّا، أو يتم تعيينه عضوًا في البرلمان أو شيء من هذا القبيل، ويجب أنْ أُخفف من شدة هذا الكلام وأقول إنَّه يحدث في بريطانيا فحسب؛ فأنا لا أتخيَّل أن في البلدان الأوروبية يقابلون تلك الجريمة بمثل هذه المعاملة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال عام 1879 تم تطوير عمل إدارة الجمارك تدريجيًّا، حيث أُضفيَّ الطابع الأوروبي على الفروع المختلفة للخدمة بقدر المستطاع، وإلى حدٍّ ما كان رؤساء جميع الفروع يعملون معًا بإخلاص لإنجاح الإدارة؛ ولكن لسوء الحظ كان هناك تيارٌ من الدسائس يدور في المؤسسة منذ بداية العام، وربما يرجع ذلك بصفةٍ رئيسةٍ إلى التنافس الموجود بشكلٍ أو بآخر بين الأقباط والسوريين.

كان السيد سكريفنور المدير العام للجمارك الذي تم تعيينه بناءً على توصيةٍ من الحكومة البريطانية، قد شغل من قبل منصبًا رفيعًا في الجمارك الإنجليزية، وقبل انضمامه إلى دائرة الحكومة المصرية أُعير إلى البرتغال لإعادة تنظيم دائرة الجمارك البرتغالية؛ وقد نفذ هذا على أكفأ وجهٍ ممكنٍ، وقبل مغادرته لشبونة للعودة إلى إنجلترا، تم ترسيمه قائدًا فارسًا لوسام المسيح البرتغالي.

وقد أتم إعادة تنظيم الجمارك المصرية بأكثر الطرق كفاءةً في فترةٍ وجيزةٍ تبلغ عامين، وهذا دليلٌ واضحٌ على درايته الكاملة بما يفعله.. وكان أسلوبه مهذبًا ومريحًا في جميع تعاملاته مع كلٍّ من الأوروبيين وأهل البلاد، ولطيفًا مجاملًا وشخصيةً محبوبةً لدينا جميعًا.

لسوء الحظِّ كان السيد مارتن آرشر شي المفتش العام الذي تم تعيينه في العام السابق على النقيض تمامًا من سكريفنور؛ فكان لديه أسلوبٌ متغطرسٌ؛ مما جعله يبدو أوتوقراطيًّا للغاية، ولم يكن حسن المزاج كثيرًا، ودائمًا يعطى توجيهاته أو أوامره بطريقةٍ ديكتاتوريةٍ مفاجئةٍ خاصة لأهل البلاد؛ وفي الحقيقة لم يكن كل سلوكه يحمل أيَّ تعاطفٍ لأحد.

ولم يمض وقتٌ طويلٌ قبل أن تتصادم الطبيعتان، ولكن لم يسمح السيد سكريفنور لنفسه أن تضطرب، وأصبحت الأوامر التي يعطيها لا تُنفَّذ، ولا أستطيع الجزم إن كان ذلك قد حدث عن قصدٍ أم بغير قصدٍ؛ لكن الخدمة بأكملها كانت في خطر الوقوع في الفوضى، وخلال هذا الوقت بدأتِ الشائعات تتردَّد بأنَّ السيد آرشر شي سيحل محلَّ السيد سكريفنور.

في النهاية اضطر السيد سكريفنور إلى إبلاغ الوزارة بالأمر، وكانت القضية محيرةً جدًّا بالنسبة إلى وزير المالية، حيث كانت المواجهة بين رجلٍ إنجليزيٍّ ضد رجلٍ إنجليزيٍّ آخر، وكلاهما من ذوي المناصب العليا، ولو كان الأمر بين رجلٍ إنجليزيٍّ ومواطنٍ من أهل البلاد أو أوروبيٍّ آخر؛ لسُوِّيت المسألة سريعًا؛ ولكن بعد كثيرٍ من التفكير والاضطراب من جانب الوزارة؛ تقرَّر أخيرًا تشكيل لجنة تحقيقٍ لفحص مسألة إدارة الجمارك بشكلٍ كاملٍ.

كان رئيس اللجنة معالي إسماعيل باشا يسري - وهو صديقٌ قديمٌ لي والذي أصبح بعد ذلك رئيسًا لمحكمة الاستئناف المحلية في القاهرة - ومعه اثنان آخران من الباشوات المصريين، والاثنان الإنجليزيان هما: موريس باشا المراقب العام للمنارات، والسيد أ. كيلارد مدير مكتب البريد، وبمجرد تعيين اللجنة؛ تم تعليق كلٍّ من السيد سكريفنور والسيد آرشر شي عن أداء مهامهما انتظارًا للتحقيق، وعُيِّن علي باشا صادق الذي كان وزيرًا سابقًا للمالية؛ مديرًا عامًا مؤقتًا للجمارك.

وخلال الأشهر القليلة التي تولّى فيها منصبه؛ تعاملتُ معه بشكلٍ جيدٍ جدًا؛ لكنَّ حياتي أصبحت مثقلةً تمامًا؛ فلم تكن لديَّ دقيقةٌ أهتم فيها بشئوني الخاصة، وفي كل مرة تُواجهه مسألةٌ محيرةٌ أو عقبةٌ، يتم استدعائي إلى غرفته للسؤال عنها أو المساعدة في تسويتها، فضلًا عن ذلك كان عليَّ الحضور في لجنة التحقيق، إما للإدلاء بشهادتي، أو لتقديم أدلةٍ وثائقيةٍ من كل الأنواع.

وقد استكملت اللجنة تحقيقها باستفاضةٍ، وأرسلت تقريرها إلى وزير المالية، وكانت النتيجة غير مُرضيةٍ إلى أبعد الحدود، فحتى لا يُلقى بالخطأ على أحدهما دون الآخر؛ قرَّر الوزير أنَّ كليهما يجب أن يغادرا خدمة الحكومة المصرية، وكان للسيد سكريفنور عقد مدته خمسُ سنواتٍ، وبما أنه قضى ثلاث سنواتٍ فحسب؛ فتكون الحكومة ملزمةً بدفع راتب عامين له.

لا أشكُّ في أنَّ الحكومة ارتكبت خطًا فادحًا عندما حرموا أنفسهم من خدمات السيد سكريفنور الذي فعل العجائب للجمارك المصرية في وقتٍ قصيرٍ جدًا، وكان سيفعل أكثر لو أُتيح له المجال ولم يتدخَّل أحدٌ في عمله، ولو لم تتم ترتيباتٌ أخرى بدون موافقته، ولكن ما حدث قد حدث، وعلينا الآن أن نتصالح مع حقيقة أننا فقدنا زعيمنا العطوف والمُتفهِّم بسبب المؤامرات، والتي يؤسفني أن أقول إنها كانت شرقيَّةً أكثر منها أوروبيةً في أساليبها(228).

كان السير إدوارد ماليت(227) في ذلك الوقت هو القنصل العام البريطاني في مصر، وبقي السيد سكريفنور في مصر لبضعة أشهرٍ بعد قرار الوزير، ثم عاد إلى إنجلترا، ورقَّاه مجلس الجمارك الإنجليزي على الفور، حيث أصبح رئيس إدارة التحصيل للجمارك في ليفربول.

وقبل مغادرته، أرسل إليَّ السيدُ سكريفنور الرسالة الآتية:

«عزيزي كوسيل:

لا يمكنني مغادرة مصر دون أنْ أُعبِّر لكم عن خالص شكري لما قدمتموه لي من خدماتٍ قيِّمةٍ أثناء إدارتي للجمارك.

ولا أملك سوى الثناء على الذكاء والجهد الدءوب الذي أعنتموني به بإخلاص في جهودي لترسيخ النظام والتنظيم الجيد في الدوائر التي التزمت بإدارتها. وقليلٌ هم الذين يستطيعون إدراك ماهية جهودنا تلك، ومقدارِ ما تغلبنا عليه، والإصلاحات التي حققناها؛ وكثير، بل كثيرٌ جدًا من هذا النجاح إنَّما يعود إليك.

وأخيرًا.. أرجو أن تتقبَّل خالص شكري والتعهد بصداقتي واحترامي في المستقبل.

صديقك المخلص،

چورچ هنري سكريفينور

الرملة - 19 يونيو 1880».

بحلول نهاية العام، تم تعيين السيد كيلارد - الذي كان آنذاك مديرًا عامًّا للبريد - في منصب مدير عام الجمارك؛ وعند تولِّيه هذا المنصب أخبرني بأنه سيعتمد كليًّا على معرفتي بالإدارات لتنفيذ العمل، مضيفًا أنه واثقٌ من أنني سأقدِّم له المساعدة القيمة نفسها التي قدمتُها لسَلَفه السيد سكريفنور.

ثم جرى تعييني مراقبًا عامًا للجمارك في يناير 1880، وبعد فترةٍ وجيزةٍ شرعتُ في فحص مكاتب الجمارك الفرعية؛ من أجل الإشراف على نظام الحسابات الجديد الذي دشَّنتُه مؤخرًا، والذي هو قيد الاستخدام في الوقت الحالي.

وفي وقتٍ سابقٍ من العام نفسه، أقام سمو توفيق باشا أول حفلٍ راقصٍ خاصٍّ به في قصر عابدين، وشرفتُ بدعوتي لهذا الحفل، وتلقَّيت تحيةً ودِّيةً للغاية من صاحب السمو، الذي كنتُ أعرفه شخصيًّا وقتَ أن كان وريثًا.

وخلال ذلك العام، قابلتُ السير هنري والليدي ميوكس(226) في منزل صديقي چيبز، وكانوا قد وصلوا الإسكندرية على متن يختهم (فانادايز)، ولأنهم لم يزوروا مصر من قبل؛ فقد صحبتهم أنا وچيبز لرؤية بعض المعالم السياحية في الإسكندرية، وأتذكَّرُ أن الليدي ميوكس كانت مهتمةً بشدةٍ بـ(عمود السَوَاري)، وهو عمودٌ رائعٌ من الجرانيت الأحمر يبلغ ارتفاعه حوالي مئة قدم ومحيطه نحو ثلاثين قدمًا عند القاعدة، وقد شيده بوبليوس والي مصر تكريمًا للإمبراطور دقلديانوس(225) المُكنَّى بـ«الذي لا يقهر»، ومن المفترض أن يُسجِّل العمود غزوه للإسكندرية عام 296 م وقمعه تمرد أخيليوس(224).

كما تمكَّنتُ من مساعدة هؤلاء الزُّوَّار لدى السلطات المصرية؛ للحصول على تصريحٍ لتصدير المومياوات والآثار المختلفة(223) التي قاموا بشرائها في القاهرة، وهذه الأشياء - كما يعرف معظم الناس - قد أورثتها السيدة ميوكس المتحف البريطاني، وكانت تحتفظ بهذه الآثار أثناء حياتها في متحفها الخاص في ثيوبالدس بارك(222)، حيث استمتعتُ برؤيتهم ثانيةً خلال زياراتي المتعددة هناك، وكانت الليدي ميوكس من اللطف لدرجة أنها أرسلت إليَّ إحدى النسخ الخاصة من كتاب: (حياة الإسكندر الأكبر) بقلم إرنست ألفرد طومسون واليس بادج، وإليها يرجع الفضل الكامل في نشر الكتاب؛ فقد كانت الليدي كريمةً وسخيةً إلى حدٍّ كبيرٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الضفة الغربية لدلتا النيل توجد مدينةٌ قديمةٌ جدًا تُسمَّى: (رشيد)، وكانت ميناءً في زمن محمد علي، حيث كان النيل يتدفَّق ليصبَّ في البحر هناك، وقد تعرَّضت المدينة للهجوم من جانب البريطانيين في عام 1807 دون جدوى، وهو الهجوم الذي فشل إلى حدٍّ كبيرٍ بعد عدم تمكُّن السفن الحربية الكبيرة من دخول النهر؛ بسبب الضفة الرمليَّة الموجودة عند المصب، وقد أسَّس أحد الخلفاء مدينة رشيد في عام 870 م تقريبًا(221).

ولفترةٍ من الزمن، كانت رشيد مدينةً مهمةً للغاية من الناحية التجارية، ولكن مجدها قد تلاشى، والآن يبلغ عدد سكانها حوالي (14000) نسمةٍ فقط، في حين أنَّ عددًا كبيرًا من منازلها غير مأهولةٍ وليست صالحة للسكن، ومع ذلك تكشف هذه المنازل شيئًا من الأهمية التي كانت عليها رشيد ذات يوم؛ لأن مبانيها - أو كانت بتعبيرٍ أدق - أعلى بكثيرٍ من تلك الموجودة في المدن المصرية الأخرى، وفي وقتٍ من الأوقات كانت المدينة - نوعًا ما - هي المنتجع الصيفي لكلٍّ من أهل القاهرة والإسكندرية؛ لكن بالتأكيد لا يمكن أن نُطلق عليها ذلك في الوقت الحاضر.

وجميع المنازل في المدينة مبنيةٌ من الطوب الأحمر الداكن، وفي أماكن كثيرةٍ منها تكون المنازل مزودةً بصفوف أعمدةٍ طويلةٍ، إنها مدينةٌ محليةٌ بالكامل تقريبًا، ولا يعيش بها سوى عددٌ قليلٌ جدًا من الأوروبيين، وإحدى الصناعات الرئيسة في المكان هي بناء القوارب المحلية وإصلاحها، ويمكن للمرء بشكلٍ عامٍ رؤية أعدادٍ من المراكب الشراعية ترسو على الشاطئ أو يجري إصلاحها.

كانت المدينة دائمًا مكانًا مفضَّلًا بالنسبة إليَّ، حيث كان هناك أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام يمكن مشاهدتها، واحتلت المساجد من بينها مكانًا بارزًا؛ فبعضها كان من العصور الوسطى وكانت متداعيةً، وربما كان مسجد زغلول(220) هو الأفضل من بينها، حيث كان الجزء الداخلي شبيهًا بشكلٍ ملحوظٍ بـالجامع الأزهر في القاهرة، بأعمدته العتيقة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، ولكن جميعها تبدو متحللةً للغاية.

ولسوق المدينة الأصلي القديم جاذبيةٌ خاصةٌ بلونه المتوهج وحركته الصاخبة؛ بينما يتسع نهر النيل بقواربه المحلية التي تبحر صعودًا وهبوطًا، فضلًا عن عددٍ كبيرٍ من الخانات(219) التي هي عبارةٌ عن مبانٍ شاهقةٍ مكونةٍ من طابقٍ واحدٍ، مبنيةٍ من الطوب وكانت تُستخدمُ في وقتٍ من الأوقات كمستودعاتٍ، وفي الساحات الملحقة بها يمكن إيواء عددٍ كبيرٍ من الإبل؛ بل وتُوجد أيضًا سَوَاقٍ تعمل في الشوارع، ويقال إنَّ الحَجَر الشهير الذي مكَّن علماء المصريات أخيرًا من فكِّ رموز الكتابات الهيروغليفية قد تمَّ اكتشافه هنا(218).

ونظرًا لأنَّ رشيد كانت على بعد حوالي ساعتين ونصف تقريبًا بالقطار من الإسكندرية؛ فقد اعتدتُّ أن أركض إلى هناك في عطلة نهاية الأسبوع لأُبحِر وأمارس الرماية، وبعد فترةٍ أصبحت مفتونًا بالمكان، لدرجة أنني اشتريتُ قطعة أرضٍ صغيرةً على ضفاف النيل.

كان مالك الأرض رجلًا مالطيًّا قد أقام فيها مبنىً خشبيًّا جميلًا، واعتقدتُّ أنه يناسبني وأصدقائي، وكان قد شرع أيضا في بناء مصنعٍ للطوب، حيث كان الطين الموجود في الموقع من أجود الأنواع، لكنه اضطُر إلى بيع ممتلكاته بسبب عدم وجود رأس مالٍ كافٍ لمشروعه.

وبعد أسابيع قليلةٍ من امتلاكي لهذا المكان؛ اقترح أحد أصدقائي الذين رافقوني في رحلة صيدٍ صغيرةٍ؛ أن أُعيد تشغيل مصنع الطوب، ونصحني بتوظيف مالطيٍّ مديرًا له، وأوصاني كثيرًا بأحدهم لكونه يتحدَّث العربية بصورةٍ جيدةٍ، وأنه معتادٌ على التعامل مع الأهالي في المنطقة، وسمحتُ لنفسي - بحماقةٍ - أن تقع ضحية الاقتناع بذلك، ووظَّفتُ الرجل الذي بدأ العمل في الحال مع طاقمٍ من العرب كانوا يعملون هناك سابقًا.

وخلال زيارتي التالية في عطلة نهاية الأسبوع، وجدتُّ طاقم الموظفين، الذين يتألَّفون من المدير ومساعدين مالطيين، ونحو خمسين رجلًا وصبيًّا عربيًّا، يعملون بجدٍّ، وينتجون الطوب بالآلاف، وتعاقدتُّ مع بنَّائين في الإسكندرية على توريد مئات الآلاف من قوالب الطوب يتم تسليمها بالقوارب، واعُتبرت نوعية الطوب جيدةً جدًا لدرجة أن مديري تلقَّى طلباتٍ أكثر مما يمكن تجهيزه؛ لكن رغم ذلك كانت النفقات الأسبوعية تتزايد بمعدلٍ يُنذر بالخطر.

ولسوء الحظِّ لم أتمكَّن من زيارة المصنع لبضعة أسابيع إلى أن هُرعتُ إلى هناك في أحد الأيام دون إخبارهم ببرقيةٍ عن موعد وصولي كما كنتُ أفعلُ عادةً، وأدهشني جدًا أنه لم يكن هناك عملٌ قيد التنفيذ؛ رغم أن بعض السفن المحلية كانت موجودةً بجانب المصنع وعليها حمولتها من الطوب تنتظر أن يتم استكمالها حتى تستطيع الإبحار.

أزال المدير دهشتي حين أخبرني بأن جميع العمال ذهبوا إلى مولد أحد الأولياء يُقام سنويًّا في قريةٍ على بعد أميالٍ قليلةٍ أسفل النهر، بينما ذهب المساعدان المالطيان إلى الإسكندرية لقضاء اليوم هناك.

لم يفاجئني الأمر وقتها؛ لذا لم أطرح أي أسئلةٍ أخرى؛ بل طلبتُ الحسابات وكشوف الرواتب فحسب؛ وبدا كل شيءٍ على ما يُرام؛ ولكن في الأسابيع القليلة الأخيرة، وصلتْ كشوف رواتب العمال العرب إلى رقمٍ شديدٍ الارتفاع، وأوضحت للمدير أن النفقات تجاوزت بمعدلٍ كبيرٍ تلك الميزانية التي جمعناها معًا قبل بدء المصنع، وأنه إذا لم يستطع تقليصها إلى المعدل المتفق عليه

في البداية؛ فسأضطرُّ إلى إغلاقه؛ لأنه ليس من المفيد تشغيل المصنع في ظل هذه الخسارة.

وعدَني الرجل بأن يتمَّ كلُّ شيءٍ كما طلبتُ، وعُدتُّ في المساء نفسه إلى الإسكندرية، وعلى مدار الأسبوعين أو الثلاثة التالية، أرسلتُ الحوالات المالية المعتادة للأجور وما إلى ذلك، ولفتُّ انتباهه مرةً أخرى إلى كشوف الرواتب المبالغ فيها، ثم في أحد الأيام أفزعني أن أتلقَّى برقيةً من أحد رؤساء العمال المالطيين، تفيد بأنَّ المدير لم يحضر منذ ثلاثة أيامٍ، وأنَّ بعض العمال العرب تسببوا في قلاقل بسبب عدم دفع أجورهم.

سافرتُ على الفور إلى رشيد، ووجدتُّ حالة من الفوضى عند وصولي؛ واتضح أنَّ المدير قد اختفى، وأنه طوال عدة أسابيع لم يكن يعمل بالمصنع سوى دستة من العمال العرب، في حين أنَّ جدول الرواتب الذي كان قد أعدَّه المدير يحوي أكثر من مِئةٍ.. ببساطةٍ؛ كان يضع في جيبه التحويلات المالية التي كنتُ أرسلها إليه، ولم يدفع مقابل شيءٍ من المؤن التي تم شراؤها من المدينة كالفحم والنفط والبارافين.

وانتهى الأمر بشرائي للطوب لاستكمال العقود المطلوبة، كما دفعتُ جميع الفواتير المستحقة، وامتلأت نفسي بالاشمئزاز من العمل بأكمله، فبعتُ الأرض والمصنع، ونذرتُ ألا أتطلَّع إلى رشيد مرةً أخرى، وهو نذرٌ لم أخلفه حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في نوفمبر(217) فوجئتُ مسرورًا بتلقِّي معلوماتٍ من القنصل العام الإيطالي في القاهرة، تفيد بأنَّ جلالة ملك إيطاليا(216) قد تكرَّم بالإنعام عليَّ بوسام تاج إيطاليا، وجاء هذا التكريم المُشَرِف على غير توقع تمامًا. وكان الأكثر إسعادًا لي أنه جاء مدعومًا بتزكيةٍ من الجالية الإيطالية في الإسكندرية، وذلك تقديرًا للخدمات التي قدمتُها لهم.

بلغ إنتاج محصول القطن عام 1880 حوالي مليونين ونصف قنطار، وفي عام 1907 كان أكثر من سبعة ملايين قنطار، رغم أن هذا العام قد شهد انخفاضًا شديدًا في منسوب نهر النيل حتى قيل إنه أسوأ الأعوام المسجلة.

وبصفةٍ عامةٍ فإنَّ جودة القطن المصري ذات درجةٍ عاليةٍ، وألياف طويلةٌ وناعمةٌ، وفي الوقت نفسه قويةٌ، والأصناف مختلفة الجودة التي تُزرع في الوجه البحري هي: ميت عفيفي، والعباسي، واليانوفيتش، وفي صعيد مصر يُزرع صنف الأشموني.

وقد ارتفعت أسعار الأراضي الزراعية الجيدة بشكلٍ كبيرٍ خلال السنوات القليلة الماضية، وأصبح سعر مائة جنيه للفدان رقمًا شائعًا؛ غير أنه يمكن شراء الأراضي غير المستصلحة بسعرٍ من خمسة عشر إلى ثلاثين جنيهًا، وهذه الأراض الأخيرة سوف تتطلَّب بالضرورة بعض النفقات المعتدلة لتحسينها، ومن ثم يمكن أن تُدِرَّ عائدًا وفيرًا.

يبدأ تحضير الأرض لزراعة القطن في يناير؛ وتزرع البذرة من منتصف فبراير إلى منتصف مارس؛ ويتم جَنْي القطن في نهاية شهر نوفمبر، وحسب التوقعات فإن صعيد مصر والسودان سيُصبحان في نهاية المطاف أفضل مناطق زراعة القطن وأجودها في العالم(215).

يعمل السواد الأعظم من سكان مصر في الأنشطة الزراعية، وقد تم إنشاء مصانع كبيرة للسكر مؤخرًا بهدف استحداث صناعةٍ جديدةٍ، ما يعني التوسُّع في زراعة قصب السكر؛ لكنها لم تُحقِّق نجاحًا كبيرًا حتى الآن؛ ومعظم المصانع موجودةٌ فى صعيد مصر.

كذلك توجد بعض الصناعات المحلية، مثل: المنتجات القطنية والحريرية، والفخار - إلى حدٍّ ما - وتقطير الروائح والعطور، ومشغولات الذهب والفضة، وأعمال التطريز.. إلخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في شهر مايو(214)، تم تعييني قائمًا بأعمال المدير العام للجمارك أثناء غياب السيد كيلارد، وقد ابتدأ هذا العام بشكلٍ سيءٍ؛ حيث كان هناك قدرٌ كبيرٌ من السخط في الجيش المصري بسبب تخفيض عدده لأسبابٍ اقتصاديةٍ.

لم يكن سوء التفاهم بين الضباط من جنسيات مختلفة شيئًا جديدًا، فقد كان موجودًا باستمرارٍ لسنواتٍ، حيث بدأ في الحملات ضد الأحباش في عام 1875، وفي العام الذي يليه. وهذه الحملات التي كانت طائشةً بكل تأكيدٍ، لم تكن في صالح القوات المصرية.

في أوَّل هذه الحملات أُعطيت القيادة لأركيل بك(213) ابن شقيق نوبار باشا الذي قاد الجيش إلى الحبشة، لكنه لم يرجع بهم ثانيةً؛ فرغم أنَّ المصريين كانوا مسلحين جيدًا ويقاتلون قوةً مسلحةً تسليحًا سيئًا؛ إلا أنه تم القضاء عليهم وإبادتهم تمامًا.

كانت معركةٌ واحدةٌ كفيلةً بحسم الحملة كلها، فقد نُصب كمينٌ لطليعة الجيش، وانسحبت مؤخرة الجيش إلى موقعٍ مُحصَّنٍ، وتقدَّم الأحباش ببنادقهم وسيوفهم ودروعهم القديمة، وهاجموا جناحيَّ الجيش والوسط بالتزامن مع قطع خطِّ انسحاب المصريين، وعندها وقعت مذبحةٌ

مُروِّعة(212)، وكانت واحدةً من تلك الكوارث التي تقع بصورةٍ مباغتةٍ وبشكلٍ صادمٍ، وقد وقعت أحداثٌ كثيرةٌ مشابهة في التاريخ الإفريقي، وعانت منها الدولُ الأخرى مثلما عانى المصريون.

وعندما وصل خبر هذه الهزيمة إلى القاهرة؛ ساد شعورٌ عامٌ بالفزع، ومن ثم تحوَّل إلى رغبةٍ شديدةٍ في الانتقام من الناس الذين اعتبرهم الخديوي إسماعيل باشا متوحشين، وفي عجالةٍ سريعةٍ أُجريت استعداداتٌ كبيرةٌ للحملة الثانية، والغريب أنهم جعلوا منطقة التل الكبير محطةً لقوة الانتقام، حيث كان من المقرر أن ينتقلوا من هناك إلى مصوع.

ولا أعرف عدد الرجال الذين شكَّلوا قوة هذه الحملة؛ لكنني أعتقدُ أنها كانت أكثر من عشرين ألفًا بقيادة راتب باشا(211) الذي تولَّى وزارة الحربية في عهد إسماعيل، وكنتُ أعرفهُ جيِّدًا في مصر ثم بعدها في نابولي، حيث انضم في النهاية إلى الخديوي السابق، وكنتُ أعرف أيضًا الضباط الأمريكيين الموجودين بالحملة، وخاصة الجنرال لورينغ باشا، الذي كان من قدامى المحاربين في الحرب الأهلية الأمريكية(210)، حيث فقد ذراعه، وقد جاء إلى مصر بناءً على طلب إسماعيل باشا، وكان ملحقًا بأركان الجيش المصريِّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في فبراير 1876 استأنف المصريون الحملة بعد مغادرة مصوع، وكانوا مسلحين جيدًا ببنادق ريمنغتون، وبطاريات مدافع كروب الميدانية مع كل ما يلزم الطريق من المؤن، وأعتقدُ أنهم كانوا قد اتخذوا الترتيبات اللازمة لاحتلالٍ دائمٍ؛ لكن أفضل الخطط الموضوعة كثيرًا ما تضل سبيلها، فمرةً أخرى حوصر المصريون وهُزِموا؛ لكن هذه المرة كان معسكرهم محميًّا بشكل جيدٍ جدًا بحيث لم يتمكن الأحباش من اقتحامه، واضطُرُّوا إلى التَّخلِّي عن الهجوم عليه.

وتوصَّل راتب باشا - الذي كان رجل مخابراتٍ - إلى استنتاجٍ مفاده أنَّ التوغُّل أكثر من ذلك هو أمرٌ طائشٌ ومستحيلٌ عمليًّا؛ لذلك حاول عمل هدنةٍ مع الأحباش فلم ينجح في ذلك؛ لكنه نجح بطريقةٍ ما في إعادة بقايا قواته إلى مصوع، تاركًا وراءه في أيدي الأعداء كل المدافع والمُؤن، وكلَّ شيءٍ في الواقع.

كانت الحملات كارثيةً من نواحٍ كثيرةٍ؛ فهي لم تُضعف هيبة مصر في السودان فحسب؛ بل وضعت بذور الشقاق والكراهية التي دمَّرت روح الجماعة في الجيش في نهاية المطاف، والحقيقة أنَّ مستشاري إسماعيل باشا، إضافة إلى رغبته في الانتقام؛ قد قادوه إلى التخبُّط في هذا الأمر، وكما هو الحال في أغلب الأحيان، استخفَّ المصريون بخصومهم، حتى عندما هُزموا بشكلٍ

فجٍّ في معركتي جوندت وجورا في حملة عام 1875، ففي ظلِّ تعطّشهم للانتقام لم يتحرَّكوا بسرعةٍ مدروسةٍ وبشكلٍ كافٍ، إلى جانب أنهم كانوا يحاربون شعبًا يقاتل حتى الموت دفاعًا عن بلاده.

ومما أمكنني تعلُّمه من الأحداث؛ أن الأحباش قومٌ قانعون تمامًا ومسالمون عندما يُتركون لحالهم؛ ولكن عندما ينتفضون يُصبحون بلاءً مثل الدبابير التي تدور حول عشٍّ هائجٍ.

وكما كان متوقَّعًا تمامًا في جيشٍ يتألَّف من جنسياتٍ مختلفةٍ، كانت المحسوبية موجودةً إلى حدٍّ كبيرٍ، وكانت التخفيضات في الميزانية المذكورة سابقًا هي السبب في تعيين عددٍ كبيرٍ من الضباط بنصف أجرٍ، وبما أن معظم هؤلاء كانوا مصريين، ولم يكونوا قادرين على الحصول على وظائف أخرى؛ فقد تفشَّى الاستياء في عناصر الجيش.

كان وزير الحربية عثمان باشا رفقي(209)، شركسيًّا، وأخذ جانب أبناء وطنه في صراعاتهم مع إخوانهم الضباط العرب، وأصبحت الأمور خطيرةً لدرجة أنه بعد مشادةٍ بينه وبين ضابطٍ شركسيٍّ؛ أرسل العقيد العربيُّ في الفوج الأول للحرس علي بك فهمي(208) - وهو ضابطٌ مصريٌّ كان فوجه يتمركز في قصر عابدين - وعقيدان آخران من الأفواج المتمركزة في القاهرة، رسالة احتجاجٍ شديدة اللهجة لـرياض باشا رئيس مجلس الوزراء؛ يشكو من المحسوبية والتفضيل للضبَّاط الأتراك والشراكسة على حساب المصريين؛ لكنَّ عثمان باشا رفقي، الذي لم يكن يدرك حقيقة الشعور وقوته ضده، أمر بالقبض الفوريِّ على المحتجِّين الثلاثة، وهو تصرفٌ كان من الواضح أن علي بك فهمي قد توقَّع حدوثه؛ لأنه لم يكد يتم حبس الضباط الثلاثة حتى أرسل كتيبتين من فوجه إلى الثكنات، وتقدَّمت الكتيبتان - وقد ثبَّت الجنود الحِراب على البنادق - واقتحموا الأبواب، وأطلقوا سراح الأسرى الثلاثة، وأعادوهم محمولين على أعناقهم منتصرين إلى مقرهم المقابل لقصر عابدين(207).

وصادف أن شَهِدَ الخديوي ووزراؤه من النوافذ تلك الحماسة التي غلَّفت هذه العودة، وتم إرسال أحد مساعدي الخديوي (ياوران) لمحاولة تهدئة الجنود؛ لكن ذهبت جهوده سُدىً، فلم يكن الجنود على استعدادٍ لسماع أيِّ شيءٍ أقل من إقالة وزير الحربية، وإعادة العُقداء الثلاثة إلى مناصبهم.

وتبيَّن أن مزاج القوات وانفعالاتها في القاهرة لا يمكن الاطمئنان إليه؛ لذا لم يكن لدى الخديوي أيُّ بديلٍ سوى أن يقوم بما طالبوا به، وحلَّ محمود باشا سامي الذي كان وزيرًا للأوقاف محل عثمان باشا رفقي(206)، وبعد ذلك استدعى صاحب السمو جميع ضباط الحامية، وبعد توبيخهم، عفا عنهم وعمَّا فعلوه بسلوكهم المتمرِّد.

في 20 أبريل صدر مرسومٌ خديويٌّ برفع رواتب جميع كوادر الجيش من عشرين إلى ثلاثين في المئة، وتم تعيين لجنة للتحقيق في مختلف الأمور العسكرية كقواعد الترقية وما إلى ذلك، وكان ضمن أعضاء هذه اللجنة أربعة جنرالات أجانب، ومن بينهم اللواء السير فريدريك جولد سميد وهو المدير الإنجليزي للدائرة السامية (السَّنِيَّة)(205).

وكما هو الحال في معظم الأحيان، لم تستفد الحكومة من الاستجابة لمطالب الساخطين، حيث استمر المُحرِّضون من الضباط، وأولئك الذين كانوا غير راضين عن الحكومة في تبادل السخط ونشره، حتى أصبحت زمرتهم كثيرة القوة والعدد.

على رأس هذا الجماعة كان عرابي بك، وهو من مواليد الزقازيق، وينتمي إلى طبقة الفلاحين، كان والده مزارعًا صاحب ملكيةٍ صغيرةٍ جدًا، وكان يزرع أرضه بمساعدة عرابي وإخوته، وتلقَّى عرابي تعليمه في مدرسةٍ قرويةٍ، حيث لم ينل قسطًا كبيرًا من العلم، باستثناء حفظ القرآن، والتحق بالجيش بعد أنْ أتمَّ تجنيده الإلزامي، وبعده بفترةٍ وجيزةٍ تم تعيينه في إدارة المؤن والإمدادات.

ويُقال إنه كان على صلةٍ بالاضطراب الذي وقع خارج قصر عابدين بعد وقتٍ قصيرٍ من وفاة سعيد باشا(204)؛ ويُشاع أيضا أنه وقع في مشاكل في مصوع أثناء الحرب الحبشية عندما كان في خدمة النقل، والتحق بعد عودته إلى القاهرة بمدرسة في أحد المساجد؛ حيث اكتسب قدرًا من المعرفة السطحية، ثم استأنف خدمته في الجيش، ويُقال إنه أصبح عضوًا في جمعيةٍ سريةٍ كانت لها تداعياتٌ كبيرةٌ في الجيش، ولطالما امتلك عرابي شخصية المُحرِّض(203)، وكان يُنظر إليه كقوةٍ في الجيش، وقام إسماعيل باشا بترقيته، حتى رفعه في النهاية إلى رتبة (عقيد).

عندما أُفكر في عرابي أتساءل كثيرًا حول مكمن قوته؛ فهو لا يمتلك جاذبية شخصيةٍ كبيرةٍ، ولم يحصل إلا على قدرٍ ضئيلٍ من التعليم، ولم يكن سجله العسكريُّ رائعًا؛ ومع ذلك فهو بلا شكٍّ قد جعل الناس يؤمنون به، وأقصدُ بذلك المصريين؛ لأنهم هم مَنْ عرفوه وفهموه؛ أمَّا هؤلاء الأشخاص في إنجلترا الذين نظروا إليه كبطلٍ وطنيٍّ كانوا على الأرجح من عوامِّ الناس البسطاء، والذين سيظلون في كل الأحوال عوامًّا وبسطاء التفكير ما دامت الإمبراطورية البريطانية موجودةً(202).

وربما ترى العناية الإلهية الحكيمة أنَّ هؤلاء العوام مفيدون لنا، تمامًا من الزاوية نفسها التي وصف بها مزارع أمريكي - في بعض الكتب التي قرأتُها - فائدة البراغيث الموجودة على الكلب؛ من باب أنها لمنعِه من الاكتئاب بسبب

حقيقة كونه كلبًا. ولكن على ما أتذكّر، اشترط الكاتبُ لحدوث هذه الفائدة أن تكون كميةً معقولةً من البراغيث؛ ولكن، كما قلتُ، فقد عرفه المصريون وفهموه، وما حيرني للغاية هو معرفة: لماذا اتبعوه وآمنوا به؟!

بالطبع كان عرابي مُلفِّقًا فصيحًا؛ يستطيع التلاعب بالألفاظ وجعل الأكاذيب منطقية، ومعظم السياسيين يمتلكون هذه الموهبة، كما يستطيع أيضًا استغلال الدين كسلاحٍ للهجوم والدفاع، وهذا أيضًا أمرٌ معروفٌ في بريطانيا.

وفوق ذلك، لم يكن عرابي جنديًّا عظيمًا، ولا مقاتلًا عظيمًا؛ لذا لا يتبقَّى أمامي سوى الافتراض أنه كان متحدثًا رائعًا، وهي الصفة التي تكون دائمًا أكثر قوةً وفاعليةً.. نعم لم أسمعه قط يخطب في أتباعه؛ لكن من التقارير ودراسة خطابات المُحرِّضين المعاصرين، يبدو أنه كان يتلفظ بعباراتٍ رائعةٍ ذات رنينٍ وجهوريةٍ، عباراتٍ لا يفهمها هو ولا مستمعوه، وبطبيعة الحال ما دام الأخيرون لا يفهمونها؛ فإنهم يُصفِّقون ويُهلِّلون لها.

والشيء الآخر الذي كان يصبُّ في صالحه هو تناقص قوة الخديوي؛ الذي كانت يداه مغلولتين ولم يعد بهما سوى الكرباج والإرسال إلى السودان، وهما المنحتان اللتان بقيتا له يمنحهما لمن شاء.

جاءت الأزمة التي أظهرت ذلك عندما دُهِسَ جنديٌّ مدفعيةٍ وقُتل في حادث عربةٍ في الإسكندرية، وتمَّ القبض على الحُوذيِّ واقتياده إلى أقرب مركز شرطة (كراكون)(201)، ولا أعرف هل ثبتت براءته من الإهمال أم لا؛ لكن الذي حدث أنه سُمح له بالخروج من الكراكون في الحال دون أي عقوبةٍ؛ وهو ما جعل بعض الجنود رفاق القتيل المسكين يحملون جثته عبر شوارع الإسكندرية، ثم اتجهوا بالجثة إلى قصر رأس التين حيث كان يقيم الخديوي، فلما شاهد اقتراب هؤلاء الرجال من النافذة دُهش كثيرًا من جرأتهم أو وقاحتهم، ولمَّا سمع أنهم يُطالبون بالعدالة، بعث إليهم بكلمةٍ مفادها أنه سينظر في القضية(200).

بعد ذلك عُقدت محكمةٌ عسكريةٌ، وحُكم على زعيم مجموعة الجنود بالأشغال الشاقة المؤبدة، وعلى الجنود الآخرين بالسجن ثلاث سنوات يعملون فيها بالتجديف على السفن في الخرطوم.

كانت هذه الأحكام بالغة القسوة، وأثارت سخطًا شديدًا بالجيش، وكتب اثنان من العقداء إلى الخديوي ووزير الحربية بعبارات مُهينة. ولأن الوزير لم يرغب في اتخاذ أي خطواتٍ تزيد من السخط في الجيش؛ فقد سمح لمحرِّري الخطاب بسحب رسالتهم، عندما أكَّدوا له أنهم لم يقصدوا بها أي تمردٍ. لكن الوزير المسكين الذي حاول أن يخدم سيدين في الوقت نفسه: الجيش والخديوي؛ خرج بالنتيجة المعتادة، فرغبته في إنهاء الأمر نهايةً سلميةً أغضبت

الخديوي، والذي فصله بطبيعة الحال، واستبدل به ابن عمه المدعو داود باشا يكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في 3 سبتمبر(199) غادر الخديوي الإسكندرية متوجهًا إلى القاهرة، وأمر وزير الحربية - الذي كان أقوى من سلفه - الفوجَ الرابعَ الذي كان عرابي عقيدًا به، بمغادرة القاهرة إلى الإسكندرية.. فهل كان هذا أمرًا مُتهورًا أم لا؟! هو سؤالٌ مفتوحٌ للنقاش؛ لكن تأثيره اتضح بعد وقتٍ قصيرٍ جدًا, فهناك اشتباهٌ في أن هذا الأمر قد غطَّى على بعض خطط الانقلاب؛ إذْ أصبح العسكريون متحمسين للغاية، وعقدوا اجتماعاتٍ تقرَّر فيها أنه يجب لَيِّ ذراع الخديوي، وإجبار الوزارة على الاستقالة، واتفقوا على هذا، وكتب عرابي إلى داود باشا يبلغه أنه في ساعةٍ معينةٍ ستصل قوةٌ ممثلةٌ للجيش إلى قصر عابدين للتأكيد على تلبية مطالبهم، وكانت هذه المطالب هي: عزل رياض باشا والوزارة، وتنفيذ توصيات اللجنة العسكرية، واستدعاء مجلس الأعيان.

ولإظهار المدى الذي وصلت إليه الأمور، سأذكر هنا أنَّ عرابي أرسل تعميمًا إلى ممثلي الدول الأجنبية؛ يؤكِّد فيه على أن أرواح الأجانب وممتلكاته آمنةٌ تمامًا، وأن القوات ليس لديها أيُّ تفكيرٍ في إيذائهم.

وفور تلقيه رسالة عرابي، وبعد التشاور مع رجاله؛ قرَّر الخديوي التوجُّه إلى ثكنات العباسية ومحاولة التوصُّل إلى تسويةٍ وديةٍ؛ لكن عند وصوله إلى هناك وجدها خالية؛ لأنَّ عرابي كان قد سار بقواته إلى الميدان الذي أمام القصر، ووضع مدفعيته بحيث يُسيطر على القصر بشكلٍ كاملٍ.

ولذلك، عندما عاد الخديوي برفقة السيد كولفين - الذي أصبح بعد ذلك السير أوكلاند كولفين(198) - والسيد كوكسون(197) القائم بأعمال القنصل العام البريطاني في مصر؛ وجد الوضع منذرًا بالسوء بشكلٍ واضحٍ، واضطر الخديوي إلى دخول قصره من بابٍ خلفيٍّ؛ لكنه كان هادئًا رابط الجأش بصورةٍ رائعةٍ(196)، ونزل بعد فترةٍ قصيرةٍ السلالمَ الرئيسة للقصر ليسألهم عما يريدون.

وردَّ عرابي - كعادة ما يفعله المُحرِّضون - بأنهم جاءوا باسم الشعب ليطالبوا بالحرية وإقالة الوزارة(195)، مضيفًا أنهم موجودون في هذا المكان للدفاع عن حرية مصر، والتي لا ينبغي على إنجلترا - وهي الخصم الأكبر للعبودية - أن تسمح أبدًا بتدمير تلك الحرية.

رجع الخديوي - الذي لم يكن يملك أيَّ خيارٍ في الأمر - إلى القصر للنظر في مطالبهم؛ لكنه اضطُرَّ إلى قبولها، ووعد بإقالة وزارة رياض باشا، عندئذ أصرَّ الضُّبَّاط على تعيين شريف باشا، ووافق على ذلك أيضًا.

أتذكر ذلك المشهد جيدًا(194)، فقد كنتُ برفقة رجلٍ إنجليزيٍّ آخر لزيارة أحد المسئولين داخل قصر عابدين، وبينما كنا نقفُ في ساحة القصر، سمعنا ورأينا كل شيءٍ(193).

عند الساعة السابعة مساء أخلت القوات الساحة وعادت إلى الثكنات، ومما لا شك فيه أنَّ ضعف الفهم وعدم القدرة على استمالة المواطنين من أهل البلاد، وعدم المساواة بين الجنود من أهل البلاد وبين العناصر الأوروبية والأنجلوهندية ذات الأجور العالية في الجيش، قد ضمنت لعرابي دعمًا أكبر بكثيرٍ مما كان يتوقعه؛ لذلك أصبح عرابي من الناحية العملية ديكتاتورًا عسكريًّا بدايةً من ذلك الوقت فصاعدًا، وبعد ثلاثة أيامٍ من تلك الحادثة وقَّع الخديوي كما وعد المرسوم الذي يُنظِّم الرواتب والترقيات والإجازات والتقاعد في الجيش، تبعًا لتقرير المفوض العسكري.

في 6 أكتوبر غادر عرابي بك وعبد الله بك(192) القاهرة مع أفواجهم، وتوجَّه الأول إلى الوادي، والآخر إلى دمياط، وساد الهدوء والوئام خلال الأشهر المتبقية من عام 1881؛ ولكن في أوائل عام 1882 حدثت تغييراتٌ مرةً ثانيةً في الوزارة، وبدأ كثيرٌ منَّا يشعر بالقلق وعدم الارتياح، وكملاحظةٍ شخصيةٍ صغيرةٍ لإنهاء هذا الفصل؛ أقولُ إنه في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1881 حصلتُ على وسام نيشان الافتخار التركي رتبة قائد(191).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(233) في كلام المؤلف خلطٌ تاريخيٌّ، فقد كان استهلال عهد توفيق باشا بوزارة شريف باشا الثانية في الفترة بين (5 يوليو - 18 أغسطس 1879)، ثم وزارة توفيق نفسه في الفترة بين (18 أغسطس - 21 سبتمبر 1879)، وتلتها وزارة رياض الأولى التي كانت في الفترة بين (21 سبتمبر 1879 - 10 سبتمبر 1881). انظر: تاريخ الوزارات المصرية، ص 73 - 85.

(232) لويس السادس عشر (1754 - 1793): آخر ملوك فرنسا، قامت في عهده الثورة الفرنسية، وقد تزوج من ماري انطوانيت وأنجب منها لويس السابع عشر الذي مات صغيرًا.

(231) دأب المحتل البريطاني على زرع الفتنة بين المسلمين والأقباط في مصر لضمان مكوثه فيها أطول وقت ممكن، وهذا الأمر فصَّله أستاذنا المستشار طارق البشري في كتابه «المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية» انظر الفصل المعنون بـ: «السياسة البريطانية والتفرقة الطائفية»، ص 109 - 132، وقد أورد فيه شهاداتٍ موثقةً لمؤرخين ومفكرين أجانب.

(230) يقصد الوزارة الأولى لرياض باشا في 21 سبتمبر 1879.

(229) كان ذلك في 10 سبتمبر 1882. انظر: تاريخ الوزارات، ص 114.

(228) انظر الإشارة إلى الصراع بين سكريفنور وآرشر شي في كتاب: الجاليات البريطانية في مصر، ص 188. وانظر إلى ما كتبه چون نينيه عن الإدارة البريطانية للجمارك في رسالته المؤرخة في 3 أبريل 1881. انظر: رسائل من مصر، ص 262 - 263.

(227) السير إدوارد ماليت Sir Edward Malet (1835 - 1908): الممثل البريطاني والقنصل العام في مصر من 1879 حتى 1883، وقد فرض هيمنته على توفيق الخديوي الذي اعتلى الحكم سنة 1879.

(226) السير هنري بروس ميوكس Sir Henry Bruce Meux (1856 - 1900): سياسي إنجليزيٌّ، امتلك أحد أكبر مصانع البيرة في إنجلترا، وكانت زوجته Lady Valerie Meux مفتونةً بالحضارة المصرية فجمعت كثيرًا من القطع الأثرية بلغت نحو ألف وسبعمائة قطعة. وقد وثَّقت هذه القطع في كتالوجين من تأليف عالم المصريات المعروف واليس بدج.

(225) دقلديانوس Emperor Diocletian: إمبراطورٌ رومانيٌّ حكم في الفترة من 284 - 305م، وتولى الجكم بعد موت الإمبراطور نوريانوس، وقد اضطهد

المسيحيين وعذبهم.

(224) أريليوس أخيليوس Achilleus: أحد المتمرِّدين على حكم دقلديانوس السابق ذكره، وقد حكم مصر بعد ثورة 297م، وقد سقط أخيليوس وأُعدم سنة 298م.

(223) بكل أسفٍ كانت الآثار تُعامل آنذاك كمواد خام بدائية قابلة للبيع والشراء.

(222) ثيوبالدس بارك Theobald's Park: هي حدائق قصر ثيوبالدس الملكي الذي كان مقرًا لرجال الدولة في إنجلترا، وقد ضُمَّ في وقت لاحقٍ إلى فندق بيرش وناديه (Birch).

(221) يرجع تأسيس المدينة إلى ما قبل ذلك، فقد كانت تُسمَّى قديمًا: (رخيت) ثم تطوَّر الاسم في العصر القبطي إلى (رشيت).

(220) بُني مسجد زغلول سنة 995 هـ 1587م جنوب المدينة على طراز الجامع الأزهر، وقد أسسه نصر الدين زغلول وبه ضريحه، وكان للمسجد دورٌ كبيرٌ في التصدِّي للحملة الفرنسية 1801 ولحملة فريزر عام 1807م.

(219) أماكن لإقامة المسافرين تشبه الفنادق في العصر الحالي.

(218) هو الحجر الذي فكَّ رموزه العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبليون (1790 - 1832).

(217) سنة 1880.

(216) امبرتو الأول كما سبقت الإشارة.

(215) تحققت نبوءة الرجل وتصاعد الإنتاج المصري من القطن الجيد، وصارت له مكانته المرموقة في العالم حتى اختفت زراعته منذ سنوات طويلة.

(214) سنة 1880.

(213) أركيل بك أبرو Arkeel Bey (1875 - 1832): موظف أرمني، عمل سكرتيرًا خاصًّا للخديوي إسماعيل، كما شغل منصبًا دبلوماسيًّا في الخارجية المصرية.

(212) يقصد معركة جوندت في 18 نوفمبر 1875 التي هُزم فيها فيها الجيش المصري بقيادة الدانماركي آرندروب ونجا نحو ثلاثمائة جندي من ثلاثة آلاف جندي انسحبوا إلى مصوع.

(211) محمد راتب باشا (ت 1920): عسكريٌّ مصريٌّ من أصلٍ شركسيٍّ، عمل في إسطنبول ثم في مصر، ورُقِّي إلى (لواء)، ثم عُيِّن سردارا في عام 1867، ثم تولى وزارة الحربية في حكومة نوبار عام 1888م.

(210) نشبت هذه الحرب الداخلية من سنة 1861 حتى 1865 بين الولايات الشمالية ذات الطابع الصناعي والولايات الجنوبية ذات الطابع الزراعي، وكان إلغاء العبودية هو السبب المباشر في قيامها.

(209) عثمان رفقي (1839 - 1886): عسكريٌّ ولد في القوقاز، تلقَّى تعليمًا عسكريًّا في مصر، وشارك في حملة جزيرة تكريت، وعمل محافظًا لمصوع وسواكن، ثم نائبًا للحاكم العام وقائدًا أعلى للقوات في السودان.

(208) من قادة الثورة العرابية، حوكم مع عرابي ونفي معه إلى سيلان، وعاد إلى مصر، ثم توفي بها في 20 نوفمبر 1911.

(207) وقعت الحادثة في الأول من فبراير 1881، انظر تفاصيلها في مذكرات عرابي، 1/225 - 231.

(206) في 2 فبراير 1881.

(205) الأراضي التي كانت مملوكة للخديوي.

(204) كانت وفاته في 18 يناير 1863م. ويرى الأستاذ العقاد أن عرابي لم تكن له يدٌ في المظاهرة؛ لأنه كان في دمياط وعاد منها ليلة وقوع الحادث وقضى يومه مشغولًا بتسليم عهدته في مخازن الوزارة. انظر كتابه: 11 يولية وضرب الإسكندرية، ص 111 - 112.

(203) موقفه من عرابي ليس مستغربًا، فهو يتماهى مع موقف المحتل الذي لا يريد مقاومةً من الشعوب المحتلة، ويسعى في تشويه رموز أي مقاومة.

(202) كلام ليس دقيقًا، فقد كان هناك بريطانيون على درجةٍ كبيرةٍ من الأهمية يرفضون تدخل بلادهم السافر في شئون البلدان الأخرى، ومن هؤلاء: السير وليم جريجوري الذي كان يبعث برسائله إلى صحيفة التايمز. انظر: تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، ص 228. ومنهم المستشرق ويلفريد بلنت صاحب كتاب: (التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر)، راجع على سبيل المثال ما أرسله هو الآخر إلى صحيفة التايمز من القاهرة أول أبريل 1882. مذكرات عرابي، 1/472. وكذلك برودلي المحامي البريطاني الذي تولى الدفاع عن عرابي فيما بعد.

(201) قراقول: كلمة تركية تعني: قسم الشرطة، وقد حُرفت فيما بعد إلى (كراكون).

(200) 25 يوليو 1881.

(199) سنة 1881.

(198) السير أوكلاند كولفين Auckland Colvin (1838 - 1908): كان مسئولًا استعماريًّا في الهند ومصر، وعمل مراقبًا عامًا في مصر (1880 - 1882)، ثم مستشارًا ماليًا للخديوي توفيق منذ سنة 1883 حتى 1887.

(197) السير تشارلز ألفريد كوكسون Charles Alfred Cookson (1829 - 1906): سياسيٌّ بريطانيٌّ، قضى نحو 23 عامًا قنصلًا لبريطانيا في مصر، كما تولّى قنصل عام الإسكندرية وقاضي المحكمة القنصلية التابعة للملكة في الإسكندرية.

(196) يُفهم من كلام كولفين أنَّ الخديوي كان خائفًا مضطربًا يكرر قوله: ماذا أفعل؟ نحن وسط النيران يقصد عرابي ورجاله.

(195) كما طالب عرابي أيضًا بتشكيل مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش، والتصديق على قانون العسكرية الجديد، وعزل الشيخ العباسي شيخ الإسلام (شيخ الأزهر). انظر: مصر للمصريين، 4/93.

(194) وقعت المظاهرة في 9 سبتمبر 1881.

(193) حسب مذكرات كولفين؛ فقد كان في الساحة خمسةٌ من الضباط المصريين والأمريكي ستون باشا وضابط أو اثنان من الأوروبيين، ولم يذكر كوسيل وصاحبه.

وقد روى خليل النقاش أن ساحة عابدين كانت تغص حينها بجماهير المتفرجين من أجانب ووطنيين ونوافذ البيوت المجاورة للسراي وأسطحها ملأى بالنساء المتفرجات. انظر: مصر للمصريين، 4/92.

(192) يقصد: (عبد العال) حلمي الذي سافر بالآلاي السوداني إلى دمياط وليس (عبد الله). بينما توجه عرابي إلى رأس الوادي. انظر: مذكرات أحمد عرابي، 1/322. ومصر للمصريين، 4/94.

(191) وسامٌ ملكيٌّ أُسس في تونس 1252 هـ/1836 من قبل مصطفى باي، وظل حتى أُلغيت الملكية سنة 1957.

الفصل السابع

1882

تعيّن عرابي وكيلًا لوزارة الحربية - منح عرابي رتبة الباشوية - وصول الأسطول البريطاني إلى الإسكندرية - الأدميرال السير فريدريك سيمور - الكابتن ريتشارد مور مولينو - ميچور إيه بي تولوش - تليفون بين القنصلية البريطانية وسفينة القيادة الأدميرالية - مذبحة في الإسكندرية، في الحادي عشر من يونيو - مقتل مهندس تابع للسفينة إتش إم إس - القنصلية البريطانية - الكابتن مولينو يتولى المسئولية - السيد كالفيرت نائب القنصل - القنصل السيد كوكسون - عمر باشا لطفي محافظ الإسكندرية - العقيد سليمان سامي - تهريب أسلحة وذخيرة إلى القنصلية البريطانية - الوقفة الاحتجاجية طوال الليل - الأدميرال سيمور يرسل القوارب والمشاة البحرية إلى الميناء الشرقي - إنذار عبر الهاتف - سحب القوارب - رحلة موريس بك الليلية - برقية الخديوي - وصول مندوبي الخديوي الخاصين - مؤتمر أثناء الليل - قرار بشأن النساء والأطفال - مصادرة عربات في وضح النهار - مغادرة الهاربين للسفن - السيد كيلارد يغادر متوجهًا إلى أوروبا - تعييني مدير عام الجمارك بالإنابة - خطر طوربيدات الغواصات - تحرك عرابي - رفض دار الجمارك - آلة تفجير تحت سطح البحر - تسليم حقيبة للأدميرال سيمور - شكر الأدميرالية.

في الأسبوع الأول من شهر يناير، تم تعيين عرابي بك وكيلًا لوزارة الحربية، ولا أعرف مَن كان مسئولًا عن هذا الإذعان، وقال كثير من الناس إن شريف باشا كان حريصًا على استرضاء عرابي، وبدا معتقدًا أن عرابي يُمثِّل بالفعل حركةً وطنيةً ضد العنصر الأوروبي؛ لكنني شخصيًّا أتخيَّل أنه أُجبر على ذلك من جانب مجلس الأعيان، الذين اجتمعوا وفرضوا عليه نهجهم الخاص في كل شيء؛ لدرجة أن شريف باشا استقال بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، وكانت هناك بعض الصعوبة في تشكيل وزارةٍ جديدةٍ؛ ولكن في النهاية أصبح محمود باشا سامي رئيسًا للوزراء(247)؛ وعلي صادق باشا وزيرًا للمالية، وعرابي المُهيِّج للفتن وزيرًا للحربية؛ وهكذا أصبح عرابي أحد عظماء مصر؛ لأنه بلا شكٍّ استطاع السيطرة على الأمر كله في قبضة يده.

وكالعادة في مصر كان النفوذ للقوة الحربية؛ لكن لا أستطيع أن أفهم تمامًا ماذا كانت أفكار عرابي، وهل كان يرغب في الاستيلاء على مكان توفيق أم رغب في أن يكون طاغيةً عسكريًّا يحكم مصر بمساعدة سلطان تركيا؛ لأنه كان قد أعلن صراحةً عن دعم تركيا له.

في مارس 1882 توصَّل الخديوي - على ما يبدو - إلى نوعٍ من التفاهم الودِّي مع عرابي ومنحه رتبة (الباشوية)، بينما منح رتبة (البكوية) لعددٍ من ضباطه، والحقيقة أنني عندما أقول إنَّ القسطنطينية قد دعمت عرابي؛ فأنا أذكر فحسب الشائعة التي كانت تدور في ذلك الوقت، وتُعضِّدها بعض الأدلة العرضية، ومع ذلك فربما كانت للقضية قراءةٌ أخرى استهوت عددًا معيَّنًا من الناس، وسأمنح تلك القراءة الأخرى ما تستحقه من توضيحٍ، لكي أكشف إلى أيِّ حدٍّ مدى يستحيل الحصول على الحقيقة الصادقة في الشرق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقام الأمير حليم(246) - شقيق الخديوي إسماعيل - في القسطنطينية، حيث كان مُفضَّلًا جدًّا لدى السلطان(245)، ولولا مرسوم البكورة لكان على الأرجح قد خَلَفَ الخديوي بمرور الوقت.

كان حليم شديد الارتباط بالفرنسيين، وهذه الإشاعة التي أتحدَّثُ عنها تدلُّ على أنَّ عرابي كان في البداية يعمل بكلِّ إمكاناته لصالح الأمير حليم؛ لكن عرابي بعد أن وجد قوته تتزايد بسرعةٍ عاليةٍ، قرَّر أنَّ العمل لصالح شخصٍ آخر هو أمرٌ بلا طائلٍ؛ لذلك قرَّر أنْ يفعل كلَّ ما بوسعه للعمل من أجل نفسه فحسب، وكان عرابي حكيمًا بما يكفي ليعرف أنَّه في الشرق توجد أكثر من طريقةٍ للتخلُّص من الرجال الذين يستعملهم أيُّ أميرٍ في طريقه لتحقيق غايته.

ولا يمكنني الجزم إذا كان هذا الكلام حقيقيًّا أم لا، كما لا أستطيع القول إنني رأيتُه مكتوبًا من قبل؛ لكنه يُفسِّر الاعتقاد العام بأنَّ تركيا كانت تُحرِّض عرابي، وهذا أكثر مصداقيةً من القول إنَّ تركيا دعمته لتحقيق أهدافها الخاصة، فبكل يسر وسهولة؛ ما هي الفائدة التي يمكن أنْ تُحقِّقها من وراء دعمه؟ فالأتراك ليسوا حمقى، ولا بد أنهم فهموا أنه بعد أن تم إنشاء قناة السويس؛ لن تسمح إنجلترا ولا فرنسا بالاحتلال التركي لمصر.

أُدرك تمامًا أنَّ السلطان ادَّعى أن مصر جزءٌ من ممتلكاته؛ لكن يبدو من المُستَبعد أنه اعتزم بذل أيِّ جهدٍ لتأكيد حقوقه، وربما كان تحريضه لعرابي رغبةً فعليَّةً في تدمير ما تبقَّى من سلطةٍ ضئيلةٍ لدى توفيق، ولكن بعد أن يتم ذلك فمن صالح تركيا؛ أن يزول عرابي أيضًا، وإذا كان الأمر على هذه الصورة؛ فما الحجج التي كان يمكن أن يسوقها الترك لكسب الجيش؛ إذا كانت صيحته الوحيدة هي أن مصر للمصريين.

وفي أبريل - من العام نفسه(244) - انتشرت شائعاتٌ عن انتفاضةٍ عرابيةٍ محتملةٍ، وعندما سمعتُ بذلك تحرَّيتُ الأمر بنفسي، وعلمتُ من مصدرٍ محليٍّ أنَّ هناك شيئًا ما حقيقيًّا وراء كل هذه الشائعات وفكَّرتُ أنه من المُستحسن

إرسالُ زوجتي وابنتي إلى بيروت في سوريا(243)، وبعد ذلك إلى نابولي؛ حيث مكثوا حتى نهاية العام، والحقيقة أنَّ رحيلهم قد أزاح عبئًا ثقيلًا عن ذهني، ومنحني حرية التصرُّف، ومكَّنني من الاهتمام عن قُربٍ وبشكلٍ كاملٍ بالمهامِّ التي كانت ملقاةً على عاتقي، كما أراحني من القلق الذي كنتُ سأعانيه خلال الأشهر القليلة التالية، حين تلاحقت الأحداث المذهلة واحدةً تلو الأخرى في تتابعٍ سريعٍ.

كان هناك شعورٌ بالتوتر طوال الوقت، وكأنَّ أوتار السلام الفولاذية قد أصبحت مشدودةً إلى أقصى حدٍّ، وكلُّ تحرُّكٍ جديدٍ يسبِّبُ رنينًا، كما لو أنَّ يدًا عملاقةً تعزف عليها، ولكن عندما وصلت الأحداث ذروتها؛ حدث الأمر كأنه مفاجأةٌ لم يكن أحدٌ قد توقَّعها أو تحضر لها.

ويبدو أنَّ الطبيعة البشرية مجبولةٌ على ذلك، فيعيش الرجال والنساء على جوانب بركانٍ نشطٍ، يسمعون أزيز الغليان، ويرون الدخان واللهب؛ لكنَّ يملؤهم الأمل في أنه إذا ثار البركان، فلا شكَّ سيتَّجه نحو الأسفل بعيدًا عنهم؛ فالأمل غالبًا ما يكون حالةً من خداع الذات، ولكن مع ذلك بدون هذا الأمل سنصبح في أسوأ حالٍ.

في 20 مايو، وعلى سطح مكتب خفر السواحل وقفتُ مع «موريس بك» المفتِّش العام لخفر السواحل، وشاهدنا وصول الأسطولين البريطانيِّ والفرنسيِّ، ورأيناهم يُلقون مراسيهم، وشعر كلانا بوهج الفخر الذي يشعر به معظم الإنجليز عند رؤيتهم للذراع البحري لقوات بلدهم، وأستطيع أن أتذكَّر المشهد الآن، لكنِّي أتذكَّر أيضًا الملاحظة التنبؤية التي قالها المسكين موريس بك عند رؤية العظمة الشرسة العابسة للسفن الحربية:

«آه، يا كوسيل.. إنهم رائعون.. إنهم بريطانيون.. أنا وأنتَ نشعرُ بالفخر العظيم بهم؛ لكن أخشى أنَّ هذا اليوم ستكون عواقبه سيئةً بالنسبة إلينا؛ لأنَّ أيَّ تغييرٍ قد يحدثُ في هذا البلد بمساعدة هؤلاء (وأشار بذراعه نحو الأساطيل)؛ فإنَّني وكثيرٌ من المسئولين الأنجلومصريين القدامى الآخرين، سوف نُزاحُ جانبًا مع عددٍ من أهل البلاد أيضًا من أجل إفساح المجال لأقارب الموجودين في السلطة وأصدقائهم، والذين سينتزعون أفضل المناصب وأكثرها أهميةً، سواء أكانوا يملكون أي مؤهلاتٍ حقيقيةٍ أم لا».

لقد حزَّ في نفسي بشكلٍ كبيرٍ حزنه الشديد في هذه المناسبةِ؛ لأنه كان رجلًا ذكيًّا بعيد النظر، وبشوشًا بصفةٍ عامَّةٍ، والآن عندما أُفكِّر فيه أتذكَّر دعابةً فعلها؛ وآمل أن تغفروا لي ذكرها هنا قبل أن تبدأ تلك المأساة:

كان لشابٍّ إنجليزيٍّ - لا داعي لذكر اسمه - رغبةٌ كبيرةٌ غير معروفة السبب في امتلاك جَمَلٍ، ويمكن القول إنَّ هذا الشاب لم يبتعد عن إنجلترا لفترة

طويلةٍ على أية حالٍ، وبعد ظَهر أحد الأيام عندما كنتُ أنا وموريس بك نتنزَّه معًا بالعربة؛ التقينا بالشابِّ وأوقفنا العربة، وبدأنا في التحدُّث إليه، فكانت أولى كلماته هي:

- لقد اشتريت جَمَلًا.

قال موريس بك: هل حقًّا فعلتَ ذلك؟

- نعم؛ وكان شراؤه عملًا رهيبًا بحقٍّ؛ فقد اعتقد الزِّنجيُّ چوني أنَّ الجَمَلَ مُقدَّسٌ أو شيءٌ من هذا القبيل؛ لأن هذا الوحش أكل سجادة صلاته.

قال موريس بك وهو يغمز لي:

- آه، آملُ أن تكون قد أبرمت صفقةً جيِّدةً.

- أعتقدُ ذلك؛ فقد كان ثمنه أكثر قليلًا مما أردت أن أدفعه؛ لكن البائع لم يرض بأقل من مئةٍ وسبعةٍ.

- قرش؟

ضحك الشابُّ واهتزَّ جسده بسبب مزحة البِك وقال:

- لا، بالطبع جنيه.

كدتُّ أنفجر من الضحك؛ لأن هذا كان ثمنًا باهظًا لأيِّ شيءٍ باستثناء أجود جِمَالِ السِّبَاق، ومرتفع حتى بالنسبة إلى جَمَل السِّباق؛ لكن موريس بك حافَظَ على ملامح وجهه جادةً تمامًا وقال:

- آه.. فهمت، أنت لم تشتره لأنه جملٌ، ولكن اشتريتَه لأنه يلتهم القماش المُطرَّز.

وبعد فترةٍ وجيزةٍ اعترف لي الشابُّ أنَّه اضطُرَّ إلى بيع الجَمَلِ مرَّةً أخرى، مقابل عشرين جنيهًا أو نحو ذلك.

نعودُ إلى الواقع المرير والأساطيل المحتشدة؛ فقد كانت السفن الحديدية البريطانية هي: (ألكسندرا)، و(إنفليكسبل)، و(إنفينسبل)، و(تيميراير)، و(سوبيرب)، و(سلطان)، و(مونارك). وأمَّا الزوارق الحربية فهي: (بيكون)، و(بيترن)، و(سيجنت)، و(كوندور)، و(ديكوي)، وعلى متنها جميعًا ثلاثة آلافٍ وخمسمئة رجلٍ، ومئة واثنان مدفعًا، وكلها تحت قيادة نائب الأدميرال السير فريدريك بوشامب باجيت سيمور (242).

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى تعرَّفتُ على الأدميرال سيمور وعددٍ من الضُّبَّاط، حيث تناولتُ العَشاء عدة مراتٍ على متن السفينة الحربية (انفينسيبل)،

وأصبحتُ صديقًا مُقرَّبًا من قبطانها الكابتن مولينو.

تعرَّفتُ أيضًا على الرائد أ ب تولوش من إدارة المخابرات، والذي قاد بعد ذلك الفوج الويلزي، وتمكَّنتُ من تقديم بعض الخدمات البارزة له والتي أعانته على تنفيذ واجباته، وكان ذلك بفضل منصبي الرسمي، والمعرفة التي أملكها عن أهل البلاد.

وفي الحقيقة إنَّ وجود الأسطول لم يُهدِّئ الأجواء بأيِّ شكلٍ من الأشكال؛ بل كان تأثيره عكسيًّا، وبدأ العنصر الأوروبي في البلاد يشعر ببعض الخوف والقلق بشأن ما ستكون عليه الخطوة التالية، مدركين أنَّ موقفهم قد يكون في أي لحظةٍ موقفًا لا يُحسدون عليه.

وكانت الخطوة الأولى عندما أعطى عرابي تعليماتٍ بوجوب وضع تحصينات الإسكندرية في حالة دفاعٍ، وأمر الجنود بالعمل ليل نهار؛ فأرسل له «الأدميرال سيمور» رسالةً مفادها أنَّ هذا العمل يجب أن يتوقَّف على الفور، وأنه يجب ألا تجري أعمال الحفر أو نصب بطاريات المدافع؛ وكان الردُّ الوحيد الذي تلقَّاه هو إنكار أنَّ يكون أيَّ عملٍ من هذا القبيل قيد التنفيذ؛ ولكن في إحدى الليالي وجَّهت سفينةٌ حربيةٌ كشَّافها بشكل مفاجئٍ إلى الحصون، وكَشَفت وجود جنود عرابي وهم يعملون(241).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمَّا كان يوم الأحد 11 يونيو 1882، وفي نحو الساعة الثانية بعد الظهر؛ بدأت أعمال شغبٍ بهجومٍ شنَّه بعضهم على الأوروبيين(240)، وكان من الواضح أنه عملٌ مُتعمَّدٌ؛ لأن المجموعات المكونة من الطبقة الدنيا من العرب كانت تتسكَّع في المكان طوال اليوم، بينما جاء عددٌ من البدو إلى المدينة قادمين من الريف، وكلهم كانوا مسلَّحين بشكلٍ أو بآخرَ، ومُعظمهم يحملون النبابيت (العِصِي الخشبية)(239).

بدأتِ الاضطرابات في (الحي المالطي)، وقتل العرب هناك العديد من الأوروبيين، ثم في وقتٍ لاحقٍ بعد الظهر مع ازدياد حجم الغوغاء؛ بدأوا في نهب المتاجر وتدميرها، وكان من الملاحظ أن الشرطة وخفر البلدية لم يفعلوا شيئًا لقمع أعمال الشغب، وفي بعض الحالات اتُّهموا بالمساعدة والتحريض، وفي إحدى الحوادث قيل إنَّ بعض الأوروبيين التمسوا الأمان في مركز الشرطة (الكراكون) الرئيس؛ لكن بمجرد دخولهم تم إغلاق الأبواب وقام الحرس بتصفيتهم.

لا أرغب في الكتابة عن الفظائع المُبلَّغ عنها، مهما كان مدى صدقها؛ لكنني سأروي فقط ذلك الجزء من المذبحة الذي حدث بعدئذٍ ولمسته بنفسي:

في مساء السبت، أخذني موريس بك لقضاء الليل واليوم التالي معه في الرملة، ونزل الكابتن مولينو يوم الأحد للانضمام إلى المجموعة، ثم إنَّ أحدهم قد اقترح بعد الغداء أن نذهب جميعًا بعرباتنا إلى الحدائق العامة على ترعة المحمودية للاستماع إلى الفرقة الموسيقية العسكرية، ورؤية صفوة أهل الإسكندرية.

وفي حوالي الساعة الثالثة صباحًا توجَّهنا إلى هناك، وركب الكابتن مولينو معي في عربتي (الڤيكتوريا) وأخذ موريس بك معه صديقًا آخر، وعندما وصلنا إلى الحدائق التي تقع بين الرملة والإسكندرية؛ اندهشنا عندما وجدناها مهجورة تمامًا، وكانت العربة الوحيدة الموجودة بالمكان هي مركبة أجرةٍ عاديةٍ، يشغلها ضابط بالزي الرسمي، وهو أحد مهندسي السفينة الحربية (سوبيرب)، وبرفقته اثنان من أصدقائه، وكانت دهشتنا في محلها تمامًا، فهذه الحدائق عادةً ما تكون مزدحمةً يومي الأحد والجمعة بعد الظهر، ومن ثم ترى مئات العربات القادمة والراحلة.

بعد التنزُّه في أرجاء المكان لفترةٍ قصيرةٍ؛ قررنا قيادة عرباتنا إلى المدينة لمعرفة سبب هذا الهجر الغريب لذلك المنتجع العصري والمُفضَّل، وهكذا عُدنا إلى عرباتنا وانطلقنا، وليس من أحد أمامنا سوى المهندس البحري الذي ذكرته، كان عائدًا إلى المدينة أيضًا.

وبينما كنَّا نغادر الحدائق مرَّت عربة سيدات من أمامنا؛ فأوقفتُها وسألتُ سائقها العربي عمَّا إذا كان قد حدث أيُّ شيءٍ غير مألوفٍ؛ فأجاب بأنه كان هناك شجارٌ في الحي المالطي بين العرب والمالطيين، وأنَّ عدة أشخاصٍ قُتلوا.

عندما سمع القبطان مولينو هذا؛ ناشدني أن أقوده مباشرةً إلى الميناء، حيث يجب عليه أن يصعد على متن سفينته في الحال، وعندها ناديتُ على موريس بك لأُخبره بما سأفعله، وأعطيتُ تعليماتٍ لحوذيِّ عربتي - وهو إيطاليٌّ يُدعى يوحنا - بالقيادة بأسرع ما يمكنه.

كانت فرسة عربتي في ذلك الوقت هي «بيسي»، وكانت حيوانًا رائعًا ومفعمًا بالحيوية اشتريتها من الإسطبلات الخديوية، وأسرعت طائرةً بنا، تاركين موريس بك بعيدًا خلفنا، ومررنا بمجموعات صغيرة من العرب رجالًا ونساءً؛ فشتمونا وسبُّونا بالعربية، وهم يصرخون: «هيا، استمر، أسرع قليلًا؛ كلما أسرعت كان أفضل، فأنت ذاهب إلى حتفك».

ترجمتُ كلامهم لمولينو، الذي اعتقد أن الأمر يبدو سيئًا للغاية.. كانت هيئته إنجليزيَّةً تمامًا بسوالفه الجانبية وقبعته البيضاء؛ أمَّا أنا فكنتُ أَشْبَهَ بمصريٍّ أو

تُركيٍّ، حيث كان لباسي هو المعطف الإسطنبولي الرسمي الطويل والطربوش.

وبينما كنا نمر عبر بوابة رشيد، وجدنا القوات منتشرةً في المساحات الخالية بالداخل، كان الجنود مستريحين وبجوارهم الأسلحة مكومةً والضباط جالسين على مقاعدهم يُدخِّنون على طول الطريق، فسلمتُ عليهم أثناء مروري بهم، وردوا جميعًا على تحياتي، ولبضع دقائق أحسسنا ببعض القلق، حيث اعتقدنا أنه لو كانت هناك أي مشكلةٍ خطيرةٍ في المدينة؛ فلن تكون هذه القوات موجودةً هنا؛ لكن اتضح أنهم كانوا ينتظرون أوامر من عرابي الموجود في القاهرة قبل التدخُّل.

على طول طريق رشيد رأينا أبواب المنازل مغلقةً ومُحصَّنةً، وهتفت بنا أصواتٌ كثيرةٌ من الرجال والنساء الذين كانت تكتظّ بهم الشُّرُفات المليئة بالرجال والنساء، صاحت بنا أصواتٌ كثيرةٌ للتوقف وعدم الدخول إلى المدينة، حيث كان العرب يذبحون كل الأوروبيين؛ ولكن هذا جعل القبطان مولينو أكثر تلهُّفًا على الوصول إلى سفينته؛ لذلك لم نُخفف من سرعتنا، وقبل أن نُدرك الأمر كنا قد وصلنا إلى الميدان الكبير.

لقد وجدنا أنفسنا في وسط القتال المستعر، وبالكاد تمكَّن الحوذي الخاص بي من إيقاف العربة، وصاح الكابتن مولينو الذي يقف متطلعًا إلى الأمام قائلًا: إنهم يقتلون ذلك الموظف الإنجليزي الذي يعمل مهندسًا بحريًّا، وأنه من الأفضل أن نحاول بلوغ القنصلية.

ساعدتنا الفرسة بيسي بشكل بطولي مثير للإعجاب؛ حيث انتصبت واندفعت بسرعة للأمام، وأبقت الحشد الهائج في الخلف، وعندما استدارت بالعربة في شارع جانبي كنَّا على وشك الانقلاب؛ لكن مع بعض الحظ اخترقنا حشود الناس، وتوجَّهنا إلى القنصلية البريطانية.

كانت البوابات مغلقةً، لكني كنتُ معروفًا للبوَّاب ففتحها على الفور؛ وعندما فعل ذلك دخل موريس بك بعربته ومعه صديقه.. دخلنا جميعًا معًا، ووجدنا القنصلية في حالة ارتباك لا تُوصف.. كان النساء والأطفال محتشدين في كل مكان ينتحبون مذعورين، وبعد وقتٍ قصيرٍ انهار السيد كالفيرت - نائب القنصل - من الإرهاق العصبي؛ واضطروا إلى نقله إلى غرفته، بينما أحضروا السيد كوكسون القنصل مصابًا بجروح خطيرة، بعد أن غامر بالخروج لاستغلال نفوذه في تهدئة مثيري الشغب في الحي المالطي؛ لكنه تلقَّى ضربةً على رأسه كادت تودي بحياته.

إصابته هذه جعلت القنصلية دون مسئول، وكان قد تصادف - بعد وقتٍ قصيرٍ من وصول الأسطول - أن تم تثبيت هاتفٍ مؤقتٍ بين القنصلية وسفينة القيادة

البريطانية؛ وبهذه الطريقة تواصل الكابتن مولينو مع الأدميرال سيمور، وبعد أن شرح له ما حدث، واستحالة العودة إلى سفينته؛ تلقَّى أوامر من القيادة بالبقاء في مكانه وتسلَّم قيادة الأمور في القنصلية، وفي الحال التفت الكابتن مولينو إليَّ أنا وموريس بك، وطلب منا البقاء معه ومساعدته، وهو ما وافقنا عليه بالطبع، ومع ذلك كانت مهمة يائسةً؛ لأنه كان من المستحيل تهدئة المالطيين الذين هرعوا في ذعرٍ تامٍّ إلى القنصلية طلبًا للأمان، وكان من شبه المحال تهدئتهم.

بعد الساعة الخامسة ببضع دقائق، ظهر الجنود في المشهد، واندفعوا في الشوارع لتفريق مثيري الشغب، ومنحنا هذا قليلًا من الارتياح؛ ولكن مع حلول الظلام علت أصوات القتال الآتية من الشوارع، واختلطت بصوت الهرولة، ووقع أقدام المشاة، والهدير العميق للمدفعية، وبطبيعة الحال لم تكن هذه الأصوات لتخفف من رعب الهاربين، خاصة وأننا كنا نجهل تمامًا إن كان من الممكن انضمام الجنود بين لحظةٍ وأخرى إلى مثيري الشغب ويُكملون مهمتهم أم لا؛ لكن لحسن حظنا استطاع الضباط السيطرة على رجالهم جيدًا.

كان هناك عددٌ من البنادق والمسدسات، فضلًا عن كمٍّ كبيرٍ من الذخيرة في القنصلية، إذْ خلال فترة ما بعد الظهر، اقتُحم متجر أسلحةٍ مالطيٌّ مجاورٌ ونُقلت الأسلحة إلى حيث كنا؛ لكن هذه الأسلحة كانت مصدر إزعاجٍ تقريبًا، وكان لابد من حراستها بعنايةٍ.

بمجرد إحضار الأسلحة كان هناك طَرْقٌ عالٍ على البوابة، واتضح أنَّ مَن يطلب الدخول هو محافظ الإسكندرية عمر باشا لطفي الذي كنتُ أعرفه جيدًا ومعه العقيد سليمان سامي(238) - الذي تم شنقه لاحقًا - وضابطان محليان آخران طلبوا مقابلة القنصل، وفي النهاية قابلوا النقيب مولينو.

تولَّيت مهمة الترجمة بين الطرفين، واتضح أنهم سمعوا بأن كمية من الأسلحة والذخيرة قد تم تهريبها إلى القنصلية، وجاءوا الآن على عجل ليخبرونا أن حيازة هذه الأسلحة قد يجلب علينا الشيء نفسه الذي كنا نحاول تجنُّبه، وأوصوا بإلحاح بعدم إطلاق أي سلاحٍ ناريٍّ من النوافذ، وأضاف العقيد سليمان سامي أن القوات أصبحت تسيطر على المدينة وستُحافظ على النظام؛ لكن إذا حدث وتدخل أيٌّ من الأوروبيين في الأمر؛ فإنه لن يكون مسئولًا عن النتيجة.

خلال الليل، اتصل الأدميرال سيمور هاتفيًا ليخبرنا بأنه بصدد إرسال عددٍ من قوارب السفن تحمل مشاة البحرية والبحارة، وسيتم إنزالهم في الميناء الشرقيِّ القريب جدًا منا، وأنهم سيحرسون القنصلية، ولكن يجب أن يقابلهم شخصٌ يكون لهم بمثابة دليلٍ.

مع ورود هذه الأخبار، شعرنا جميعًا - أو أنا على الأقل - بتحسُّن؛ ولكن سرعان ما تهاوت آمالنا إلى الصفر، عندما كدَّرَنا مرةً أخرى طرقٌ عالٍ على البوابة كان المحافظ ومرافقوه قد عادوا مرةً ثانيةً، وكان العقيد متهيِّجًا جدًا، وبدا عمر باشا لطفي خائفًا منه بعض الشيء، وهو يخبرنا بأن القوات كانت على علمٍ بالقوارب القادمة إلى الميناء الشرقي، وأن الأوامر صدرت بمعارضة الإنزال، مع وضع مدفعيةٍ على طول الشاطئ، وبينما كان يتحدث سمعنا المدافع تنتقل متخطيةً المكان، والخيول التي تجرها تعدو بسرعةٍ.

كانت خمس دقائق بغيضة، تلك التي انتظرنا فيها بينما يتَّصل الكابتن مولينو مرةً أخرى بالأدميرال ويشرح له الموقف، وأشار إلى أن القوارب سيتم إغراقها بالتأكيد، وأن الجنود سيثورون، وستكون تلك نهاية السكان الأوروبيين، ونظرًا لطبيعة الموقف وافق الأدميرال سيمور على وقف القوارب في الحال، حيث إنهم قد اقتربوا من مكان الإنزال.

كان هذا الأمر أسهل في تخطيطه وليس في تنفيذه؛ لأن الضابط المسئول عن الإنزال سيطلب وجود شخصٍ بريطانيٍّ ذي رتبةٍ كبيرةٍ كي يستجيب لطلب إيقاف الأوامر التي تلقَّاها من الأدميرال، وأخيرًا اتُفق على ذهاب موريس بك - الذي كان ضابطًا في البحرية البريطانية قبل دخوله الخدمة المصرية - وقد فعل ذلك مصحوبًا بضابطين من الجيش المصري.

ولحسن الحظ، فقد عثروا على قاربٍ تابعٍ لبعض اليونانيين بالقرب من المكان، ومن ثَمَّ تمكَّنوا من الوصول إلى قافلة السفن في الوقت المناسب، وأخبرني موريس فيما بعد بأن وجه الضابط - عند إخباره بأمر الأدميرال سيمور بالعودة - كان مملوءًا بالمعاني، وكانت لغته وصوته الهادئ أكثر تعبيرًا عن ذلك، وأسعدتنا للغاية رؤية (البك) عائدًا، وبعد سماع أن القوارب أصبحت في طريق عودتها إلى السفن، انسحب المحافظ وضباطه.

كانت تلك أطول ليلة أتذكرها على الإطلاق، حيث كانت الساعات تمرُّ زاحفة ببطء، وقرب منتصف الليل تقريبًا، وصلت برقيةٌ من الخديوي، تقول إن وكيل وزارة الحربية وبعض الموفدين الخاصين؛ في طريقهم إلى الاسكندرية على متن قطارٍ خاصٍ من القاهرة، وسيتوجَّهون مباشرةً إلى القنصلية البريطانية في محاولةٍ منهم لترتيب الأمور.

وفي حوالي الساعة الثالثة فجرًا وصل الموفدون، وهم: وكيل وزارة الحربية بطرس باشا، والياور درويش باشا المفوض السامي العثماني، وعُقِدَ مؤتمر اتُخذت فيه قراراتٌ كثيرةٌ، كان المبدأ الأول والأمر الرئيس هو نقل جميع النساء والأطفال إلى البواخر المختلفة في الميناء، حيث تتعهد السلطات العسكرية بحماية الأوروبيين وهم في طريقهم إلى المرسى عبر المدينة.

وأزاح هذا عبئًا كبيرًا عن أذهاننا، وبمجرد حلول النهار، وبالتعاون مع المحافظ عمر باشا لطفي والعقيد قائد القوات المنتشرة في الشوارع؛ صودرت كلُّ مركبةٍ أمكن العثور عليها لنقل الفارِّين إلى رصيف الجمارك، ورافق كل عربةٍ جنديٌّ مسلَّحٌ كان يجلس على الصندوق مجاورا للسائق، وظل في مكانه إلى أن صعد الركاب في القوارب التي وفَّرتها السفن الحربية المختلفة، بينما تمركز ضابطٌ مصريٌّ مع عددٍ من القوات عند رصيف الركوب، للإشراف على تنفيذ ذلك الأمر بعنايةٍ، ولم يتعرَّض الفارُّون بأي شكلٍ من الأشكال لسوء المعاملة.

تم تنفيذ كل شيءٍ حسب الترتيب دون أي عقبات خطيرةٍ، وسمعتُ أثناء التحضيرات للنقل أن السيد كيلارد - مديرنا العام الذي كان مريضًا - يقيم في منزلٍ خاصٍ بالقرب من محطة سكة حديد الرملة، وليس بعيدًا عن القنصلية؛ لذا أسرعتُ بالذهاب إليه لأخبره بما تقرَّر من حماية الأوروبيين الذين يرغبون في الانتقال إلى أيٍّ من السفن الراسية في الميناء.

وجدتُّه ومَنْ معه في حالةٍ من الاضطراب والقلق الشديد يترقَّبون أي أخبارٍ بعد أنْ أمضوا ليلةً مروعةً، وكانوا جميعًا يرتدون ملابس الخروج مستعدين للتحرك، ومن ثَمَّ لم يضيعوا أي وقت في مرافقتي للعودة إلى القنصلية، وبمجرد أن وجدوا عربةً انطلقوا بها إلى الميناء.

وفي اليوم التالي أبحر السيد كيلارد إلى أوروبا، ولم يعد إلى مصر إلا في شهر سبتمبر من العام نفسه، كما غادر الأمين العام للجمارك - وهو سوري - في اليوم نفسه دون إذنٍ، وهكذا تُركتُ وحدي في الإدارة العامة أحملُ كل المسئوليات المرتبطة بتلك الفترة الحرجة؛ لذلك عينني وزير المالية مديرًا عامًا للجمارك بالنيابة مرةً أخرى.

من بين الأوروبيين الذين قُتلوا أثناء المذبحة رجلٌ إنكليزيٌّ معروفٌ جيدًا هو الدكتور هـ. ريبتون، وكنتُ على معرفةٍ وثيقةٍ به، فهو نجل الدكتور چورچ ريبتون من دبلن، وكان معروفًا بين أفراد المجتمع الإيطالي، حيث أقام سابقًا في نابولي، وكان طبيبًا من حيث المهنة، كما كان مُبشِّرًا معروفًا، وكثيرًا ما كان يعظ على متن السفن الإنجليزية وغيرها في ميناء الإسكندرية، وقد كان في يوم المجزرة عائدا من الميناء برفقة ابنته عندما وقع ضحية للقتلة؛ لكن ابنته هربت بعد أن أنقذها بعض الأقباط الذين سحبوها إلى منزلهم، حيث ظلت مختبئةً حتى حلول الليل، ثم اصطحبوها إلى منزلها متنكرةً في ثياب امرأةٍ عربيةٍ، وعُثر على جثة الدكتور ريبتون في اليوم التالي في مستشفىً محليٍّ عاريةً ومشوهةً إلى درجةٍ جعلت من الصعب التعرُّف عليها.

إنجليزيان آخران من معارفي كانا ضحيتين أيضًا، وقضوا حتفهم بشكلٍ بئيسٍ في المذبحة، كان أحدهما السيد روبرت چيمس دوبسون، والآخر السيد ريجينالد آي ريتشاردسون، وكلاهما من مانشستر.، واتضح أن المساكين قد قُتلوا أثناء محاولتهم إنقاذ بعض موظفي الشركة الشرقية للتلغراف الذين كانوا في نزهةٍ بالقوارب في الميناء الشرقي، وكانوا يحاولون الهبوط على الشاطئ(237).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد يوم المجزرة حدث نزوحٌ جماعيٌّ للأوروبيين، ومرَّت مئات العائلات المذعورة عبر الميدان الكبير من الصباح إلى الليل في طريقهم إلى الميناء، حيث نقلهم المراكبية العرب إلى السفن التجارية التي استأجرتها الحكومات المختلفة، وكان كثيرٌ من هؤلاء المساكين مُحطَّمين تمامًا، وقد حملوا معهم في هَرَبِهم أقصى ما يُمكنهم حمله من ممتلكاتهم، ناهيك عن الكلاب والطيور الأليفة وما إلى ذلك.

كان مشهدًا فظيعًا، أن تراهم يناضلون بكل معنى الكلمة ليشقُّوا طريقهم إلى القوارب، حيث كان عليهم أن يدفعوا ثمنًا باهظًا مقابل النقل إلى البواخر، وبمجرد امتلاء البواخر أبحرت إلى مالطا أو سوريا أو اليونان أو إيطاليا، واستمر هذا الأمر طوال الوقت إلى ما قبل القصف بأيامٍ قليلةٍ.

خلال هذه الفترة كنتُ مشغولًا لأقصى درجة، حيث كانت المسئولية الكاملة لإدارة الجمارك تقع على عاتقي، ليس فقط في الإسكندرية ولكن في جميع فروعنا، مثل: بورسعيد والسويس والإسماعيلية ودمياط، إلخ.

الهجرة الجماعية للرجال والنساء والأطفال من جميع الجنسيات استمرت يوميًا. وتقول صحيفة الغرافيك:

«إن الباخرتين نارسيسا وروزينا كانتا من بين السفن المستأجرة من جانب الحكومة البريطانية لنقل اللاجئين البريطانيين، وقد قام اللورد تشارلز بيريسفورد قائد السفينة الحربية كوندور، والقبطان موريسون قائد السفينة هيليكون، بالإشراف على شئون الركاب، وكانت جميع الترتيبات اللازمة لراحة المسافرين ممتازة بالنظر إلى الوقت القصير الذي جرى فيه تهيئة السفن بصعوبة - ومعظمها من بواخر نقل الفحم - لاستقبال اللاجئين».

أمَّا مسألة إعداد الطعام لعددٍ من الأشخاص على متن السفينة؛ فقد كانت إحدى المسائل بالغة الأهمية، وقد أمر اللورد تشارلز بيريسفورد قائد الكوندور بأحد أفكاره الإبداعية المعتادة، بقطع عدة براميل فارغة إلى نصفين وعمل مواقد فحم في هذه السفن الخشبية، ولأول وهلةٍ قد يظنُّ المرء أنها طريقةٌ ستؤدي بالتأكيد لإشعال النار في المركب؛ لكنها في الحقيقة كانت

وسيلةً ممتازةً للطهي لعددٍ كبيرٍ من الناس في أقصر وقتٍ ممكنٍ؛ كما أنه بالطبع لا يتم إشعال هذه النيران إلا أثناء وقت الطهي، ثم يجري إخمادها على الفور عند الفراغ منه.

خلال هذا الوقت وقع حادثٌ كان من الممكن أن تكون له آثارٌ بعيدة المدى لولا حسن حظي الذي مكَّنني من منعه، ولا أعتقد أن الجميع يعرفون أن السفن الحربية البريطانية كانت معرضة لخطر إصابتها بأضرارٍ جسيمةٍ، إن لم تكن قاتلةٍ، بسبب الألغام أو الطوربيدات أثناء رُسُوِّها داخل ميناء الإسكندرية؛ لكن هذا ما حدث بالفعل، فقبل القصف بوقتٍ قصيرٍ؛ اتضح أن فكرة زرع ألغامٍ أو طوربيداتٍ في ميناء الإسكندرية كانت تصوُّرًا رآه الجنرال ستون باشا (236) - رئيس أركان الجيش المصري - والذي كان قد طلب سرًا من أمريكا، قبل ذلك بوقت قصيرٍ آلةً للتفجير تحت الماء مصنوعةً من أجله(235).

وفي الموعد المحدد، وصلت هذه الآلة إلى مصلحة الجمارك، ورغم أنه كان من الضروري إبقاء الأمر في سريةٍ تامةٍ، إلا أنه جرى شحن الصندوق بالشكل المعتاد، وتم تسجيله كطردٍ عاديٍّ من البضائع، ولم يكن هناك عنوانٌ على الصندوق؛ ولكن مجرد بعض العلامات القليلة، التي لم تُعط أي فكرةٍ عن المالك أو الوجهة، وقد شُحِن الصندوق من ليڤربول بواسطة سفينة شحنٍ بخاريةٍ عاديةٍ وغير نظاميةٍ، ولم يكن هناك أي أثرٍ لمصدر الصندوق، وجرى تنزيله في مصلحة الجمارك، وظل مُخزَّنًا في المخزن مع عددٍ من الطرود الأخرى في انتظار المطالبة به.

بعد المذبحة بوقتٍ قصيرٍ، وبصفتي القائم بأعمال المدير العام للجمارك، تلقَّيت عدةَ طلباتٍ من جانب عرابي باشا بصفته وزير الحربية؛ لمعرفة ما إذا كان قد وصل إلى مصلحة الجمارك طردٌ موجَّهٌ إلى الجنرال ستون باشا أو إلى وزير الحربية؛ لأنه كان متيقنًا من وصول الطرد رغم عدم وجود إخطارٍ أو بوليصة شحنٍ.

أرسلت تعليمات إلى مصلحة الجمارك المحلية بضرورة إجراء تفتيشٍ دقيقٍ، ولكن لم يتم العثور على صندوقٍ من هذا القبيل، أو معُنون كما هو مذكور، وبعد ذلك بأيامٍ قليلةٍ، ظهر ضابطان من مكتب الحربية وقررا أنه تم تفويضهما من جانب عرابي للذهاب إلى مصلحة الجمارك للمساعدة في البحث عن الطرد المطلوب؛ فأبلغتهم بكل أدبٍ أنه لم يصل مثل هذا الطرد إلى مصلحة الجمارك حتى اللحظة، وأنه رغم وجود المئات والمئات من الصناديق والطرود، إلا أنها جميعًا عليها علاماتٌ وأرقامٌ مميزةٌ، كما أنه من المستحيل قيام الموظفين التابعين لي بفتح أي شيءٍ منها، ما لم يكن ذلك بحضور المالك أو المرسل إليه، وحتى في تلك الحالة، ومن أجل فتحها؛ يجب تقديم أمر تسليمٍ من مكتب الشحن.

عندئذٍ غادر الضباط، ولكن في اليوم التالي حضر لواءٌ مصريٌّ وعقيدٌ، كانا متغطرسين ومتعجرفين للغاية في سلوكهم وكلامهم، والحقيقة أنَّ هذه الزيارات والاستفسارات الرسمية المستمرة جعلتني أشعر بالريبة إلى حدٍّ ما، وكنتُ حريصًا على أن أحفظ لساني ولا أتكلم، وخطر ببالي أن الصندوق لابد أن يكون ذا أهميةٍ كبيرةٍ لكونه مناط كثيرٍ من الاهتمام به، وعندما أبلغني اللواء في سياق الحديث أنه ما لم يتم العثور على الطرد وتسليمه على النحو الواجب في غضون ثمان وأربعين ساعة؛ فإن عرابي باشا سيرسل سريةً من الجنود لفتح كل صندوقٍ في مصلحة الجمارك حتى يعثروا على الطرد الذي يريدونه، لاسيما أنهم متأكدون من وجوده هناك.

هذا الإنذار النهائي أزعجني لأقصى درجةٍ؛ لأن هذه الأساليب القسرية في الإجراءات كانت تدل على أساليب عرابي عندما يعارضه أحدٌ؛ لذلك قررت أن أتصرَّف على مسئوليتي الخاصة، وأن أعثر على الصندوق إذا أمكن وأرى محتوياته؛ لأنني بدأتُ بالتيقُّن من أنه سيكون شيئًا ذا أهميةٍ قصوى، وبالطبع لم يكن لديَّ أي فكرةٍ عن كينونة هذا الشيء، ويمكن أن أعترف أيضًا بوجود قدرٍ معينٍ من الفضول، أو ربما كانت مجرد غريزةٍ طبيعيةٍ؛ فأنا لست فضوليًّا بطبعي.

بدخول هذه الفكرة في رأسي، وبمجرد مغادرة الضباط للمكان؛ أرسلتُ إلى أحد مفتشينا الأوروبيين - وهو ضابطٌ ذكيٌّ ونبيه وجديرٌ بالثقة - وأعطيته تعليماتٍ صارمةً بعدم مغادرة مصلحة الجمارك أثناء وقت الغداء وأن ينتظر وصولي.

وشرعنا في العمل معًا، وفحصنا بيانات السفن في مختلف المستودعات حيث توجد البضائع التي لم يُطالب بها أحدٌ، وبهدوءٍ فتحنا بعض الطرود التي بدت مشبوهةً ثم أعدنا إغلاقها، وأوقفنا هذه الفحوصات بمجرد عودة الموظفين للمكان، ثم استأنفنا عملنا في المساء.

وفي اليوم التالي فعلنا الشيء نفسه، وبدأتُ أعتقدُ أنه ربما لم يصل الطرد بعد، ثم نجح بحثنا أخيرًا، واكتشفنا طردًا مخفيًّا أسفل عددٍ من الطرود الأخرى، وعند فتحه وجدنا سلاح تدميرٍ رهيبًا، كان آلة تفجيرٍ تحت سطح البحر من شأنها أن تكون أخطر سلاحٍ في يد عرابي.

كان للمفتش معرفةٌ سطحيةٌ بالآلات؛ لذلك أمرتُه بإزالة الأجزاء ذات الأهمية الحيوية أو تدميرها، حتى إذا حدث ووقع الصندوق في يد الباشا(234)؛ فلن يكون ذا جدوى بعض الوقت، وبعد أن قام الرجل بما أمرته به أغلقنا المخزن، وأسرعتُ بالذهاب إلى السير أوكلاند كولفين المستشار المالي للخديوي، والذي تصادف وجوده في الإسكندرية؛ فأمرني على الفور بإبلاغ الأدميرال

سيمور، الذي اندهش لسماع ما حدث، واقترحتُ أن يتم إرسال الصندوق إلى متن السفينة وتسليمه إلى الأدميرال، وهو ما وافق عليه الأدميرال، وبعد حلول الظلام بفترةٍ وجيزةٍ؛ تم نقل الصندوق الغامض إلى السفينة «انفينسيبل»، ووضع في عهدة الأدميرال، وتم إبلاغ الأمر برُمَّته إلى الأدميرالية في لندن، وقد كانوا مسرفين في الامتنان لما فعلتُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(247) 4 فبراير 1882.

(246) الأمير حليم (1831 - 1894): هو الأمير محمد عبد الحليم باشا، عم الخديوي إسماعيل، وكان صاحب الحق بعده حسب تقاليد الحكم، لكن الأخير نجح في تغيير نظام الحكم بفرمانٍ عثمانيٍّ سنة 1868، وقد مات في تركيا.

(245) السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى السلطنة في الفترة من (1876 - 1909).

(244) سنة 1882.

(243) كانت بيروت في ذلك الوقت ولايةً تابعةً لسوريا العثمانية؛ قبل ضمِّها إلى لبنان الكبير في سبتمبر عام 1920 حين أعلن الجنرال جورو قيام دولة لبنان الكبير وبيروت عاصمةً لها في 1 سبتمبر 1920.

(242) توفي في لندن سنة 1895.

(241) انظر تفاصيل ذلك في مذكرات عرابي 2/267 - 573. وقد أعلن رئيس الوزراء الفرنسي حينها للسفير الإنجليزي أن استعدادات المصريين لتحصين الإسكندرية لا يُعدُّ من ناحية القانون الدولي عملا هجوميا؛ وإنما هو عمل دفاع شرعي؛ لكن السفير أجاب بأن استعدادات المصريين لا مبرر لها في نظر بريطانيا وتجعل الأسطول الإنجليزي الراسي في الإسكندرية في خطر. انظر: الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ص 58.

(240) العجيب أنه لم يذكر سبب الأزمة وكيف قُتل المصري على يد المالطي. يقول الروسي تيودور رتشتين: «في هذا اليوم وقعت بالإسكندرية مذبحة النصارى التي دبرها الخديوي ومحافظ المدينة عمر باشا لطفي وقام بها رجال البوليس ومجموعة من الفُتَّاك المستأجرين... وقد ابتدأت الفتنة في الساعة الأولى بعد الظهر، واستمرت إلى حوالي الساعة الخامسة، وذلك أنا مكاريا مالطيا تشاجر مع مسلم (الحقيقة أن المكاري هو المسلم) فاجتمع الناس حولهما، ثم انبعثت طلقات نارية من بيت يسكنه مالطيون وظهر البدو في مكان الحادثة». انظر كتابه: تاريخ المسألة المصرية، ص 198 - 201. وانظر الرواية أيضًا في كتاب: التاريخ السري، ص 368. وانظر مجمل ما سجله من نتائج التحقيقات والشهادات الخاصة باضطرابات الإسكندرية، ص 365 - 410.

وممن كان شاهدًا على الحادث ألبرت فارمان (1831 - 1911) الذي شغل منصب المعتمد والقنصل العام للولايات المتحدة الأمريكية في مصر ثم قاضيًا بالمحاكم المختلطة، وقد سجل شهادته في كتابه الشهير «مصر وكيف غُدر بها»، يقول: لكننا نعلم علم اليقين أن أحد الرعايا الإنجليز وهو أحد المالطيين من اليونانيين هو الذي أثار النزاع. وكان عدد كبير من أفراد الطبقة العاملة من الأهالي والأجانب جالسين إما في المقهى أو نائمين وقت القيلولة حيث كانوا في عطلة، وقام نزاع بين عربي وبين هذا اليوناني بشأن مبلغ يسيرٍ من النقود، واستشاط اليوناني - الذي يقال إنه كان مخمورًا - غضبًا، فسحب سكينًا وطعن بها العربي في بطنه، وقد أثار منظر المصاب محمولا وهو يدمي - والقصة التي تواترت بأسرع ما يكون - غضب الأهالي الذين بدأوا يتجمعون في أعداد كبيرة. انظر: مصر وكيف غُدر بها، ص 288.

(239) روى تيودور رتشتين أن عمر لطفي حاكم الإسكندرية حينها قد سافر في يوم 9 يونيو إلى القاهرة ليقف بنفسه على خطة المؤامرة.. وأنه قد جلب البدو المستأجرين وسلَّحهم وأمر رجال البوليس في السر بألا يتعرضوا لأحد منهم. تاريخ المسألة المصرية، ص 200.

(238) سليمان سامي داود: لم يكن من قادة الثورة؛ لكنه أظهر شجاعة وتهورًا حتى إنه ألب زملاءه الضباط على مناوئة الخديوي في خلافه مع عرابي، ثم حاصر قصر الخديوي أثناء أحداث الإسكندرية، واتُهم بحرق الإسكندرية، وهو الوحيد من بين المحكومين الذي نُفذت فيه عقوبة الإعدام.

(237) يتحدث المؤلف عن الأضرار الجسيمة التي أصابت الأوروبيين وقطتهم وكلابهم، ويؤكد الأمريكي فارمان أن ستين من الأوروبيين قُتلوا في هذا الشغب، وكان معظمهم من الفقراء الذين كانوا يسكنون الأحياء العربية، ويذكر أن إشاعة سرت في اليومين التاليين تفيد أن أضعاف هذا العدد من العرب قد قُتل، ويروي أن أحد اليونانيين قد افتخر في اليوم التالي للأحداث بأنه قتل وحده خمسة من العرب الذين لم يكن معظمهم يملك أكثر من النبابيت. انظر: مصر كيف غدر بها، ص 290.

(236) تشارلز بومروي ستون General Stone Pasha (1824 - 1887): ضابط أمريكي ومهندس، وباقتراح من القائد العام للجيش الأمريكي الجنرال وليم شيرمان خدم بالجيش المصري وترأس الأركان فيه.

(235) لم أقف على شيءٍ يخصُّ هذا الأمر في المصادر التي رجعتُ إليها أثناء العمل على هذا الكتاب، وحسب ما ذكره الدكتور لينوار تشامبرز رايت؛ فإن الولايات المتحدة لم يكن لها دور في الاحتلال البريطاني لمصر، كما لم تتدخل في أي مفاوضات دبلوماسية صاحبَتْ الاحتلال؛ لكن كان هناك اقتراحان

للتدخل يستحقان الذكر: فأولهما قدَّمه بعض الضباط الكونفيدراليين السابقين في الجنوب لتشكيل وحدات من الفرسان لمساعدة مصر، والاقتراح الثاني قدمته الجماعات الأمريكية الأيرلندية الأصل بهدف إرسال أموال ورجال لمساعدة عرابي ضد البريطانيين؛ لكن لم يحدث شيءٌ منهما. انظر: سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر 1830 - 1914، ترجمة د. فاطمة علم الدين، ص 163.

(234) يقصد عرابي.

الفصل الثامن

1882

دائرة المخابرات - الميجور أ ب تولوش - الأدميرال سيمور على السفينة إس إس تانجور - السير أوكلاند كولفين - العودة إلى الجمارك - برقيات المراسلين - أموال الجمارك - اعتقال جنود عرابي لي - مجلس حرب عرابي - تفتيشي - السماح لي بالمغادرة - العودة إلى دار الجمارك - الوصول إلى إس إس تانجور - قصف الإسكندرية - إسكات الحصون - قلعة مرابط (طابية العجمي) وسفينة المدفعية كوندور - اللورد تشارلز بيريسفورد - الميجور أ. ب. تولوش - القبطان مور مولينو - حرق الإسكندرية - سفينة المدفعية سيغنيت - موريس باشا - موريس بك - الأدميرال سيمور - السفينة إتش إم إس. أورانتس - زورق إنفينسيبل البخاري - چون روس - مشاة البحرية الأمريكية - العقيد دو تشايل لونغ - إنزال مشاة البحرية البريطانية - الميدان الكبير - الدمار العام.

كنتُ كلما توفَّرتُ لديَّ بضع ساعاتٍ كرَّستها لمساعدة الرائد تولوش المسئول عن دائرة المخابرات؛ التي كان مقرها الرئيس على متن السفينة «إتش إم إس انڤنسيبل»، والذي تولَّى تقديم خدمة الإشارة إلى الأدميرال سيمور، عبر عمله الاستطلاعيِّ السِّرِّيِّ.

كان الموقف قد أصبح حرجًا للغاية؛ لأن العمل في التحصينات استمر رغم احتجاجات الأدميرال سيمور؛ لذلك أرسل إنذارًا أخيرًا يطالب فيه بوقف العمل، وهدَّد بأنه في حال عدم حدوث ذلك فإن القصف سيبدأ في غضون أربعٍ وعشرين ساعة.

وقرَّر الميجور تولوش أنه من الضروري التوجُّه بالقطار إلى كفر الزيات - التي تقع في منتصف الطريق بين الإسكندرية والقاهرة، على الطريق المباشر - من أجل معرفة إذا ما كان عرابي قد تحصن هناك بالفعل أم لا، وإذا كان قد فعل ذلك؛ فيجب معرفة إلى أي مدى وصل، وكانت نية الميجور العودة في المساء نفسه.

وقد قلتُ له إن جميع الأوروبيين تقريبًا قد غادروا القاهرة والقرى، وأصبحوا بالفعل على متن السفن التي وُفرت لهم، وأضفتُ أنه نظرًا لأن القطارات ستكون مليئةً بالمصريين، فإنه سيكون في خطرٍ داهمٍ؛ لكنه أصر على الذهاب؛ فأقلعتُ عن محاولة منعه؛ لكني أقنعته بتقصير سوالفه ذات المظهر الإنجليزي، وبأن يترك قبعته ويرتدي الطربوش بدلًا منها.

وعندما وصلنا المحطة وجدنا أنه لن يتمكّن من العودة في ذلك المساء؛ لكنه سيُضطر إلى المبيت في كفر الزيات، وهو الأمر الذي أزعجه إلى حدٍّ ما؛ لكن مع ذلك رحل في القطار، وشققتُ طريقي بأسرع ما يمكن إلى سفينة القيادة، برسالةٍ شفويَّةٍ كان الميچور قد طلب مني إيصالها إلى الأدميرال سيمور، ولا يحق لي البوح بماهية هذه الرسالة؛ لكنها على تلك الدرجة من الأهمية التي جعلت مَن تسلَّمها ودوَّنها يبدو متعكر المزاج؛ ثم عُدت إلى الشاطئ.

في 9 يوليو(254) تلقَّيتُ تعليماتٍ من السير أوكلاند كولفين للصعود على متن السفينة إس إس تانجور، التي سيصعد هو نفسه على متنها في الليلة نفسها مع طاقم العاملين بالقنصلية الإنجليزية، وفي أقرب فرصةٍ ممكنةٍ ذَكَّرته أنه لا يزال هناك في خزائن الجمارك حوالي عشرين ألف جنيه، وسألته هل يظن أنه من الممكن وضع هذا المبلغ في مكانٍ آمنٍ؛ فقال إنه ربما يمكنني تأمينه إذا ذهبتُ إلى الشاطئ في وقتٍ باكرٍ من صباح اليوم التالي؛ لكن عددًا من الأشخاص الذين سمعوا المحادثة نصحوني بشدةٍ ألا أحاول فعل ذلك، إذْ سيكون من الحماقة المخاطرة بحياتي من أجل إنقاذ مبلغٍ من مال الحكومة؛ ولكن بدا لي أنه من واجبي المحاولة حتى لو لم تنجح.

بدأتُ أشعرُ بالقلق على الميچور تولوش؛ لأن رحلته كانت مليئةً بالمخاطر الجلية؛ لذلك أرسلتُ مراكبيًّا عربيًّا برسالةٍ إلى القبطان مولينو - الذي كانت سفينته ترسو على مقربةٍ من سفينتنا - لسؤاله عما إذا كانت هناك أي أخبارٍ عن الميچور، وعلى الفور تلقَّيتُ ردَّه، حيث قال إنَّ الميچور لم يرجع إلى متن السفينة حتى الآن، لكنه ربما عاد إلى الإسكندرية وذهب لتفقد أماكن أخرى.. وعلى أية حالٍ، ظهر الميچور تولوش آمنًا ذلك المساء، وأخبرني فيما بعد أنه نجح في الحصول على المعلومات الاستخباراتية التي يحتاجها.

في وقتٍ باكرٍ من صبيحة اليوم التالي - الأحد الموافق العاشر من الشهر - ناديتُ على زورقٍ عربيٍّ كان يمرُّ بجوار السفينة تانجور، كي أذهبَ معه إلى الشاطئ لأرى ما يمكنني فعله حيال المال الموجود في الخزائن، ولحظة أنْ كنتُ على وشك النزول من سلم السفينة، أو بالأحرى كنتُ قد هبطتُ إلى منتصف السلم؛ هُرع أحدهم ورائي وسلَّمني مجموعةً من استمارات التلغراف، وطلب مني التفضُّل بتركها على متن السفينة (تلغراف الشرق)، والتي سأمرُّ عليها وأنا في طريقي إلى الشاطئ.

أخذتُ البرقيات بشكلٍ آليٍّ ودون تفكير ووضعتها في الجيب الخارجي لسترة زيي الرسمي الأبيض، ولم أتمكّن من إدخال كل الحزمة في الجيب، لذلك ظلَّ جزءٌ منها منتفخًا وواضحًا للعيان تمامًا، ثم استقللتُ القارب ورفع الملاح العربي الشراع ومضينا في طريقنا.

وكما كان متوقعًا، أخذنا المسار مارين بسفينة (تلغراف) من على مسافةٍ قليلةٍ، ولأنني كنتُ منشغلًا بأمري الخاص، وتملأني التساؤلات عما إذا كانت مهمتي ستكون ناجحةً أم لا؛ نسيتُ كل شيءٍ عن البرقيات.

وعندما وصلتُ إلى رصيف الجمارك، مشيتُ بهدوءٍ إلى المصلحة وكأنه لا شيء غير عاديٍّ يحدث، وأظهرتُ الاندهاش من أن كل شيءٍ وكل شخصٍ في حالةٍ من الارتباك المروع، وبعد الاهتمام ببعض الأمور وإصدار بعض الأوامر؛ أرسلتُ في طلب الصرَّاف - الذي كان قبطيًّا - ولكن مرَّ بعض الوقت قبل أن يجدوه، وعندما وصل ظهرت عليه الدهشة لرؤيتي؛ وفعل العرب الحاضرون الشيء نفسه، حيث لم يكن هناك أوروبيٌّ سواي.

وأظهرتُ لهم الاندهاش من دهشتهم هذه، وسألتهم: ولماذا لا أكون بالمكان كالعادة؟ هل يعرفون أي سببٍ يدفعني لذلك؟ إلخ، إلخ.. حتى ترسَّخت لديهم فكرةٌ أنه لن يحدث أيُّ شيءٍ خطير، وأنني سأبقى معهم، وأنَّ مصلحة الجمارك ستظل مفتوحةً كالعادة، كما أبلغتُهم أيضًا بأن السير أوكلاند كولفين قد وجَّهني إلى التأكُّد من إرسال جميع الأموال التي بحوزتنا الآن إلى السفينة البخارية، حيث يوجد مدير بنك (كريدي ليونيه) وموظفوه هناك بشكلٍ مؤقتٍ، وكان من عادتنا توريد جميع الأموال لهذا البنك مرةً كل أسبوعٍ لحساب (مكتب الدَّين العام)، حيث خُصصت جميع الإيرادات التي تجمعها الجمارك لهذه الخدمة.

أصدرتُ تعليماتي إلى الصرَّاف بإعداد الأوراق المعتادة التي وقعتُ عليها بصفتي مراقبًا عامًا والقائم بمهام المدير العام، وذلك بعد التوقيع عليها من جانبٍ كبيرٍ الموظفين العرب، ثم أُعيدت إلى رئيس الخزينة، وأُحضِر صندوقان قويان من التي ننقل فيها العملات النقدية، ووُضع في كل منهما عشرة آلاف جنيهٍ ذهبيٍّ؛ وأُغلِقَ الصندوقان بعنايةٍ، ووُضعتُ عليها الأقفال، ثم حملهم الحمَّالون العرب ببطءٍ لإنزالهما إلى الماء.

كنتُ قد أرسلتُ في طلب قاربي الخاص، ووجدتُّه في انتظارنا وعليه النوتية العرب الأربعة التابعون لي، والذين كانوا مُجدِّفين رائعين، وحُمِلَ الصندوقان نزولًا على درجات الرصيف ووُضعا في قاع القارب، وأخذ الصرَّاف وكبير الموظفين أماكنهم، وكنتُ على وشك أخذ مكاني أيضًا؛ عندما سمعتُ صياحًا جعلني أستدير برأسي، كان ضابطًا من البحرية العرابية قد وصل إلى المكان برفقة عشرات الجنود وقد ثبَّتوا الحِراب على البنادق، عرَّفني الضابط بنفسه بأنه مصطفى بك، وسألته بأدبٍ عما يريده؛ فقال: «أنا أعتقلك بناءً على أوامر عرابي باشا، ولن أسمح لأموال الجمارك بمغادرة الشاطئ».

وقفز عددٌ من الجنود إلى القارب الذي كاد أن ينقلب في الماء، وشرعوا في رفع الصناديق إلى خارج المركب. في ذلك الوقت، اجتمع كل النوتية العرب والحَمَّارين والحمَّالين حولهم، وأرهقوا أنفسهم في إهانتي، وبالنسبة إلى أيِّ شخصٍ اعتاد على ما يمكن أن تنحدر إليه اللغة، أو يُفترض أنه معتادٌ على اللغة البذيئة لأهل البلد؛ فإن عبارات اللعن والسَّبِّ العربية كانت في الغالب بلهاء؛ ولكن أن تدعو أيَّ شخصٍ بأنه «ابن كلب مسيحي»؛ فإن هذه أقسى عبارة مسيئة يمكن التلفُّظ بها.

وتوقعتُ أنهم - بعد أن يشعروا بأن شتائمهم لا تُعبِّر بشكلٍ كافٍ عن كراهيتهم واحتقارهم - سوف يُصبحون عنيفين للغاية، لدرجة أنني حذَّرتُ الضابط بالانتباه وأخذ الحذر وإلا سيقع شجارٌ خطيرٌ، وسيضيع المال بغير رجعةٍ، واقترحتُ عليه أنه من الأفضل إعادة الصناديق إلى الخزانة في مصلحة الجمارك، ووضع اثنين من الحراس عليها، وفي الوقت نفسه أذهبُ معهم إلى عرابي وأشرحُ كل شيءٍ.

ويبدو أن كلامي هذا قد راق للضابط؛ ففي غضون بضع دقائق أُعيدت الصناديق إلى الخزانة، وأقفل أمين الصندوق - والذي ظلَّ معي حتى ذلك الحين - الخزانة، ثم اختفى بناءً على تعليماتي؛ ولكن قبل ذهابه أعاد لي الأوراق الرسمية، ووضعتها في جيبي.

باعتباري إنجليزيًّا، لا أعتقد أنَّ الجنود المرافقين كانوا يستلطفونني كثيرًا، لكنهم على أية حالٍ أنقذوا حياتي أثناء مسيرتنا إلى الترسانة؛ لأن العرب الأخسَّاء كانوا غاضبين بشدةٍ، حتى إنهم حاولوا ضربي مرارًا بنبابيتهم (هراواتهم) أثناء سيري وسط الجنود، وازداد الوضع تهوُّرًا؛ لدرجة أن الجنود اضطرُّوا في النهاية إلى مهاجمة الرعاع بحرابهم لإبعادهم، وشعرتُ بارتياحٍ كبيرٍ عندما دخلنا وأُغلقت أبواب الترسانة خلفنا.

كان عرابي يعقد مجلس حربٍ، لذلك أُرغمتُ على الانتظار في إحدى الغرف الكبيرة خارج قاعة المجلس؛ والتي كانت مليئةً بالضباط، وكنتُ أعرفُ بعضهم معرفةً جيدةً، وفي الحال حاصروني بتساؤلاتٍ شغوفةٍ عن سبب اعتقالي، وما إلى ذلك، وأجبتُهم بأنه هناك خطأً ما بالتأكيد، وأنَّ ما سأوضحه لعرابي سيُعيد كل شيءٍ إلى نصابه، وارتضوا هذه الإجابة، ثم شرعوا بعد ذلك في سؤالي بشأن احتمال قيام السفن بقصف الإسكندرية، وأجبتهم أنني لا أُصدِّق أنهم يعتزمون قصف الإسكندرية، ولم أذكر لهم أفكاري حول ما ستفعله السفن بالحصون(253).

وبعد أن أنهى مجلس الحرب الأعمال المهمة التي كان منشغلًا بها، أدخلوني عليهم؛ فألقيتُ سلامي عليهم وانتظرتُ أن يبدأوا بالحديث؛ وكل ما كان عليَّ

فعله هو الحفاظ على هدوئي والإجابة على أسئلتهم بتَرَوٍّ.

قال عرابي:

- ما هذا الذي أسمعه؟! أنت أحد المسئولين الحكوميين، تأخذ أموال الجمارك في قاربٍ قاصدًا حملها إلى أحد سفن الإنجليز الحربية؟!

أجبته:

- معاليك... لقد أُبلغتَ الأمر بشكلٍ خاطئٍ؛ فلم أكن آخذ نقودًا إلى أي سفينةٍ حربيةٍ، ولكنني كنتُ أتصرَّف بموجب تعليماتٍ من المستشار المالي.

- كيف ذلك؟!

- كل أسبوعٍ يتمُّ دفع أموال الجمارك إلى بنك (كريدي ليونيه) لحساب مكتب الدين العام، وكما تعلم سعادتكم بلا شكٍ؛ فقد نُقل هذا البنك إلى سفينةٍ بخاريةٍ فرنسيةٍ في الميناء، والأموال التي تتحدَّث عنها كانت مرسلةً إلى هذه السفينة، تحت مسئولية رئيس الخزانة والباشكاتب (كبير الموظفين)، ثم أخرجتُ الأوراق التي أخذتُها من الصَّرَّاف وسلَّمتها لعرابي، وأكملت حديثي:

- ويمكنك الآن التحقُّق إذا كان كلامي صحيحًا أم لا.

قرأ عرابي الأوراق ومرَّرها لبعض أعضاء المجلس، وعندما عادت إليه قال: نعم، أرى أنك فعلتَ ذلك بطريقةٍ رسميةٍ منتظمةٍ؛ لكن ما كان يجب عليك ذلك في الوقت الحالي؛ فهي في النهاية أموالٌ حكوميةٌ.

- أستميحك عذرًا، هذه ليست أموالًا حكوميةً؛ لأن إيرادات الجمارك مخصصةٌ لغرضٍ خاصٍ، وهي ملك لمكتب الدين العام، ونحن مسئولون أمامهم فحسب.

قال عرابي:

- نعم، ذلك في الأوقات العادية؛ لكننا الآن في حالة حربٍ، وكل أموال البلد ملك للحكومة، وسأستخدمها.

ثم بدأ خطابًا تقريعيًّا ضد المسئولين الإنجليز متسائلًا عن سبب هَرَبِهم جميعًا، وما الذي يخافون منه، إلخ، إلخ.. وعندما انتهى من حديثه، علَّقتُ بهدوءٍ قائلًا:

- يا صاحب السعادة، لا يمكنني أن أُجيب عن أي شخصٍ باستثناء نفسي، وأنا لم أكن أهربُ، لقد صدرت لي تعليماتٌ بضرورة استمرار العمل في الجمارك اليوم كالعادة؛ لكن في ظل هذه الظروف لا أرى كيف أستطيع البقاء في واجبي؛ إلا إذا أمكنني الاعتماد على حمايتك الخاصة، وإذا منحتني تلك الحماية

فيجب أن تكون معلنةً على الملأ؛ لأنني أخشى أن عددًا من العرب المجاورين لمصلحة الجمارك يعادونني.

ومن الواضح أن ملاحظتي الجميلة حول حمايته قد أسعدته؛ لأنه ابتسم وقال:

- يمكنك الاعتماد على ذلك؛ فكلنا نعرفك، ونحن متأكدون أنك صديقٌ حقيقيٌّ وصدوقٌ للعرب، ويمكنني أن أضيف أنه للأسف لا يوجد كثيرٌ من المسئولين مثلك.

انحنيتُ له شاكرًا، وسألتُهُ عمَّا إذا كان يريدني في شيءٍ آخر؛ فقال إنه لا يحتاجني في الوقت الحالي؛ لكنه يود رؤيتي بعد الظهر، ثم خرجتُ من عنده، وهنَّأني الضباط الذين كانوا ينتظرون في غرفة الانتظار، ورافقني اثنان من ضباط البحرية إلى الجمارك مرةً أخرى.

في وقتٍ لاحقٍ من اليوم أرسلتُ لاستدعاء قاربي؛ ولكن قبل الصعود إليه أعطيتُ بعض الأوامر، وقلت بصوت عالٍ:

- سأعود في الساعة الثالثة.

وأمرتُ النوتية العرب بالتجديف بأقصى ما يمكن، وكانوا رجالًا مختارين، وفي رأيي أنهم قاموا بالتجديف مثل طاقم أي قاربٍ حربيٍّ، وقطعوا المسافة في وقتٍ جيدٍ للغاية، ولحسن الحظ وصلتُ إلى السفينة (تانجور) بالضبط لحظة مغادرتها الميناء الخارجي، وكانت جميع البواخر الأخرى قد غادرت بالفعل إلى مرسىً آمنٍ.

فوجئ أصدقائي برؤيتي أعود سالمًا وبصحةٍ جيدةٍ، لأنهم سمعوا من نوتيةٍ عربٍ أنه قد قُبض عليَّ وأنني سجينٌ لدى عرابي، وتعبتُ من تكرار الحادثة برُمَّتها، وبمجرد أن استطعتُ التملُّص منهم توجَّهتُ إلى غرفتي.

كنتُ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الاغتسال وتغيير ثيابي، فطوَّحتُ بالسترة الكِتَّان البيضاء بعيدًا إلى صندوق ملابسي.. كانت البرقيات حينها لا تزال في جيبي، وقد نسيتُها تمامًا، وعلى الأرجح فإنني قد لمستُها أثناء خلع معطفي، ورأيتُها تبرز من الجيب، لكن لم يخطر ببالي أيُّ شيءٍ عنها، ولم أر الرجل الذي أعطاها لي مرةً أخرى مطلقًا، فقد ذهب - بمجرد مغادرتي التانجور - إلى إحدى السفن المدرعة حتى يستطيع مشاهدة القصف بشكلٍ أفضل؛ لأنه كان المراسل الحربي لأحد صحف لندن الرئيسة اليومية، ولا أعرف إذا ما كان لا يزال على قيد الحياة أم لا؛ ولكن أتمنَّى أن يقبل أعمق اعتذاراتي.

بعد بضعة أسابيع، عندما استقررتُ مرةً أخرى على الشاطئ، وبينما كنتُ أُفرغ صندوق ملابسي لمستُ البرقيات في جيب المعطف الذي كنتُ أرتديه

عندما اعتقلني عرابي.. كنتُ منزعجًا جدًا لأنني نسيتهم، وعندما فتحتهم شكرتُ السماء أنهم لم يُؤخذوا مني ويُسلَّموا إلى عرابي.

كان من الغريب أنه لم يلاحظ أمرهم بنفسه؛ لأنهم - كما قلتُ - كانوا بارزين من الجيب بشكلٍ واضح للغاية، ولو رآها وقرأها لكانت حياتي قد ضاعت هباءً؛ لأن البرقيات كانت موجَّهةً إلى الصحيفة اللندنية، ومذكورٌ فيها بجلاءٍ تام: متى سيقع القصف؟ وماذا ستفعل السفن؟ وكيف سيُهاجمون الحصون؟ إلخ، إلخ(252).

وبصرف النظر عما كان سيصيبني جرَّاء وقوعها في يد عرابي، فمن المحتمل أنَّ السفن البريطانية كانت ستُقاسي أكثر مما لاقته بالفعل، ونظرًا لأن ما حدث قد حدث؛ فلم يكن هناك ما يمكن عمله؛ إذْ انتهت القضية؛ ولذلك احتفظت بالبرقيات.

أستطيعُ أن أتخيَّل مشاعر عرابي عندما لم أحضر في فترة ما بعد الظهر، وعندما قيل له إنَّ الصرَّاف قد اختفى أيضًا؛ لأنه كان يُنفِّذ تعليماتي بأمانةٍ؛ لذلك فإنَّ كل ما وجده عرابي هو حارسيه اللذين يحرسان خزانةً ضخمةً من طراز (ميلنر) التي لا يستطع فتحها.

والمقتطف الآتي من مجلة (فانيتي فير) الصادرة في 15 يوليو 1882:

«الخزينة المصرية:

منذ عدة أشهر، توقَّعنا أن عرابي النجيب سيضع يده عاجلًا أو آجلًا على الخزينة؛ والفقرة الآتية من المراسل الخاص لصحيفة ستاندرد تُقدِّم تأكيدًا بشعًا لنبوءتنا:

بينما كان مدير الجمارك قادمًا باتجاه السفينة تانجور، أوقفته مجموعة من الجنود؛ فأخذوه ومعه صندوق المال الذي كان ينقله معه، ليضعوهما أمام عرابي باشا، وطالب الأخير بضرورة تسليم المال له، ورفض مدير الجمارك الانصياع له، وعندئذ صادر عرابي المال قائلا إنه وقت حرب، ثم بعثوا بالمدير إلى ظهر السفينة مصحوبًا بالحراسة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ قصف الإسكندرية يوم الثلاثاء 11 يوليو 1882 الساعة السابعة صباحًا، ومن حيث كانت تقف السفينة (تانجور) استطعنا أن نرى كل شيءٍ بوضوح عبر نظاراتنا المكبرة، وبالنسبة إلى مدنيٍّ مثلي لم ير الحرب من قبل؛ كان المشهد رائعًا(251).

سمعنا قذيفة مدفعٍ منفردةً من السفينة (ألكسندرا)، والتي كانت إشارةً لبدء الهجوم، ثم توالى انضمامِ السفن للقصف واحدةً تلو الأخرى، حتى أصبح

الأسطول بأكمله منخرطًا في القصف فبدا الأمر فظيعًا ومثيرًا للرَّهبة، وأصابتني الرجفة من الإثارة رغمًا عني، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى أصبح كل ما يمكننا رؤيته هو كتلة من الدخان الأبيض الذي يحيط بالسفن.

كان هدير الهجوم المُركَّز يصمُّ الآذان، ورغم أننا لم نكن نر سوى القليل؛ إلا أنه كان بإمكاننا سماع الصَّخَب العميق لمدافع أبراج القلعة والنقر السريع لمدافع (نوردنفيلت) متعددة المواسير؛ وهو ما جعل قلوب معظمنا تتسارع ضرباتها.

كنا من حينٍ لآخر نلمح سفينةً مصريةً، ونرى عددًا من القذائف المصرية، والتي كانت - رغم التصويب الخاطئ للمدفعجية - تمرُّ فوق السفن البريطانية، وتتخطَّاها لتسقط في البحر، ملقيةً بسحبٍ من رذاذ الماء قبل أن تغوص لأسفلٍ، ثم ارتفع الدخان المحيط وتلاشى وتبدَّد بفعل الريح الخفيفة، وما كان ضبابيًّا من قبل أصبح واضحًا أمام أعيننا الآن.

ورغم النيران الهائلة والمميتة من السفن البريطانية؛ فإن المدفعجية المصرية ظلوا متمسِّكين برجولةٍ بمواقعهم، وداوموا على إطلاق نيرانٍ كثيفةٍ، وظلت قذائفهم تضرب السفن باستمرارٍ، وقد استمر الأسطول بأكمله منخرطًا في القصف حتى الحادية عشرة والنصف، عندما أُعطيتِ الإشارة بوقف إطلاق النار.

أستطيع أن أتخيَّل مشاعر رجال البحرية وهم يرون - عبر الدخان الآخذ في التبدد - تأثير آلاتهم الحربية الجبَّارة، فلسنواتٍ ظلّ الناس والخبراء البحريون والعسكريون في جدالٍ حول مزايا الحصون مقارنةً بالسفن المدرعة، لكن في حالتنا هذه حُسمت القضية؛ فبالنسبة إلى الحصون التي كانت قبل خمس ساعاتٍ مهيبةً ومثيرةً للرهبة؛ لم يعد لها وجودٌ الآن إذْ تحوَّلت جميعها إلى أنقاضٍ متهالكةٍ سُحقت تحت وطأة القذائف الهائلة التي أطلقتها السفن الحربيّة البريطانية، وعند المقارنة مع الأضرار التي أحدثوها بالسفن، لم تُعان السفن إلا قليلًا من الإصابات.

وكثيرًا ما أتساءلُ عن النتيجة لو انعكست المواقف، وأصبحت القوات البريطانية هي الموجودة في الحصون؟ ولا يعني ذلك أي تشكيكٍ في شجاعة القوات المصرية؛ فقد قاتلوا بشجاعةٍ بالغةٍ؛ لكن لم يكن لديهم المعرفة الكاملة بأسلحتهم تلك المعرفة اللازمة لإنجاح دفاعهم ولو حتى بشكلٍ جزئيٍّ.

لم ينته القصف في الساعة 11:30؛ لأن المصريين حيثما وجدوا مدفعًا منصوبًا كانوا يستخدمونه، إلى أن تم إسكاتهم واحدًا تلو الآخر، ومع ذلك، وحتى بعد إسكاتهم؛ استمرَّ القصف المتقطع طوال فترة ما بعد الظهيرة، من أجل منع محاولات إصلاح الأضرار في الحصون والمدافع.

في حصن المكس ظلّت بعض المدافع منتصبةً، رغم أن الرماة انسحبوا عنها؛ لذلك هبطت مجموعةٌ من اثني عشر رجلًا من السفينة (انڤنسيبل)، يقودهم الملازم برادفورد وبرفقته الملازم لامبتون والرائد تولوش، وخرَّبت تلك المدافع، وبالتأكيد كانت مهمةً بغيضةً، لأنهم لم يكونوا متيقنين من أن الحصن مهجور، وأرغمهم هياج البحر على الهبوط إلى الشاطئ سباحة؛ لكنهم قاموا بمهمتهم دون أن يلقوا أي معارضةٍ، وعادوا سالمين إلى السفينة.

معظم الناس قد سمعوا عن الفعل الشجاع الذي نال إعجاب الأسطول بأكمله، حيث هاجم اللورد تشارلز بيريسفورد في زورق المدفعية الصغير (كوندور)، حصن مرابط (طابية العجمي) وأسكته، ولا بد أنه كان فخورًا جدًا في ذلك اليوم عندما قرأ الإشارة المرسلة من صاري سفينة الأدميرال قائلة: «أحسنت كوندور»، وعندما عاد الزورق؛ كانت جميع السفن الحربية في المنطقة يُحيُّونه، بينما تعزف فرقهم النشيد الوطني البريطاني.

مرَّت فترة ما بعد الظهر بسرعة، وتم إسكات معظم القلاع، رغم أنه من حين لآخر كان ينفجر مخزن بارودٍ على الشاطئ؛ ولكن عندما حلَّ الليل بدأ أصحاب الأملاك في المدينة من بيننا يشعرون بالقلق؛ لأن الحرائق قد بدأت تتصاعد واحدةً بعد الأخرى حتى احمرت السماء من ألسنة اللهب المتصاعد من البيوت المحترقة، وبدأنا نتساءل إذا كانت المدينة بأكملها سيصيبها الدمار في النهاية أم لا!

كانت هذه نيران حرائق متعمدةٌ، ولم تنتج عن قذائف أو صواريخ السفن الحربية، وفي صباح اليوم التالي، ونظرًا لهياج البحر الشديد وهبوب رياح قوية، تقرَّر عدم استمرار القصف بعض الوقت تجنبًا لخطر إصابة المدينة بقذائف طائشةٍ(250).

أثناء ذلك؛ لوحظ في الظهيرة أن العدو يعمل على بطارية رأس التين، حيث كانت توجد بعض المدافع الثقيلة التي تعمل على نظام مونكريف، ولأولئك الذين لا يعرفون ما هو هذا النظام، سأصفه بأنه نظام يشبه لعبة الأطفال «عفريت العلبة»، أي أن المدفع يثبت على منصةٍ، وعندما يكون المدفع جاهزًا للإطلاق، ترتفع المنصة إلى مستوى المتراس ليطلق قذيفته، ثم تغوص المنصة لأسفل مرةً أخرى بمجرد انطلاق القذيفة.

لا أعلم ما الذي كان يأمل المصريون في تحقيقه من الاستمرار في الدفاع، إلا إذا كان بهدف كسب الوقت لتمكين عرابي من سحب قواته، ربما كان الأمر كذلك، وربما كانت رغبة في محاولة إتلاف أي سفينةٍ بضربةٍ أخيرةٍ؛ وهو ما أشعر شخصيًا أنه الأكثر احتمالًا.. وعلى أية حالٍ؛ فقد أطلقت اثنتان من السفن النارَ عليهم، وفي وقتٍ قصيرٍ رفعوا العلم الأبيض.

وأرسل الزورق الحربي (بيترن)، لمعرفة ما إذا كانوا يرغبون في الاستسلام؛ ولكن اتضح أنهم رفعوا العلم الأبيض لتمكين القوات من الانسحاب بأمانٍ، وهو الأمر الذي أنهى القصف عمليًّا، إضافةً إلى أن البحر قد أصبح هائجًا لدرجةٍ أصبح من المستحيل معه الاستمرار في القصف، حتى لو كانت هناك رغبةٌ في ذلك.

لاحقًا بعد ظهر ذلك اليوم، كان الأدميرال سيمور يتواصل مع السفينة (تانجور)، وأرسل إليها طاقم قارب من السفينة (انفينسيبل) التي على مقربة منها، واغتنم الكابتن مولينو الفرصة ليبعث لي برسالةٍ وصندوق مستندات؛ يحتوي على وثائق مهمةٍ جدًا كنتُ قد ائتمنتُه عليها قبل بضعة أيامٍ.. يقول في رسالته:

«انفينسيبل؛ الأربعاء 12 يوليو 1882

عزيزي كوسيل:

أرسل إليك صندوقك الذي آمل ألا يكون في حالٍ أسوأ، نظرًا لأننا كنا تحت القصف؛ فقد ضربنا المصريون بقوةٍ أكثر مما توقَّعنا، وقد أصابونا في هيكل السفينة خمس عشرة مرةً، وملأت القذائف الجو بموسيقاها، وبصورة غاية في الحدة.

وقد أُصيب ستة رجالٍ؛ بعضهم إصاباته بليغة؛ ولكن لم تقع وفياتٌ، ويسرني القول إنه من الرائع أننا لم نفقد أكثر من ذلك.

صديقك المخلص

ريتشارد مور مولينو»

وأذكر أنني عندما قرأتُ هذه الرسالةَ فكَّرتُ في ذلك العدد الضئيل جدًا من الضحايا، وتساءلتُ لماذا أصبحت الحرب أقل فظاعةً في الخسائر في الأرواح رغم المتفجرات العملاقة المستخدمة الآن، مقارنةً بما كانت عليه في تلك الأيام التي كان يعتمد فيها الرجال على قوة سواعدهم، وأن الرجال الآن يُقدِّرون حياتهم أكثر مما كانوا يفعلونه في الأيام الغابرة.

ربما كان انتشار التعليم هو ما جعل الجنس البشري أقل ثقةً في وجود حياةٍ آخرةٍ، ومن ثم جعلهم يتشبثون بالحياة التي يعرفونها أكثر، ولكن أيًّا كان الأمر؛ فإذا كانت هذه المتفجرات لديها القدرة على جعل البشرية أكثر سلامًا؛ فلنأمل ألا تكون أيضًا مُوهنةً لفحولتهم.

لطالما تراءى لي أن الحرب تحافظ على الصفات الحية في الإنسان، والتي تُحقِّق له تقدُّمًا أسلم وأضمن، من تلك المشتقة من العلم البحت؛ لأن هناك

ميلًا في العلم إلى نسيان الطبيعة البشرية وربما إدانتها، والحكومة العلمية، رغم أنه لا جدال فيها من الناحية النظرية؛ إلا أنها نادرًا ما تنجح عند الممارسة العملية، ولا أعني أنه لا يمكن استغلال العلم في الحكم؛ لكنني أُصرُّ على أن النظرية العلمية يجب أن تُشتق من البيانات العملية، وليس العكس، وآمل أن يُغفر لي هذا الابتعاد عن الموضوع وسأعود إلى السرد.

تلقَّيتُ رسالة مولينو في الظهيرة، وأعتقد أن معظمنا كان سعيدًا بقليلٍ من الراحة بعيدًا عن الإثارة الدائرة بسبب الأحداث. وأعلمُ أنني كنتُ أتوقُ إلى ذلك؛ لكن الراحة لم تدم طويلًا؛ لأنه مع حلول الليل شعرنا مرةً أخرى بالحسرة في نفوسنا من مشاهدة مدينة تدمرها النيران تدريجيًا.

من وقت لآخر، وبينما كنا نشاهد السماء دائمة الاحمرار، كنا نرى اندلاع حرائق جديدةٍ في مناطق مختلفةٍ من المدينة، وكان من الواضح أن شريعة الغوغاء هي الحاكمة في الإسكندرية، وكان الوقوف مكتوفي الأيدي أمرًا يصعب تحمُّلُه، وبدا الوضع غايةً في الشناعة، وصار من المؤكد أنَّ هذه المدينة العظيمة صارت معرضةً لخطر التدمير الشامل، وأن حثالة المجتمع من أرباب السجون قد أصبح في وسعهم حرق منازل كثيرٍ من الأغنياء ونهبها؛ لكن كنَّا مضطرين إلى أن نبقى في مكاننا نشاهد ونراقب، وفي بعض الحالات نستخدم ألفاظًا مبتذلةً وسيئةً تعكس اضطرارنا القسريَّ للوقوف مكتوفي الأيدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صبيحة اليوم الثالث عشر(249)، شُوهد عددٌ من الأشخاص محتشدين بالقرب من سلالم الجمارك في المرفأ، ورأينا عبر النظارات المكبرة أنهم أوروبيون، وعلى الفور جرى نقلهم إلى السفن المدنية بواسطة قوارب من السفن الحربية، كان بعضهم مصابًا بجروح؛ لكن الجميع على ما أعتقد كانوا قطعًا سعداء لأنهم غادروا الأراضي المصرية.

بينما كانت السفينة (إنفينسيبل) تستعد للانتقال إلى المرفأ الداخلي، أرسلت إشارة إلى السفينة (تانجور) أن زورقًا حربيًا سيأتي إلى محاذاتها قريبًا، وأن الأدميرال سيمور يرجو أن يحضر موريس باشا المراقب العام للمنارات، وموريس بك المفتش العام لخفر السواحل، والسيد كوسيل - القائم بأعمال المدير العام للجمارك - إلى متن السفينة (انفينسيبل) كي يتمكن من التشاور معهم حول بعض الإجراءات التي يجب اتخاذها بأسرع وقتٍ لإنزال الجنود على البر.

كان من الصعب جدًا على الزورق الحربي (سيغنت) أن يحاذي السفينة (تانجور) تمامًا؛ لذلك أرسلت السفينة أحد قوارب النجاة ليُقلَّنا إلى الزورق،

ونزلنا من جانب السفينة إلى القارب واحدًا تلو الآخر على سُلّم من الحِبَال؛ وكانت هذه تجربةً جديدةً في حدِّ ذاتها.

لم يكن القارب البغيض يستقرُّ أبدًا في مكانٍ واحدٍ، وعندما نزلتُ أخيرًا على السلم وهبطتُ في القارب، وجدتُّ أن الأمر كان أصعب مما كنتُ أظن، وبمجرد أن وصلنا إلى متن (سيغنت)؛ أخذ طريقه عبر الممر، ثم إلى القناة المؤدِّية إلى الميناء، وعند اقترابنا من أحد الحصون الأصغر التي تم إسكاتها؛ أُنزِلَ فجأة العلم الأبيض الذي كان يرفرف على الحصن طوال اليوم، ثم شاهدتُ درسًا عمليًّا حول كيفية التحرك بسرعةٍ والاستعداد.

فتقريبًا قبل أن يكتمل نزول العلم الأبيض من على ساريته - أو هكذا بدا لي - كان طاقم الزورق (سيغنيت) مستعدًا للعمل، وكان كل رجلٍ في موقعه، والمدافع جاهزة للردِّ على الهجوم المدفعيِّ المتوقع من الحصن.

وفي اعتقادي أن البحارة كانوا سعداء بهذا الاحتمال؛ لأنني لاحظتُ على أكثر من وجهٍ ابتسامة رضا شرسةٍ، وتصلُّبًا غريبًا للعضلات.. كان الأمر رائعًا وسبَّب لي القليل من الإثارة؛ لكن - بكل صدقٍ - لا يمكنني أن أُنكر شعوري بارتياحٍ واضحٍ عندما خرجنا عن نطاق رماية هذا المدفع دون أن نتعرَّض للاعتداء، وقد اتضح بعد ذلك أن رجالنا هم مَن أنزلوا العلم، والذين كانوا قد خربوا للتوِّ المدافع الموجودة في الحصن بشكلٍ قاطعٍ تمامًا.

على متن السفينة (انفينسيبل) استقبلنا الأدميرال سيمور بلطفه وحفاوته المعهودة منه، وشرعنا على الفور في العمل، وهو إجراء الترتيبات لإعادة تنظيم الدوائر الرسمية التي نُمثِّلها، والتصريحات التي ستصدر بالعربية وبلغةٍ أوروبيةٍ، على أن يتم إصدارها حالما أمكن النزول إلى البر.

أثناء المحادثة، أتذكَّر وصول رسالةٍ إلى الأدميرال مفادها أن السفينة (أورونتس) قد صارت على مرمى البصر، فأبدى الأدميرال ارتياحه وأصدر تعليماته إلى ضابط الإشارة كي يرسل إلى (أورونتس) بالقدوم إلى الميناء على الفور وإنزال مشاة البحرية، وبعد دقائق قليلةٍ عاد الملازم، وأبلغه أن أورونتس أشارت بعدم وجود مشاة البحرية على متنها؛ لأنها أنزلتهم في مالطا.

أعرب الأدميرال سيمور عن أسفه بكلماتٍ جميلةٍ وبسيطةٍ ومُعبِّرةٍ جدًا، لدرجةٍ جعلتني أندم على ما فاتني في حياتي، رغم أنني أستطيع التحدث بثلاث لغاتٍ أو أربعٍ، وأشار إلى الملازم بالمسارعة إلى إرسال إشارةٍ إلى (أورونتس) بالعودة إلى مالطا بأقصى سرعةٍ، وجلب مشاة البحرية معها.

ورغم التقارير التي جرى الحصول عليها من الأوروبيين الذين أنقذوا من على أرصفة الجمارك؛ لم يكن هناك شيءٌ موثوقٌ به لمعرفة مَا حدث ويحدث في المدينة؛ لذلك رأى الأدميرال سيمور أنه من المستحسن بذل الجهود لمعرفة ذلك، وإرسال زورقٍ بخاريٍّ إلى رصيف الجمارك، وقام السيد چون روس - وهو إنجليزيٌّ مصريٌّ، وصديقٌ قديمٌ لي كان موجودًا على متن (انفينسيبل) أثناء القصف لكونه أحد المتعاقدين مع الأسطول - بالتطوع لمرافقة طاقم الزورق.

وعند الوصول إلى الرصيف قفز السيد روس إلى الشاطئ، بينما بقي الطاقم شاهري أسلحتهم على استعداد لصدِّ أيِّ هجومٍ، ومع ذلك لم يحدث أيُّ شيءٍ، وعاد السيد روس بعد مهمة استطلاعية استغرقت ربع ساعةٍ تقريبًا، وأبلغ بأن ذلك الجزء من المدينة المحيط بمبنى الجمارك كان مهجورًا، وأن ألسنة النيران منعته من المضي أكثر من ذلك نحو الشوارع الرئيسة.. لقد قدم السيد روس خدماتٍ كبيرةً إلى الأدميرال وضباط الأسطول؛ لكنني لم أسمع قط أنه نال أيَّ تقديرٍ رسميٍّ منهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في 13 يوليو(248)، أنزل الأدميرال الأمريكي فرقة - حوالي مائة وخمسين - من البحارة ومشاة البحرية الأمريكية تحت قيادة القائد سي إف جودريتش، ومع ذلك كانت تحرُّكاتهم تُوجَّه من جانب الكولونيل دو تشيل لونغ، الذي أمرهم على الفور باحتلال القنصلية الأمريكية وتولِّي أمرها، كما قدَّمت الفرقة مساعدةً كبيرةً في استعادة النظام، ووقف النهب والمعاونة في إطفاء الحرائق.

يُقال إن الأدميرال سيمور كان مُكرَهًا ومُضطَّرًا إلى إنزال مشاة البحرية الأمريكية، لكن على أية حالٍ؛ تظل الحقيقة هي أنَّ بحارة البحرية البريطانية ومشاتها لم يهبطوا إلى برِّ الإسكندرية إلا بعد أربعٍ وعشرين ساعةً على الأقل، وعندها - على الفور - احتلوا قصر العدل الموجود على قمة الميدان الكبير، والمحادثة التي دارت بين الأدميرال سيمور وضابط الإشارة توضح الأمر.

وكان الكولونيل دو تشيل لونغ صديقًا قديمًا لي، وكنتُ أعرفه منذ عام 1870 عندما وصل من أمريكا وانضم إلى الجيش المصري، وفي وقتٍ من الأوقات كان رئيس الأركان تحت قيادة الجنرال جوردون في الإقليم الاستوائي المصري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم الجمعة 14 يوليو، دخلت بقية السفن الحربية إلى الميناء؛ وعندها تقريبًا هبطت على الفور قوةٌ من مشاة البحرية والبحارة، واستولوا على قصر رأس التين، وفي اليوم نفسه وصل الخديوي من قصر الرملة، حيث كان موجودًا أثناء القصف، ويبدو أنه أفلتَ بصعوبةٍ بالغةٍ من التعرُّض للاغتيال على يد مجموعة من القوات المصرية، ولا يستطيع أحد إنكار أنه كان شجاعًا، والدليل على ذلك أنه بقي على الشاطئ أثناء القتال، محاطًا بقواتٍ تناصبُهُ العداء، وواجه كل مخاطر الموت، وقد نجا - على ما أعتقد - عبر رشوة بعض القوات لتقوم بحمايته.

هبطتُ على البر مع فرقة من القوات الخاصة، ورأينا آثار القصف على الحصون، ثم رأينا آثار ما فعله الغوغاء بالمدينة، والآثار الأولى للقصف يمكن فهم طبيعتها مع الشعور بالذهول؛ لكن الآثار الأخرى التي أحدثها الغوغاء تُسبِّب مشاعر أكثر تكديرًا بكثيرٍ، وأعتقد أنها كانت السبب الأساس في حزني وشعوري بالأسى؛ لأن كل ما فعلته السفن كان حربًا، وكان الضرر بسبب قوى التدمير الهائلة التي استخدمها البحارة؛ لكن مشهد الدمار في شوارع المدينة كان يبعث الرعب في النفس من خبث الإنسان وحقده الذي تظهر آثاره على كل شارع تقريبًا.

لطالما بدا لي التدمير العشوائي من أشقِّ الأمور على الفهم، لقد كان بإمكانهم النهب والسلب والنقل لكل ما هو متحركٌ، دون إشعال النار في المدينة عمدًا في أماكن كثيرةٍ؛ فبعض الشوارع كانت عبارة عن كتلٍ من الأنقاض المشتعلة، وأكوام كبيرةٍ من الركام والجدران المتداعية، وهذه كانت مصدرًا مستمرًّا للخطر طالما ظلَّت قائمةً، ويضطر المرء إلى تجنُّبها بحذرٍ عند المرور بها.

ثم كانت هناك جثثٌ وأسلاكٌ تلغراف، وأشياءٌ متنوعةٌ محطمةٌ وملقاةٌ في كل مكانٍ، وفي بعض الأماكن كانت لا تزال المنازل مشتعلةً أو يتصاعد منها الدخان، وأعمدة الدخان الرفيعة تلتفُّ على الجدران المسوَّدة بالهِبَاب، وكأنها تسخر منها.

لقد كان الأمر مؤلمًا جدًّا لشخصٍ كان مرتبطًا بالإسكندرية أن يرى هذه الخرائب، فالميدان الكبير الذي كانَ قبل ذلك القصف مصدرًا للزهو والفخر، دُمِّر بالكامل تقريبًا، ولم يتبق للقنصليات الفرنسية والإيطالية سوى بعض الجدران القائمة، وكذلك الحال بالنسبة إلى القنصلية البريطانية؛ إلا أنها كان مخربةً تمامًا.

وبمجرد أن وجدتُّ الوقت - وبالتأكيد كنت منشغلًا - زُرْتُ مقر إقامتي، والذي كان أحد البلوكات الكبيرة كثيرة الشقق، كان به درجٌ رخاميٌّ كبيرٌ يصعد إلى

أعلى، وأول الأشياء التي وجدتَّها عند الدخول كانت قطعتين أو ثلاثًا من أغطية الرأس التي تخص ابنتي الرضيعة!

يا إلهي!!

كم كنت ممتنًا؛ لأن نسائي قد غادرن قبل الأحداث بقليلٍ، وإستقبل عينايَّ مشهدٌ من الفوضى الشديدة وأنا أفتح الباب، كل شيءٍ قد تحطَّم، وكل أواني المنزل الزجاجية تناثرت شظايا - ولم يتبق كأسٌ سليمٌ من كئوس النبيذ.. الكراسي محطمةٌ، والسجاد ممزقٌ إلى شرائط، وأعتقد أن غرفة المعيشة كانت الأكثر استفزازًا لهم؛ فهي منجدةٌ من السَّتَان الأصفر، وتحتوي على عدة مرايا كبيرةٍ، وأعتقد أنها قد كُسرت بواسطة قبضات الرِّعاع؛ لأنهم مسحوا أيديهم التي تنزف في السَّتَان، وما لم يتم تحطيمه جرى نقله، سواء أكان مفيدًا لهم أم لا.

لم يكن لديَّ الوقت لإجراء فحصٍ شاملٍ للمكان؛ لذلك بعد نظرةٍ خاطفةٍ في الأرجاء، تركتُ المكان وشققتُ طريقي إلى الاسطبلات، وكنتُ على يقين بأنها أصبحت فارغةً؛ لكن سرَّني للغاية أنني وجدتُ أن يوحنا - الحوذي العربي المخلص الخاص بي - قد حَصَّنَ المكان، وبقي فيه رغم كل شيءٍ، ناهيك عن وجود الفرسة (بيسي) معه، وكاد الاثنان يبكيان فرحًا عندما أخبرتُهم بانفراج أزمتهم.

في الواقع، سالت الدموع على وجنتي يوحنا وهو يحتضن الفرس، لم أر في حياتي قط مثل هذا الإخلاص لحيوانٍ مثل الذي يحمله هذا الرجل، وأتذكَّر بعد ذلك بسنواتٍ في نابولي، عندما أُصيبتْ الفرس بالبرد وماتت، لم يحتمل الرجل المسكين الأمر وبكى مثل الأطفال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(254) سنة 1882.

(253) هذا يعني أن النية كانت مُبَيَّتَةً على ضرب الحصون سواءٌ أعمل عرابي على إصلاحها أم لا.

(252) تأكيدٌ لما قلناه سابقًا أن النية كانت مبيتةً بليلٍ، وأنَّ الضرب لم يكن متعلقًا بتجديد الحصون من عدمه.

(251) هنا تظهر طبيعة المحتل البغيضة بوضوحٍ حين يصفُ مشهد الحرب والخراب بالجمال والروعة!

(250) هناك اتهامات كثيرة وجِّهت إلى عمر لطفي حاكم الإسكندرية بحرقها بالاتفاق مع الخديوي، وقد كُوفئ لطفي بدلا من الخضوع للمساءلة على النحو الذي سنذكره فيما بعد.

(249) يوليو 1882.

(248) سنة 1882.

الفصل التاسع

1882

نهب الإسكندرية وحرقها - إنقاذ أموال الجمارك - وصول الجنرال أرشيبالد أليسون - عرابي يقطع ترعة المياه العذبة - البحارة يحفرون آبارًا للمياه - العثور على المياه العذبة - استعادة النظام في المدينة - اللورد تشارلز بيريسفورد - الكابتن بريسكو - فتح خزانة الجمارك بواسطة متفجرات قطن البارود - المراسل الحربي ميلتون بريور - بينيت بيرلي - التعيين مندوبًا لمصر في الهيئة الدولية للصرف الصحي - مقابلة كتشنر - مناوشات في الرملة - وصول دوق كونوت - وصول السيد جاميت ولسيلي والسير إيڤلين وود - عودة السيد كايلارد - استعراض الخديوي للقوات البريطانية - صاحب السمو يمنحني رتبة بيك - الخديوي - اللورد السيستر - الكابتن مولينو - محاكمة عرابي - ألكسندر مايريك برودلي - ويلفريد بلنت - شنق سليمان بك سامي.

عندما انسحب عرابي باشا مع جيشه من الإسكندرية، حلَّ جزءًا من القوات المحلية، ولم أفهم قط سبب قيامه بذلك، إلا إذا كان يخشى عدم إخلاصهم لقضيته بالدرجة نفسها التي كانوا عليها من قبل، لكن على أية حالٍ جرى حلُّهم، وربما فعلوا ما كان متوقَّعًا منهم، وهو أنهم بدأوا في النهب.

كانت معنوياتهم محطمةً تمامًا، وانضموا إلى البدو الهمج الذين كانوا يحومون مثل النسور على أمل الوقوع على غنيمةٍ كبيرةٍ، وشرار المتوحشين القادمين من السجون التي فتحت أبوابها على مصراعيها، وشكَّلت هذه المجموعات المختلفة كيانًا خطيرًا للغاية، دون أيِّ وازعٍ من أي نوعٍ، وعلى عاتقهم تقع مسئولية تدمير المدينة.

ولم يكتفوا بنهب كل منزلٍ ومتجرٍ في الحي الأوروبي، بل استخدموا النفط لمساعدتهم في عمليات الحرق والتدمير، وقُدِّرت الخسائر في الممتلكات التي سبَّبها هؤلاء الرعاع الوحشيين بعدة ملايين من الجنيهات الاسترلينية.

يُذكر أن خمسمائة أو ستمائة شخصٍ قد ذُبحوا(276)، وكان هناك عددٌ من الأوروبيين لم يصعدوا على متن سفن اللجوء لأسبابٍ مختلفةٍ، ولجأوا إلى البنوك الأنجلومصرية، وبنك كريدي ليونيه، والبنك العثماني؛ لكنهم بعد ذلك كانوا ضمن اللاجئين الذين أنقذتهم قوارب السفن الحربية من على رصيف الجمارك بعد القصف.

كنتُ أتوقُ إلى معرفة ما حدث في الجمارك، وبعد أن وضع الأدميرال قاربًا بطاقمه تحت تصرفي، توجَّهت على الفور نحو الرصيف، وعند الهبوط وجدتُّ

البوابة الخارجية لقسم رئيس الخزانة مفتوحةً عنوةً وجميع النوافذ محطّمةً، والقضبان الحديدية التي كانت تحمي النوافذ قد انتُزعت من فجواتها، والجدران متضررةً.

وبدخول المكان وجدتُّ الأبواب الداخلية مكسورةً أيضًا، وقد انتُزع أحدُها بالقوة من مفصلاته وكان ملقىً على الأرض وملطَّخًا تمامًا بالدماء التي طالت الجدران كذلك.. لقد كان من الواضح أنَّ شخصًا ما أصيب بجروحٍ بالغةٍ، وربما أكثر من واحدٍ في ظل لَوْثَة النهب، وبالتأكيد أُصيبوا بخيبة أملٍ حزينةٍ، وأشكُّ في أنهم حصلوا على ما يكفي لدفع ثمن ضمادات الجروح.

لم أكن لأندهش لو وجدتُّ الخزائن مدمرةً، لكنِّي كنتُ سعيدًا جدًا عندما عثرتُ عليها سليمةً ولم تُمس بسوءٍ، وضحكتُ في نفسي عندما فكَّرتُ في خيبة أملهم، ثم برزت في ذهني فكرةٌ مفادها أنه ربما يكون عرابي في النهاية قد قبض على الصرَّاف وفتح الخزائن بالطريقة المعتادة.

وحينها تذكَّرتُ أن عندي مفتاحًا مكررًا أحتفظ به في خزانةٍ صغيرةٍ في غرفتي في المكتب الرئيس الذي كان موجودًا في الترسانة، ويقع مباشرةً فوق وزارة البحرية، ورافقني البحَّارة المُدجَّجين بالسلاح، وكسرتُ بابين عنوةً للدخول، ولم يستغرق الأمر منَّا كثيرًا، وبعد أن أصبح المفتاح في حوزتي عُدنا إلى غرفة الجمارك.

استغرق الأمر وقتًا أطول من اللازم لأضع المفتاح في مكانه، لأنني كنت في غاية الانفعال؛ لكن عندما فتحتُ الباب الثقيل، سُررتُ برؤية الصندوقين كما تركتهما، كنتُ سأشعر بخيبة أملٍ كبيرةٍ لو استطاع عرابي الحصول عليهما، بعد كلِّ ما مررتُ به من متاعبٍ من أجلهما وواقعة اعتقالي البغيضة، وقد بذل البحَّارة جهدًا كبيرًا لحمل الصناديق الثقيلة وصولًا إلى القارب، وخلال وقتٍ قصيرٍ كانوا على متن (التانجور) بأمان، حيث جرى خَتْمَهم بحضور النقيب بريسكو كبير الضباط وبحضوري، ثم انتهت مسئوليتي عنهما، وكنتُ ممتنًّا جدًا لذلك.

بعد بضعة أيامٍ، تمكَّنتُ من الاستمرار في ترتيب خدمة الجمارك بشكلٍ مؤقتٍ، بمساعدة عددٍ قليلٍ من الموظفين العرب والأقباط الذين كانوا مختبئين، ورغم أنه تم إنجاز قدرٍ من العمل؛ إلا أنه كان عملًا دون تركيزٍ كبيرٍ فيه، وهذا ليس بمستغربٍ نظرًا لأننا لم نعرف قط متى سيتحتم علينا - ما بين دقيقة وأخرى - اللجوء إلى السفن مرةً ثانيةً؛ فقد كان عرابي على بعد حوالي عشرة أميال فحسب، وبالكاد لا تصل إلينا أصوات معسكره الواقع على الخط الرئيس للسكك الحديدية وعلى ترعة المياه العذبة.

لا أعتقد أنني كنتُ سأفرح لو عاد وألقى القبض علينا، وقد كان بالتأكيد من بواعث الارتياح معرفة أن الجنرال أرشيبالد أليسون قد وصل ومعه مشاة البحرية قادمين من مالطا، فضلًا عن فوجين إنجليزيين آخرين.

ثم ظهرت إشاعةٌ مفادها أن عُرابي قطع - أو على وشك قطع - ترعة المياه العذبة(275) التي تعتمد عليها الإسكندرية بشكلٍ رئيس في إمدادات المياه، مما أدَّى إلى تصاعد قدرٍ كبيرٍ من القلق والاضطراب.

وصدرت أوامرُ على الفور بملء كل صهريجٍ، وتخزين أكبر قدرٍ ممكنٍ من المياه، ولكن نظرًا لأن هذا ليس سوى تدبيرٍ مؤقتٍ فحسب؛ فقد تم إرسال بحارة الأسطول في أرجاء المدينة ومعهم الأجهزة اللازمة للحفر بحثًا عن المياه في أماكن مختلفةٍ، وتصادف أنني كنتُ أمتلك طاحونةً هوائيةً قديمةً، وقطعة أرضٍ على شاطئ البحر في الحي المسمَّى (الأنفوشي)، الذي لم يكن بعيدًا عن قصر رأس التين، ويُطل على الميناء الشرقي.

وطلبتُ إرسال معدات التنقيب عن الماء إلى هذا المكان؛ رغم أنه احتمالٌ بعيدٌ، فلم يكن لديَّ أيُّ سببٍ لافتراض العثور على الماء هناك ولا أي سببٍ معينٍ يجعلني أتمنَّى اكتشافه هناك؛ لأن هذه الملكية لم تكن تُمثِّل أهميةً كبيرةً بالنسبة إلي، ومع ذلك تم تلبية طلبي، وذهب البحَّارة بأجهزتهم وقاموا بعملهم، وخلال فترةٍ وجيزةٍ جدًا، اكتشفوا ينبوع ماءٍ صافٍ وعذبٍ كأفضل ما نتمنَّاه.

لم يستغرق الأمر كثيرًا حتى انتشرت أخبار هذا الاكتشاف المحظوظ في جميع أنحاء الحي، وتجمَّع عددٌ كبيرٌ من العرب من كلا الجنسين، حول مكان عمل البحارة، وتحدَّثتُ إليهم بالعربية وأخبرتهم أن الماء خالصٌ لهم، وفي اللحظة التي سمعوا فيها ذلك؛ اندفعوا وهم يصيحون فرحًا لجلب جِرَار المياه التي جرى تعبئتها لهم بالماء في الحال.

كان من الماتع رؤية فرحتهم؛ ولكن لم أستغرب كل هذه الفرحة حيث إن هذا الماء سيحلُّ لهم مشكلةً كبيرةً، وبعد اتخاذ الترتيبات اللازمة لتثبيت أنابيب المياه وما إلى ذلك؛ تركتُ أحد رجالي ليوزع المياه - دون تمييزٍ - على جميع القادمين من أجلها، ثم انسحبتُ تنهالُ على رأسي أروع الدعوات والبركات، وأظنُّ أنني كنتُ سأصاب بالخجل لو كان البحَّارة يفهمون ما يقوله الناس؛ لكن لحسن الحظ كانت العربية هي إحدى اللغات التي لم يتعاملوا معها من قبل.

عُهد بمهمة استعادة النظام في المدينة إلى اللورد تشارلز بيريسفورد، الذي كان تحت إمرته مجموعةٌ صغيرةٌ من مشاة البحرية والبحَّارة والمصريين

منزوعي السلاح، وقد عملوا كقوة شرطةٍ مؤقتةٍ، ولم تكن مهمةً ماتعةً بأيِّ حالٍ من الأحوال.

كان مقر قيادة اللورد تشارلز بيريسفورد كائنًا في مبنى المحاكم المختلطة، الواقع في الجزء العلوي من الميدان الكبير، وهناك كان جالسًا على طاولةٍ صغيرةٍ متهالكةٍ، وأقام هو وكبيرُ ضُبَّاطه الملازم برادفورد، إجراءات تحقيق عدالةٍ سريعةٍ، وقد ساعدتُه في عدة مناسباتٍ عبر العمل مترجمًا حين قُبض على السجناء متلبسين بارتكاب بعض الجرائم الصغيرة كقتل مسيحي أو إشعال النار في المنازل، وحُكم على الجُناة في قضية القتل حسب القواعد، ورُبِطوا إلى الأشجار في وسط الميدان وأُطلقت عليهم النار، وحُفرت القبور أمام الأشجار.

ورغم أن هذا سيبدو للكثيرين - بلا شكٍّ - بالغ الفظاعة، إلا أنها كانت الطريقة الوحيدة والصحيحة للتعامل مع المجرمين، وليس هناك شيءٌ أكبر حماقةً وإفضاءً إلى أسوأ النتائج من العاطفية في مثل هذه الأمور، وفي رأيي أن العاطفية هي إحدى لعنات الحضارة الغربية(274)، ومنذ عددٍ كبيرٍ من العقود التي مرَّت وأنا ملتزمٌ بالاعتقاد بوجوب وجودِ ردِّ فعلٍ عظيمٍ على الجرائم، وهو أمرٌ يكاد يكون ضرورةً إذا أردنا الحفاظ على مكانتنا كأمةٍ عظيمةٍ بين الأمم.

لذلك فإنني أُصرُّ على أن عمليات الإعدام هذه كانت صائبةً تمامًا، وأنها الطريقة الوحيدة للتعامل مع هذا الوضع، فالحرب ليست تسليةً؛ لكنها بوضوح ناموسٌ وطنيٌّ طبيعيٌّ؛ ومن ثم ينبغي التصرُّف فيها على هذا النحو.

وإنَّ النتائج القاطعة والسريعة - إن أمكن ذلك مهما كانت دمويتها - أقل ضررًا للأمة المحتلة من حملةٍ طويلة الأمد، تكسرها هدنةٌ وأخرى يُسبِّب طولها الضجر، وتُقوِّض أخلاق كلا الجيشين المتحاربين، ومن ثم أخلاق الأمم التي ينتمون إليها؛ فالحرب التي يطول أمدها تؤثِّر على الجانب العقلي للجنس البشري إلى حدٍّ مدهشٍ، وإذا كانت القسوة هي الفارقة، فيجب استعمالها.

وأتذكرُ أنني سمعتُ مناقشة هذه المسألة بعد سنواتٍ من الحرب الفرنسية البروسية؛ فقال أحد الأصدقاء إنه لم يسمع شيئًا قيل في باب الدفاع عن معاملة الألمان السيئة للجنود الفرنسيين؛ بينما أكَّد الآخر أنَّ الألمان كان لديهم ما يُبرِّر تصرُّفهم، ومع ذلك لا أتذكَّر كيف انتهى الجدال؛ ولكن نظرًا لأننا كنا جميعًا أصدقاء مقربين؛ فمن المحتمل أننا هاجمنا آراء بعضنا بحرارةٍ، ثم بعدها تناولنا الغداء معًا.

كان وقتًا عصيبًا في الإسكندرية، وكان على المرء أن يكون حذرًا جدًا حيثما ذهب؛ لأن المكان كان لا يزال مليئًا بالنَّهَّابين، وكانت حالة الشوارع والبيوت

المدمرة هي الأكثر خطورةً تقريبًا؛ لأن الجدران كانت تهتز فجأةً ثم تسقط محطمةً ولها قعقعةٌ وزئيرٌ وسحاباتٌ كبيرةٌ من الغبار.

وقد أدَّت مشاة البحرية الأمريكية دورًا كبيرًا في حماية الممتلكات والمساعدة في استعادة النظام، وكذلك فعل النقيب «بريسكو» من طاقم السفينة (تانجور)، ومعه مجموعة من المتطوعين.. وفي الإطار ذاته نسيتُ أن أقول إنه أثناء تنفيذ عمليات الإعدام؛ أخلى مشاة البحرية الأمريكية الساحة من الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الجمارك كنَّا نستأنف الروتين المعتاد شيئًا فشيئًا، وكان الموظفون يعودون واحدًا تلو الآخر، لكن رئيس الخزانة كان لا يزال غائبًا، ولا يعرف أحدٌ مكانه، ونظرًا لأنه كانت هناك دائمًا احتماليةٌ لعودة عرابي؛ فقد قرَّرتُ أنه من المستحسن فتح الخزانة (الميلنر) الصغيرة بطريقةٍ أو بأخرى، وعدم انتظار عودة رئيس الخزانة الذي معه المفاتيح، وكنتُ قد سمعتُ أن إدارة المنارات قد حصلت على خدمات اثنين من العاملين في سلاح الطوربيد والمتخصصين في المتفجرات؛ لتفجير خزانتهم باستخدام قطن البارود؛ لذلك أرسلتُ الطلب الآتي إلى اللورد تشارلز بيريسفورد:

«جمارك الإسكندرية - 10 يوليو 1882

إلى لورد تشارلز بيريسفورد - قائد ورئيس الشرطة

سيدي المحترم:

لدينا خزانةٌ في دار الجمارك تتطلب فتحها قسريًّا؛ فهل تتفضل بإصدار أمرٍ لحاملها لتمكيني من عمل ذلك؟

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

صموئيل كوسيل

مدير عام الجمارك بالإنابة»

الرد على الرسالة:

«إلى أمين الترسانة - 19 يوليو 1882

نحيطكم بوجوب الامتثال إلى الطلب المذكور في الجانب الآخر من الورقة.

توقيع: تشارلز بيريسفورد

قائد ورئيس الشرطة».

ثم كتبتُ إلى النقيب مود، الذي كان مسئولًا عن قصر رأس التين:

«جمارك الإسكندرية - 20 يوليو 1882

الكابتن مود، المسئول في قصر رأس التين

سيدي المحترم:

سترى في الرسالة المرفقة أن لدينا خزانة ميلنر في دار الجمارك، والتي من الضروري فتحها، وقد منحنا اللورد تشارلز بيريسفورد الإذن لذلك، وكما أخبرني السيد ديكسون من إدارة الفنارات، أنكم تفضلتم - لغرضٍ مماثلٍ - بإرسال بعض رجالك إلى موقعه ومعهم قطن البارود لتفجير خزانتهم، وسأكون ممتنًا للغاية إن فعلتم الشيء نفسه معنا.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،

صموئيل كوسيل

المدير العام بالإنابة».

- الردُّ على الرسالة:

«سيدي المحترم:

لقد أرسلتُ ضابطًا وفريق يحمل حشوات قطن البارود إلى المدينة لهدم المنازل القريبة من الحريق(273)، يمكنك التقدُّم بطلبٍ إلى النقيب موريسون في المحكمة.

سي. آر. توماس

(نيابة عن الكابتن مود)»

وفي صباح اليوم التالي، وبعد تلقِّي تعليماتهم، حضر ضابطٌ ومعه فريقٌ إلى دار الجمارك، وشرحتُ لهم ما أريده منهم، وأخذتُهم إلى حيث تُوجد الخزانة الصغيرة في الطابق الأرضي، كانت بغرفةٍ ليست كبيرة الحجم؛ لكن جدرانها كانت سميكةً جدًا ذات سقفٍ خشبيٍّ، وكانت هناك بعض الأرفف القديمة متراصةً حول الجدران، ولا أعتقد أنه كان هناك أيُّ أثاثٍ آخر، أمَّا الأرضية فلم تكن إلا من التراب الناعم بلا ألواح خشبية أو خرسانة في أرضيتها، وحالما ثُبِّتت الشحنة المتفجرة على النحو الذي أراده الضابط؛ غادرنا جميعًا الغرفة، وتلقَّينا أوامر بأن يبقى كلُّ فردٍ على مسافةٍ حتى تمام انفجار الشحنة.

وبعد حوالي دقيقتين أو ثلاث دقائق من انتهاء التفجير، دخلتُ والضابط ومفتش الجمارك، ونظرنا إلى بعضنا مشدوهين للحظةٍ، ثم انفجرنا ضاحكين

لأن الخزانة كانت قد اختفت تمامًا، بعد تشظيها إلى ذرَّاتٍ بتلك العبوة التي كانت غايةً في القوة.

ونظرًا لأن جدران الغرفة والسقف والأرضية الترابية كانت لا تزال سليمة؛ فمن الواضح جدًا أن محتويات الخزانة لابد وأن تكون في مكانٍ ما، لذلك جلب المفتش موظفًا عربيًّا، وبدأنا نحن الثلاثة في البحث عن محتويات الخزانة؛ فوجدنا جنيهاتٍ وعملاتٍ ذهبيةً أخرى على الأرفف، وأخرى منغرسةً في عوارض السقف، وبعد أن تأكَّدنا من عدم وجود المزيد فوق الأرض، بدأنا في غربلة الأرض الترابية الناعمة، وكانت هذه مهمةً طويلةً ومرهقةً، واضطررنا إلى العودة إلى إكمالها في صبيحة اليوم التالي؛ وفي النهاية استعدنا كلَّ الذهب الذي كان بداخل الخزانة.

وفيما يتعلق بهذا الحادث، نشرت صحيفة التايمز الصادرة في 28 يوليو 1882 خبرًا هذا مقتطف منه:

«ذُكر أن الجمارك تعرَّضت لنهب مبلغ 25 ألف جنيه إسترليني منها، وقد كانت الخزانة تحتوي على نحو هذا القدر من المال، ولفتحها، استخدم الجنود شحنةً قويةً للغاية من قطن البارود، مما أدَّى إلى تمزُّق الخزانة ومحتوياتها إلى أشلاء. وفي نهاية المطاف أُنقذَ المبلغ كاملًا تقريبًا من بين الحطام بعد نَخْلِهِ من التراب على يد المدير بالنيابة، السيد كوسيل ومساعديه».

في هذا الوقت قابلتُ ميلتون بريور المراسل الحربي الشهير لجريدة (أخبار لندن المصورة)، الذي كان على متن السفينة (الكسندرا) أثناء القصف، وكذلك بينيت بيرلاي من صحيفة (سنترال نيوز) والذي انضم فيما بعد إلى (الديلي تليجراف)، وقد أصبح هذان الرجلان أعزَّ أصدقائي، واستمرَّت صداقتنا عدة سنواتٍ.

في هذا الشهر، يوليو تم تعييني مندوبًا لمصر في المجلس الصحي الدولي، فضلًا عن مهامِّي الأخرى، وكان النظام قد أُعيد إلى الإسكندرية في ذلك الوقت، ويمكن القول إنَّ أعمال القتل والحرق العَمْد والنهب قد توقفت، ومع عودة الخديوي؛ وُضعت الأمور بشكلٍ عامٍ على أسسٍ أكثر صلابةً.

وقد حدث أمران أذهلاني بصورة مستمرة؛ وكأنه قد أريد بهما الهزل والتفكُّه فحسب؛ أحدهما: إقالة عرابي من منصبه والآخر: تعيين عمر لطفي باشا وزيرًا للحربية، وربما يرى المرء أن إقالة عرابي لم تكن تعني شيئًا أكثر من أنها مجرد من الضروري فتحها، وقد منحنا اللورد تشارلز بيريسفورد الإذن لذلك، وكما أخبرني السيد ديكسون من إدارة الفنارات، أنكم تفضلتم - لغرضٍ مماثلٍ - بإرسال بعض رجالك إلى موقعه ومعهم قطن البارود لتفجير خزانتهم، وسأكون ممتنًا للغاية إن فعلتم الشيء نفسه معنا.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،

صموئيل كوسيل

المدير العام بالإنابة».

- الردُّ على الرسالة:

«سيدي المحترم:

لقد أرسلتُ ضابطًا وفريق يحمل حشوات قطن البارود إلى المدينة لهدم المنازل القريبة من الحريق(273)، يمكنك التقدُّم بطلبٍ إلى النقيب موريسون في المحكمة.

سي. آر. توماس

(نيابة عن الكابتن مود)»

وفي صباح اليوم التالي، وبعد تلقِّي تعليماتهم، حضر ضابطٌ ومعه فريقٌ إلى دار الجمارك، وشرحتُ لهم ما أريده منهم، وأخذتُهم إلى حيث تُوجد الخزانة الصغيرة في الطابق الأرضي، كانت بغرفةٍ ليست كبيرة الحجم؛ لكن جدرانها كانت سميكةً جدًا ذات سقفٍ خشبيٍّ، وكانت هناك بعض الأرفف القديمة متراصةً حول الجدران، ولا أعتقد أنه كان هناك أيُّ أثاثٍ آخر، أمَّا الأرضية فلم تكن إلا من التراب الناعم بلا ألواح خشبية أو خرسانة في أرضيتها، وحالما ثُبِّتت الشحنة المتفجرة على النحو الذي أراده الضابط؛ غادرنا جميعًا الغرفة، وتلقَّينا أوامر بأن يبقى كلُّ فردٍ على مسافةٍ حتى تمام انفجار الشحنة.

وبعد حوالي دقيقتين أو ثلاث دقائق من انتهاء التفجير، دخلتُ والضابط ومفتش الجمارك، ونظرنا إلى بعضنا مشدوهين للحظةٍ، ثم انفجرنا ضاحكين لأن الخزانة كانت قد اختفت تمامًا، بعد تشظيها إلى ذرَّاتٍ بتلك العبوة التي كانت غايةً في القوة.

ونظرًا لأن جدران الغرفة والسقف والأرضية الترابية كانت لا تزال سليمة؛ فمن الواضح جدًا أن محتويات الخزانة لابد وأن تكون في مكانٍ ما، لذلك جلب المفتش موظفًا عربيًّا، وبدأنا نحن الثلاثة في البحث عن محتويات الخزانة؛ فوجدنا جنيهاتٍ وعملاتٍ ذهبيةً أخرى على الأرفف، وأخرى منغرسةً في عوارض السقف، وبعد أن تأكَّدنا من عدم وجود المزيد فوق الأرض، بدأنا في غربلة الأرض الترابية الناعمة، وكانت هذه مهمةً طويلةً ومرهقةً، واضطررنا إلى العودة إلى إكمالها في صبيحة اليوم التالي؛ وفي النهاية استعدنا كلَّ الذهب الذي كان بداخل الخزانة.

وفيما يتعلق بهذا الحادث، نشرت صحيفة التايمز الصادرة في 28 يوليو 1882 خبرًا هذا مقتطف منه:

«ذُكر أن الجمارك تعرَّضت لنهب مبلغ 25 ألف جنيه إسترليني منها، وقد كانت الخزانة تحتوي على نحو هذا القدر من المال، ولفتحها، استخدم الجنود شحنةً قويةً للغاية من قطن البارود، مما أدَّى إلى تمزُّق الخزانة ومحتوياتها إلى أشلاء. وفي نهاية المطاف أُنقذَ المبلغ كاملًا تقريبًا من بين الحطام بعد نَخْلِهِ من التراب على يد المدير بالنيابة، السيد كوسيل ومساعديه».

في هذا الوقت قابلتُ ميلتون بريور المراسل الحربي الشهير لجريدة (أخبار لندن المصورة)، الذي كان على متن السفينة (الكسندرا) أثناء القصف، وكذلك بينيت بيرلاي من صحيفة (سنترال نيوز) والذي انضم فيما بعد إلى (الديلي تليجراف)، وقد أصبح هذان الرجلان أعزَّ أصدقائي، واستمرَّت صداقتنا عدة سنواتٍ.

في هذا الشهر، يوليو تم تعييني مندوبًا لمصر في المجلس الصحي الدولي، فضلًا عن مهامِّي الأخرى، وكان النظام قد أُعيد إلى الإسكندرية في ذلك الوقت، ويمكن القول إنَّ أعمال القتل والحرق العَمْد والنهب قد توقفت، ومع عودة الخديوي؛ وُضعت الأمور بشكلٍ عامٍ على أسسٍ أكثر صلابةً.

وقد حدث أمران أذهلاني بصورة مستمرة؛ وكأنه قد أريد بهما الهزل والتفكُّه فحسب؛ أحدهما: إقالة عرابي من منصبه والآخر: تعيين عمر لطفي باشا وزيرًا للحربية، وربما يرى المرء أن إقالة عرابي لم تكن تعني شيئًا أكثر من أنها مجرد كلماتٍ جوفاء، نظرًا لأنه أخذ الجيش معه حين أُقيل، وأن تعيين لطفي باشا يعني أقلَّ من ذلك، نظرًا لأن الإنجليز هم مَن يتحكَّمون فعليًا في المدينة؛ ومن ثم يتبادر إلى الذهن أنها مسرحيةٌ؛ لكن اتخاذ هذه القرارات كان أمرًا ضروريًّا، وليس ينقص ذلك من روح الدُّعابة الكامنة في القرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك رجلٌ قُدِّر له أن يكون مشهورًا عالميًّا كمنظمٍ وإداريٍّ، والذي سيصبح فيما بعد أحد الرموز العسكرية للشعب البريطاني، وقد جاء إلى مصر لأول مرةٍ عام 1882، إنه النقيب كتشنر - كانت هذه رتبته حينها - الذي شهد القصف من على متن السفينة (انفينسيبل)، حيث كان ضيفًا على الأميرال سيمور، وعندما وصل إلى الإسكندرية قادمًا من قبرص؛ كنتُ أنا - على ما أعتقد - أول مسئولٍ مصريٍّ يتصل به، وتمكَّنتُ من تقديم بعض الخدمات البسيطة له، والتي كانت موضع تقديرٍ كبيرٍ منه، ولم يدر بخلدي في ذلك الحين أنه على وشك أن يكون فاتح السودان.

ورغم هدوء الإسكندرية؛ إلا أنَّ أماكن أخرى في مصر كانت في حالةٍ بائسةٍ؛ فقد وقعت عدة مذابح صغيرة في داخل البلاد، وفي القاهرة عاش السكان في رعبٍ متواصلٍ من أن يدمر المتمرِّدون المدينة وينهبونها؛ لكن لحسن الحظِّ كان يحكم القاهرة رجلٌ لا يُحبُّ عرابي كثيرًا(272).

أمَّا فيما يتعلَّق بالوضع الأوروبيِّ آنذاك؛ فقد كنتُ أتحدَّث باستمرارٍ مع رجالٍ من جنسياتٍ مختلفةٍ، وكان من المثير للاهتمام سماع آرائهم، وقد بدت إيطاليا القوة الوحيدة التي أكَّدت بكل سرورٍ موقف إنجلترا في مصر؛ بينما لم تقل ألمانيا الكثير، وكذلك النمسا، وكانت روسيا تتذمَّر، أمَّا فرنسا فكان من الواضح أنها غير راضيةٍ على الإطلاق عن الوضع القائم؛ ورغم ذلك رفضت المشاركة في قمع عرابي.

على الجانب الآخر، فإن تركيا التي كان لديها كثيرٌ لتقوله في هذا الشأن؛ قرَّرت المشاركة أخيرًا وإرسال قواتٍ للمساعدة، وكانت الهند بالطبع متحمسةً بتشوُّقٍ للمشاركة؛ لأن قناة السويس كانت تمثل لها مشكلةً أثَّرت على تجارتها بشكلٍ كبيرٍ، وستغادر قواتها شواطئها قريبًا لتنضم إلى القوات البريطانية.

استفاد عرابي من الإرسال المتوقَّع للقوات التركية - ولم تكن تلك القوات أكثر من مجرد مشروعٍ لم يكتمل - عبر إصداره لبيانٍ زَعَم فيه أنَّ السلطان(271) قد عزل الخديوي، وأنه شرع بإرسال قواتٍ لمساعدتهم في هزيمة أعدائهم، وكانت هذه الكذبة من نوع الكذب الذي استخدمه عرابي باستمرارٍ من أجل مواجهة تأثير انسحابه من الإسكندرية؛ وتعزيز وجاهته المتضررة بالفعل، كما استغل حقيقة أن قواتنا انسحبت بنجاحٍ بعد أن استطلعت موقع معسكره، وضخَّم هذا الانسحاب ليحوله إلى هزيمةٍ إنجليزيةٍ.

في تلك الواقعة كنتُ قد تابعتُ أنا وموريس بك القوات المتجهة إلى الرملة، لنرى إذا كان هناك ما يستحق المشاهدة، وبعد المداولات معًا؛ قرَّرنا أن الشيء الأكثر فائدةً بالنسبة إلينا هو أن نقف على قمة أبراج بولكلي في الرَّملة، وكانت منزلًا مملوكًا في السابق لتاجرٍ إنكليزيٍّ يُدعى: بولكلي، وقد بناه بطريقةٍ أطلق عليها بعض المازحين لقب (حامل الأباريق) وعندما وجدتُّ أنا والبك المنزل خاويًا كما توقَّعنا صعدنا إلى السطح، حيث حصلنا على إطلالةٍ متميزةٍ بعض الوقت إلى أن شكَّ فينا أحد أفراد قوة عرابي، ووجدنا أنه من المستحسن النزول مرةً أخرى لتجنُّب الرصاص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شَهِد شهر أغسطس امتلاء الإسكندرية بالقوات البريطانية؛ فوصل دوق كونوت مع فوج حرس جرينادير(270)، ثم عندما وصل السير جارنت ولسيلي

القائد العام، والسير إيڤلين وود؛ قيل إن الحملة قد بدأت فعليًا؛ فكل ما وقع قبل ذلك الوقت كان مجرد مناوشاتٍ صغيرةٍ.

عبر قنواتٍ مختلفةٍ تلقَّيتُ معلوماتٍ عن انزعاجٍ بالغٍ بين المسلمين، في أماكن كثيرةٍ خارج مصر، وأعتقد أنه بقليلٍ من الإقناع، كانوا سيُعلنون حربًا مقدسةً ضد بريطانيا، ولو كانت هذه الحملة قد طالت؛ لواجهت القوات البريطانية انتكاساتٍ شديدةً، وأعتقد أن ذلك كان أمرًا مؤكدًا؛ لكن السرعة والسهولة النسبية التي انهزم بها عرابي؛ وضعت حدًّا لأيِّ تحريضٍ جامحٍ وعقيمٍ بين المسلمين الذين يعيشون في تواصلٍ وثيقٍ مع الأوروبيين.

كانت الخطوة الأولى التي اتخذها السير جارنت ولسيلي هي الاستيلاء على قناة السويس، وهو ما نُفِّذ بنجاحٍ رغم وجود بعض المقاومة، وبالطبع كان هذا الأمر ذا أهميةٍ أولى لجميع الدول التي لديها بحريةٌ تجاريةٌ، ثم عندما أُنجز الشيء الأكثر أهميةً؛ عُدنا إلى السبب المزعوم للحملة وسحقنا عرابي، واستغرق الاستيلاء على قناة السويس القليل جدًّا من الوقت، وهزَّت معركة القصاصين(269) ثقة رجال عرابي، وعمليًّا أنهت معركة التل الكبير (268) العملية برُمَّتها.

يبدو لي أنَّ هذه الحملة نالت مديحًا أكثر من اللازم، ولا يعني ذلك أنني أُقلل من الإشادة بالقوات التي تصرَّفت بشكلٍ رائعٍ؛ ولكن كان الشعور العام هو أننا فعلنا شيئًا هائلًا يُضاف إلى مجد بريطانيا، وهذه النظرة لا أتفق معها - رغم أنني ربما وافقتُ عليها في حينها - ولكن عند المقارنة مع الحروب الأخرى التي خضناها؛ فإننا لم نفعل سوى القليل، ولم يكن هناك كثيرٌ لنفعله، فلم تكن القوات المصرية مدربةً تدريبًا جيدًا ولا منضبطةً، وفي الواقع لم يكن لديهم من التدريب أو الانضباط إلا ما يكفي لهزيمتهم عندما يصل الأمر إلى القتال، وأي قواتٍ تنتمي إلى عرقٍ أكثر هدوءًا من المصريين ونالت نصف تدريبٍ؛ كان من الممكن أن يُعوضوا نقص الانضباط في صفوفهم بالهدوء في سلوكهم، ولكن المصريين ليسوا كذلك أبدًا، كما أنهم أيضًا ليسوا متعصبين للإسلام، كأولئك الذين يعيشون في الأماكن الصحراوية.

وأقول مرةً أخرى: إننا لم نواجه موانعٍ طبيعيةً كبيرةً يصعب التغلُّب عليها، ولم نبعث أرتالًا ضخمةً لمسافاتٍ بعيدةٍ عن القاعدة، ولم نواجه نقصًا في المؤن والعتاد، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أحدٌ إنكار أن الحملة كانت جيدة الإدارة، وقد رأيتُ شخصيًّا الشعور الشعبيَّ المُعبِّر عن تلك الحملة بعد أن انتهت، وكانت تُمثِّل بداية عهدٍ من العاطفة شبه المحمومة في بريطانيا.

عندما وصلت أخبار هزيمة عرابي إلى الإسكندرية؛ كان من الرائع فعلًا رؤية الابتهاج بين العرب الذين احتشدوا لتهنئة الخديوي، وأفترض أنه أمرٌ متأصلٌ

في الطبيعة البشرية، في الغربيين كما في الشرقيين، أن تُقدَّمَ أسمى معاني التقدير والاحترام المفعم بالعاطفة للمتمتع بالسلطة العليا(267)، أثناء احتلاله لقمة تلك السلطة.

مع بداية سبتمبر، عاد السيد كيلارد - المدير العام للجمارك الذي كان غائبًا في إنجلترا منذ اليوم التالي لمذبحة يونيو - إلى منصبه، وكان غزيرًا في شكره لي على ما أبليتُهُ أثناء غيابه، وعلى الطريقة البارعة التي أدرتُ بها خدمة الجمارك، وقد وجَّه رسالةً إلى وزير المالية يمدحني فيها، وتحدَّث عني بعبارات لا يسمح لي حياء التواضع بتكرارها.

في اليوم الأخير من ذلك الشهر استعرض الخديوي القوات البريطانية والهندية، وأتذكَّر مغادرتي الإسكندرية على متن قطارٍ في الصباح الباكر جدًا للذهاب إلى القاهرة.

ولا بد أن الوقت كان باكرًا جدًا؛ لأن ما تعلَّق في ذاكرتي هو مشهد المُذَنَّب العظيم(266) الذي أثار إعجابي بروعته الشديدة، كان الاستعراض نفسه يستحق المشاهدة، وكنتُ في الساحة التي أمام قصر عابدين واستمتعتُ بالعرض تمامًا، ومفتخرًا بالمظهر الرائع للقوات، والله وحده يعلم ما شعر به المصريون حينها؛ لكني أتذكَّر سماع بعضهم يُعبِّر عن دهشته من فوج البنغال، وأظنُّ أنه قد فاجأهم ارتداؤهم للعمامات.

وأمام قصر عابدين نُصِبَت منصةٌ مؤقتةٌ، تعلوها الرايات الملكية البريطانية، ويجلس الخديوي في الصدارة بالزيِّ العسكريِّ متقلِّدًا (نجمة الهند)(265)، ويحيط به شريف باشا رئيس الوزراء، ورياض باشا ووزراء آخرون، والأدميرال سيمور، والسير إدوارد ماليت، وشيخ الإسلام(264)، وممثلو القوى الأخرى.

كان علم المملكة البريطانية المتحدة يرفرف أمام المنصة ممثلًا النقطة التي يؤدي عندها جنود العرض التحية، وعنده وقف السير جارنيت ولسلي(263) ومعه الجنرال أديي ومساعده النقيب واردروب، ومرت القوات بالترتيب: مدفعية الخيَّالة الملكية، ثم الجنرال دروري لوي مع سلاح الفرسان الوطني، ثم الفرسان والمشاة الراكبة، ثم فرقة البنغاليين، يليهم سلاح الفرسان البنغال والمشاة البنغال حملة الرماح، ثم بعدهم جاءت المدفعية الثقيلة، وتلتها فرقة البحرية.

ثم قاد دوق كونوت الفرقة الأولى ورماة القنابل والاسكتلنديين وفوج حرس كولدستريم، وجاء بعده فوج جراهام، ومعه القوات الملكية الأيرلندية من يورك ولانكستر، وحملة البنادق الأيرلنديين، ومشاة دوق كورنوال الخفيفة، وفيلق سلاح البريد، ومشاة البحرية، ثم الجنرال هاملي مع سلاح المهندسين، والسير أرشيبالد أليسون ومعه فرقة الجبال، وتبعهم السير إيڤلين وود مع

فيلق شروبشاير وفيلق ساسيكس وفيلق ستافوردشاير وفيلق سلاح البنادق الملكي.

تم اختتم مرور المسيرة بالفرقة الهندية التي كانت تتألف من بطارية مدافع محمولةٍ وسلاح مهندسي مدراس العسكريين، وفوج مشاة المرتفعات الذين أُلحقوا بهذه الفرقة، والفوج السابع من المشاة الوطنية، وفوج من البنجاب، وأخيرًا فوج البلوشستان، وكانت جميعها قواتٍ رائعةً، وحتمًا قد أثَّروا في المصريين تأثيرًا شديدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في شهر أكتوبر(262)، قام صاحب السمو الخديوي بمنحي لقب البكوية؛ بحضور شريف باشا رئيس مجلس الوزراء، وأعرب عن شكره الشخصيِّ وشكرِ حكومته على الطريقة التي تصرَّفتُ بها خلال الأشهر التي كنتُ فيها مسئولًا عن الجمارك خلال فترةٍ بالغة الحرج، وكذلك من أجل الطريقة التي أنقذتُ بها مبلغًا كبيرًا من أموال الحكومة من بين براثن عرابي.

وتلقَّيتُ رسالةً من الأدميرال سيمور، والذي كان آنذاك هو اللورد ألسستر، يُبلِّغني أن اسمي قد تم تقديمه إلى جلالة الملكة مع أسماء آخرين ممن كانوا في خدمتها أثناء فترة التمرُّد العرابي، وكان ذلك يمثِّل لي خبرًا سارًّا للغاية.

وكنتُ قد كتبتُ قبلها إلى الكابتن مولينو؛ أسأله عمَّا إذا كان قد تلقَّى أيَّ تقديرٍ رسميٍّ بالخدمات التي قدَّمها في القنصلية ليلة المجزرة، وكتب إليَّ على النحو الآتي:

«إتش إم إس انفينسيبل،

8 ديسمبر 1882.

عزيزي البك:

أهنئك بحرارة على ترقيتك إلى (بيك)، وأتمنَّى أن تصبح (باشا) قريبًا.

فيما يتعلَّق بسؤالك حول ما حدث في 11 يونيو، فإني أتذكَّر تلك الليلة جيدًا، وأنا بالتأكيد مدينٌ لمساعدتكم لي وقتها، خاصة خلال فترة بعد الظهر، عندما مكنتني معرفتك بالناس ولغتهم من فهم الوضع الذي كنا فيه بشكلٍ كاملٍ، وما كنتُ لأتمكَّن من ذلك لولا وجودك.

والإجابة هي: لا.. لم أتلق أي تقديرٍ عن تلك الليلة؛ بخلاف إشعارٍ رسميٍّ من الأدميرالية بالموافقة على مسألةٍ مهنيةٍ بحتةٍ مرتبطةٍ بتلك الليلة الكارثية.

فلم يكن لديَّ أي خط تواصلٍ رسميٍّ مع وزارة الخارجية أو أي دائرةٍ حكوميةٍ أخرى؛ يُعبر بأيِّ شكلٍ من الأشكال عن أنني كنتُ في تلكِ الليلة أُمثِّل القنصل

الإنجليزي. رغم أنه يَمكنني القول إنني كنتُ أمثِّلَهُ فضلًا عن جميع القناصل الأجانب تقريبًا، فكما تعلم فإنَّ جميع الاتصالات مع الحكومة المصرية قد مرَّت من خلالي في القنصلية الإنجليزية.

أعتقدُ أنني قد أحضر إلى الإسكندرية في غضون بضعة أشهر، وآمل أن أراك عندما يحدث ذلك، وآمل كذلك أن أحصل على إجازة عندما تحل السفينة مونارك محلنا في الثامن عشر من الشهر، عندما ننتقل إلى مالطا».

المخلص

آر إتش مولينو».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال شهر ديسمبر(261) قُدِّم عرابي ورفاقه من السجناء للمحاكمة - إذا جاز لنا تسميتها بالمحاكمة - فقد كانت مهزلةً تقريبًا، حيث كانت الإجراءات مُرتبةً جيدًا مسبقًا، وكان من حسن حظِّ عرابي والآخرين أن محاكمتهم لم تُترك بالكامل للمصريين.

بالطبع كانت هناك أسبابٌ لعدم توقيع العقوبة القصوى على المتمرِّدين لجرائمهم، والحكومتان الإنجليزية والمصرية تعرفان ماهية هذه الأسباب، ومن الواضح أنها كانت كافيةً بالنسبة إليهما(260)؛ لكن كثيرًا من الناس الذين عاشوا في مصر، والذين تحدثتُ معهم؛ غضبوا من التساهل الذي أظهرته المحاكمة، ومع ذلك لم تكن لديهم رغبةٌ في الحدِّ من سلطة الخديوي، ولا أيُّ رغبةٍ في المساعدة في دفع تكاليف إعالة المتمردين في جزيرة سيلان الساحرة، والتي أُرسلوا إليها في النهاية عندما تم استبدال عقوبة النفي بعقوبة الإعدام.

السيد ألكسندر ميريك برودلي كان كبير المحامين المتولِّين الدفاع عن عرابي باشا أمام المحكمة العسكرية المصرية في القاهرة، وقد وُلِد عام 1847 في برادبول(259)بالقرب من بريدبورت(258)، وهو الابن الأكبر للقسيس كانون برودلي نائب إبرشية برادبول، وانضم إلى نقابة المحامين في جمعية لنكولن عام 1869، ومارس المحاماة لسنوات عدة في المحكمة القنصلية في تونس، كما كان مراسل صحيفة التايمز في تونس، وهو على درايةٍ جيدةٍ بشخصية كلٍّ من العرب والأتراك، وشرائعهم وأخلاقهم وحياتهم الاجتماعية، فضلًا عن إتقانه للغة العربية، ومن ثم كان مؤهَلًا بصورةٍ جيدةٍ للتعامل مع القضية المهمة الموكَّلة إليه في القاهرة، وقد شغل لسنواتٍ عدةٍ منصب المحامي الدائم للخديوي السابق إسماعيل باشا.

كان تعيين السيد برودلي كمحامٍ لعرابي باشا قد جاء من جانب السيد ويلفريد سكاون بلنت(257) الذي أخذ على عاتقه بسخاءٍ العناية بتوفير دفاعٍ عن زعيم الجماعة المصرية الثورية، وهو صديقٌ شخصيٌّ لعرابي، وقد سمح صاحب السمو الخديوي عباس باشا الثاني لعرابي بالعودة إلى مصر عام 1901(256).

كان سليمان سامي أحد أسوأ الجناة، ولم يكن هناك شكٌّ في أنه كان له دورٌ كبيرٌ في تدمير الإسكندرية وجرائم القتل التي وقعت هناك، وقد دافع عن نفسه بأن أعطى الأمر للأشرار بالحرق والنهب بناءً على أوامر من عرابي، وربما كانت تلك هي الحقيقة؛ لكنه لم يكن لديه دليلٌ يُقدِّمه لإثبات ادعائه هذا، وقد تمت معاملته بالطريقة التي تُمليها الفطرة السليمة، وهي الإعدام شنقًا(255).

كان سامي هو الذي ظهر مع المحافظ في القنصلية يوم المجزرة، وسمعتُ أنه هدَّد بشنق المحافظ على عمود إنارة إذا لم ينفذ ما يأمره به.. كان شريرًا جبانًا، واستحق بجدارةٍ مصيره الذي آل إليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(276) من الواضح أنَّ الرجل يبالغ جدًّا في العدد؛ فقد ذكر اللورد كرومر أن القتلى من الأوربيين كانوا خمسين. انظر: الثورة العرابية ترجمة عبد العزيز عرابي، ص 183. وقد ذكرنا قبل ذلك ما ذكره فارمان أن ستين من الأوروبيين قُتلوا في هذا الشغب، وأن أضعاف هذا العدد من العرب قد قُتل. انظر: ص 243 حاشية 1 من هذا الكتاب.

(275) يقصد ترعة المحمودية.

(274) كأنما يحدثنا المؤلف عن أمم لا نعرف تاريخها.

(273) يظهر مدى الخراب الذي ألحقه المحتلون بالمدينة.

(272) هو: عبد القادر حلمي باشا الذي عيَّنه الخديوي بعد عزله لأحمد الدرملي باشا الذي كان مشايعًا لعرابي.

(271) السلطان عبد الحميد الثاني.

(270) فوج المشاة في الجيش البريطاني.

(269) نشبت في يوم 28 أغسطس.

(268) وقعت في يوم 13 سبتمبر.

(267) استخدم المؤلف تعبير (top dog) للإشارة إلى الخديوي وليس تعبيرات مثل (leader, chief, head, boss) التي تعني الزعيم أو القائد أو الرئيس، وأظن أن اختياره هذا كان بقصد التحقير. وذلك عائد إلى الروح الاحتلالية الاستعلائية التي تنظر إلى كل السكان الأصليين المحتَّلين نظرة الدونية والتحقير خاصةً إلى مَن يوالون المحتلين.

(266) المُذَنَّب العظيم (Great Comet of 1882) الذي مرَّ في سبتمبر 1882 وكان مشرقًا بما يكفي لرؤيته بالنهار.

(265) يذكر توفيق زند أن توفيق قد حصل على هذا النيشان الملكي البريطاني من الأمير دوجال ولي عهد بريطانيا أثناء مروره بمصر في طريقه إلى الهند سنة 1292 هـ (1875 تقريبًا). انظر: تاريخ الخديوي محمد توفيق، ص 188.

(264) ربما يقصد شيخ الأزهر، وكان وقتها هو الشيخ شمس الدين الإنبابي الذي تولى المشيخة عام 1881 م، ولم يُطل في المنصب واستقال، وأعيد

الشيخ محمد المهدي العباسي في الثاني من أكتوبر 1882م.

(263) جارنيت ولسلي Garnet Joseph Wolseley (1833 - 1913): عسكريٌّ بريطانيٌّ خدم في الهند والقرم والصين وكندا وأمريكا وغيرها، وانتُدب في حملة لإنقاذ جوردن لكنها فشلت.

(262) سنة 1882.

(261) عُقدت في الثالث من ديسمبر محاكمة لعرابي وستة من زملائه بوزارة الأشغال بقاعة مجلس الشيوخ السابق، ثم حوكمت البقية في يومي 7 و10. وقد سُجِّلت المحاكمة وما سبقها من تحقيقات وإجراءات محاكمات العرابيين في الكتاب الذي ألفه أ. م. برودلي محامي عرابي تحت عنوان: كيف دافعنا عن عرابي وصحبه؟، انظره، ص 277.

(260) ربما لم يُحكم بإعدام المحكومين مخافة تهييج الشعب الذي لم يكن متقبلا فكرة الوجود البريطاني، وربما الخوف من القوى الغربية الأخرى، أو نتيجة الضغط الداخلي الذي تزعمه مستر بلنت ورفاقه.

(259) برادبول (Bradpole): قريةٌ في وادي بريت جنوب غرب دورست تبعد عن بريدبورت (Bridport) بنحو ميلٍ.

(258) بريدبورت (Bridport): مدينةٌ ذات أصولٍ سكسونيةٍ تقع على بعد نحو كيلومترين ونصف من القنال الإنجليزي، جنوب غرب إنجلترا.

(257) ويلفريد سكاون بلنت Mr. Wilfrid S. Blunt (1840 - 1922): كاتبٌ ومستكشفٌ إنجليزيٌّ، عارض السياسات البريطانية، جمعته صداقةٌ كبيرةٌ بعرابي والشيخ محمد عبده، وكان مستشارًا لأول حزبٍ وطنيٍّ، وقد فضح الممارسات الإنجليزية في كتابه الشهير (التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر).

(256) في 11 يونيو 1901 صدر عفو الخديوي عباس عن عرابي وصاحبه علي فهمي، وعاد عرابي أول أكتوبر من العام نفسه.

(255) في تقرير للورد كرومر ضمن الكتاب الأزرق الصادر سنة 1904 - أي بعد نحو 22 سنة من محاكمة العرابيين - أقر بأن الحركة العرابية لم تكن فتنةً عسكريةً كما رُوِّج لها؛ وإنما كانت ثورةً حقيقيةً على سوء الإدارة والحكومة؛ بل يلتمس لها الأعذار في كونها اتخذت مظهرًا عدائيًّا لأوروبا. انظر: الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه، ص 73.

الفصل العاشر

1883

التفتيش الجمركي - العقيد ڤالنتين بيكر - الرائد كاندي - بعثة هيكس باشا الاستكشافية - إبادة جيش هيكس باشا - التعيين مديرًا عامًّا بالإنابة - ظهور الكوليرا - القوات البريطانية تغادر إلى الصحراء - اختفاء الكوليرا - طاحونة دقيق رأس التين - الإتاوة المقترحة - تدخُّل دائرة البلدية - المحاكم المختلطة - نهايةٌ مُرضيةٌ - حفلٌ راقصٌ في قصر رأس التين.

في يناير 1883، أدَّيتُ عملي كالعادة بالتفتيش على الفروع المختلفة لدائرة الجمارك في بورسعيد والسويس والإسماعيلية ودمياط، ووجدتُّ أنه رغم اضطراب الخدمات إلى حدٍّ كبيرٍ؛ إلا أنهم قد استأنفوا روتين عملهم مرةً أخرى.

وأُتيحت لي الفرصة للبقاء في بورسعيد لقليلٍ من الوقت للتحقيق في قضية تهريبٍ معقدةٍ، حيث تمَّ ضبط عدة بالاتٍ من التبغ ومصادرتها من جانب قوات خفر السواحل، ولم يكن هناك شيءٌ على الإطلاق يمكن أن يُثير الرغبة لرؤيته هناك؛ وأهم شيءٍ في بورسعيد يكمن في وقوعها عند مدخل قناة السويس.

بورسعيد التي حصلت على اسمها نسبةً إلى نائب السلطان(285) اختيرت لموقعها المهم حيث تكون المياه العميقة أقرب إلى الساحل عند تلك النقطة أكثر منها عند خليج الفرما(284)، والذي كان من الممكن أن يكون الاختيار الطبيعي لإنشاء الميناء.

ورغم أنها كانت مدينةً تنمو سريعًا إلى حدٍّ ما؛ إلا أنها منسقةٌ بانتظامٍ في الشوارع والساحات، وما بها من الفنادق والمستشفيات والكنائس والمساجد وأحواض السفن وأرصفة الميناء.. إلخ. وكان عدد سكانها في ذلك الوقت نحو عشرة آلاف نسمةٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد فترةٍ وجيزةٍ من تولِّي العقيد ڤالنتين بيكر قيادة قوات الدَّرَك (الشرطة) المصرية؛ عيَّن صديقه القديم الرائد كاندي قائدًا عامًا مساعدًا له، والذي كان سابقًا في فوج الفرسان الملكي السادس عشر، وكان رجلًا معروفًا في المدينة، ويُطلق عليه لقب أو اسم مستعار هو (سُكَّر)، لكونه رجلًا مرحًا ولطيفًا ومفعمًا بالحياة، وعلى استعدادٍ دائمٍ للمزاح الطريف.

على أنه عندما التحق بالخدمة في قوات الدرك المصرية؛ لم يَرق له الزِّيُّ الرسميُّ - الذي كان قد تمَّ تصميمه للتو - ولم يمر وقتٌ طويلٌ حتى اخترعَ زيًّا

خاصًّا به؛ كان مزيجًا من الغرب والشرق، وغطاء الرأس فيه يُشبه عمامة سلاح الفرسان البنغال؛ وبكل المقاييس كان زيًّا فاتنًا طريفًا.

في المرة الأولى التي ظهر فيها الرائد كاندي في هذا الزيِّ تسبَّب في ضجةٍ كبيرةٍ؛ وكان حينها في زيارةٍ رسميةٍ لقوات الدرك بالإسكندرية، ويومها تناول الغداءَ في منزلنا، وبعد ذلك رافَقَنا إلى حفل زفافٍ؛ حيث كان موضع اهتمامٍ كبيرٍ، فقد ظنُّوا في البداية أنه ضابطٌ هنديٌّ؛ إلى أن قدَّمتُه إلى صاحب الحفل وزوجته وكذلك إلى العروسين؛ لكن اهتمامه كان مُنصبًّا أكثر على العدد الكبير من النساء الجميلات بين الضيوف، وبالتأكيد كان يومًا سعيدًا بالنسبة إليه، لو اعتبرنا أنَّ هدفه أن يكون محور اهتمام الناس، وأيضًا عندما غادرنا حفل الزفاف وذهبنا في جولةٍ على الكورنيش كان موضع إعجابٍ كبيرٍ، وكذلك في نادي محمد علي حيث قُدِّم إلى معظم الأعضاء الحاضرين هناك.

لم يمكث كاندي طويلًا في الخدمة المصرية، وعاد بعد فترةٍ وجيزةٍ إلى لندن، حيث اعتدتُّ أن ألتقي به من حينٍ لآخر بعد سنواتٍ عدَّةٍ من مغادرته مصر، وكنتُ أجده بشكلٍ عامٍّ في الأماكن التي توجد فيها سيداتٌ جميلاتٌ يرتدين ملابس أنيقةً، ويُصرُّ دومًا على أن أتناول الغداء معه في أحد نواديه المفضلة، وكانت لديه دومًا بعض القصص الرائعة ليحكيها، ومن المفيد أن نذكر أن ابنته هي دوقة نيوكاسل الحالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في فبراير(283) قرَّرت الحكومة، بعد تلقيها أنباء خطيرةً للغاية من السودان، إرسال قوةٍ مصريةٍ لإيقاف تقدُّم المهدي، ولم أستطع استيعاب كيف كانوا يأملون في وقف تقدُّمه؛ عندما يواجهونه بمثل هذه القوة رغم التقارير المقلقة عن نجاحاته التي حققها.

نعم كانت قوةً ضخمةً إلى حدٍّ ما؛ لكنها أضخم بكثيرٍ من أن تستطيع التحرُّك بسرعةٍ في بلدٍ خالٍ تقريبًا من الماء، وتتألَّف من رجالٍ ليسوا نِدًّا على الإطلاق لأتباع المهدي المتعصِّبين، أمَّا الضبَّاط - الذين كان بعضهم من الأوروبيين - فلا يستطيعون أن يُقدِّموا شيئًا يُذكر مع هذه القوات التي من بينها عدد من جنود عرابي الذين ثبت من قبل أنه لا يُمكن الاعتماد عليهم في الميدان، وقد تولَّى هيكس باشا القيادة، وهو رجلٌ إنجليزيٌّ أدَّى أعمالًا كبيرةً في مواجهة التمرُّد الهنديِّ وفي الحملة الحبشية، كما كان حاضرًا عند الاستيلاء على بلدية المجدل.

وكما يعلم الجميع؛ قد أُبيدت الحملة بالكامل، وفقدتُّ فيها عددًا من الأصدقاء: أودونوفان من (صحيفة الديلي نيوز)؛ وفرانك فيزيتيلي الرسام؛ وإدوين إيفانز الذي كان ضمن طاقم العمل مترجمًا، ومع ذلك نجا العقيدان: كولبورن

وكويتلوغون من المذبحة؛ أحدهما بسبب المرض، والآخر كان قد تُرِكَ في الخرطوم كحاكمٍ لها بالإنابة، وكنتُ أنا وأولئك الأصدقاء قد تناولنا عشاء وداعٍ في فندق شيبردٍ قبل مغادرتهم إلى الجبهة، وذهبوا إلى الحرب وهم في حالةٍ معنويةٍ جيدةٍ؛ ولُحسن الحظِّ لم يعرف هؤلاء الرفاق المساكين ما يُخبِّئه لهم المستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمَّا عن تفاصيل إبادة جيش هيكس باشا؛ فقد حصل عليها الليفتانت كولونيل كولبورن من عبدٍ صبيٍّ كان في خدمة السير ريدفرز بولر، وقد قدَّم دليلًا على أنه كان موجودًا بالفعل في الاشتباك الذي قُتل فيه جميع الضباط، والسيد أودونوفان، المراسل الحربي لصحيفة (ديلي نيوز)، والسيد فرانك فيزيتيلي الرسام، وأعلن كولبورن أن لديه كل الدلائل التي تدفعه إلى تصديق القصة التي رواها الفتى، والتي سرد له وقائعها على النحو الآتي:

«كنت عبدًا لمحمد بك، وهو ضابطٌ في جيش الجنرال هيكس، سار الجيش من أم درمان والخرطوم على طول ضفاف النيل الأزرق. ولم نشهد أي معارضةٍ على الإطلاق على الطريق إلى الدويم(282) رغم أننا كنا نتخذ الجواسيس من وقت لآخر، وقد رأينا جماعات من البَقَّارة(281) تراقبنا من على بُعد.. وفي الليل سمعنا صوت طبولهم في كل مكان، ورأينا نيران حراساتهم؛ لكننا لم نتعرَّض للهجوم منهم قط، وكان معنا عددٌ هائلٌ من الإبل وكثير من المؤن، وكانت هناك الأفواج نفسها التي سارت تحت قيادتك (يقصد الكولونيل كولبورن) من قلعة كاما، وكنت أنا معهم أيضًا، عندما انضم إليكم هيكس باشا ومعه مدافع النوردفيلد التي جلبها من الباخرة، وأتذكَّرك أنت والضباط الإنجليز الآخرين عندما تعرضنا للهجوم في ساحةٍ قريبةٍ من جزيرة آبا، عندما هزمْنا البقارة وفرَّقناهم بعيدًا عنَّا.

لقد كنتَ أنت وهيكس باشا والضباط الإنجليز الآخرون على ظهور الخيل خارج الساحة عندما ظهر العرب لأول مرةٍ، ثم دخلتَ أنت إلى الساحة، وانتشرتم جميعًا في الأنحاء تبحثون عن العرب». (كانت هذه ردود الصبي على الأسئلة التي طُرحت عليه لاختبار دقة معلوماته؛ وقد كان ذلك صحيحًا، فنظرًا لأنه لم يكن هناك سلاح فرسان؛ كان على جميع ضباط هيكس باشا الإنجليز عمل دوريات خارج الساحة، التي كان جيش هيكس يتحرَّك فيها بصفةٍ دائمةٍ).

وبجانب الجيش القديم الذي كنتُ معه، كان هناك كثيرون ممن جاءوا من القاهرة، وجاءت كتيبتان من السود كانتا قد تُركتا سابقًا في الخرطوم وكاما، كما كان معنا خمسمائةٌ من الفرسان في مسيرتنا إلى الدويم.

كان جيشًا كبيرًا؛ وكان الجميع واثقين من النجاح، وأيقنوا أنهم سيصلون إلى الأُبِيضْ ويهزمون محمد أحمد(280)، لقد كانت هناك كثيرٌ من الموسيقى أيضًا؛ وعزفت الفرق الموسيقية في المساء.

وبقينا في الدويم بعض الوقت في انتظار المؤن حتى جاء بها ضابطان إنجليزيان في باخرةٍ من مدينة بربر(279)، وهو الأمر الذي أخَّرنا لفترةٍ طويلةٍ، وكان ذلك مؤسفًا.. مؤسفًا جدًا؛ لأن موسم الأمطار كان قد انتهى بالفعل، وسرعان ما جفَّت الآبار والبرك كما حدث في كردفان(278)، وكان الكابتن ماسي والرائد فيرنر هما الضابطين اللذين قاما بجلب المؤن المتبقية من بربر.

وفي النهاية سرنا من الدويم حتى شات، وتوقَّفنا هنا يومًا كاملًا، وكانت أول مسيرةٍ لنا في الداخل، وكنَّا على وشك الابتعاد عن العالم؛ وأُعطيت فرصةٌ أخيرةٌ للضباط لكي يكتبوا لأصدقائهم، وفي هذا المكان قال سيدي: إن هيكس باشا كتب للمرة الأخيرة، ولن يستطيع الكتابة مرةً أخرى حتى نصل إلى الأَبَيِّض، أو ربما حتى نعود إلى نهر النيل، وأخبر سيدي الضباطَ مَن حوله أنه قد تقرَّر ألا يحدث أي اتصال مع نهر النيل.

كان الوقت فجرًا عندما خرجنا من شات، وانغمسنا في الصحراء بعد أن أدرنا ظهورنا للنيل حتى إن الجزء الأكبر من جنودنا لم يعد يراه.

كانوا قد بدأوا مسيرتهم الأخيرة.. المسيرة التي لن يعودوا منها.. لن يستقبلوا شروق الشمس بعد الآن، وبعد أن ولَّوا ظهورهم شطر الشرق؛ كانت كل خطوةٍ يخطونها على الرمال تقودهم نحو الغروب.. غروب شمس حياتهم.

بحلول ذلك الوقت كنا نرى العدو من على بُعدٍ في مجموعات متناثرة أمامنا وعلى أجنحة الجيش، ثم أدركنا أنهم أيضًا كانوا يتجمَّعون خلفنا؛ ولكن عندما أُرسل الفرسان لمواجهتهم؛ اختفوا مثل ضبابٍ بدَّدته شمس الصباح؛ لكنهم كانوا يتعقَّبون خطواتنا مثلما تفعل الوحوش البرية مع فرائسها.. ببطءٍ ولكن بثباتٍ.. وكنا قد اعتدنا على قصفهم وإطلاق مدافع الكروب عليهم.

من شات ذهبنا إلى آبار راغشة، وكنا دائمًا نُبقي على تشكيلي مشاة مربعين على مسافة مسيرة يوم واحدٍ.. وعندما غادر تشكيل هيكس باشا المكون من خمسة آلاف رجلٍ ذلك المكان، كان تشكيل علي الدين باشا المكون من ستة آلاف وخمسمائة جنديٍّ قد احتلَّ مكانه، وبحلول ذلك الوقت كُنَّا قد سِرْنا إلى الغومة، ومنها إلى الأجانة.

كان العدو يطوف حولنا باستمرارٍ من مسافةٍ بعيدةٍ، وعندما يلاحقهم الفرسان ينسحبون.. كان يُترك دائمًا مدخلٌ في التشكيل المربع، ليدخل منه

الفرسان عائدين إلى القوة في حال إذا هجم العدو بقوةٍ كبيرةٍ.. ومن الأجانة كانت المسيرة التالية إلى دار الجمل ثم إلى الأرحكية، وبعد توقُّفٍ في المكان لمدة يومٍ؛ سرنا إلى حِلة الماما (سكن الماما)، ومن هناك إلى ناغير، ومن ناغير إلى حلة الضباط. ووجدنا الماء في كل مكانٍ من هذه الأماكن.

كان العدو يتزايد يومًا بعد يومٍ، وكنا نتساءل دومًا: لماذا لا يهاجموننا؟! وكنا قد وصلنا الآن إلى منطقة أشجارٍ كثيفةٍ، وتنتشر أدغال من شجيرات السنط في كل مكانٍ.

بعد فترةٍ وصلنا إلى بحيرة الرهد، وهي مستنقعٌ كبيرٌ به بِرَكٌ من المياه الدائمة الآسنة.. وتقع على أرضٍ مرتفعةٍ ذات صخورٍ وتلالٍ.. وكنا نأمل أن تنضَّم إلينا قبائل التكلة هنا - وهذا هو سبب قدومنا إلى هذا الطريق - لكنهم كانوا خائفين من العرب.

لا أعتقد أن الرحلة من الأُبَيِّض إلى بحيرة الرهد تستغرق أكثر من يومين ونصف اليوم، وقد بنى هيكس باشا حصنًا هنا، ووضع عليه أربعة مدافع كروب وتسعة عشر مدفعًا صغيرًا. وحصلنا في هذا المكان على كمياتٍ كثيرةٍ من الفاصوليا والبطيخ، وكل ما نرغب فيه من الماء، واسترحنا ثلاثة أيامٍ، كانت هذه استراحتنا الأخيرة، حيث كان العدو يُطوِّقنا تدريجيًا حتى هنا، وقرَّر هيكس باشا أن يتقدم إلى الأُبَيِّض على الفور، وتم إصدار الأمر بالتقدُّم على الفور، ورُفِعت جميع الخيام عند الفجر.

ولم نكد نتقدم ساعةً واحدةً حتى بدأ العدو بإطلاق النار علينا لأول مرة؛ ولكن من مسافةٍ بعيدةٍ؛ فلم يُصب أحدٌ، ولكن جُرحت بعض الإبل، وتوقفنا لقضاء الليل، وحصَّنا أنفسنا بعمل متاريس ترابيةٍ، وعند حلول الظلام كانت نيران العدو تتراقص في كل مكانٍ، وبقينا في هذا المكان لمدة يومين؛ ووجدنا بعض الماء؛ ولكن كان علينا التنقيب عنه.

غادرنا عند شروق الشمس وسرنا إلى شيكان؛ وهنا توقَّفنا مرةً أخرى لمدة يومين، وذلك لأننا حُوصرنا من جانب أعدائنا، وبدأت الإبل تسقط من جرَّاء إطلاق النار، وبدأ تساقط القتلى والجرحي بين الجنود.

سرنا من شيكان حتى أصبحت الشمس في منتصف السماء، وتوقفنا لأن العرب كانوا في كل مكانٍ يُطلقون النار من الأدغال.

وفي اليوم الثالث، وفي طريقنا إلى بيركي (تُلفظ بيركيت التركية وتعني: بركة الماء) خرج سلاح الفرسان من التشكيل المربع وواجهوا خيالة العدو، وأجبروهم على الفرار، ثم عاد فرساننا ومعهم عدة خيول مأسورة.. كان ذلك باكرًا عند طلوع الشمس، واستمر تشكيلنا في التقدُّم.

بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، وكانت الشمس لا تزال مبكرة؛ سمعنا صوت: «ووووووه» (هنا كان الصبي يحاول أن يعطي صورة عن ركض الخيول)، وعندها رأينا في كل مكانٍ حولنا عددًا لا يُحصى من العرب كأن العالم كله أحاط بنا حرفيًّا، كانت الرايات تُرفرف والرماح تلمع في ضوء الشمس فوق الأدغال.

توقَّف تشكيلنا، وأطلقنا النار وقتلنا كثيرين؛ لكننا أيضًا فقدنا كثيرين.. وكان هناك عددٌ كبيرٌ جدًا من الأشجار الكثيفة التي على مدافع كروب أن تقصفها؛ لكن المدافع الرشاشة كانت تعمل ليلًا ونهارًا.

وعندما استأنفنا المسير في صباح اليوم التالي؛ رأيتُ عربًا يرقدون في ستة أكوامٍ، قُتلوا جميعًا بهذه المدافع، وقبل أن نصل إلى شاهين، كان معنا تسعة إنجليزٍ إلى جانب هيكس باشا.

في البداية انبطح المصريون للاختباء؛ لكن الجنرال هيكس أمر ضباطه الإنجليز بالرجوع وإجبارهم على الوقوف؛ وقُتل بعض الإنجليز أثناء قيامهم بذلك، وأخرج هيكس دفتر ملاحظاته من جيبه وكتب أسماءهم والوقت الذي قُتلوا فيه وكيفية حدوث ذلك، وفي الظهيرة دعاهم هيكس باشا للتجمُّع لمعرفة مَن منهم بقي على قيد الحياة.

انتظرنا تشكيل عليِّ الدين فانضمَّ إلينا، ثم في صبيحة اليوم التالي سرنا جميعًا معًا حتى وصلنا إلى منطقةٍ بها عددٌ من الأشجار الكبيرة، وكان يمكن رؤية أعدادٍ هائلةٍ من العدو بواسطة نظَّارات الميدان.. وأعلن الرجال أنهم يُفضِّلون أن يشقوا طريقهم مقاتلين للوصول إلى الماء على الوقوف مكتوفي الأيدي في التشكيل المربع، وهكذا رضخ هيكس لهذه الاحتجاجات، وأمر بالاستمرار في السير بالتشكيل.

لم يكن وقت الظهر قد دخل بعد، ولم نكن بعيدين عن القيس إذ كان من الممكن رؤيتها، وكان من المفترض أن نكون هناك بحلول الظهر، وكانت هناك وفرةٌ من المياه (أعتقد أن هذا المكان هو المكتوب في خرائطنا باسم ميلبيس).

وتشكَّل ضلع المؤخرة لمربعنا من كتيبتين من السود: إحداهما جُمعت في سنار، والأخرى من مديرية سنقيل، وقادنا الدليل بعيدًا عن الطريق إلى مكانٍ يُسمَّى كيب الخابر، بدلًا من نقلنا مباشرة إلى القيس.

كان الظهر قد حلَّ الآن، وفي هذا الوقت تقريبًا، حدث اندفاعٌ رهيبٌ ومفاجئٌ، واجتياحٌ مثل سيلٍ نازلٍ من الجبل، إذْ اقتحم العرب قوتنا الأمامية بأعدادٍ هائلةٍ، واكتُسحت المقدمة مثل القش في مواجهة الريح.

وعندما شاهدتْ جوانب التشكيل الأخرى هذا الاجتياح تحوَّلت نحو الداخل، وبدأت في إطلاقِ النار على كلٍّ من العرب الذين يندفعون داخلين المربع، وعلى بعضهم بعضًا ووقعتْ مذبحةٌ مروِّعةٌ، وغادر هيكس باشا ومعه عددٌ قليلٌ جدًّا من الضُبَّاط الإنجليز؛ بعد أن فقدوا كلَّ أملٍ في استعادة النظام، وحثُّوا خيولهم وخرجوا من وسط الكتلة الفوضوية من الجرحى والقتلى والمحتضِّرين.

وأطلق هؤلاء الضبَّاط النار من مسدساتهم، وأفسحوا الطريق لأنفسهم، حتى نفدت كل ذخيرتهم، بعد أن قتلوا كثيرين وأصبحوا خارج الكتلة في مكانٍ مفتوحٍ، ثم استلوا سيوفهم وقاتلوا حتى سقطوا صرعى.

بقي هيكس باشا وحده، وكان العرب مرتعبين منه؛ فقد كانوا يقولون إنه لم يضرب بسيفه رجلًا قط دون أن يقتله، ولذا أطلقوا عليه اسم: «أبو درع تقال» (أي ثقيل الدروع)، وقد أبقاهم جميعًا بعيدًا؛ لكنه تلقَّى ضربةً على معصمه بسيفٍ، وسقط منه سيفه، ثم خرَّ صريعًا.

كنتُ أنا ملطَّخًا بالدماء، ودخلتُ تحت الجثث وتظاهرتُ بالموت، بينما استمرَّ النضال والصراخ والضجيج والقتال والذبح، وظلَّت الحال على ذلك لمدة ثلاث ساعاتٍ، وأحسُّوا بي ووجدوا أنني على قيد الحياة؛ فنخزوني بحربةٍ وأخذوني سجينًا، وما سأخبرُكم به الآن هو مما سمعتُهُ:

كان الجانب الخلفيُّ للمربع قد بقي وحده في وضعٍ جيدٍ، بينما كان كل شيءٍ آخر في حالة فوضى، وهذا الجانب كان يتألَّف من قوات السود.

سار هؤلاء بعيدًا وشكَّلوا مربعًا منهم، ولم يستطع العرب كسر ذلك المربع، فتركوهم وذهبوا لينهبوا ويذبحوا الباقين، وسار السود حتى غروب الشمس، وهدأ الوضع بالنسبة إليهم (أوضح المتحدث أنهم بعد ذلك قد تم التغلُّب عليهم وقتلهم جميعًا).

ظلَّ محمد أحمد بعيدًا وقت وقوع المعركة، وقال لأمراء القوات والدراويش: «تقدَّموا إلى الأمام وهاجِموا العدو؛ وسأبقى هنا أدعو الله أن يوفقكم.

وقد جاء بعد أن انتهى كل شيءٍ وعرضوا عليه جثة هيكس باشا، وسمعتُ أن محمد أحمد قد وضع كل الغنيمة في حفرةٍ كبيرةٍ، وأمر بأن يُسلِّموه كل شيءٍ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يونيو تم تعييني مرةً أخرى مديرًا عامًا للجمارك بالإنابة، أثناء غياب المدير في إجازةٍ، وفي الشهر نفسه حدث تفشٍّ خطيرٌ للكوليرا في بورسعيد

ودمياط والمنصورة، ونظرًا لأني مررتُ بالتجربة من قبل وعرفتُ السرعة التي تنتقل بها الكوليرا؛ فقد أرسلتُ زوجتي وطفلي على الفور إلى أوروبا.

وكنتُ محظوظًا في ذلك؛ لأن الوباء انتشر في الإسكندرية والقاهرة أيضًا، وسقط مئات الوفيات يوميًّا، وغطى ضبابٌ أصفرُ كثيفٌ القاهرة لأكثر من أسبوع، حتى إن الطيور آكلة الجيف وكلاب الشوارع هجرت أماكنها المعتادة، وأضيئت المشاعل التي تُغذَّى بالقطران في الشوارع على أملٍ أن تعمل على تنقية الجو، ونُقلت جميع القوات البريطانية من المدينة إلى أماكن صحية أكثر، ومع حلول منتصف سبتمبر اختفى الوباء، وعادت الأمور إلى طبيعتها مع إزالة قيود الحجر الصحي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قد ذكرتُ سابقًا حادثة عثور البحارة على الماء في قطعة الأرض الخاصة بي قرب الميناء الشرقي بالإسكندرية، ولم أكن أظنُّ في ذلك الوقت أنني سأدخل بسببه في تعقيداتٍ قانونيةٍ مع المسئولين الحكوميين، لكن ذلك ما حدث؛ فمن أجل الحصول على طاقةٍ لضخ المياه وضعنا مُحرِّكًا لهذا الغرض، وكان هذا موضع تقديرٍ وترحيبٍ حارٍّ من جانب العرب قاطني الحي، لدرجة أنني في كلِّ مرةٍ أزور فيها المكان؛ كان يتم الترحيب بي بالدعوات والتبريكات؛ لأن إمدادات المياه العذبة كانت نعمةً كبيرةً.

لكن بعد أن رأت النساء العربيات روعة الحصول على الماء في هذا المكان، بدأن - بمنطق أنثويٍّ خالصٍ - في طلب المزيد، وتعالت صيحاتهن: «لقد منحتنا الماء لنشرب؛ فلماذا لا تساعدنا في غذائنا أيضًا وتطحن لنا الذرة الخاصة بنا في الوقت نفسه؟»، وأظنهن اتفقن مع رجالهن على ذلك؛ لأنني تلقَّيتُ في النهاية عريضةً موقعةً من جميع العرب في الحي، تدعوني إلى تركيب طاحونة دقيقٍ في المكان.

لكن اللوائح الحالية تحظر إقامة أي طاحونةٍ تعمل بالطاقة البخارية في ذلك الحي، وعلمتُ أنَّ عددًا من اليونانيين قد سعوا - عن طريق الحيلة أو الإغواء - في الحصول على تصريح بذلك، وعرضوا ما يصل إلى ألفي جنيهٍ إسترلينيٍّ مقابل الترخيص لهم.

فكَّرتُ في هذا الأمر بحذرٍ شديدٍ، وقرَّرتُ أخيرًا أن أضع حجريْ رَحَىً يتم إدارتهما بواسطة المُحرِّك نفسه الذي يضخ الماء، وقد فعلتُ هذا وأنشأتُ مبنىً خشبيًّا بدائيًّا لتغطية هذه الآلية، ثم أخبرتُ العرب بأنه يُمكنهم طحن حبوب الذرة مجَّانًا لمدة ثلاثة أشهر.

في البداية لم يُصدِّقوا أنَّ هذه الآلية يمكن أن تعمل بشكلٍ صحيحٍ؛ ولكن عندما جرَّبوها وجدوها ابتكارًا ماتعًا استفادوا منه جميعًا، وانتشر الخبر حتى

بلغ الصحف العربية التي بدأت تتحدَّث عني بوصفي أحد المُحسنين، ثم وصل الخبر إلى آذان الخديوي وشكر لي هو ورئيس الوزراء علانيةً.

كانت طاحونتي هي الوحيدة في المكان؛ ولذلك عندما انقضت الأشهر الثلاثة؛ بدأ العرب الذين كانوا سعداء جدًا بوجود طاحونةٍ قريبةٍ منهم بالخوف من العودة إلى إرسال الذرة الخاصة بهم إلى الجانب الآخر من المدينة لطحنها، وأقلقهم هذا الاحتمال تمامًا، لذا أرسلوا إليَّ التماسًا آخر، يتوسَّلون إليَّ فيه أن أُبقي على طاحونتي مفتوحةً، والسماح لهم بدفع الأسعار المعتادة للطحن.

بالطبع كان هذا نزولًا فظيعًا من سماء الإحسان؛ ولكن بعد كل هذه الفضائل التي أُسبغت عليَّ، والتي لم أفترض وجودها في نفسي قط، ولأكون صريحًا تمامًا، أعترف بأنني كنتُ خبيثًا لدرجة توقُّع طلبهم هذا حين كنتُ أُقيمُ حجر الرَّحى في البداية.

وبصفتي مسئولًا حكوميًّا؛ فإنني أُقرُّ بأنه كان يجب عليَّ توقُّع ذلك منهم؛ ولكن لم يكن هناك بالفعل أيُّ سببٍ يُمكن أن يُقنعني بعدم استخدام القوة المُحرِّكة التي أمتلكها لطحن الذرة وكذلك ضخِّ المياه؛ فقد كان كلاهما مفيدًا للعرب؛ لذلك لم أرْ أيَّ ضررٍ في الاستفادة منهما أنا أيضًا.

وبناءً على ذلك أخبرتُ مقدِّمي الالتماسات بأنني سأُنفِّذ رغبتهم، وأعددتُّ الترتيبات اللازمة للتنفيذ، ووظفتُ اثنين من الكَتَبة الأقباط المحليين، وكنتُ مقتنعًا تمامًا أنه بمجرد أن يبدأ العمل؛ فإنَّ العائد سيكون جيدًا للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجحت الطاحونة بشكلٍ يفوق توقعاتي، وكانت جميع الأطراف المعنيَّة بها سعداء؛ لكن ذلك كان خلال الطقس الجاف فحسب؛ فبمجرد دخول موسم الأمطار؛ بدأ المبنى الخشبي يتسرَّب إليه الماء بشكلٍ مُروِّعٍ، مما أدَّى بالتأكيد إلى ضيق الموجودين داخله وسخطهم؛ ولأنَّ الماء كان يفسد الطحين؛ فلم تكن ثمة فائدة من الترقيع والترميم فى المبنى؛ لأنه كان بالكاد متماسكًا، ولا يُجدي أيُّ مجهودٍ في إصلاحه؛ لذلك قررتُ استبداله بمبنىً من الحجر؛ لكن التفكير في هذا أسهل من تنفيذه؛ حيث لا يوجد عامل بناءٍ محليٌّ سيقبل بالعمل فيه ما لم يكن بإمكاني استخراج رخصة (إذن حكومي) للبناء، وكنت مدركًا تمامًا أنني لن أستطيع الحصول على هذه الرخصة أبدًا، وفي النهاية ذهبتُ إلى عامل بناءٍ إيطاليٍّ ولم أجد صعوبةً في إقناعه بفعل ما أُريد.

ووافقتُ دون جدالٍ على السعر الزائد الذي طلبه، وشيَّد أربعة جدرانٍ حجريةٍ لها سقفٌ من الحديد المموَّج داخل المبنى الخشبي الذي يغطِّي مساحةً أكبر بكثيرٍ من المطلوب للطاحونة، وتقدَّم العمل بسرعةٍ؛ ونظرًا لأنه كان من

مصلحة عامل البناء ألا يعرف الناس ما يجري، فقد أبقى العمل سريًّا قدر الإمكان.

كنتُ أزورُ المكان كثيرًا، وفي كل مرةٍ أشعر أنَّ أمرًا سيصل من السلطات يطلب مني إيقاف العمل في الحال؛ لكن لم تأت تلك التعليمات قط، وتم الانتهاء من البناء أخيرًا، وبصورةٍ جيدةٍ جدًا، فقد قام البَنَّاء - عبر توظيف عددٍ إضافيٍّ من الرجال - بإزالة المبنى الخشبي الخارجي في ليلةٍ واحدةٍ، تاركًا المبنى الحجري ظاهرًا للعيان، وبما أن العرب لم يكونوا يعرفون شيئًا عما يجري؛ فإن هذا التحوُّل المفاجئ كان مصدر دهشةٍ لهم، ومضربًا للأمثال خلال الأيام التالية.

لقد عشت طويلًا في مصر، وبما يكفي كي أُدرك أن أفعالي يمكن أن تصبح مزعجةً لبعض المصريين الذين يشغلون مناصب رسميةً عاليةً، وانتظرت لأرى الخطوة الأولى التي سيتخذونها ضدي، ومَن الذي سيتخذها، ولم يمر وقتٌ طويلٌ حتى انتبهوا لأمري، فحالما انتهيتُ من البناء الحجري زارني أحد موظفي المحافظ، وأخبرني - بعد السلام المعتاد - أنه جاء لرؤيتي في مسألةٍ شخصيةٍ بصورةٍ بحتةٍ، وأنه يودُّ أن أؤكد له أنَّ محادثتنا ستُكون طيَّ الكتمان تمامًا، ثم بدأ بتهنئتي بحرارةٍ على بناء طاحونة دقيقٍ في هذا المكان، لكنني بالطبع كنت على درايةٍ بأني قد تجاوزت اللوائح، وأن السلطات لها الحق الكامل في أن تأمرني بإغلاق الطاحونة وسحبِ الآلات في غضون أربعٍ وعشرين ساعةً.

أجبته بأنني كنتُ مدركًا لهذه الحقيقة تمامًا، وأنني أودُّ أن أعرف هوية الذين جاء نيابةً عنهم، ولماذا. ولم أكن أحتاج إلى السؤال عن السبب؛ لأنني كنتُ أعرفه جيدًا؛ لكنني أردتُّ سماع ذلك من شفتيه.

وطلب مني أن أؤكد له مرةً أخرى أن ما سيقوله يجب أن يكون طيَّ الكتمان، ثم أشار إلى أنَّ مهمته وديةٌ ونيابةً عن (فلان) الذي كنتُ أعرفه جيدًا بصفةٍ شخصيةٍ، وكان يشغل منصبًا رفيعًا جدًا في الحكومة في ذلك الوقت، وكنتُ أعلم أيضًا أن باستطاعته - إن شاء - خلق صعوبات لا نهاية لها؛ لذلك لم أقل شيئًا، وانتظرتُ المزيد من التفاصيل، وأشار إلى أن (فلان) هذا يتوق كثيرًا إلى أن آخذ ابنه شريكًا معي في الطاحونة.

كان هذا، بالطبع، مجرد محاولةً لابتزازي بطريقةٍ غير مباشرةٍ، وهي عادةٌ شرقيةٌ كان من المتوقَّع أن أقبل بذلك لإرضاء الأب، أو إغلاق الطاحونة، قلتُ له إنني سأفكِّر في الأمر وأخبره بقراري.

وقد فكَّرتُ في الأمر بالفعل، ولم أردَّ عليه بأيِّ شيءٍ لبضعة أسابيع؛ ولكن في غضون ذلك ذهبتُ إلى دائرة البلدية، وهي دائرة حكومية يتم فيها تقدير

الضرائب والعشور على ممتلكات المصريين ومنقولاتهم.

وأخبرتُ كبير الموظَّفين العرب هناك - وكنت أعرفه من قبل - بأنه نظرًا لكوني مالكًا لطاحونة دقيقٍ تم إنشاؤها من أجل الأهالي المصريين، وكل ما تستقبله من حبوبٍ للطحن تأتي بالكامل من السكان المصريين، وأنني في الوقت نفسه مسئولٌ حكوميٌّ مصريٌّ، فقد اعتقدتُّ أن من الصواب أن تُفرض الضرائب على طاحونة الدقيق الخاصة بي مثلها مثل جميع المطاحن المحلية (كان أصحاب الأملاك الأوروبيون معفيين من الضرائب) فبدت على الرجل الدهشة البالغة، وأشار إلى أنهم لا يستطيعون فرض ضرائب عليَّ لأنني أوروبيٌّ.

فقلتُ له إنني أرغب في أن أُعامَل بصفتي أحد أصحاب الأملاك من أهل البلاد، ومازحتُهُ بشأن عدم رغبته في استلام ضرائبي؛ فابتسم ابتسامةً عريضةً وقال: «إذا كنت حريصًا جدًا على دفع الضرائب؛ فلن أقف في طريقك تحت أي اعتبار»، وعندها طلبتُ منه إرسال أحد مفتشيه لتقييم المصنع، وأن يُخبرني بمبلغ الضريبة السنوية وسأدفعها في الحال، ولم يضيع الرجل أي وقتٍ في استلام المال، وأخذتُ الإيصال ووضعتُهُ محفوظًا في خزانتي، حتى أتأكد من عدم فقدانه، ثم انتظرتُ مرةً أخرى؛ لأن كل ما كنتُ أرغب فيه الآن هو كسب الوقت.

وجاء السيد الموظف المصري مرةً أخرى؛ واستقبلتُه بأدبٍ، وقدَّمتُ له القهوة والسجائر، وبعد تبادل بضع تعليقاتٍ عامة، قلتُ له إنني فكَّرتُ بعنايةٍ في الاقتراح الذي قدَّمه لي في المقابلة السابقة، وأعتقد أنه من الممكن أن نتوصَّل إلى اتفاقٍ ببعض الترتيبات الودية، وأضاءت الابتسامة وجهه عندما طلبتُ منه أن يرسل البك الشاب لرؤيتي في الأسبوع التالي لكي أتحدَّث معه في الأمر، فتركني وذهب سعيدًا ومرتاحًا، وواثقًا في ذهنه تمامًا أن مهمته قد نجحت، ولا شك أنه قد خمَّن مكافأته التي سينالها؛ قبل أن تصبح في جيبه.

عندما جاء البك الشاب، تصادف أنني كنت مشغولًا في اجتماع للجنةٍ ما، وأرسلتُ إليه رسالة أن يأتي في الأسبوع التالي، وعندما التقيتُ به، جعلته يعتقد أن فكرة وجوده في شراكةٍ معي هي أمرٌ مبهجٌ؛ ولكن أودُّ أن أعرف الحصة التي يقترح أن يأخذها؛ فقال إنه يعتقد أن والده سيرغب منه أن يأخذ النصف؛ لأنه يعيش بالقرب من الطاحونة، وبإمكانه القدوم إليها في جميع أوقات اليوم، والإشراف على كل شيءٍ، والتأكد من عدم تعرضنا للسرقة.

صدمتني حلاوة العبارة الأخيرة؛ لأن موضوعه بالأساس كان قائمًا على نهبي بنفسه، وأجبته بأنني أُقدِّر حقيقة أن مساعدته لي ستكون نفيسةً جدًا؛ ولكنَّه بالتأكيد يُدرك أنني قد أنفقتُ مبلغًا محدَّدًا على الأرض والمباني والآلات وما

إلى ذلك؛ فهل في اعتقاده أن والده سيدفع نصف المبلغ الذي أنفقته؟ وفي هذه الحالة أظنُّ أننا سنصبح قادرين على ترتيب أن يأخذ نصف أرباح الطاحونة.

كنتُ أقول هذا باطمئنانٍ تامٍّ؛ لأنني أعلم أن والده لا ينوي دفع أيِّ شيءٍ.. وبدا البك مرتبكًا إلى حدٍّ ما من سؤالي، وأخيرًا قرَّر أنه يجب عليه التحدُّث إلى والده قبل أن يقول أيَّ شيءٍ آخر، ثم غادر المكان.

وبعد بضعة أيامٍ، ظهر مرةً أخرى ليُخبرني بأن والده ليس لديه أيُّ نيَّةٍ لدفع أموال مقابل نصف الحصة؛ ولكن من مصلحتي أن أُفكِّر في الأمر بعنايةٍ شديدةٍ، وليس معنى ذلك - بالطبع - أن لديه أدنى رغبةٍ في الضغط عليَّ بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

هذا التهديد المستتر لم يفاجئني إطلاقًا؛ فقد رأيتُ كثيرًا من الأساليب الشرقية، وعرفتُ أن الطريقة الوحيدة هي محاربتها بأسلحةٍ مماثلةٍ؛ لذلك مع كل زيارةٍ بدا لي أنني أخفض سقف مطالبي، فلم أعد أُصرُّ على دفع النصف ولا حتى الربع؛ لكن عندما اعتقدتُّ أنه قد مرَّ قَدْرٌ كافٍ من الوقت، سألته صراحةً عن المبلغ الذي سيدفعه.

وواصل زياراته لي لبضعة أسابيع أخرى، إلى أن وصل بعدها إلى استنتاج مفاده أنه ليس لدي أدنى نيةٍ في إشراكه معي، ولم يعد لزيارتي بعد ذلك؛ لكن بعد أيام قليلة تلقَّيتُ إخطارًا رسميًّا من الحكومة يفيد بأنني أنشأت طاحونة دقيقٍ في حي رأس التين بالمخالفة للوائح، وطُلب مني إيقاف تشغيل الطاحونة وسحب المحرك في غضون ثمانٍ وأربعين ساعةً، وإلا فإنَّ الحكومة ستقيم دعوى ضدي في المحاكم المختلطة.

كانت أساليب (فلان) بك غاية في الوضوح لدرجة أنني ضحكتُ بحرارةٍ عندما تلقَّيتُ الإخطار الرسمي، وأخذتُه في الحال إلى محامٍ إيطاليٍّ ماهرٍ للغاية كنت أعرفه وشرحتُ له الأمور، وأعطيته أوفى التفاصيل، وتركت القضية بين يديه، ولم أعط أيَّ اعتبارٍ للحظر الذي أرسلوه إليَّ، واستمرَّت الطاحونة في العمل كالعادة، ومع ذلك اعتدتُّ رؤية البك الشاب يزورني باستمرار؛ وأظنَّ أنه كان يأمل أن أطلب خدمات والده لمساعدتي في مشكلة الإخطار، وأن أقبل بالسعر الذي يطلبه، ولا أعرف على وجه اليقين سبب زياراته؛ ولكن أفترض أن هذا ما كان يفكر فيه.

لم أستطع الحضور في المحاكم المختلطة عندما عُرضت القضية للفصل فيها؛ لكنني سمعتُ أن المحاكمة انتهت بضحكاتٍ مجلجلةٍ بعد أن شرح المحامي الخاص بي لماذا وضعت المحرك أصلًا، ثم أخبرهم لماذا بنيتُ الحجارة بناءً على طلبٍ جادٍّ من الأهالي، وكيف كانت الصحف المحلية

متحمسةً بشدةٍ بشأن هذه المسألة، وكيف شكر لي سمو الخديوي ورئيس الوزراء علنًا، ثم الآن وبعد كل النفقات التي صرفتها عليها، استلمتُ فجأةً أمرًا بوقف تشغيل الطاحونة، وقال إن هذا الإجراء من جانب الإدارة الحكومية المسئولة عن اتخاذه كان مهينًا للغاية، خاصةً أنَّ إدارةً حكوميةً أخرى اعترفتْ رسميًّا بحقِّ موكله في البقاء في موضعه.

ثم أخرج أوراق الدائرة البلدية وإيصال الضريبة السنوية التي دفعتها، وعرضها على القضاة الذين غرقوا في الضحك ومعهم المحكمة بأكملها، وكان الوحيد الذي لم يضحك هو محامي الحكومة، وجلس يهزُّ رأسه قائلًا بجدية: «لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك؛ هذه مفاجأة لي - ويا لها من مفاجأة!».

كان الحُكْم مُرضِيًا تمامًا بالنسبة إليَّ، وفرض على الحكومة دفع تكاليف التقاضي.

في المرة التالية التي قابلتُ فيها (فلان)؛ كان ألطف بكثيرٍ من السابق، ولا يظنُّ مَن يراه أبدًا أنه قد مرَّ لتوِّه بمثل هذه القضية؛ فلم يكن يعتبر الابتزاز جريمةً، ولو كان حصل على نصف الأرباح الذي أراده؛ لكان اعتبرها مجرد امتيازاتٍ لمنصبه.

وفيما يخصُّ الطاحونة؛ لم يزعجني أحدٌ مرةً أخرى بعدها قط، واستمرَّت في العمل لسنواتٍ، حتى بعد أن غادرتُ مصر، وقد بعتُ العقار كلَّه خلال فترة الازدهار في عام 1905، وإذا كان من الممكن اعتباره استثمارًا خيريًّا، فيمكنني القول إنه بالتأكيد كان أحد أفضل ما عملتُهُ على الإطلاق.

في 14 يونيو(277) أقام صاحب السمو الخديوي حفلة كبيرة في قصر رأس التين، وأُمرتُ بالحضور بوصفي أحد أعضاء الهيئة العسكرية، وكنتُ ممتنًا لهذه الإشارة الدالَّة على الثقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(285) يقصد الوالي سعيد باشا.

(284) الاسم القديم لخليج يقع شرق مدينة بورفؤاد.

(283) سنة 1883.

(282) مدينة على الضفة الغربية للنيل الأبيض.

(281) البقارة: من قبائل العرب التي كانت تقيم جنوبي كردفان، وكانوا يذهبون صيفًا بماشيتهم إلى جبال النوبة ثم يعودون في الشتاء إلى بلادهم.

(280) محمد أحمد المهدي (1843 - 1885): زعيم ديني، مؤسس الحركة المهدية في السودان، قاتل العثمانيين والبريطانيين والجيش المصري وهزمهم، وحرر الخرطوم وقتل غوردن الحاكم العام للسودان، اتخذ أم درمان عاصمة بديلًا للخرطوم، وتُوفي بالتيفود.

(279) مدينةٌ تاريخيةٌ تقع على ضفة نهر النيل الشرقية.

(278) إقليم يقع في وسط السودان.

(277) عام 1883.

الفصل الحادي عشر

1884 - 1883

الإصابة بالمرض والمغادرة إلى أوروبا - العودة إلى مصر - السير إيڤلين بارينج - استئناف مهامِّي الرسمية - زيارة سمو الخديوي - عثمان دقنة - كارثةٌ مصريةٌ في ترينكيتات - القوة العقابية برئاسة الكولونيل ڤالنتين بيكر - الهزيمة في معركة التيب - وفاة موريس بك - التعيين مفتشًا عامًّا مؤقتًا لخفر السواحل - الحصول على ميداليةٍ إنجليزيةٍ حربيةٍ ونجمةٍ برونزيةٍ - مقابلة جوردون باشا مرةً أخرى - الزبير باشا - لقاء جوردون والزبير في الوكالة البريطانية - جوردون يُعيِّن الزبير نائبًا للحاكم العام للسودان - العقيد كولبورن - العشاء في منزل الزبير - تصوير الزبير باشا - القبض على الزبير - الزبير يُبحر إلى جبل طارق - السير هنري دروموند وولف - سيدي إبراهيم السنوسي - الإفراج عن الزبير.

في منتصف شهر يوليو(303) اعتلَّت صحتي بشدةٍ، وأعتقد أنَّ ذلك كان بسبب جرعة العمل الزائد التي عانيتُ منها بعض الوقت، ولم أكن أريدُ الالتفات إلى الأمر كثيرًا؛ لكن الأطباء الذين زاروني أصرُّوا على وجوب مغادرتي لمصر لتغيير الجو والخضوع للعلاج، وهكذا بعد كثيرٍ من الكلام والفحص الطبيِّ الرسميِّ المعتاد؛ حصلتُ على إجازةٍ، وذهبتُ مع عائلتي إلى كارلسباد(302)، وبعد أن خضعتُ للعلاج المعتاد عُدتُّ إلى مصر، واستفدتُّ كثيرًا من رحلتي إلى أوروبا.

في سبتمبر من العام نفسه؛ اختير السير إيڤلين بارينج خلفًا للسير إدوارد ماليت، وكان هذا التعيين جيدًا من وجهة النظر البريطانية بشكلٍ خاصٍّ، ومع ذلك لا أتخيل أنَّ المصريين نظروا إليه بالنظرة نفسها، وربما بسبب عدم اعتيادهم على القبضة الحديدية دون تغليفها بقطعةٍ من القماش الناعم.

وربما كانت سمات اللورد بارينج الخاصة أكثر ملاءمةً وضرورة في مصر في ذلك الوقت من الدبلوماسية اللامعة المصقولة؛ لكني أرى دائمًا أن القليل من اللباقة لن يكون ضارًا في التعامل مع معظم الناس، ولن ينتقص من سلطة الرجل القوي، وفي المندوب البريطاني الحالي في مصر مثالٌ على ما أعنيه؛ فلا أظنَّ أحدًا يستطيع إنكار أن اللورد كتشنر رجل قوي؛ ومع ذلك، ومع كل صلابته، توجد لديه لمسةٌ من اللطف، خاصةً في التعامل مع الشرقيين، وهو محبوبٌ منهم في المقابل، ومع ذلك لا يمكن أن يكون كل الرجال متشابهين، وأن يتقدَّموا في عملهم على مختلف الأصعدة.

ومن غير المُجدي بالنسبة إليَّ أن أحاول وصف ما حقَّقه السير إيڤلين بارينج - المعروف باللورد كرومر - في أرض أبي الهول؛ لأن اسمه مخطوطٌ بأحرف كبيرةٍ في تاريخ مصر الحديثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدتُ في أكتوبر(301) بعد شهرين من الغياب؛ لكن حدثت تغييراتٌ على الصعيد الحكومي الأعلى في تلك الفترة الزمنية القصيرة، ففي ظل الحجة القديمة الجيدة لتقليص النفقات؛ كان المسئولون القدامى يُزاحون تدريجيًا عن طريق الإحالة للتقاعد، سواء بلغوا السن المطلوب أم لا، أم من خلال نقلهم إلى أماكن أخرى في عجالة وبأقصى سرعة، وفي تعطش للسيطرة على الاقتصاد؛ عيَّن أصحاب السلطة الوافدين الجدد، والذين كانوا أصدقاءهم وأقاربهم، وتذكرت نبوءة موريس بيك في يوم وصول الأسطول، وكان عندي إحساسٌ أن دوري سيأتي قريبًا، ولسوء حظي فإن السير أوكلاند كولفين - الذي كنتُ أعرفه عن قربٍ بعد أن خدمتُ تحت قيادته - قد غادر مصر وذهب إلى الهند.

لم يمر على عودتي وقتٌ طويلٌ حتى أخبرني أحد الأصدقاء سرًّا - وكان يعمل في الوزارة ولديه فرصةٌ جيدةٌ لسماع هذه الأشياء - أنَّ منصب المراقب العام للجمارك الذي كنتُ أشغله في ذلك الوقت قد تقرَّر تعليقه، والسبب المعلن لذلك أو المفترض هو من أجل توفير النفقات؛ والحقيقة أن ذلك كان من أجل إفساح المجال لصديقٍ خاصٍ لمسئولٍ أوروبيٍّ رفيعٍ، وأنه كان من المقرر نقلي إلى مكانٍ آخر.

لم أدع هذا الخبر يُقلقني؛ لأنني كنتُ أتوقَّع حدوثه بنسبةٍ كبيرةٍ، ولكن أُتيحت لي الفرصة بعد ذلك بقليلٍ لزيارة سمو الخديوي(300)، فسمعتُ تأكيدًا للشائعة من أحد مسئولي القصر.

ولأن صاحب السمو كان دائمًا لطيفًا ومتعاطفًا معي، وكنتُ أعرفه بصفةٍ شخصيةٍ منذ سنواتٍ عندما كان وليًّا للعهد؛ لذلك انتهزتُ الفرصة لأذكر له الشائعات، وأُخبرته بأنني سمعتُ أنَّ المنصب الذي أشغله سيُعلَّق، وسيتم نقلي إلى مكانٍ آخر، وأنني لم أتلق أيَّ إخطار رسميٍّ بذلك، ولكن لو كان هذا صحيحًا فإني أُفضل التقاعد تمامًا من خدمة الحكومة؛ لأنه على الأرجح سأغادر البلاد.

في البداية لم يعتقد سموه صحة ما قلتُهُ له، وأكد لي أنه أول مرةٍ يسمع فيها ذلك، وأعرب عن استيائه من الفكرة، وتحدث بلطفٍ شديدٍ عن الخدمات التي قدمتُها، وقال إنه يعتقد أنني آخر موظفٍ يمكن إبعاده عن الجمارك؛ نظرًا لأنني قد فعلتُ الكثير من أجل هذه المصلحة، وأضاف قائلًا: «لكن نصيحتي ألا

تسال عن الموضوع، ولا تستمع إلى أحدٍ؛ فيبدو أن هناك رغبة في الأوساط العليا لقلب أشياء كثيرةٍ، ولإحداث تغييراتٍ جذريةٍ في كل مكانٍ، وتجربة تأثير إزاحة الرجال المحيطين بي، وإحلال غيرهم مكانهم».

عند مغادرتي أكد لي سُموُّه على صداقته التي لا تتغير وتعاطفه المستمر معي، وقال أيًّا كان ما سيحدث؛ فإنه يأمل ألا أغادر مصر، وأعتقد فعلًا أن ما قاله لي الخديوي كان صحيحًا تمامًا، وأنه عُومل من نواحٍ عدةٍ وكأنه غير موجودٍ، وكثيرًا ما سمعتُ رجالًا يقولون إنهم يتمنَّون عودة إسماعيل مرةً أخرى؛ لكن حتى لو عاد إسماعيل، فإني أعتقد أن الأمور كانت ستصبح كما هي؛ فقد أثبتت الظروف أنها كانت عنيفةً للغاية على سلالة محمد علي، فإنجازٌ علميٌّ واحدٌ يمكن أن يُغيِّر حياة أمةٍ تمامًا، وهذا ما حدث مع مصر؛ فقد قيَّدتها قناة السويس بالقيود الدولية، وقذفت بها في أيدي الحاضنات الأوروبية.

من ناحيتي واصلتُ تأدية واجبي بأفضل ما أستطيع، مثلما كنتُ أفعلُ دائمًا، فلم تكن هناك جدوى من القلق، وإذا أراد شخصٌ ما مكاني؛ فليأت ويأخذه، فلم تكن هناك فائدةٌ من القتال عليه، ولسببٍ وجيهٍ هو أنه لا يوجد مَن أقاتله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أغسطس من هذا العام 1883 اندلع تمرد العرب المحيطين بسواكن، وكان ذلك - بلا شك - نتيجةً مباشرةً لهزيمة هيكس باشا؛ لذا كان من الطبيعي أن تصل الأخبار إلى العرب أسرع من الحكومة، وأن يكتشفوا انعدام خطورة القوات المصرية، وأن يعتقدوا أنها فرصةٌ ممتازةٌ لخوض بعض القتال.. إلخ. فلا تزال هناك أجناس من البشر يبغضون السلام الذي يدوم طويلًا، ويظنون أن نصف متعة الحياة يكمن في الانغماس في بعض إراقة الدماء، وإني لأتساءل إلى أيِّ مدىً يكون هذا الشعور مختلفًا عن شعور الرجل الإنجليزي الذي يقول المقولة الخالدة «فلنخرج ولنقتل شيئًا"(299)، ويبدو لي أنهما على قدم المساواة، والفرق الوحيد هو أن الإنجليز يريدون قتل الحيوانات أو الطيور، بينما يُفضِّل أولئك الآخرون قتل مَن يَدُبُّ على قدمين وليس له ريشٌ.

المتمرِّدون الذين هم أتباع المهدي كانوا تحت قيادة عثمان دقنة(298)، وحاصروا عمليًّا بلدتي سنكات(297) وطوكر(296)، وحاول محمود باشا قائد حامية سواكن فك الحصار عن طوكر، وأخذ خمسمائة رجل على متن السفن إلى ترنكتات(295)، وتبع ذلك وقوع قتال انكسرت فيه القوات المصرية مرةً أخرى، وذُبِح عددٌ منهم، ومن بينهم القنصل الإنجليزي النقيب مونكريف، الذي رافق القوة المنطلقة من سواكن.

قد يظن المرء أن الهزائم المتكررة للقوات المصرية على يد رجال المهدي كانت ستدفع الحكومة إلى إرسال حملة عقابية يتم تشكيلها بشكلٍ صحيح، وعدم إجراء المزيد من التجارب أو التعرض لأية مخاطر غير مجديةٍ مع مثل هذا العدو العنيف؛ لكن ذلك لم يحدث، فقد احتفظوا بالجيش النظامي في الوجه البحري بحجة أنهم ربما يحتاجونه للقتال في الجنوب، بينما أرسلوا القوة المؤلفة حديثًا من جنود الدرك لتخفيف الضغط القوي في الشرق، ولا أدري إذا ما كانوا قد أعلنوا هذه الحجة على الملأ أم لا؛ لكنني سمعتُها من عدة أشخاصٍ على انفرادٍ.

كانت قوات الدَّرَك كتلةً شديدة الاختلاط؛ فكان هناك مشاةٌ مصريون وأتراكٌ وباشبوزق(294)، وشرطةٌ أوروبيةٌ، ومدفعيةٌ مصريةٌ، والقليل جدًا منهم مَن كان يرغب بالذهاب إلى سواكن؛ لأن الدَّرَك قد تجنَّدوا وتطوَّعوا من أجل الأغراض المدنية فحسب، ووقع عددٌ من حالات الفرار بين الرُّتب والجنود، بينما استقال عددٌ من الضباط الأتراك من مأمورياتهم.

عُين العقيد فالنتاين بيكر باشا لقيادة هذه القوة، وكانت مهمته غير المرغوب فيها واليائسة تقريبًا؛ هي أن يجعل مثل هذه القوات ندًّا ضد أشجع المقاتلين في العالم وأكثرهم تعصُّبًا، وكما كان متوقَّعًا، تعرَّضتِ القوة أثناء تقدُّمها لفكِّ الحصار عن طوكر إلى الهجوم عليها وإبادتها فعليًّا.

من بين كل المعارك التي دارت في مصر والسودان أثناء وجودي في البلاد تُعدَّ معركة التيب هذه الأشد إيلامًا لي؛ فقد فقدتُّ فيها صديقي العزيز موريس بك، ورغم أنه في منصبه مفتشًا عامًّا لخفر السواحل لم يكن له أيُّ علاقة بالدَّرَك أو القوات المقاتلة؛ إلا أن صداقته مع بيكر باشا دفعته إلى التطوُّع للعمل في هيئة أركانه، ونظرًا لأن الحكومة المصرية كانت تعاني نقصًا في الضباط في ذلك الوقت؛ فقد قبلتْ عرضه.. لقد كانت موتة موريس بيك بمثابة ضربةٍ مُحزنةٍ لي، وكسر قلبٍ لزوجته وشقيقه موريس باشا.

ورغم أن القوات المصرية كانت تلاقي الهزيمة في غالب الأحيان؛ لكن لا يجب على المرء أن يقسو عليهم؛ فقد كانوا يقاتلون برابرةً متوحشينً يمكنهم أن يتسبَّبوا في إرباك أفضل القوات البريطانية.

وفي فبراير ومارس من عام 1884، في معركتي التيب وتاماي؛ كانت قوتهم القتالية غير العادية، واستهانتهم المطلقة بالموت قد تسبَّبت في أوقاتٍ عصيبةٍ لقواتٍ مثل البلاك ووتش(293)، والجوردونز(292)، والفوج الملكي الأيرلندي(291)، وغيرها، والذين لم يتمكَّنوا إلا من التمسك بمواقعهم في مواجهة قوات المهدي؛ لذلك لا ينبغي أن نتعجَّب إذا كان المصريُّون نصف المدربين قد طارت رءوسهم في غالب المعارك.

وعندما وردت أنباء وفاة موريس بك؛ عُينتُ في منصبه بشكلٍ مؤقتٍ إلى جانب وظيفتي الأصلية، وتقديرًا لخدماتي خلال عام التمرُّد حصلتُ على ميدالية الحرب الإنجليزية والنجمة البرونزية من حكومة صاحبة الجلالة.. هذان الأمران الشخصيان الصغيران سيساعدان في الفصل بين الكوارث التي وقعت قرب سواكن، وبين العلاقة مع ما أعرفه بشأن الزبير باشا وجوردون.

عددٌ كبيرٌ من الأشخاص الذين لا يعرفون سوى القليل عن الشئون المصرية والمشاهير المصريين بشكلٍ عامٍ، عندما يفتشون في أذهانهم عما يعرفونه حول الزبير؛ فإن كل ما يتذكرونه هو أنهم سمعوا ذلك الاسم في أمورٍ مرتبطةٍ بالجنرال جوردون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يناير 1884 وعلى الأرجح في نهايته؛ قابلتُ جوردون ثانيةً، حين كان يمرُّ بالقاهرة في طريقه إلى السودان، وكان منهمكًا في مهمةٍ خاصةٍ بناءً على طلبٍ من الحكومة البريطانية، وهي تنفيذ عملية إخلاء وسحب الحاميات المختلفة والموظفين المدنيين، وأولئك الذين يرغبون في مغادرة السودان إلى مصر.

عندما كان جوردون حاكمًا للسودان عام 1879؛ شُغل بشكلٍ أساسٍ بإخماد تجارة الرقيق أو محاولة القضاء عليها، وفي ذلك الوقت حدث تنفيذٌ لحكمٍ قضائيٍّ جعل من الصعب حدوث صداقةٍ بين جوردون والزبير، حيث تم إطلاقً النار على سليمان بن الزبير، بأوامر من الملازم جيسي مساعد جوردون، ولم يحدث ذلك بسبب تجارة الرقيق، ولكن بسبب أحد أعمال التمرُّد والمجازر، وكان الرأي السائد آنذاك أن هناك عداءً دمويًّا بين جوردون والزبير.

وسعيًا للتوصُّل إلى بعض التفاهم مع الزبير، طلب جوردون ترتيب لقاء بينهما، ووافق السير إيفلين بارينج (اللورد كرومر) على ذلك، حيث كان يرغب في تشجيع المشاعر الودية بين الرجلين، والتقيا في الوكالة البريطانية (مقر المندوب السامي) في 26 يناير 1884، وفي هذا الاجتماع - حسب جميع الروايات - كان هناك قدْرٌ من الانفعال، وشرح جوردون سبب إطلاق النار على نجل الزبير، وكذلك سبب مصادرة ممتلكات الزبير، وهو العثور على رسالة تُثبت تورط الزبير في تمرد ابنه، وقد كانت هناك شكوكٌ بشأن هذه الرسالة؛ ليس حول وجودها من الأصل؛ ولكن بشأن صحتها، وقد افترق الرجلان بصورةٍ وديةٍ إلى حدٍّ ما، وغادر جوردون في المساء نفسه متوجِّهًا إلى السودان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرفتُ الزبير عن كثبٍ لعدة سنواتٍ، بعد أنْ عرَّفني عليه سيدي إبراهيم السنوسي، والذي - كما ذكرتُ من قبل - قد أكَّد للزبير أنني أهلٌ للثقة ويجب أن أعامل كأخٍ، والحقيقة أن هذه التوصية التي جاءت من أحد أصدقائه الأوفياء، جعلت الزبير يضع ثقته فيَّ بشكلٍ كبيرٍ، وكثيرًا ما كنَّا نتحدث لساعاتٍ حول موضوعاتٍ مختلفةٍ، وعادةً كان حديثنا ينجرف بصورةٍ دائمةٍ تقريبًا إلى الكلام عن السودان.

كان الزبير ذا نسبٍ قديمٍ وقادرًا على تتبع أصوله إلى العباسيين؛ الذين فروا من بغداد في القرن الثالث عشر واستقروا في السودان، ورغم كونه أحد أفراد هذه العائلة القوية؛ إلا أنه قد بدأ حياته المهنية تاجرًا، وسافر ببضاعته من مكانٍ إلى آخر، وبمرور الوقت أصبح ثريًّا وتمكَّن من تسليح أتباعه الذين تنامى عددهم إلى أن أصبح له مع الوقت جيشٌ صغيرٌ تحت قيادته، ومكَّنه من هزيمة ملكٍ(290) هاجمه وقضى عليه تمامًا لدرجة أن أصبح ملكًا مكانه، ومن هنا تنامت قوته بشكلٍ كبيرٍ، وخضعت له القبائل واحدةً بعد الأخرى، حتى حكم دولةً بحجم فرنسا.

ومن جميع الوجوه كان حكمه جيدًا وفقًا لآرائه ومعاييره الشخصية، ولا أقول إنَّ معاييره تلك كانت من النوع الذي قد يروق للأتقياء في إنجلترا؛ الذين يعيشون في ظلِّ جيرةٍ حسنةٍ وتقاليد محترمةٍ؛ ولكن في أرضٍ مثل السودان كانت أساليبه هذه - في رأيي - مناسبةً للغاية، حيث كان الوضع في السودان آنذاك تزدهر فيه تجارة الرقيق الأسود مثلها مثل التجارة في العاج الأبيض.

وأتصوَّر أن حكومة بريطانيا العظمى - التي كانت متحفزةً ومنفعلةً بسبب صرخات جماعات مناهضة العبودية - تنظر إلى الزبير على أنه مجرد نخَّاسٍ قاسٍ ومُتوحِّشٍ؛ لكن هذا ليس من العدل أبدًا، حيث إن العبيد كانوا من أشكال البضائع التي يسمح دين البلاد بتداولها، وكانوا يمثلون تجارةً لقرون عدةٍ، والزبير لم يكن قاسيًا؛ بل كان كريمًا جدًّا مع كل مَن تعامل معه، حتى اختار عددٌ من العبيد الدخول في خدمته وفضَّلوه على غيره، وأدرجهم ضمن جيشه، وقد منع رجاله من الإساءة إلى سكان القرى، وأدار البلد بطريقةٍ أكثر استنارةً بكثيرٍ مما فعل الباشبوزق.

إنَّ ما فعله الزبير يعكس امتلاكه لقوة شخصيةٍ كبيرةٍ، ولقد كان كذلك بلا شكٍّ، إذْ كان نشيطًا وحازمًا وشجاعًا للغاية وذا كفاءةٍ عظيمةٍ؛ وكان في الوقت نفسه أيضًا مؤمنًا بالخرافات بشكلٍ يبعث على السخرية، وكمثالٍ على ذلك يُقال إنه إيمانًا منه بفاعلية الرصاص الفضي(289)؛ فقد صهر عدة آلافٍ من الدولارات الفضية لاستخدامها عند الحاجة.

وعلى الأرجح فإنَّ الذي جاء به أخيرًا إلى القاهرة هو رغبته الأكيدة في أن يُختار في منصب الحاكم العام للسودان، وهو أمرٌ مؤسفٌ بالنسبة إليه حيث كانت لإسماعيل باشا وجهات نظرٍ مختلفةٌ، وكان يظن الزبير رجلًا قويًّا للدرجة التي لا يمكن معها أن يُمنح السيادة العليا على السودان؛ لذلك احتفظ به كسجينٍ - تقريبًا - في القاهرة، وأكثر من ذلك - إذا صحت التقارير - فقد صادر الأموال التي أحضرها معه، وأصبح الزبير بعدها يحصل على راتبٍ شهريٍّ من الحكومة المصرية.

قلتُ سابقًا إنَّ الزبير كان على خلاف مع جوردون؛ لكن - رغم أنني سمعته يُعبِّر عن كراهيته لجيسي وآخرين من مساعدي جوردون - لم أسمعه قط يتحدَّث عن الجنرال إلا بأسمى العبارات، ولم يكن بحاجةٍ إلى أن يُخفي عني مشاعره بشأن جوردون الذي لم يكن وقتها موجودًا في البلاد؛ ولذلك لا أتفقُ مع القول بأنه كان يكرهه؛ رغم أنني لا أشكُّ للحظةٍ في وجود سببٍ لذلك في البداية؛ لأن وقائع القضية بينهما والشائعات حولها كانت معروفةً تمامًا للجميع.

بعد أيامٍ قليلةٍ من مغادرة الجنرال جوردون القاهرة، أُتيحت لي الفرصة لرؤية الزبير، وأعطاني روايته لما حدث في الوكالة البريطانية، فأخبرني حينها أنه قد تخلص من كل الشكوك التي كانت تُساوِره بشأن علاقة جوردون بوفاة ابنه، وكان مقتنعًا بأن جوردون قد تصرَّف بحسن نية تمامًا، وأن الخطأ يقع على عاتق جيسي وبعض الآخرين، وقال أيضًا إن جوردون قد بثَّ فيه الثقة المطلقة، وأنه يأمل أن ينظر إليه في المستقبل كأحد أصدقائه، ورغم صعوبة تيقنك من أي شيء - أو بالأحرى من أي شخص - في الشرق؛ إلا أنني على قناعةٍ بأنَّ الزبير كان يقصد بالفعل ما قاله.

يجب تَذَكُّر أنه عاش في مصر عدة سنواتٍ، واختلط باستمرارٍ مع كبار المسئولين الأوروبيين وآخرين غيرهم من غير المسئولين، وكان يتمتَّع بعقلٍ شديد الفطنة وقادرًا تمامًا على معرفة الغث من السمين، وهو - في رأيي - ما يشكل سببًا وجيهًا لصدق إحساسه الودود تجاه جوردون؛ لأن الجنرال كان شخصًا صادقًا بشكلٍ لا لبس فيه.

مرَّ بعض الوقت، ثم أبلغوا الزبير بأن جوردون قد طلب تعيينه نائبًا للحاكم العام للسودان، ومن ثم يجب أن يغادر على الفور إلى الخرطوم، وقد تداولت الحديث معه من وقتٍ لآخر حول هذا الموضوع، ووجدتُّ أنه كان سعيدًا للغاية ويشعر بالإطراء الشديد؛ لأن جوردون بنفسه هو من اقترح تعيينه، واستدل من ذلك بأن الجنرال يبادله المشاعر الودية، رغم أنه كان متيقنًا تمامًا من أن الحكومة البريطانية ستُعارض تعيينه، حتى لو حبَّذت الحكومة المصرية ذلك التعيين.

كرَّر جوردون طلبه بضرورة إتمام هذا التعيين، وقدم أكثر الأسباب إقناعًا على وجوب ذلك؛ لأنه كان على يقينٍ من أن بعض الحكومات لازمةٌ لضمان أمن السودان والسودانيين؛ لكن رغم استمراره في طلب الزبير من فبراير إلى ديسمبر؛ إلا أنَّ حكومة جلالة الملكة - التي امتازت بالعناد الغاشم في ذلك الوقت - رفضت السماح للخديوي بتعيين الزبير.

وكان الموقف الذي اتخذته الوزارة البريطانية في هذا الصدد عجيبًا، إذْ بعثوا بجوردون إلى السودان، ورفضوا إرسال قواتٍ لمواجهة المهدي، بل لم يُقدِّموا أيَّ اقتراحٍ آخر لحل الموضوع، ورفضوا تعيين الزبير الذي كان هو الرجل الوحيد القادر على التعامل مع الموقف رغم أن ممثلهم جوردون طلب ذلك مرارًا وتكرارًا، بل وأكثر من ذلك، فقد تكرر الطلب من جانب السير إيڤلين بارينج نفسه - وهو الذي كان معارضًا الفكرة - بعد أن اقتنع مع الوقت بضرورة تعيين الزبير.

لاحقًا، عندما حُوصرت الخرطوم وأصبحت حياة جوردون في خطر؛ تطوع الزبير بالذهاب إلى السودان بنفسه، وقال إنه يتعهد بإعادة جوردون إلى القاهرة على قيد الحياة، وأخبرني بأنه قدم هذا العرض مفترضًا أن الحكومة البريطانية كانت ترغب حقًا في إنقاذ حياة جوردون.

ولأنني كنت واثقًا من حسن نيته التامة، وأنه سيفعل ويستطيع أن يفعل ما يزعم أنه قادرٌ على فعله؛ فقد عرضتُ أن أرافق الزبير إلى الخرطوم، بينما وافق هو نفسه على ترك أسرته رهينةً عند الحكومة المصرية، لكن تم رفض عرض الزبير، وكذلك رُفض عرضي.

ويمكن أن يقرأ المرء في يوميات جوردون، أنه عندما أدرك أن (الباخرة عباس) قد فُقدت، وأن ستيوارت وباور قد قُتلا، قال: «لو أنهم أرسلوا الزبير في فبراير عندما طلبتُ تعيينه؛ لما فقدنا مدينة بربر؛ ولا كنا احتجنا إلى حملةٍ عسكريةٍ، ولو لم تسقط بربر؛ لكان ستيوارت وباور على قيد الحياة الآن».

كان إرسال الزبير هو أول طلب لجوردون تقريبًا، ولم يتوقَّف قط عن الحُنق على أولئك الجالسين في داوننج ستريت(288)؛ لقد ظنُّوا أنهم يفهمون متطلَّبات السودان أفضل من رجلٍ كرَّس حياته للعمل في شئونها.

والمثير للاهتمام معرفة وجهة نظر مَن هم في السلطة والمجموعة المناهضة للعبودية في شأن المهدي، هل قارنوه بالزبير؟ وهل كانت المقارنة تميل إلى غير صالح الأخير؟ هل تخيلوا أن وجود الزبير في السلطة يمكن أن يكون خطرًا على سلام السودان يُماثل خطر المتعصِّب الديني؟ من المؤكد أن التاريخ قد أثبت أن الأمة التي تجمعها حماسة الدين؛ هي أكثر توحُّدًا بكثيرٍ من دولةٍ مؤلفةٍ من إماراتٍ وأممٍ صغيرةٍ احتُلَّت بقوة السلاح، ثم جرى توحيدها

في أمةٍ واحدةٍ.. وأعني بالطبع، الدين ذا المبادئ الراسخة والدائمة؛ وليس الذي ينقسم إلى مائة طائفةٍ مختلفةٍ.

بالرجوع مرةً أخرى إلى يوميات جوردون، نجد أن كوزي (وكيل القنصلية البريطانية في الخرطوم) أخبره برفض الزبير الحضور، وأن جوردون أجابه قائلًا: «إذا كان هذا صحيحًا؛ فمن الواضح أنها مكيدةٌ من القصر، وأن الزبير قد أُرغم على قول ذلك»، وقد كان جوردون على حقٍّ؛ فالزبير لم يرفض قط المضيَّ قُدُمًا إلى السودان؛ بل كان دائمًا على تمام الاستعداد للذهاب.

يقول جوردون في إحدى برقياته الأخيرة:

«الجمع بيني وبين الزبير ضرورةٌ مطلقةٌ للنجاح، ويجب أن نكون معًا لتحقيق أيِّ خيرٍ، ويجب أن يكون ذلك دون إبطاءٍ.. صدِّقني، أنا على حقٍّ، لا تُؤجِّل الأمر».

والحقيقة أنه لم يُسمح باجتماعهما معًا. يقول إيغمونت هاك في مقدمته ليوميات الجنرال جوردون:

«لو كان جوردون قد وجد دعمًا بدلًا من إعاقته، لربما كانت اختلفت نتيجة بعثته إلى السودان، وفي الواقع يستطيع المرء أن يؤكِّد على أن النتيجة كانت ستصبح مختلفةً؛ لأن جوردون قال هذا عمليًّا، وكان حكمًا كفؤًا وموثوقًا، ولو أن إنجلترا ومصر فحسب قالوا له: لن نمنحك أي مساعدةٍ على الإطلاق؛ وافعل أقصى ما بوسعك بما هو متوفرٌ لديك وحولك، ولا ترجع إلينا قبل أن تحقق النجاح، أو تقع في فشل.. لو كانوا فعلوا ذلك؛ فإني على يقينٍ أن جوردون كان سيفكُّ الحصار عن الحاميات المحاصرة في السودان ويُعيدَ كل مَن يرغب في مغادرة البلاد. كان ضعفه في مصداقيته، هذا الضعف المطوق لرجلٍ شريفٍ، هذا الضعف الذي سانده بشكلٍ جيدٍ خلال حملته في الصين، وخلال عملياته السابقة في السودان، وسانده خلال المعاناة الفظيعة التي قاساها وجعلته في كثيرٍ من الأحيان يتمنَّى الموت. كان يأتمن أعداءه، وهم بدورهم قد مكَّنوه دائمًا من إنقاذ الأرواح، والآن يضع ثقته بأصدقائه؛ لكنهم لم يُذلِّلوا له سوى سبيل الموت فحسب».

في 17 أبريل 1884، تلقَّى الزبير باشا برقيةً مباشرةً من جوردون، مؤرخةً في السادس عشر في الخرطوم بتعيينه نائبًا للحاكم العام للسودان، وتصادف أن كنتُ في منزل الزبير عندما تلقَّى هذه البرقية، ورأيته مسرورًا وتأثر بها كثيرًا، وقال:

«ماذا أفعل؟ الواقع أنني سجين، وبعد هذه البرقية؛ إذا اقتربتُ من محطة السكة الحديد سيوقفونني، وربما من المؤكد أنَّ نُسخًا من هذه البرقية الآن

في أيدي الخديوي وكرومر.. لا.. لا أستطيع الذهاب؛ فالإنجليز لا يريدونني في السودان.. أنا أشعر بالأسف حيال جوردون؛ لأنني كنتُ سأعيده بأمانٍ إلى القاهرة.. عمومًا فالإنجليز يعرفون ما الذي ينبغي عمله بصورةٍ أفضل».

ثم توقف لبرهة وأضاف:

«ربما يكون للحكومة الإنجليزية دافعٌ خفيٌّ فيما يتعلَّق بمستقبل السودان، ربما سيجعلونه في النهاية مثل الهند. أوه! لماذا لا يسمحون لي بالذهاب إلى إنجلترا؟ إن لديَّ ثقةً كاملةً في الشعب الإنجليزي، لندعهم يسمعونني، ولندعهم يحكمون عليَّ».

وأرسل الزبير برقيةً للجنرال جوردون في اليوم التالي يشكره فيها على التعيين، ويُعبِّر عن مدى امتنانه لما أبداه من لطفٍ تجاهه، وأنه يأسف بشدةٍ لكونه لا يستطيع قبول هذا التعيين، وقد رأيت ما ورد في الصحف، من أن السير إيڤلين بارينج (اللورد كرومر) أبلغ وزارة الخارجية في اليوم نفسه أن الزبير تلقَّى برقيةً من جوردون، عيّنه فيها نائبًا للحاكم العام للسودان، وأمره بالتقدُّم إلى مدينة بربر؛ لكنه سيُوضع تحت المراقبة ويُمنَعُ من مغادرة القاهرة، ولا شك أن الزبير استاء من رفض السماح له بقبول التعيين، وعلى أية حالٍ توقَّفت الاتصالات مع السودان بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ.

في وقتٍ لاحقٍ من العام نفسه طلب مني العقيد كولبورن - وهو أحد الناجين من حملة هيكس المشئومة - أن أُقدِّمه إلى الزبير باشا؛ لأنه قد أصبح مراسلًا في القاهرة لإحدى الصحف الإنجليزية اليومية واسعة الانتشار، ويتمنى أن تُتاح له الفرصة لوضع آراء الزبير أمام الجمهور البريطاني؛ فشرحتُ الأمر للزبير فقال إنه سيسعد برؤيته، وطلب منى أن أحضره معي للعشاء عنده.

أبلغتُ كولبورن أن العشاء سيكون على الطريقة المحلية، وأننا سنجلس جميعًا على الأرض حول طاولةٍ بيضاويةٍ صغيرةٍ، ونتناول الطعام بأصابعنا، وبدا عليه الاعتقاد أنها ستكون تجربةً طريفةً.

استقبلنا الزبير بأسلوبه اللطيف المعتاد، وأعرب عن سعادته الشديدة بلقاء الكولونيل، وبعد أن قدَّموا إلينا السجائر جلسنا وبدأنا في الحديث.

كنتُ المترجم بينهما، ووجدتُ هذا العمل محرجًا للغاية، حيث كان من المستحيل بالنسبة إليَّ أن أترجم الأسئلة الفجَّة المطروحة بصورةٍ حرفيةً؛ لذلك كان عليَّ أن أصوغها في لغةٍ أكثر تنميقًا، وفي الوقت نفسه أحرص على عدم إغفال النقطة الرئيسة في السؤال.. وعلى أية حالٍ؛ فقد استطعنا التوافق في الأمر معًا بصورةٍ جيدةٍ، وشعرتُ بالارتياح عندما انتهى النقاش.

أعلنوا أن العشاء جاهز؛ وقاد الزبير الطريق، ووجدنا ثلاثةً من العلماء المسلمين ينتظرون عند باب غرفة الطعام، وجلس الزبير وعلى يساره كولبورن، وكنت أنا على يمينه، وبعدنا جلس العلماء في أماكنهم، وقبل أن نجلس أحضر لنا الخدم الماء لغسل أيدينا، وسرعان ما بدأ العَشَاء، وكان خلْف كلِّ واحدٍ منا يقف عبدٌ أسودُ طويلُ القامة يولي اهتمامًا خاصًّا بالضيف الذي أمامه.

في الوسط كانت هناك صينيةٌ مستديرةٌ من النحاس المطلي بالقصدير تستخدم كطاولةٍ موضوعةٍ على قاعدةٍ مصنوعةٍ من الخشب ومغطَّاة بصدف اللؤلؤ، ووضعت على الصينية أقراصٌ مسطحةٌ من الخبز العربي مقطعةً إلى نصفين، وبجانبها عدة حيات ليمون مقطعةٍ ليتم عصرها فوق أي طبقٍ نرى أنه بحاجة إليه، وقدَّموا لكلٍّ منا ملعقةً من خشب الأبنوس، ثم وُضعت أطباق اللحوم بأنواعها، والخضروات.. إلخ على الصينية، واحدًا تلو الآخر حسب عادة الأتراك.. وقبل أن يبدأ تناول طعامه، قال الزبير: «بسم الله»، ثم نظر إلينا قائلًا: «تفضلوا»؛ ومعناها: «هلَّا تكرَّمتَ علينا بالجلوس ومشاركتنا الطعام؟!».

كانت الأطباق تُوضع على المائدة طبقًا بعد طبقٍ حتى وصلنا إلى الطبق الرئيس، والذي تصادف أن يكون خروفًا صغيرًا مشويًّا بالكامل وُضع كما هو على الطاولة، ورأسه مقطوعةٌ منه، ثم شرعنا في قطع أجزاءٍ منه بأصابعنا، وأعترف أنها كانت طريَّةً مثل الزبدة، ثم أخذ أحد العبيد الرأسَ، ووضعه في طبقٍ قدَّمه إلى الزبير؛ ففتح فَكَّيْ الخروف، ووضع يده في حلقه وانتزع لسانه، وأخذ منه قضمةً ثم سلَّمه لي؛ فعلتُ الشيءَ نفسه ومرَّرْتُه، وهكذا دار اللسان حول الطاولة، حتى وصل إلى كولبورن، وكان الرجل المسكين يراقبني وعلى وجهه تعبيرٌ مروعٌ ومثيرٌ للضحك جدًا، وأشرت إليه ليأخذ قضمة هو الآخر؛ فأغلق عينيه وعضَّ اللسان، ولحسن الحظ كان مضيفه ينظر في الاتجاه الآخر.

ظل كولبورن يشير إليَّ محاولًا إخباري بأنه يشعر بالعطش الشديد ويريد تناول مشروب، والعرب لا يشربون الماء أثناء تناول الطعام، وربما يتناولون القليل منه فحسب؛ لكنهم عمومًا يشربون كثيرًا بعد الطعام مباشرةً.. المهم أنني تظاهرت في البداية بأنني لا أفهم إشاراته، ثم أشفقتُ عليه والتفتُّ إلى العبد الذي خلفي، وأخبرته بأن السيد الذي يجلس في الجهة المقابلة لي يرغب في تناول مشروبٍ، ويجب أن أعترف بأنني أضفتُ كلمة «بوظا»، وعلى الفور قام العبد بتمرير الرسالة إلى الرجل الواقف خلف الكولونيل؛ فأحضر على الفور إبريقًا يحتوي على المشروب، بالتأكيد كان إبريق بوظة أو مريسة(287)، وهو مشروبٌ حلوٌ كثيفٌ، مثل دِبْس السكر (المولاس).

ظنَّ كولبورن المسكين أنها كانت بيرةً؛ ورأيتُ عينيه تلمعان وهو يرفع الإبريق ويأخذ منه شربةً طويلةً جدًا.. كل ما كنتُ أستطيعُ فعله هو أن أحافظ على وجهي جامدًا بلا تعبيرٍ، وللحظةٍ كنتُ أخشى وقوع أشياءٍ لا تُوصف، لكن لُحسن الحظِّ مرت دعابتي الصغيرة بسلامٍ، وعندما انتهينا من الطعام نهض الزبير قائلًا: «الحمد لله»، ثم غسلنا أيدينا وأفواهنا، وانتقلنا إلى غرفةٍ أخرى لتناول القهوة والسجائر.

ثم بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ؛ استأذنا في الرحيل وصحبتنا عربةٌ بحصانين تابعةٌ للباشا، يرافقها عدَّاءان عربيان يحملان المشاعل، وأخذتنا العَرَبَةُ إلى فندق شِبَرْد.

جلس كولبورن في العربة صامتًا بشكلٍ غريبٍ حتى وصلنا، ثم اندفع إلى البار صارخًا ومطالبًا بكأس من البراندي، قائلًا:

«بسرعة! بسرعة! أنا أُصبت بالتسمم!».

وتركته يروي لبعض الأصدقاء وقائع الطعام، لاسيما موضوع «البوظة!».

بعد أيامٍ قليلة، حثثتُ الزبير على تصويره فوتوغرافيًّا، والتُقِطَتْ له صورٌ في عدة أوضاعٍ، أحدها وهو يمتطي حصانًا في زيِّه الحربيِّ، أو بمعنى أصحَّ: بالزي العربي الذي كان يرتديه عند شنِّ حملةٍ قتاليةٍ، وللأسف؛ فقدتُّ النُّسخ التي أعطاها لي عندما غادرتُ مصر!

وأثناء ركوب الزبير حصانه العربي الرائع - الذي كان مفعمًا بالحيوية - أَسْقَطَ الجواد حدوةً، وبدون تفكيرٍ التقطتُّها قائلًا: «سأحتفظ بها لتجلب لي الحظ»، وأخذتُها معي إلى المنزل، ولم تأتْ على بالي بعدها؛ لكن فيما بعد سمعتُ أنه عندما أُلقي القبض على الزبير صرَّح جميع خدمه أن ذلك بسببي، وأنني التقطتُّ حدوة فرسه وأخذتُها بعيدًا؛ فهجر الحظُّ سيدهم ومن ثمَّ قبضت الحكومة عليه، وهؤلاء ذوو عقليةٍ صبيانيةٍ بشكلٍ عجيبٍ، ويؤمنون بالخرافات بصورةٍ مروِّعةٍ.

طوال ذلك العام وفي بداية العام التالي؛ رأيتُ الزبير كثيرًا، خاصةً عندما كان يقيم مع سيدي إبراهيم السنوسي في الإسكندرية، وكثيرًا ما كنا نستقل العربة معًا في أوقاتٍ ما بعد الظهر، وأذكر أنني كنتُ سأذهبُ لزيارته في اليوم نفسه الذي أُلقي القبض عليه فيه.. هذا الاعتقال تمَّ بتحريضٍ من السلطات العسكريَّة، وحينها لم يُبد الرجل أيَّ مقاومةٍ، واصطحبوه على الفور إلى متن السفينة إيريس، التي أبحرت في صبيحة اليوم التالي إلى جبل طارق، بموجب أوامر مختومةٍ(286) وسُمِحَ له بأخذ ولديه وابنه بالتبنِّي معه.

كانت تدور تساؤلاتٌ كبيرةٌ في ذلك الوقت؛ عما إذا كانت السلطات العسكرية لن تجعل الأمور تصل إلى حدِّ ترحيل الزبير باشا دون تحقيقٍ رسميٍّ؛ ولكن يبدو أن ذلك تمَّ بموافقة السير إيڤلين بارينج (اللورد كرومر).

كان الاتهام الرئيس للزبير أنه على اتصال بالمهدي، وبالنسبة إليَّ يبدو هذا الأمر غير محتملٍ، حيث إنَّ المهدي كان يزداد قوةً كل يومٍ، ومن غير المُرجَّح أنه سيرغب في وجود الزبير في السودان، فتصعيد مثل هَذا المنافس القوي ورفعه سيكون بمثابة ذروة الحماقة من جانبه، وأرجح أن يكون المهدي قد خطط عبر وكلائه لتشويه صورة الزبير في نظر الحكومتين البريطانية والمصرية.

من ناحيةٍ أخرى، لابد أنَّ الزبير قد أدرك أنه حتى لو كانت غايته النهائية هي القضاء على المهدي واستعادة نفوذه القديم على السودان، فإنَّ ذلك سيكلفه ثروةً كبيرةً وعددًا من الأرواح، لدرجة أنه سيخرج من هذا الأمر ضعيفًا للغاية ولا يستطيع مواجهة أيِّ قوةٍ عقابيةٍ ترسلها مصر، خاصة أن البريطانيين سيُضطرون في جميع الحالات إلى تقديم مساعدتهم للقوة المصرية.

ونظرًا لأنه كان معروفًا أنني صديق الزبير؛ جاءني كثيرٌ من الناس وطلبوا مني الانضمام إليهم للاحتجاج على اعتقاله؛ ولكن بدا أنه من غير المستحسن اتخاذ أيِّ خطوةٍ فوريةٍ؛ لذلك قررنا أن نلزم الهدوء وألا نصنع شيئًا.

وهكذا استمرت الأمور حتى أكتوبر، عندما وصل السير هنري دروموند وولف إلى القاهرة مفوضًا ساميًا، ولأنه كان معه رسائل للتوصية بي، فقد استدعيت بعد ذلك أمامه وأجرى معي مقابلةً مطولةً، قدَّمتُ له فيها الكثير من التفاصيل، وناشدتُه استخدام نفوذه لتأمين العدالة للزبير؛ فوعد ببذل قصارى جهده.

ثم رأيتُه مرةً أخرى في العام التالي في الإسكندرية، حيث قدَّمتُ إليه إبراهيم السنوسي وشيخ الإسلام، وكلاهما طالباه بأن يحثَّ الحكومة البريطانية على إطلاق سراح الزبير.

وكتبتُ إليه مرةً أخرى وهو في لندن لأُذكِّره بوعده، وتلقَّيتُ ردًّا مفاده أنه سيفعل كل ما في وسعه لدعم طلبي؛ ولذا اضُطررتُ رغمًا عني إلى الانصراف عن الأمر؛ ولكن يُسعدني أن أقول إنه لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى أُطلق سراح الزبير وعاد إلى مصر، وأنا مقتنعٌ بأنَّ الفضل في ذلك يرجع إلى شفاعة السير هنري لصالحه.

في النهاية سُمح للزبير بالذهاب إلى السودان، حيث عاش في مزرعته في جيرلي بالقرب من أم درمان حياةً معتزلةً هادئةً، ومات هناك عام 1913.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الهوامش

(303) عام 1883.

(302) Karlsbad مدينة في غرب بوهيميا بتشيكيا تشتهر بحمامات الاستشفاء الطبيعية.

(301) عام 1883.

(300) يعني الخديوي محمد توفيق.

(299) مثل إنجليزيٌّ شهيرٌ يقولونه كاقتراح لإزالة الملل بالصيد (Let's go out and kill something).

(298) عثمان بي أبي بكر دقنة (1840 تقريبا - 1926): عمل بتجارة الرقيق وقبض عليه عام 1877 وسُجن بمصر، انضم إلى جيش المهدي وأظهر بسالةً في القتال، قُبض عليه عام 1900 وأودع السجن، ثم اعتزل السياسة واكتفى بالعبادة والتأمل. له مذكرات نشرها د. محمد إبراهيم أبو سليم.

(297) تقع في ولاية البحر الأحمر شرق السودان.

(296) تقع جنوب بورتسودان جنوب شرق السودان.

(295) ميناء يقع على ساحل البحر الاحمر قريبًا من مدينة طوكر.

(294) باشبوزق أو باشي بوزوق (بالتركية: Başıbozuklar): عساكر غير نظاميين في الجيش العثمانيِّ، كان أغلبهم من الألبان والأكراد والشركس، وقد عُرفوا بالبسالة؛ لكنهم كانوا يقومون بأعمال النهب والاعتداء.

(293) Black Watch: كتائب مشاة من الفوج الملكيِّ الاسكتلنديِّ تابعة للجيش البريطاني.

(292) Gordon Highlanders: فوج مشاةٍ كان تابعًا للجيش البريطاني في الفترة بين 1881 - 1994 ثم دُمِج في قوات الهايلاندرز الملكية الخاصة.

(291) Irish Fusiliers: قواتُ مشاةٍ أيرلندية بريطانية واستمرت حتى العام 1968 حين تم دمجها مع الأفواج الملكية الأيرلندية الشمالية الأخرى.

(290) في عام 1872 قتل سلطانَ تكما وفتح بلاده، ثم هزم سلطان الفور إبراهيم محمد الحسين وقتله في معركة منواشي سنة 1874.

(289) الرصاصة الفضية تكون من الفضة الخالصة، وبحسب بعض المعتقدات الشعبية الخرافية فإنها تكون بمثابة السلاح الوحيد الفعَّال للقضاء بشكلٍ نهائيٍّ على المستذئبين أو السحرة أو غيرهم من الوحوش الخرافية.

(288) مقر رئاسة الوزراء البريطانية، وهو كناية عن الحكومة البريطانية.

(287) مشروب يُصنع من الدخن والذرة الرفيعة.

(286) أوامر تُعطى لقائد السفينة في مغلف مغلق ومختوم، والتي لا يُسمح له بفتحها حتى يتقدم لمسافة معينة في أعالي البحار؛ وهو إجراء من أجل ضمان سرية الوجهة التي سيذهب إليها. وانظر تفاصيل النفي كاملة في: الزبير باشا يروي قصته في منفاه بجبل طارق.

الفصل الثاني عشر

1884 - 1885

بينيت بيرلاي - العقيد برنابي - ترك الخدمة في الحكومية المصرية - الحصول على الوسام الإمبراطوري العثماني - ذكريات الفرنسيين المتميزين الذين خدموا تحت القيادة الأنجلوفرنسية - دي مارتينو باشا - صاحب السمو الخديوي - ألفريد چارود - المغادرة إلى أوروبا - العودة إلى مصر - رحلة عبر النيل - الأقصر - طيبة - القاهرة.

سمعتُ للتو عن وفاة بينيت بيرلي، المراسل الحربي لصحيفة الديلي تلغراف، وبمطالعة الصحيفة وجدتُّ بالصدفة رسالةً تقول:

«إلى محرر الديلي تلغراف:

سيدي المحترم،

هل لي أن أحظى بشرف تقديم احترامي لمراسلك الحربي الراحل، السيد بينيت بيرلي؟

لقد كنتُ على معرفةٍ وثيقةٍ به، لا سيما في حرب السودان من سنة 1884 إلى 1885، وأتذكر جيدًا صوته المبتهج وكلماته المشجعة لنا جميعًا في تلك الحملة التي لا تُنسى، خاصة في ذلك الصراع الكبير في أَبُو طُلَيْح(317) حيث كانوا يتفوَّقون علينا في العدد كثيرًا، وحيثُ سقط أحد أفضل جنودنا وأعظمهم وهو الكولونيل الراحل برنابي من فرقة فرسان الحرس الملكي، والذي رأيتُه بنفسي يخرُّ صريعًا، تمامًا كما وصف مراسلك الراحل في رسائله.

أتذكَّر أيضًا إجراء مقابلةٍ معه ومع الراحل السيد ميلتون بريور من صحيفة (أخبار لندن المصورة)، خارج مكتبه في شارع ستراند بلندن منذ عدة سنوات، وغيره، وغيره».

أدهشتني هذه الرسالة، لأنني أيضًا قابلتُ بينيت بيرلي عندما كنتُ بصحبة ميلتون بريور في شارع ستراند، وقضينا نحن الثلاثة فترة ما بعد الظهيرة نتحدث معًا عن الأيام الخوالي، ويومها روى لنا بينيت بيرلي قصة وفاة العقيد برنابي - وكنتُ قد التقيتُ الأخير في القاهرة وأُعجبتُ به كثيرًا - ووجدتُ أنه من المثير جدًا سماع قصة موته البطولي من شاهد عيانٍ مثل بينيت بيرلي، الذي شرح معركة أبو طُلَيْح كاملة بكثيرٍ من التفاصيل والشروحات الغنية، وأتذكر بشكلٍ خاصٍّ رأيه في بعض العاملين في المجال الإنساني في إنجلترا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الجزء الأول من شهر أبريل 1884، تم إخطاري رسميًّا بأن وزارة المالية قررت إلغاء منصب المراقب العام للجمارك الذي أشغله بدعوى التوفير، ومن أجل إضفاء بعض المصداقية الشكلية على هذا السبب؛ وافقوا في الوقت نفسه على إلغاء منصب الأمين العام الذي كان يشغله أحد السوريين؛ رغم أن هذا الأمر الأخير لم يتم تنفيذه، حيث وافق الوزير على بقاء السوري في منصبه براتبٍ يعادل نصف ما كان يحصل عليه، ووافق الرجل على هذا الترتيب على أساس أنه بعد بضعة أشهر سيرتفع راتبه مرةً أخرى، ولعل من المدهش معرفة حجم المتاعب التي خاضوا فيها كي ينفذوا خداعهم، ومدى ضآلة النجاح الذي حققوه.

كنت أتوقَّع هذا الإخطار؛ إذْ كان هناك كثيرٌ من الأوروبيين الجدد قد شغلوا المناصب العالية، ولم يكن لديَّ أدنى شكٍّ في أنَّ كثيرين سوف يتطلَّعون إلى منصبي لأصدقائهم أو أقاربهم.

في البداية كنتُ - بطبيعة الحال - أجهل الشخص المسئول عن ذلك؛ ولكن بعد فترةٍ وجيزةٍ أُعيد إنشاء منصبي تحت عنوان نائب المدير العام للجمارك بحوالي ضعف الراتب، وعندما تمَّ منحه إلى ألمانيٍّ صديقٍ لمسئولٍ أوروبيٍّ رفيع في الوزارة؛ أدركتُ الأمر برُمَّته تمامًا، واكتشفتُ فيما بعد أنه تمَّ ترتيب كل ذلك بعنايةٍ بين المسئول وصديقه التوتوني(316)، من قبل إلغاء منصب المراقب العام بالفعل، وآمل أن يكون كلاهما قد استفاد من لعبتهما هذه.

تلقَّيتُ إشعارًا بأنه بدلًا من حصولي على معاشٍ تقاعديٍّ؛ سأحصلُ على مبلغٍ من المال، وتقديرًا لخدماتي السابقة سيتم تقليدي النيشان العثماني، ومن ثم استقبلني صاحب السمو الخديوي(315) في 9 أبريل، وأنعم عليَّ بالنيشان العثماني من الطبقة الرابعة، وكعادته كان غايةً في اللطف، وفي سياق حديثنا الذي استمرَّ لفترةٍ طويلةٍ، تحدَّث في أمورٍ كثيرةٍ - لستُ في حلٍ مِن ذكرها الآن - تتعلَّق بإلغاء منصب المراقب العام؛ ومع ذلك فقد كان كل ما ذكره في صلب الموضوع، وهو ما منحني فهمًا جيدًا لوجهة نظره بشأن الوضع.

وقبل أنْ يأذن لي بالمغادرة؛ قال لي بطريقةٍ مؤثرةٍ إنه صديقي المخلص، وأنه على استعدادٍ دائمًا لمساعدتي بأية طريقةٍ ممكنةٍ، ويجب أن أعرف أنني مُرحَّبٌ بي في القصر وقتما أحبُّ، وأنه سيكون على استعدادٍ دائمٍ لمقابلتي، في أيِّ وقتٍ أرغبُ في رؤيته.

والحقيقة أنَّ الخديوي كان أكثر كرمًا معي، ويُمكنني أن أُؤكد يقينًا أنه لو كان الأمر بيده، لما تركني أُغادرُ خدمته قط.

في اليوم التالي نُشر في جريدة الإيجيبشيان جازيت ما يلي:

«استقبل صاحب السمو الخديوي كوسيل بك في لقاءٍ خاص صباح أمس، حيث تكرَّم سُمُوُّه بمنحه وسام العثمانية من الدرجة الرابعة، وذلك تقديرًا لولائه وخدماته المخلصة خلال السنوات التي قضاها في خدمة الحكومة المصرية بصفته المراقب العام للجمارك.

ونحن نتفهم أن هناك احتماليةً للاستفادة من خدمات كوسيل بك في إدارةٍ أخرى؛ لكن لا يمكننا أن نستوعب لماذا ينبغي نقل مسئولٍ قدَّم مثل هذه الخدمات الفعَّالة والبارزة في إدارة الجمارك خلال السنوات الثماني الماضية إلى مكانٍ آخر.

إنَّ الخدمات التي قدَّمها خلال أحداث عام 1882، لكلٍّ من حكومة صاحب السمو وحكومة جلالة الملكة؛ هي أمورٌ اشتهرت علانيةً، وقد تحصل نظير خدماته لحكومة صاحبة الجلالة على وسام الحرب الإنجليزي، كما حاز وسام النجمة الخديوية لدوره في الحملة المصرية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعتقد أنه بإمكاني ختام هذه الذكريات دون الإشارة إلى المساعدة الكريمة والتعاون الودي؛ الذي تلقيتُه دائمًا من مختلف السادة الفرنسيين الذين كانوا يعملون في الحكومة المصرية خلال السنوات التي شغلتُ فيها منصب المراقب العام والمدير العام للجمارك بالنيابة تحت الإدارة الأنجلوفرنسية، وقد ظللتُ على علاقةٍ وديةٍ معهم عدة سنواتٍ بعد أن تركتُ الخدمة، ولا يزال بعضهم على قيد الحياة وكثيرٌ منهم تُوفِّي.

وعندما أجترُّ الذكريات والحوادث التي مرَّت بي؛ تبرز الأسماء أمامي؛ كلٌ على انفرادٍ وتميُّزٍ، ومعظمهم معروفٌ جيدًا في فرنسا، فكل هؤلاء السادة - بالتأكيد - بذلوا قصارى جهدهم، وعملوا بإخلاصٍ شديدٍ مع زملائهم الإنجليز للمساعدة في إحياء وزارة المالية المصرية، وأتذكَّر أسماءً مثل: السيد دي بلينيه المراقب العام، والسيد بوتون الذي عمل في الدائرة السنِيَّة، والسيد جاي لوزاك في الدائرة السَنيَّة أيضًا، والسيد ليرون ديرول، والسيد تيمرمان مدير السكك الحديدية والتلغراف.

أتذكَّر دائمًا باستحسان من بين الكثيرين الذين لا يتسع المقام لذكرهم ممن عملوا في الإدارة الأنجلوفرنسية رجالًا مثل: الكونت سانت موريس وصيف صاحب السمو إسماعيل باشا، وباروت باشا رئيس الديوان، وجودارد باشا سكرتير رئاسة الوزارة، وجميعهم فرنسيون مخلصون لسموه ولسلالته.

ويجب ألا أنسى صديقي القديم دي مارتينو باشا الذي كان مرتبطا بالأسرة الخديوية منذ ما يقرب من أربعين عامًا، وكان في خدمة صاحب السمو توفيق باشا عندما كان وليًّا للعهد، وبقي معه عندما أصبح الخديوي، وبعد وفاته ارتبط

بشخص الخديوي الحالي عباس باشا الثاني، وقد تقاعد دي مارتينو باشا الآن، ويتحصَّل على معاشٍ استحقه بجدارةٍ، ويقيم في مصر الجديدة (هليوبوليس) بالقرب من القاهرة.

يتحدَّث صديقي القديم ألفريد چارود - من إدارة السكك الحديدية المصرية - في كتابه (أربعون عامًا من حياة مهندس) بشفافيةٍ وصدقٍ كبيرٍ عن تصرفات المراقبين والإداريين الأوروبيين في مصر، وسأتجرَّأ على اقتباس بعض المقتطفات من كتابه:

«كلام الإنجليز كلام دوغري (كلمة الإنجليزي موثوقة)، يتذكَّر كلُّ رجلٍ إنجليزيٍّ أقام أو سافر في مصر هذه العبارة الشهيرة؛ فقد أصبحت كلمةً معروفةً بين أهل البلاد المصريين، وتُستخدم في كل مناسبةٍ متاحةٍ للتعبير عن تقديرهم واحترامهم لأبناء وطننا الإنجليز.

لسوء الحظِّ، تغيَّر كل ذلك، ورغم أن نجاحاتنا العسكرية الأخيرة ربما زرعت الخوف في قلوب المصريين؛ إلا أنها لن تُعيد إحياء هذا الشعور بالثقة الذي أخذ في التلاشي طوال السنوات الثلاث الماضية، وستستغرق استعادة عاطفة الشعب سنواتٍ، وسيُدرك الإنجليز بعد أن يدفعوا ثمن ذلك أن التعاملات المستقبلية مع العرب لن تكون سلسةً كما كانت في السنوات السابقة.

إن أسباب كلِّ هذا لا يصعب العثور عليها، ولو أن حكومة جلالته تواجهها مباشرة فحسب، وتتوقف عن العمل بناءً على رأي حلقة من المسئولين المرتبطين بنظامٍ فاسدٍ ونصائحهم؛ فسيجدون في النهاية أن مهمة إعادة التنظيم لن تُمثِّل أي صعوبةٍ.

أولًا؛ وقبل كل شيءٍ، فإنَّ من بين التجاوزات الصارخة التي يشتكي منها بحق جميع الأشخاص المحترمين في مصر من المواطنين والأجانب؛ تلك الطريقة الخبيثة وغير الحكيمة التي منحت المراقبين والإداريين الأوروبيين محاباة الأصدقاء والأقارب في التوظيف وتعيين أشخاصٍ غير مؤهلين على الإطلاق للمناصب التي وُضِعوا فيها؛ ودون أن يمتلكوا أيَّ معرفةٍ بلغة البلد أو عاداته، أو طريقة التعامل مع الشرقيين.

في البداية تصرَّف المراقبون بشكلٍ خاطئٍ على أساس افتراضٍ شاذٍّ هو أن الأوروبي الذي سبق وأقام في مصر لأية فترةٍ؛ سيكون بالتأكيد مُشبَّعًا بروح الفساد وغير لائقٍ لشَغْل أيِّ منصبٍ؛ لكن السبب الحقيقي هو أنهم لا يرغبون في وجود مرءوسين في الأقسام المختلفة يعرفون طبيعة الأوضاع في البلاد أكثر من هؤلاء المراقبين أنفسهم؛ ومن ثم قرنوا أنفسهم بنظامٍ سيئٍ ثبت أنه كارثيٌّ من جميع النواحي؛ فاستبدلوا المسئولين الأوروبيين ذوي الخبرة أو

أقالوهم، واستبعدوا أهل البلاد الأصليين من المناصب العليا، واستوردوا محلهم عددًا من الشباب الأوروبيين والهنود الإنجليز(314).

ولم يكن هؤلاء الرجال في الغالب جهلةً فحسب؛ بل كانوا أيضًا فظاظًا في أسلوبهم، ومتعجرفين في تعاملاتهم مع أهل البلاد، ولم يفهموا كثيرًا عن شخصية المصريين، وأكثر من ذلك أنهم لم يُظهروا حتى الرغبة في إرضاء الناس الذين كانوا يأكلون من خبزهم.

وفي تعاملهم مع الطبقة الأرستقراطية من المصريين ومالكي الأراضي، تصرَّفوا بشكلٍ تعسُّفيٍّ للغاية، وباعتبار التأثير الكبير جدًا الذي يمارسه هؤلاء الأرستقراطيون على الفلاحين في الأقاليم؛ كان هذا السلوك تجاههم - على أقل تقديرٍ - غبيًّا بقدر ما هو غير لائقٍ.

فكيف يحدث أن (كاتب ثان) يعمل في مكتب البريد البريطاني؛ يتم تعيينه مديرًا لمكتب البريد المصري براتب ألفي جنيه إسترليني سنويًّا، ثم بعد فترة يغرسونه في منصب مدير الجمارك في مصر، وليس لديه أيُّ خبرةٍ بهذا العمل على الإطلاق؟!(313)

هذه وغيرها ليست إلا قليلًا من التجاوزات المختلفة للبيروقراطية الأوروبية التي تتعرَّض لانتقاداتٍ يوميةٍ من جانب أهل البلاد وقدامى المقيمين في مصر منذ زمنٍ طويلٍ، ونظرًا لأن هذا هو الحال؛ فليس من المستغرب أن يسعى الرجال الذين يُسمُّون أنفسهم بالحزب الوطني(312) - والذين كانوا على درايةٍ بكل هذه الأمور عبر الصحافة المحلية وغيرها من المصادر - إلى التأثير على عقل أهل البلاد من أجل تحقيق الإصلاح فيما يعتبرونه مظالم خطيرةً، ويملأهم الشعور بأنه في الوقت الذي يجري فيه إهمال مطالبهم بأخذهم بعين الاعتبار والاحترام والعدالة؛ فإن جيشًا من المسئولين عديمي الفائدة وذوي الأجور المرتفعة ينعمون بالرفاهية في المراتع المصرية»(311).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في شهر مايو؛ ونظرًا لأن صحتي لم تكن بحالٍ طيبةٍ؛ فقد قررتُ قضاء صيفٍ طويلٍ في أوروبا، وبناءً على نصيحة طبيبي ذهبتُ أولًا إلى كارلسباد، ثم انتقلتُ ومكثتُ مع أصدقاءٍ لي في النمسا، واستغرق الأمر ستة أشهرٍ على الأقل لاستعادة قوتي.

عُدتُّ إلى مصر في نهاية العام، ورغم عدم شغلي لأي منصبٍ رسميٍّ، إلا أنني وجدتُّ قدرًا كبيرًا من الانشغال في إدارة عملي الخاص؛ وكذلك في إنجاز عددٍ من الأمور والمهام التي لم تُتِح لي الفرصة لإنجازها من قبل.

ولأنه لم يكن لدي الكثير لأعمله في الجزء الأول من عام 1885؛ فقد هُرعت إلى القاهرة من الإسكندرية لرؤية بعض أصدقائي؛ وبينما كنتُ هناك قابلتُ السيد (س) وابنته بالغة الفتنة، كانوا أمريكيين قد أتوا على مصر للترفيه عن أنفسهم؛ وليس لحيازة المومياوات أو الاستشفاء واكتساب الصحة.

رأيتهم كثيرًا في بضعة أيامٍ قضيتها في فندق شبرد، وأصبحنا مقربين للغاية، وأخذتُهُم لزيارة أماكن كانَ لهم اهتمامٌ كبيرٌ بها، وأعجبتني هذه الأماكن شخصيًا، حيث لم يسبق لي زيارة بعضها، وهذا هو ما يحدث في غالب الأحوال؛ فالزوار يرون من أي مدينةٍ أكثر مما يراه الأشخاص المقيمون بها.

أعرف رجلًا ولد وترعرع وعاش في لندن طوال حياته، ولم يَقم حتى الآن بزيارة برج لندن، وأفترض أن إدراكه إمكانية رؤيته وقتما يريد هو ما جعله لا يُلقي بالًا لزيارته، ومع ذلك فقد لاحظتُ أنَّ أمثال هذا الرجل؛ يصبح عندهم فضولٌ شديدٌ ولهفةٌ لرؤية كل شيءٍ عندما يسافرون إلى الخارج.

اعتاد السيد (س)، في المرات التي خرجتُ فيها معه ومع ابنته أن يترك لي تمامًا مهمة توجيهه حيث أشاء، وكنت سعيدًا أن أسئلته تسهُل الإجابة عليها، ولم أتعرَّض لموقف جهلتُ فيه سؤالًا واحمر وجهي خجلًا.

وأتذكر أنه عَلَّقَ مستغربًا ذات مرةٍ بعدما رأي أثرًا أدهشه؛ واستفسر عن الفرعون الذي شيَّده؛ لكن ما كنتُ أعرفه عن المكان هو أنه لم يُشيِّده الفراعنة، ولا أعرف أكثر من ذلك؛ لكن نظرًا لأن الملاحظة لم تكن سؤالًا مباشرًا؛ فقد عمدتُ إلى لفت انتباهه إلى شيءٍ آخر.

وعقب هذه المرة؛ أصبحتُ دائم الحرص على قراءة بعض المعلومات الرئيسة حول الأماكن التي نُفكِّر في زيارتها، ثم حدث أن اقترح أحد الأصدقاء على السيد (س) الخروج في رحلة نيلية قبل عودته إلى أمريكا، وسرعان ما وافق على الاقتراح وطلب مساعدتي في تنفيذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان السيد (س) يتحدَّث لغةً واحدةً فحسب هي الأمريكية؛ لكنها لم تكن معقدةً كما هي الآن؛ وابنته يمكنها فحسب أن تقول عبارة: «Comment ça va =كيف حالك بالفرنسية»، وقد ضحكنا عدة مراتٍ معًا على يأسهم من تعلُّم أي لغةٍ، وأن ذلك لن يكون إلا بالعيش في البلد أو بالتواصل مع سكانها الأصليين، وأسرَّت لي الآنسة (س) أن كلَّ ما لديها من الفرنسية قد تعلَّمته من شخصٍ كنديٍّ من مدينة كيبيك(310).

وبسبب عدم معرفته بأية لغةٍ سوى لغته؛ كان السيد (س) متردِّدًا حيال الرحلة النيلة، وقال: «لنفترض أنني أريد صابون حلاقةٍ؛ وبدلًا من ذلك أحضروا لي

قطعة لحم ضأنٍ!»، وتسبَّبت ملاحظته هذه في أنْ تضيف ابنته قائلةً: «حسنًا؛ إذا فعلوا ذلك يا أبي؛ فسيتعيَّن عليك اعتبارها تلميحًا قويًّا جدًّا بأنَّ عليك أن تُطيل سوالفك"(309).

استغرق الأمر مني بعض الوقت لتجاوز هذه الملاحظة، وأخيرًا اقترحتُ أن أنضم إليهم؛ لأنني لم أقم بهذه الرحلة مطلقًا من قبل، وليس لديَّ شيءٌ أفعله في هذا الوقت، أو على الأقل لا يوجد أمرٌ عاجلٌ يستوجب بقائي.

كانوا مسرورين بعرضي هذا، ويسعدني القول إنه بعد الاتفاق على نصيبي من النفقات - بعد رفضٍ شديدٍ من السيد (س) لتحمُّلي أي نفقات - تكلمتُ معهم بشأن استئجار مرشد سياحي من أهل البلاد، وصادف أنني كنتُ أعرف أحد هؤلاء الناس ويُدعى حسن - نسيتُ باقي اسمه - وكنتُ محظوظًا أن وجدته غير مرتبطٍ مع أحد آخر؛ لأنه كان فعلًا مترجمًا جيدًا.

كان رجلًا وسيمًا طويل القامة ومهيبًا جدًّا، ذا شاربٍ متوسطٍ طويلٍ ومنسدلٍ، وكان هو المترجم المفضَّل لدى النساء في أي مجموعةٍ يصحبها، وكان يظهر عليه الغنى بسبب ما يرتديه من خواتم ودبابيس وغيرها من الأشياء الشخصية التي كان زبائنه يمنحونه إياها من وقتٍ لآخر.

اتفقتُ معه على الخدمات التي سيُقدِّمها لنا وما إلى ذلك، وذهبنا معًا لرؤية الدهبية؛ وهي مركبٌ مريحٌ.. نعم لم يكن كبيرًا جدًا؛ لكنه نظيفٌ تمامًا ويتسع لنا، وكان الرَّيِّس (قائد المركب) رجلًا طيِّبًا، وعندما تمَّ الترتيب لكل شيءٍ؛ أحضر السيد (س) النبيذ، وبدا أن رحلتنا ستكون ناجحةً، وفيها كل ما نرغب فيه، أو بالأحرى كل شيءٍ كان من المحتمل أن نحتاجه قبل الشروع في الرحلة، وبالنسبة إليَّ شخصيًّا كنتُ أتطلَّع إلى قضاء فترة راحةٍ لطيفةٍ.

والحقيقة أنني لستُ مُشاهدًا جيدًا للمعالم والأماكن، لاسيما عندما أكون بصحبة الآخرين، وإذا رغبتُ في رؤية مكانٍ؛ فإنني أُحبُّ الذهاب إليه وحدي في الوقت الذي أشاء وبالكيفية التي أريد، وأنا أُفضِّل كثيرًا أن أُشاهد مكانًا ثم أكتفي بذلك ولا أنتقل إلى غيره لفترةٍ حتى أتمكن من استيعابه في ذاكرتي بوضوح؛ لكن إذا رأيتُ كلَّ يومٍ أو يومين مَعْلَمًا جديدًا، فإن ذاكرتي تُشوَّش وترتبك، ولا يتبقَّى لي سوى ذكريات ضبابية عن المكان.

أعتقد أن السيد (س) وابنته كانا يرغبان في رؤية الأشياء من منطلق إحساسهم بوجوب ذلك، وعندما ارتحلوا في النيل كانوا يتفحَّصون كل موضعٍ بعنايةٍ، ولا أحد إلا الله يعلم نوع المعلومات المختلطة الذي حفظته أدمغتهم بعد ذلك.

ربما مَن يقومون بمثل هذه الرحلات يشعرون بالأجواء وألوان الأماكن الطبيعية، ثم يملأون أذهانهم بالتفاصيل المحتلفة من الكتب الإرشادية، ويبدو لي أنَّ هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها استيعاب كل ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعتزم وصف الأماكن التي ذهبنا إليها؛ فإنَّ عددًا من الأشخاص قد فعلوا ذلك من قبل وبشكلٍ كاملٍ، وسأحيلكم إلى الكتب الإرشادية للحصول على التفاصيل(308)، لأنني لم أسجِّل أي ملاحظاتٍ حول تلك الأماكن، على عكس الآنسة (س) التي سجَّلت مشاهداتها حول الأماكن سواء بالكتابة أو بالرسم بالألوان المائية؛ وكانت ذكية جدًا في تسجيل انطباعاتها عن المشاهد المختلفة، وكان عملها رائعًا وماتعًا أشد الإمتاع.

كانت المناظر الطبيعية هي أقوى نقاطها؛ لكنها فضَّلت أن ترسم لوحات صغيرة بالقلم الرصاص لحسن، وللرَّيِّس، وطاقم المركب في كل ما يمكن تخيُّله من مواقف وأزياء، وتحوي تلك الرسومات القليل من الواقع الذي يتخطَّى حياةً وحركةً بعينها.

لستُ فنَّانًا على المستوى الشخصيِّ، والصور التي يهتم بها الناس لا تُحرِّك بي أيَّ شيءٍ، رغم أن هناك صورًا أخرى تروق لي، وإن رأى بعض الناس أنها مجرد طلاء لا قيمة له.

ومع ذلك؛ فأنا أحب الفنون وأحسد الموهوبين في أيٍّ منها، وفي الآونة الأخيرة، كنتُ مهتمًا بجدالات المدارس الحديثة، وشرح لي أحد الفنانين الشباب أنه كان يحاول استعادة روح قدماء المصريين في تصويرهم للشكل البشري، وعندما انتهى من شرحه، أخبرتُهُ أنه أهدر مواهبه، وأنه خُلِق ليمارس السياسة الويلزية - الاسكتلندية الحديثة، وقلتُ له إنه لو أصبح وزيرًا للخزانة؛ فسيكون بإمكانه التأثير في الكثير من الناس؛ لكن الشاب المسكين الذي لا يتمتَّع بروح الدعابة أجاب: «أوه.. لا! لا أعتقد أنني خُلقت لأحكم الناس».

جعلتني محادثته أُفكِّر في ماهية الفن المصري، وبقدر ما أستطيع رؤيته أنهم تقريبًا لم يتطوروا أبدًا أبعد من الأشكال البدائية البسيطة في أيِّ نوعٍ من الفنِّ، باستثناء الهندسة المعمارية؛ فلم يكن هناك فنٌّ شخصيٌّ - وأشكُّ في إمكانية تسميته فنًّا وطنيًّا؛ بل كان دافعهم مجرد رغبة الرجال العظماء في تخليد أسمائهم بتشييد المباني، أو كقربان لاسترضاء بعض الأرباب أو الآلهة.

لم يكن الشكل البشري من اللذة الفنية موجودًا بوصفه مصدرًا للعمل الفني بالنسبة إليهم، ويبدو أن الحجم وحده (في الأعمال الفنية) هو ما كان يسحرهم ويخلب ألبابهم، وفي رأيي فقد كان استخدام الفن في مصر

مخصَّصًا إلى حدٍّ كبير لمعاونة الحكام على الاختيال، سواء في حياتهم أو حين موتهم، وهو أكثر شيوعًا.

من الواضح أن رسوماتهم الجدارية لم تُصنع لتعلِّم الناس أي درسٍ نبيلٍ؛ لكنها كانت مجرد سجلاتٍ تاريخيةٍ لهذا الشأن وذاك، أو لهذا الموكب أو مشهد الصيد ذاك، وهذا ما كان يجعلها مثيرةً للاهتمام بالنسبة إليَّ.

غالبًا ما يدور بذهني تساؤلٌ عمَّا إذا كان من الممكن تحديد سببٍ حقيقيٍّ للفنِّ؛ فكل ما أستطيع رؤيته هو أن سببه الوحيد هو تكريم الحياة.. فهل هو فعلا يُكَرْمها؟ أم إنَّ عملية التكريم بطيئة جدًّا بحيث تستغرق عشرات الآلاف من السنين لتظهر، ثم مرةً أخرى أتساءل، ما هو الفن؟

يبدو لي أنه شيءٌ يتعلَّق فقط بالذوق الشخصيِّ، وهو متعةٌ حسيةٌ بشكلٍ عام، وفي أغلب الأحيان تكون متعةً عابرةً.. لكن هل هو تقديرٌ لتكريم الجمال؟ سيكون من الصعب أن يبدو الفن هكذا ما لم يكن مدعومًا بطبيعةٍ جميلةٍ وإرادةٍ قويةٍ.

يجب أن يكون الفكر هو الشكل الوحيد من الفن الذي له تأثيرٌ على أي قيمةٍ دائمةٍ، ويجب نقل هذا الفكر عبر بعض الوسائط التي يمكن للأغلبية فهمها؛ ففائدته تصبح ضئيلةً إذا كان عددٌ قليلٌ من الأرواح المختارة هم مَن يُمكنهم تقديره؛ لأن مجتمع الإعجاب المتبادل(307) تكون حدوده ضيقةً للغاية.

مع ذلك، ليس من المُجدِي أن أكتب عن هذا الموضوع؛ فهو أمرٌ متنازعٌ فيه بشدةٍ، والأشياء الجميلة تُسعدني وأبتهج بها، سواء أكانت في الشكل أم في اللون أم في الصوت؛ لكنني متيقنٌ من أن الفكر الموجود في الكلمات المكتوبة أو المنطوقة، سيكون له أكبر الأثر على حياتي.

قضينا وقتًا ماتعًا للغاية، وكانت الدهبية جيدةً بقدر ما نشتهي، أمَّا حسن فكان مترجمًا ممتازًا دقيقًا لم يُترك أيَّ شيءٍ للصدفة، وهو ما جعل الآنسة (س) تقول: «إنه على أفضل ما يكون»، وقال السيد (س): «إنه رجلٌ جيدٌ حقًّا»، وقلتُ في نفسي: «إنه وغدٌ جهنميٌّ».

كنا جميعًا راضين، وطالما استمتعتُ بمشاهدة الآنسة (س) وهي ترسم صورًا وصفيةً (اسكتشات)؛ وكانت تطلب مني أحيانًا أن أقول لرجلٍ أن يثبت في مكانه للحظةٍ لترسمه، وأحيانًا كنتُ أطلب منه أن يقفز فجأةً، وكنتُ أستمتع حينها بالانزعاج الذي يصيب رفيقتي؛ لكني أعتقد أن الجزء الذي استمتعتُ به أكثر هو مشاهدة المراحل المختلفة التي تمرُّ بها الصورة، والتغيير المستمر والتأثيرات الرائعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السيد (س) الذي اقتصر كل نشاطه على استكشاف المعابد وما إلى ذلك؛ كان - حسب ظني - يشعر بالملل من تلك الساعات التي يقضيها على متن القارب، ومن ثمَّ اعتاد على ابتكار وسائل للتسلية يفرغ فيها كل طاقته كشخصٍ يخوض رحلة سفرٍ طويلةً وحركة محدودة، وعادة ما تأخذ وسائل تسليته هذه شكل مقامرةٍ صغيرةٍ؛ فكان يستدعي حسن - الذي كان يتحدث الإنجليزية الركيكة بطلاقةٍ - ليختار رهانًا على هذا الشيء أو ذاك.

أمَّا بالنسبة إليَّ أنا وابنته؛ فقد أخبرناه أننا بالتأكيد لن نشغل أنفسنا بألعابه، وكان ذلك حين طلب منا ذات مرةٍ المراهنة على الاتجاه الذي سيسلكه «ريس المركب» هل هو نحو الشرق أم نحو الغرب؟

كما كنَّا نُجري محادثاتٍ ماتعةً للغاية في المساء، وكان بابًا كبيرًا للمعرفة أن نستمع إلى السيد (س) يروي بعض وقائع حياته المليئة بالأحداث، لاسيما قصص الحرب بين الشمال والجنوب(306) التي شارك فيها مع بعض الاختلافات في القصص.

والحقيقة أنه كان راميًا جيدًا بشكلٍ لافتٍ للنظر، وأتذكَّر عندما رأيته يطلق النار على طائرٍ بريٍّ بمسدسٍ، واعتقدتُّ في البداية أن هذه الطلقة أصابت هدفها صدفةً؛ لكن بعد دقيقتين أطلق واحدةً أخرى أصابت هدفها، وبعد ذلك قدَّم لنا عرضًا أدهشني لإطلاق النار من المسدس، خاصةً أنه كان رجلًا قد تجاوز الستين من عمره.

تباطأنا في الطريق؛ فلم نكن على عجلةٍ من أمرنا، وكان هناك الكثير لرؤيته، وعندما وصلنا إلى الأقصر؛ تركنا الآنسة (س) مع بعض الأمريكيين الآخرين، وذهبت أنا ووالدها لصيد بعض السِّمَّان على بُعد بضعة أميالٍ من البلدة، وكان علينا أن نأخذ معنا خيمةً ونقضي الليلة هناك، وأمضينا وقتًا طيبًا في الصيد واستمتعنا بوقتنا تمامًا.

في جميع نزهاتنا في طيبة (الأقصر)؛ كانت الآنسة (س) تبغي دائمًا شراء التُّحف، وكان من الماتع جدًا مشاهدتها وهي تساوم البائعين، وغالبًا ما كانت تشير إليَّ بعد جدالٍ طويلٍ لتعرف رأيي فيما تشتريه: هل هو من الآثار الحقيقية أم مزيف؟ وكان هناك كثيرٌ جدًا من تلك التحف لرؤيته وتقرير حقيقته؛ فبعض الأشياء كانت مقلدةً بشكلٍ واضحٍ؛ لدرجة أنني أنقذتُها أكثر من مرةٍ من دفع مبالغ ضخمةً مقابل أشياءٍ لا قيمةً لها؛ لكنني أيضًا لا أستطيع القول إن كل الأشياء التي اشترتها كانت أصليةً أو غير زائفةٍ، وقد نجح حسن في هذه النزهات بتوفير أروع الحمير لنركبها.

واتفقنا جميعًا على أن طِيبَة تستحق زيارةً طويلةً؛ فقد كان فيها كثيرٌ مما يُثير اهتمامنا جميعًا؛ لذلك اتفقنا على البقاء هناك لأسبوعين على الأقل، وامتلأت

كل الأيام بالرحلات، وأتذكّر أننا ذهبنا مرتين إلى وادي الملوك، ومرتين إلى قصر الملك، حيث كان هناك من التاريخ ما يستغرق من الإنسان شهورًا لقراءته.

كان السيد (س) سعيدًا لأنه وجد تصويرًا لشخص يلعب الداما(305)، وهي لعبةٌ هو نفسه يبرع فيها، وأنا واثقٌ من أن تقديره لقدماء المصريين قد ازداد عدة درجاتٍ بسبب ذلك.

كنا قد اتخذنا الترتيبات اللازمة للمضي قدمًا نحو «إسنا"(304)، عندما اضطررنا إلى التوقُّف حين تلقَّى السيد (س) أخبارًا استدعت عودته؛ فيمَّمنا وجوهنا نحو القاهرة على مضضٍ، وهو ما جعل الآنسة (س) تستاء جدًا من ذلك، وبادرتْ على الفور إلى شراء المزيد من التحف، حتى إنها اشترت ست جَرَّات فخارية للماء مثل التي تحملها نساء الفلاحين على رءوسهن، ولم أفهم قط الغرض الذي اشترتهم من أجله، واعتدتُّ أن أشاكسها بشأنهم، قائلًا لها إن دموعها عند فراقها لحسن سوف تملأ تلك الجرار حتى تفيض، وقالت لي إنها تريدها فعلًا لتُزيِّن بهم واجهة المنزل في نيويورك، حتى يعرف كل شخصٍ أنهم ذهبوا إلى مصر؛ لذلك اقترحتُ عليها أن تصحبَ معها بدلًا من كلبها الصغير جَمَلًا مُروَّضًا؛ لأنه سوف يضيف أكثر إلى التأثير الذي تريده.

وهذا التعليق مني حول الإبل قد ذكَّرني بأمرٍ حدث أيام شبابي في الزقازيق؛ فقد اعتدتُّ ركوب هذه الحيوانات من وقتٍ لآخر؛ لكن مع تقدُّمي في السّنِّ، تجنَّبتُ هذه المتعة واكتفيتُ بركوب حماري، ومع أني أكره أن يعرف أيُّ شخصٍ رأيي الصريح في الإبل - وقد أخبرتها نفسها في عدة مناسبات - إلا أنني أعتقد أن عددًا من الناس يستمتعون فعلًا بركوبها لمسافاتٍ طويلةٍ في الصحراء، وكان الخديوي توفيق باشا أحد هؤلاء، وربما كان الموضوع أمرًا وراثيًّا؛ لكن بالنسبة إليَّ؛ فمنظر الأرجل الطويلة الخرقاء لـ «سفن الصحراء» يدفعني إلى القيء، وهي عبارةٌ مقرفةٌ تمامًا، لكنِّي لن أعتذر عنها.

الشيء الوحيد الذي يمكنني قوله لصالح الإبل أنها تُمثِّل الطبيعة بشكلٍ رقيقٍ، وتجعل المرء يُقدِّر الحكمة الإلهية لقدرتها على حمل الطعام والماء بداخلها بما يكفيها لبضعة أيامٍ، وهو شيءٌ مرغوبٌ جدًا عند السفر عبر الصحراء، ويمكن تصوُّر أهميته.

ويُقال إنَّ هناك صبيًّا صغيرًا كلما كان على وشك الدخول إلى حفلةٍ ما يتمنَّى لو كان جملًا ولديه سبعة بطون (حتى يأكل أكثر).. ربما كانت أمنيةً طبيعيةً من صبيٍّ صغيرٍ؛ لكن لا يمكنني أن أُبرهن بها على حقيقة امتلاك الجمل لسبعة بطون.

لم نُسرع في طريق عودتنا؛ لأن السيد (س) كان لديه متسعٌ من الوقت للعودة رغم أنه لم يحاول استغلاله في الذهاب أبعد من الأقصر، وعندما وصلنا إلى القاهرة تلقَّى طاقم المركب جميعًا بقشيشًا سخيًّا، وهو ما جعلهم يأملون في رجوعنا مرةً أخرى، وقد أهدى السيد (س) إلى حسن ساعةً ذهبيةً رائعةً ومعها سلسلةٌ ذهبيةٌ أيضًا، وسألتني ابنته - من باب الثقة بي - عن رأيي فيما يجب أن تعطيه له كهديةٍ؛ فاقترحتُ عليها أشياء كثيرةً كلها سخيفةٌ، كأن تعطيه زوجًا قديمًا من أحذيتها أو دميةً قديمةً ممزقةً؛ لكن عندما اقترحتُ عليها أن تُعطيه الستة جرَّات الفخارية لزوجاته رفضت الاستماع إليَّ أكثر من ذلك، ولا أعرف ماذا أعطته في النهاية؛ لكني أجرؤ على القول إنها أهدته شيئًا عالي القيمة.

كانت رحلةً ناجحةً وماتعةً للغاية، وما لبثت حتى رحت أبحثُ عن شيءٍ يشغل وقتي، وألح عليَّ السيد (س) أن أُرافقهم إلى أمريكا؛ لكن ذلك كان مستحيلًا بالنسبة إليَّ، لذلك ودَّعتُهم بحزنٍ كبيرٍ وأسفٍ، وتراسلنا عدة سنواتٍ حتى لقي كلاهما حتفه غرقًا في حادث قاربٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(317) كانت منطقةً بها آبار مياهٍ تستريح فيها القوافل بين مروي ومتمة.

(316) العرق الأوروبي الشمالي الذي يشمل الشعوب الألمانية والهولندية والاسكندنافية التي تتحدث بالألمانية.

(315) يقصد الخديوي محمد توفيق.

(314) أطلق مصطلح الهنود الإنجليز (Indians - Anglo) في ذلك الوقت على الإنجليز العاملين بالهند تابعين لوزارة المستعمرات أو يعيشون فيها لمصالحهم.

(313) يقصد مستر كليار Kaillardالذي احتُفي به وتبوأ هذا المنصب الكبير رغم تواضع وظيفته في لندن، وقد سجل الفرنسي چون نينيه ذلك في رسالته المؤرخة في 3 أبريل 1881. انظر: رسائل من مصر، ص 262 - 263.

(312) تأسَّس الحزب الوطني القديم في عام 1907 على يد مصطفى كامل عقب حادث دنشواي الذي ألهب الروح الوطنية لدى المصريين، ثم تولى من بعده الزعيم محمد فريد، وبدأ نجم الحزب يخفت شيئًا فشيئًا، وظل شكليًّا في الحياة السياسية المصرية حتى عام 1953.

(311) Alfred Edward Garwood, Forty Years of an Engineer's Life at Home and Abroad, A. W. Dawson, LTD., Printers & Publishers. P.206.

(310) كيبيك (بالفرنسية: Québec): مقاطعة شرق كندا.

(309) أعتقد أنها كانت تلميحًا من ابنته بأنه لا يبدو مثل رجال عصره من الأمريكيين الذين كانوا يملكون سوالف كبيرةٍ كمظهرٍ رجوليٍّ، وأنهم كانوا يعتبرون الرَّجل بدون سوالف كالمخنثين أو شبيها بالنساء.

(308) لم يُثبتها المؤلف في كتابه؛ ولعله قد نسي.

(307) نشأ مصطلح مجتمع الإعجاب المتبادل (Mutual Admiration Society) في القرن التاسع عشر، وهو يشير إلى الأشخاص الذين يُعجَبون ببعضهم أو يتملَّقون بعضهم.

(306) الحرب الأهلية التي نشبت في الولايات المتحدة عام 1861 واستمرت حتى 1865.

(305) لعبةٌ قديمةٌ تشبه الشطرنج وتعتمد على الذكاء هي الأخرى.
(304) مدينةٌ تاريخية تقع جنوب الأقصر على الضفة الغربية للنيل.

الفصل الثالث عشر

1885 - 1887

التعيين قنصلًا أمريكيًّا بالإسكندرية - وصول السفينة الحربية الأمريكية كوينبرج - القبطان لودلو - تقديم القبطان والضباط إلى محافظ المدينة - حفل راقص بعد الظهر على متن السفينة - مشهد في القنصلية الأمريكية - حفلة إبراهيم السنوسي - الافتتان بسيدة أمريكية - رسالة من القنصل العام الأمريكي - زيارة للفيوم - صاحب السمو الخديوي يمنحني الوسام المجيدي من الدرجة الثالثة - لندن جازيت - قرار مغادرة مصر - في وداع الخديوي - الترقية إلى ضابط مجيدي عظيم - وزارة الخارجية - قنصل - قرار بتعييني نائبًا للقنصل البريطاني في جرجيس - رفض التعيين - تمثيل الحكومة التونسية في النرويج - منحي وسامًا تونسيًّا - التقاعد إلى الحياة الخاصة.

بعد رحلتي في النيل في أبريل 1885، طلب مني القنصل الأمريكي العام في القاهرة - والذي كان صديقًا لي - تولِّي مسئولية القنصلية الأمريكية في الاسكندرية لحين تعيين أحدٍ من ذوي الألقاب(324) من الولايات المتحدة لهذا المنصب، وكنتُ قد سئمتُ من الفراغ، أو بالأحرى من عدم وجود عملٍ منتظم؛ لذلك قبلت، وشغلتُ منصب القنصل الأمريكي لمدة ثلاثة أشهرٍ، وأستطيع التأكيد أنني قد استمتعتُ بالتجربة تمامًا.

لم يستغرق الأمر منِّي وقتًا طويلًا للدخول في الروتين الرسميِّ للعمل؛ لكنني سرعان ما اكتشفتُ أن المنصب لم يكن سهلًا، وأن هناك كثير مما يتعين عمله.

كان حجم المراسلات هائلًا؛ ليس فقط مع واشنطن بشأن المسائل الرسمية؛ ولكن مع رجالات الصناعة والتُّجَّار الأمريكيين، ومن الواضح أن أفراد الطبقة الأخيرة يسعون في الاستفادة جيدًا من قناصلهم؛ إذْ كانوا يرغبون في أن يكونوا على اتصالٍ بالتجار ومعرفة بالسماسرة في جميع مجالات الأعمال، وبالذين يُحتمل تعاملهم في شحنات الأخشاب والآلات، وفي كل شيءٍ يمكن أن يخطر ببالك مما يحتاجه البشر، وصولًا إلى عُلب الدواء.. وكل هذه الرسائل كان لا بد من الرد عليها.

وبعضهم يُرسل عيناتٍ من جميع الأنواع، مع تعليمات إلى القنصل لتسليمها إلى شخصٍ ما يعمل في هذه التجارة، وبعضهم الآخر قد يطرح جميع أنواع الأسئلة حول هذا وذاك، الأمر الذي دفعني إلى الاعتقاد بأن القنصل الأمريكي يجب أن يكون موسوعةً متحركةً.. ومع ذلك كنتُ أجمعُ المعلومات المطلوبة وأرسلها إليهم.

وفي هذا الإطار أتذكّر أنَّ أحد المستثمرين الأمريكان أراد أن يعرف مدى إمكانية إقناع الفلاحين بارتداء ملابس أخرى غير الجلابية؛ فصمَّم لهم بعض تلك الملابس، كما أراد معرفة أي المواقع يمكن أن يكون مناسبًا لإقامة مصنعٍ للملابس المذكورة؟ وأظن أن ردِّي عليه قد أوهن حماسته؛ لأنني لم أسمع حتى الآن عن أيِّ تغييرٍ ملحوظٍ في ملابس الفلاحين.

بعد فترةٍ وجيزةٍ من تنصيبي قنصلًا وصلتِ السفينة الحربية الأمريكية (كوينبرج) إلى الإسكندرية لتوقُّفٍ قصيرٍ، وصعدتُّ على الفور على متن السفينة، واستُقبلتُ بتحيةٍ من مدافع السفينة، ورحَّب بها القبطان لودلو والضبَّاط، وقد ردُّوا لي الزيارة بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ في القنصلية، ثم رافقتُ القبطان واثنين من ضباطه إلى محافظ المدينة وقدمتُهم إليه؛ وبعد ذلك انتقلنا إلى نادي محمد علي، حيث جعلوهم أعضاء فخريين بالنادي لإقامتهم في الميناء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد بضعة أيامٍ، اقترح الكابتن لودلو إقامة حفلٍ راقصٍ بعد الظهر على متن السفينة، وتركَ لي كل الترتيبات المتعلقة بالدعوات، وعندما تمَّ الإعلان عن هذه المناسبة في الصحف غمرتني طلبات الدعوات، وازدحمت القنصلية عمليًّا من الصباح حتى الليل.

ونظرًا لأن السفينة لا يمكنها استيعاب سوى عددٍ محدودٍ من الضيوف، والكابتن لودلو لا يريد ازدحامًا عليها؛ فقد اضطُررتُ إلى الحَدِّ من هذه الدعوات، واخترتُ من الجاليات المختلفة: الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية والألمانية والسويسرية والإسبانية والبرتغالية والشامية.

ما يُحيِّرُني حين أتذكَّرُ الأمر الآن هو كيف تمكَّنتُ من فعل ذلك؟ لكن أخشى أنني قد سبَّبتُ كثيرًا من الغضب وحُرْقة القلب لأولئك الذين لم تتم دعوتهم، وأجرؤ على القول إن كثيرًا من الأشياء القاسية قيلت في حقي، وأن أعدائي كذلك زادوا نتيجةً لهذا الأمر؛ لكنني اخترتُ مَن اعتبرتُهم على الأرجح سيسحرون الضباط ويفتنونهم، فالضباط كما يعلم الجميع سريعو التأثر جدًا بالنساء الجميلات، ولم أقابل قط في حياتي أيَّ شخص لا يُحب البحَّارة.

بعد أن غادر الضيوف، شكروا لي بحرارةٍ على كل المشاقِّ التي تكبَّدتُّها، وأكَّدوا لي أنهم لم يروا مثل هذا الجمال الفاتن من قبل في أيٍّ من حفلاتهم الراقصة على متن السفينة، وأمضت السفينة كوينبرج أسبوعين في الميناء قبل أن تتوجَّه تلقاء سوريا.

للأسف عندما كانت السفينة في الإسكندرية لم أستطع الإجابة على عددٍ من رسائل الاستفسار كما ينبغي؛ ومن ثَمَّ شُغلتُ كثيرًا بعد رحيلها للتعويض عن

هذا التأخير، فإلى جانب الكمِّ الهائل من المراسلات، كان عليَّ إجراء مقابلاتٍ مع عددٍ من الرعايا الأمريكيين في القنصلية، وكان عددٌ منهم يطلبون مشورتي في أمورهم الشخصية، وكنتُ دائمًا أستمع إلى ما يريدون قوله، وأقدِّم لهم أفضل ما عندي من النصيحة، والتي بدا أنها تُرضيهم.. وغالبًا ما تلقَّيتُ منهم دعواتٍ للقدوم إلى أمريكا وزيارتهم، ولإعطاء مثالٍ على نوع الأمور التي كنتُ أقابلها في هذا العمل؛ سأروي تجربةً مُروِّعةً مررتُ بها:

في أحد الأيام حضرتْ مجموعةٌ من أربعة أشخاصٍ إلى القنصلية يطلبون مقابلة القنصل، ونقل عنهم الموظف الذي جاء إلى غرفتي قولهم إنهم أمريكيون؛ لكنَّ اللغة الوحيدة التي يُمكنهم التحدُّث بها هي العربية.

وأدخلوهم إلى مكتبي؛ كانوا امرأتين عجوزين وشابًّا وشابَّةً، وما إن أصبحوا داخل الغرفة، حتى بدأوا جميعًا في التحدُّث في الوقت نفسه بأصواتٍ صاخبةٍ غير مفهومةٍ؛ فرفعتُ يديَّ وقلتُ بالعربية: «توقفوا! تكلموا واحدًا تلو الآخر»، ثم خاطبتُ مَن اعتبرتُها الأكبر سنًا، وسألتُها عمَّا تريد.

قالت السيدة العجوز إنهم رعايا أمريكيون أتوا من بيروت، وقد وصلوا هذا الصباح في طريقهم إلى أمريكا، ويريدون معرفة أفضل السبل للوصول إلى هناك، ثم سحبتْ جواز سفرٍ أمريكيٍّ وأشارت إلى أنهم جميعًا يسافرون معًا: هي، وابنها، وصديقتها القديمة مع ابنتها.. وكان الصبيُّ والفتاةُ مخطوبين؛ وكانت طليقة اللسان بشكل مُبهجٍ.

أخبرتهم أن أفضل طريقةٍ هي السفر على متن باخرةٍ إلى ليڤربول، ومن هناك يستقلون سفينة ركابٍ عابرةً للمحيط الأطلسي، وأضفتُ أن هناك باخرةً ستغادر إلى ليڤربول في غضون أيامٍ قليلةٍ.. شكروا لي جميعا بحرارةٍ وغادروا المكان.

وظننتُ أنها آخر مرةٍ أراهم فيها؛ لكن للأسف كانت هذه البداية فحسب؛ ففي صباح اليوم التالي، أخبرني كاتبي أن إحدى النساء المُسنَّات تريد رؤيتي، وبمجرد دخولها إلى الغرفة قالت وهي تلهث: «أوه! سيدي القنصل، أريد أن تُساعدني وتنصحني، وآمل أن تعذر حضوري لمقابلتك».

أكدتُّ لها أن وقتي ملكٌ لها، وقد أَخَذت الكلام بصورةٍ حرفيَّةٍ؛ فاندفعت مرةً أخرى في الحديث بطريقةٍ حادةٍ جدًا: «سيدي القنصل، أريد أن أتكلَّم معك بثقةٍ، واعلم أن هذا الموضوع يُقلقني، فكما أخبرتُك بالأمس إنَّ ابني مخطوبٌ لابنة صديقتي».

ثم توقَّفتْ لبرهةٍ وكأنها تمنحني الوقت لأستوعب هذه الحقيقة، وتمتمتُ أنا بأنه وضعٌ رائعٌ يتمنَّى أيُّ شابٍ أن يكون فيه؛ فقالت: «إنه كذلك بالفعل؛

ولكني - سيدي القنصل - وكذلك والدتها لا نتحمَّل السفر بحرًا، وعندما نكون على متن السفينة يتحتَّم علينا أن نبقى في الأسفل حتى لا نُصاب بدوار البحر، بينما أولادنا يتحمَّلون السفر جيدًا، وسيكونون على ظهر السفينة معًا، ليلًا ونهارًا، وبالتأكيد تعلم أنه ليس من المناسب لهذين الشابين أن يكونا معًا كل هذا الوقت دون رقابةٍ من عين الأم القوية».

وافقتها على كلامها بأدب، نظرًا لأني بالفعل رأيتُ الشباب، وانتظرت لتكمل حديثها؛ فقالت: «ولذا فقد أخبرتهم أنه يتوجَّب عليهما أن يتزوجا قبل مغادرة الإسكندرية، وإلا سأعود إلى سوريا مع ابني، وأرفض الذهاب إلى أمريكا».

قلتُ وأنا أكتم الضحك: «حسنًا، أعتقد أنكِ على حقٍّ تمامًا؛ لكن يا سيدتي الطيبة، ما الذي يجب عليَّ بوصفي قنصلًا أن أفعله في مثل هذا الشأن العائلي البحت؟».

ردَّت: «أوه، لو أنك تكلمهم فحسب، وخاصةً صديقتي والدة الفتاة، وتُخبرها بأنه سيكون من الصواب واللائق أن يتزوَّج الشباب قبل أن يرحلوا من هنا؛ فأنا على يقينٍ من أنها ستوافق على كلامك».

سألتها: «فماذا لو أنها رفضت؟».

- «إذن عليك أن تُهدِّدها بإعادتها إلى سوريا».

أتذكر أنني اضطررت أن أُدير ظهري لها للحظةٍ كي أستعيد هدوئي، قبل أن ألتفتَ وأقولَ لها: «أرسلي صديقتك إليَّ، وسأرى ما يمكن عمله».

في صبيحة اليوم التالي حضرت السيدة العجوز الأخرى، وبعد السلام المعتاد، طرحتُ عليها الموضوع بأكبر قدرٍ ممكن من الجدية، موضحًا كم هو مروعٌ أن تكون الأمهات مصاباتٍ بدوار البحر، إلخ.. حينها همهمتْ وتلعثمتْ، ثم قالت أخيرًا إنها شخصيًّا لا تُعارض فكرة أن يتم الزواج على الفور لبعض الأسباب؛ ولكن كانت هناك أسبابٌ أخرى قويةٌ قد تمنع ذلك، إن لم تكن أقوى من الأولى.

وسألتُها عن تلك الأسباب؛ فاعترفتْ بصراحة أنها تفكر بالانتظار لحين وصولهم إلى أمريكا، فقد تجد لابنتها شخصًا يملك بعض المال لتتزوجه، بدلًا من الشاب الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئًا.. وأضافت أنها وابنتها يفضلان رجلًا يملك المال، حتى لو كان في السبعين من عمره!

وأخيرًا غادرتني تلك العجوز الجشعة قائلة إنهم سيتحدثون معًا مرةً أخرى حول هذا الأمر.

في اليوم التالي ظهرت الابنة، وكانت قصتها مختلفة تمامًا عن قصة والدتها؛ فقالت إنها مغرمةٌ بالشابِّ بالفعل، وأنها على استعدادٍ تامٍّ للزواج منه.

في النهاية، وبعد كثيرٍ من الكلام، اتفقوا على أن هذا هو أفضل مسارٍ، ثم جاء الجزء الأسوأ من العمل، فبصفتي قنصلًا؛ اضطُررتُ إلى تنفيذ مراسم الزواج، وبما أنه لا أحد منهم يملك أيَّ نقودٍ؛ فقد اضطررتُ إلى دفع رسوم الزواج من جيبي.

وعندما انتهى الحفل - ولا أعرف كيف مررتُ من هذا الموضوع دون أخطاءٍ - سألتُهم كيف يعتزمون دفع رسوم سفرهم إلى أمريكا، ولم أتفاجأ عندما أبلغوني بأنهم قرروا أن يضعوا أنفسهم تحت رحمة القنصل، وفي نهاية المطاف جمعتُ مبلغًا معيَّنًا من الجالية الأمريكية، وأكملتُ الباقي من جيبي الخاص لأتخلص منهم، وعلى القنصل في ليڤربول أن يهتم بهم هو الآخر عندما يصلون إلى هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أثناء عملي في القنصلية حضرتُ حفلًا كبيرًا أقامه إبراهيم السنوسي في مقرِّ إقامته بالإسكندرية على شرف زواج ابنته من نجل إبراهيم بك الناضوري، وكان ذلك أمرًا مدهشًا جدًا ولا ينساه المرء؛ فقد كان إبراهيم السنوسيُّ سخيًّا في ضيافته للغاية، وساعده شقيقه - سيدي عمر - في تأمين وسائل الراحة لضيوفه، ولا أعتقد أنَّ أعظم النبلاء الأوروبيين كان بإمكانهم الضيافة بأكثر من هذا اللطف واللياقة.

كان جزءٌ كبيرٌ من الحديقة مُطَوَّقًا ومُضَاءً بشكلٍ جميل، بينما توفرت كل أصناف المرطبات المرغوب فيها؛ باستثناء الخمور التي كانت محظورةً تمامًا، كانت الفرقة الموسيقية التابعة لليخت الخديوي (المحروسة) وفرقةٌ مدنيةٌ أخرى يتبادلان العزف والراحة خلال المساء، وكانت الموسيقى التي يعزفونها جميلةً للغاية.

حضر الآلاف من الضيوف على امتداد فترة الحفل، وعددٌ من المصريين من جميع الطبقات، وهو ما أظهر بوضوحٍ مدى سمو آل السنوسي في نظر إخوانهم في الدين، وقد حضرتُ الحفلَ؛ ليس فقط بصفتي قنصل الولايات المتحدة؛ ولكن كصديقٍ شخصيٍّ للسنوسيِّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي للحفل، عندما كنتُ في مكتبي، أخبروني بأنَّ سيدةً أمريكيةً شابةً ترغب في التحدُّث معي في أمرٍ خاصٍّ لم يخبر الكاتب باسمها، وكان هذا أمرًا غير معتادٍ؛ لكنني وافقتُ على مقابلتها، وبعد لحظةٍ كانت في الغرفة..

كانت شابةً صغيرةً جدًا وجميلةً للغاية، كما كانت مضطربةً جدًا.. قدَّمتُ لها كرسيًّا وانتظرتُ حتى تجمع شتات نفسها قليلًا، شاغلًا بنفسي ببعض الأوراق التي لا تحتاج إلى التركيز.. وأثناء ذلك، تذكرت أنني رأيتُها في اليوم السابق في حفل السنوسي تتحدَّث مع شابٍ مصريٍّ، كانا أغرابًا بالنسبة إليَّ؛ ولكنْ كان هناك شيءٌ مميزٌ في تعبيرات وجهها وهي تتكلم؛ وهو ما جعل وجهها يَثبتُ في ذاكرتي.

قالت: «لا أعرف كيف أشرحُ لك.. لكن أنا في ورطةٍ كبيرةٍ».

قلت: «حسنًا، كلنا نقع في المشاكل؛ لكن خذي وقتك وأخبريني بالأمر، وسنرى إذا ما كان من المستحيل التخلُّص من هذه المشاكل أم لا».

شيئًا فشيئًا عرفتُ منها قصتها؛ فقد كانت أرملةً شابةً تسافر مع وصيفتها، وفي مكانٍ ما قابلت المصريَّ الذي رأيتُها تتحدَّث معه، وقد وقعتْ في حُبِّه، أو تظنُّ أنها وقعتْ في حُبِّه، والآن هو يريد منها أن تتزوجه.. كانت وصيفتها مريضةً، ولا تعرف أحدًا يمكن أن تطلب النصيحة منه؛ ولذا جاءت إلى القنصل تطلب مشورته.

بحقِّ الله ما الذي يمكن أن أقوله لمثل هذه الأرملة الشابة الساحرة؟! وهذه القضية من الموضوعات التي تتطلَّب احتراسًا شديدًا.. لذا، وبسبب عدم وجود بديلٍ أفضل من مصارحتها؛ سألتُها إذا كانت تعرف الظروف التي تعيش فيها زوجات المصريين؟ وهل تعلم أنَّ المسلم يسمح له دينه بأربع زوجاتٍ أم لا؟!

- نعم، لقد سمعتُ بذلك، لكن هذا المصري لن يتزوَّج بأخرى غيرها.

كنتُ متشكِّكًا في هذه النقطة؛ لكنني لم أستطع أن أُخبرها بذلك، أو أقول لها إنه - إلى جانب الحقِّ في التزوُّج بأربع زوجاتٍ - يمكن أن تكون له محظيات(323).. لذا قلتُ لها إنْ كانت تريد نصيحتي حقًّا؛ فهي أن ترجع إلى أمريكا لمدة عام؛ فإذا وجدت في نهاية العام أن مشاعرها لم تتغير؛ يمكنها العودة إلى هنا والزواج من الشاب.

واقترحتُ عليها أيضًا أن تستعلم من سيدةٍ أوروبيةٍ كيف تعيش زوجات المصريين بالضبط، وتُقرِّر إذا كانت هذه الحياة ستكون مناسبةً لروحها الأمريكية الحرة وتربيتها أم لا.

أعطتني كثيرًا من التفاصيل عن حياتها، وعلمتُ أنها وحيدةٌ في العالم، باستثناء وجود عددٍ قليلٍ من أبناء عمومتها، وأنها أيضًا تمتلك ثروةً كبيرةً جدًا.

كما نصحتها أن تكتب إلى الشاب المصري - إذا كانت تنوي الأخذ بنصيحتي - وإخباره بأنها لا تستطيع إعطاءه الآن ردًّا على طلبه للزواج منها، وأنها ستذهب إلى أمريكا لمدة عام، وفي نهاية العام ربما ستعود إليه.

وقد أكّدتُ على أمرٍ مفاده أنني لو كنتُ مكانها فلن أخبره بالمكان الذي أنوي العيش به بالولاياتِ المتحدة، وأنني لن أراسله خلال ذلك العام أيضًا، لأنها في نهاية العام - وهو فترة ليست بالطويلة - ستكون قد عرفت أمرين: إذا كانت تحبه بالفعل أم لا، وإذا كان هو يحبها بالفعل أم لا.

أعلم أنني تحدَّثتُ معها بصراحةٍ مطلقةٍ، ويبدو أنها فوجئتْ بمنطقية ما قلته لها ومعقوليته، وغادرتِ المكان بعد أن شكرتْ لي مرارًا، وعادت إلى أمريكا بالفعل، ووصلتني رسالةٌ منها بختم بريد نيويورك بعد بضعة أشهر عندما كنتُ في نابولي، لا أعرف ما إذا كانت في نهاية العام قد جاءت ثانيةً إلى مصر أم لا؛ لكنني أمل بصدق لمصلحتها ألا تكون قد عادت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أحزن كثيرًا عندما تلقَّيتُ إخطارًا يُفيد تعيين قنصلٍ أمريكيٍّ في الإسكندرية، وتلقَّيتُ الرسالة الآتية من القنصل العام في القاهرة:

«القاهرة، مصر،

23 يونيو 1885

كوسيل بك - القائم بأعمال قنصل الولايات المتحدة بالإسكندرية:

سيدي المحترم،

تمَّ حاليًا اتخاذ الترتيبات اللازمة لتسمية أحد ذوي الألقاب لمنصب قنصل الولايات المتحدة في الإسكندرية.

وأغتنم الفرصة الحالية لأقدِّم لكم خالص الشكر على الخدمات المتنوعة التي قدَّمتها بصفتك القائم بأعمال قنصل الولايات المتحدة في مدينتك، وكذلك على الطريقة القديرة للغاية التي أدرتَ بها القنصلية، خلال الفترة التي عُهد إليك فيها بإدارتها.

خادمك المطيع

(توقيع)

ن. د. كومانوس

القائم بأعمال القنصل العام للولايات المتحدة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأشهر الأولى من عام 1886، ذهبتُ إلى الفيوم مع بعض الأصدقاء، وأمضينا هناك حوالي أسبوعين، كانا ماتعين للغاية ومثيرين أيضًا، وأعتقد أننا زرنا جميع الأماكن التي تُثير الاهتمام.

لقد كنَّا معظم الوقت نُخيِّم في العراء، ومارسنا الكثير من الصيد، وذهبنا إلى المدينة بالقطار، وعُدْنا بالطريقة نفسها، واندهشتُ من خصوبة الفيوم، ولابد أنها كانت مكانًا رائعًا وقت أن كانت في قمة ازدهارها، ووفقًا لما يُقال عنها؛ أنه كان بها ما يقرب من أربعمائة بلدةٍ وقريةٍ داخل حدودها.

وإذا كان هذا الكلام صحيحًا بالفعل؛ فلابد أن الزمن قد تسبَّب في اندثارٍ رهيبٍ لمعظم هذه القرى والبلدات، حتى متاهة الممرَّات التي بُنيت على ما يبدو في عهد الأسرة الثانية عشرة - والتي وصفها هيرودوت بأنها تتفوَّق على الأهرامات - قد اختفت ولم يُقرِّر الخبراء إلا مؤخرًا ما يتعلَّق بموقعها المحتمل.

هناك شيءٌ بشأن الأطلال يُسبِّب لي الحزن دائمًا؛ إذْ يمكن للمرء أن يتخيَّل البُناة حينها يدور بخلدهم أنَّ هذا العمل سيدوم كثيرًا، يبنونه قويًّا وصلبًا، ويُنفقون عليه الكنوز، ويعيشون في ظله المنتصب، ثم بعد ألف سنةٍ أو نحوها يكون قد ذهب أدراج الرياح.

لكن يُفترض أن يكون قد أدَّى دوره في وقته، فكما يحدث مع كل الأشياء؛ حتى الصورة التي لا يستطيع الفنان بيعها، تكون قد علَّمته شيئًا أو حتى ثبَّطته عن الرسم؛ لكنَّها في كل الأحوال قد قدَّمت له شيئًا، وأظنُّ أن العيش بين الأطلال قد يقودني إلى السوداوية بسبب التفكير في عبثية الإنسان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في 7 سبتمبر 1886، تعطَّف صاحب سمو الخديوي(322) ومنحني الوسام المجيدي الإمبراطوري من الطبقة الثالثة، رغم أنني لم أعد أعمل في خدمة الدولة، وفي 15 أكتوبر 1886 نُشر ما يلي في صحيفة لندن جازيت:

«يسر جلالة الملكة أن تمنح وتُنعم على صموئيل كوسيل بيك، مراقب عام الجمارك المصرية السابق، بسماح جلالتها الملكي له وتفويضه في قبول ارتداء شارة الوسام المجيدي من الطبقة الثالثة الذي أنعم عليه به صاحب السمو خديوي مصر، تقديرًا لخدماته حين كان يعمل بصورة فاعلة وكاملة في خدمة سموه، وخارج نطاق سلطات جلالة الملكة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في عام 1887 قررتُ أن أغادر مصر نهائيًا، وأعيش في إيطاليا بعض الوقت، وهكذا في 3 مايو كان لديَّ لقاءٌ للوداع مع سيدي الراحل الخديوي توفيق باشا، وقد أعرب بغاية اللطف عن أسفه لمغادرتي مصر، وعبَّر لي عن أمله في ألا يستمر ذلك الغياب طويلًا.

قبل أن أستأذنَ منه، تفضَّل بترقية الوسام المجيدي الممنوح لي إلى الطبقة الثانية أو (درجة ضابط عظيم)؛ ولكن نظرًا لأنه لم توجد وقتها أيُّ فرمانات في القصر؛ فقد أصدر سموه تعليماتٍ إلى دي مارتينو باشا سكرتيره الخاص، بالتأكيد على أنه بمجرد وصول الدفعة التالية من الفرمانات السلطانية من القسطنطينية؛ يجب أن يرسل إليَّ واحدًا بقرار سموه.

كانت هذه آخر مرةٍ رأيتُ فيها سُمُوَّه، حيث تُوفي في حلوان بسبب الإنفلونزا عام 1892.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما غادرتُ مصر ذهبتُ إلى نابولي، ومكثتُ هناك مدة عامين، وفي ذلك الوقت رأيتُ الخديوي السابق إسماعيل باشا كثيرًا، إلى أن غادر إلى القسطنطينية، ثم ذهبتُ بعد ذلك إلى فلورنسا، حيث مكثنا هناك خمس سنواتٍ، وخلال هذه الفترة أصابني السأم الشديد من حياة الخمول هذه؛ لذا عُدتُّ إلى إنجلترا وتقدَّمتُ بطلبٍ إلى وزارة الخارجية للحصول على وظيفة قنصل، ودَعَمَ عددٌ من الرجال المؤثِّرين طلبي المقدم إلى الوزارة؛ لكنني وجدتُّ عند التقديم أنه دائمًا تكون بعض الوظائف الشاغرة إمَّا قد شُغلت فور خلوها، أو على وشك شغلها، أو تم الوعد بها لأحد الأصدقاء أو أحد أقارب مَن هم في السلطة.

لاحقًا صدر قرارٌ بتعييني نائبًا للقنصل البريطاني في (جرجيس)، وهي بلدةٌ صغيرةٌ أو قريةٌ تقع في تونس بشمال إفريقيا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ولا تبعد كثيرًا عن حدود طرابلس، ولم تكن هذه البلدة في ذلك الوقت تقريبًا سوى مجموعة أكواخٍ مصنوعةٍ من الطين، ويسكنها عددٌ قليلٌ من التونسيين أو العرب فحسب، ولم يكن يُقيم بها أوروبيون، ولا تُوجد منازل أوروبيةٌ مبنيةٌ ولا حتى نُزلٌ أو فندقٌ.. في الواقع، لم تكن جرجيس أكثر من محطةٍ حدوديةٍ عسكريةٍ فرنسيةٍ أو ميناءٍ.

لسوء الحظِّ في ذلك الوقت اعتلَّت صحتي مرةً أخرى؛ ومن ثم كان عليَّ أن أرفض التعيين مع تقديم الشكر والأسف.

قضيتُ بعض الوقت في الساحة الفرنسية في شمال إفريقيا، ومثَّلتُ الحكومة التونسية في افتتاح المعرض الدوليِّ للأسماك في بيرغن(321) بالنرويج، وفي العام 1889؛ ومن أجل الخدمات التي قدمتُها في تلك المناسبة مُنحت وسامًا تونسيًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدتُّ إلى زيارة مصر عدة مراتٍ منذ ذلك الحين، وكنتُ دائمًا أتلقَّى ترحيبًا حارًّا من صاحب السمو عباس باشا الثاني - الخديوي الحالي(320) - وكذلك

الوزراء وأصدقائي القدامى من الأوروبيين والمصريين.

يا له من تغييرٍ مذهلٍ حدث بالبلاد منذ أن وطئت قدمي الإسكندرية لأول مرةٍ عام 1863! فعدد السكان الذي كان أقلَّ من سبعة ملايين؛ أصبح الآن يقارب اثني عشر مليونًا، وغيَّرت قناة السويس وجه الحياة في البلاد، وكذلك الأعمال الهندسية العظيمة، كما تضاءلت سلطة الخديوي، وأمكن لإنجلترا السيطرة على البلاد، أضف إلى ذلك بعض الأشياء الصغيرة التي وقعت مثل تفشِّي وباء الكوليرا، والثورات والمذابح والمعارك الكبيرة والصغيرة.

لم تعد مصر تلك الدولة التي عرفتُها سابقًا، لقد تطوَّرت وتقدَّمت بوتيرةٍ هائلةٍ.. وكثيرًا ما كنتُ أتساءل: هل سيحدث شيءٌ يؤدي إلى إفساد أفضل الخطط الموضوعة؛ لأنها بلدٌ مليءٌ بالمصالح المتضاربة، والتي يبدو كما لو أن بعضها يرقد في سباتٍ بانتظار الوقت المناسب للظهور؟ وربما بمرور الوقت تنتشر الروح الثورية الموجودة بالفعل بين المعلمين والطلاب، وتنتقل إلى صفوف الفلاحين، وربما تُسبِّب الأفكار والكتابات البغيضة التي يبثُّها أُناس تلقَّوا التعليم الغربيَّ من وقتٍ قريبٍ استياءً واضطرابًا عامًا؛ لكن التشريع الحكيم والضرائب العادلة والمساواة بين جميع الطبقات، وفوق كل ذلك الشعور بالأمان؛ وكلها عوامل لها تأثيرٌ جيدٌ حتمًا، وإذا أمكن جعل كل تلك العوامل تستمرُّ لفترةٍ كافيةٍ، وأصبحت الجماهير معتادةً عليها ومثَّلت لهم حاجةً مهمةً؛ فإنها قد تُثبت قدرتها كملاذٍ يلوذ به الفلاحون في وقت الأزمة العاصفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند التفكير في مصر، يتوجب علينا أن نضع الترك في حسباننا؛ فإنهم قومٌ ماكرون، ولا يمكن لهم كأمةٍ أن يرضوا باحتلال البريطانيين لمصر، وأنا شخصيًّا لا أتفاجأ قطُّ بمعرفة ما كانوا يبذلونه بمهارةٍ من جهودٍ كبيرةٍ لاستعادة هيبتهم في مصر البلد الأقرب إليهم، وأنهم يستعينون بالدين في مساعيهم، وهو عاملٌ مهم للغاية.

إنَّ عقيدة الإسلام تكتسب أرضيةً في إفريقيا كل يومٍ؛ لأنَّ هذا الدين مع حرياته الكبيرة التي يمنحها في الناحية الجنسية؛ هو - على الأرجح - الأكثر جاذبيةً للناس من التعاليم المسيحية التَّطهُّريَّة(319)، وإذا وقع - لا قدَّر الله - أيُّ شيءٍ يجعل القوى الأوروبية العظيمة تُمسك بخناق بعضها؛ فإنها ستكون فرصةً سانحةً لتركيا لا أعتقد أنها ستتوانى في انتهازها.

ثمَّ مرةً أخرى، هناك شعار «مصر للمصريين»، وهي صرخةٌ قويةٌ، تتوسَّل أحيانًا بصوتٍ زاعقٍ من أجل تطبيق فكرةٍ أو نموذجٍ ما ووضعه موضع التنفيذ، بغض النظر عن كونه يصلح للتطبيق أم لا.

نحن نسيطر على مصر بالقوة المعنوية كما هو المعتاد من البريطانيين في التعامل مع الأعراق الشرقية، ونثق إلى حدٍّ كبيرٍ في مكانتنا سواء من ناحية قوة شخصيتنا أم قوتنا القتالية، وهذه السيطرةَ تكون في وضعٍ جيدٍ عندما تكون الوزارة قويةً؛ لكن للأسف ليست كل الوزارات البريطانية قويةً؛ فالوزارة - التي تتسم بالقوة والشجاعة وتتعامل مع الأمر بحزم وفهم - تجد أنَّ خليفتها تُفسد عملها بالضعف والتردُّد؛ وهذا هو الحال أيضًا بالنسبة إلى الوكيل العام البريطانيِّ؛ أو نائب الملكة البريطانية في مصر.

ويبدو أنَّ الرجل القويَّ المناسب لهذه المناصب يصبح وجوده نادرًا أكثر فأكثر؛ لكن نأمل أن يجدوا على الدوام الشخص المناسب الذي يُمثِّل بريطانيا العظمى في مصر؛ لأنه لا أحد يستطيع التنبؤ بمدى قرب الوقت الذي تقع فيه أحداثٌ تصبح فيها قيمة الحزم والشجاعة الأخلاقية مساويةً لآلاف الأرواح والملايين التي لا تُحصى من الجنيهات بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية.

وعلى مدى السنوات الخمس الماضية، حاولت الاستقرار والركون بشكلٍ أو بآخر إلى حياة الريف، وحاولتُ أيضًا أن أجعل نفسي تُصدِّق أنني أُحبُّ ذلك؛ لكنه أمرٌ صعبٌ! صعبٌ جدًا جدًا! لأنني باستمرار أسمع «نداء الشرق"(318).

إنَّ التفكير في الألوان والسماوات المشمسة والنيل الغامض وغروب الشمس الرائع يجعلني على درجة كبيرة من الحزن والقنوط، وعندما تخترق عظامي الريح الشرقية الباردة؛ أشعر بالميل إلى العودة إلى مصر مرةً أخرى، ولو لأستمع ثانيةً تلك الصيحة الشرقية الحميمة: «الله أكبر.. لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسولُ الله».

حديقة دورمانز، سوري.

يونيو 1914»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(324) الذين كانوا يحملون ألقاب النبالة والسمو الموروثة من الاحتلال البريطاني للولايات المتحدة سابقاً، ومصطلح (Titular) الذي استخدمه المؤلف معناه حامل اللقب الفخريِّ أو الشرفيِّ أو الاعتباريِّ.

(323) لمزٌ غير مقبولٍ للشريعة الإسلامية.

(322) الخديوي محمد توفيق باشا.

(321) Bergen مدينةٌ ساحليَّةٌ جنوب غرب النرويج.

(320) تولى عباس حلمي الحكم في 8 يناير 1892 وظلَّ إلى أنْ عُزل في 19 ديسمبر 1914.

(319) كلامٌ مغرضٌ يُردِّده المستشرقون، وهو في ذلك تبعٌ لهم.

(318) عبارة شهيرة آنذاك في عصر التوسع في احتلال الشرق، وأصلها من قصيدة بعنوان: (مانداليا) لرودِيارد كيبلينج عام 1890. ويقول فيها: «إذا سمعت نداء الشرق فلن تُصغي أُذناك إلى شيءٍ غيره».

(If you've heard the East a - calling, you won't never heed naught else)

الخاتمة

التعامل مع الوقت الحاضر 1914

اندلاع الحرب العظمى - الخلاف مع تركيا - الحماية البريطانية على مصر - تعيين مفوضٍ سامٍ - تنحية الخديوي عباس حلمي - ترشيح الأمير حسين كامل باشا سلطانًا لمصر - تقرير السير لويس ماليت - سيرة السلطان حسين - برقية الملك چورچ إلى السلطان حسين - ردُّ السلطان - حفلٌ رسميٌّ بالقاهرة - آراء السلطان حسين - حسين رشدي باشا - آراء رئيس الوزراء - أغا خان في القاهرة - خُطَب السير ريجينالد وينجيت - الواردات الألمانية والنمساوية - تلميحاتٌ لرجال الصناعة البريطانيين.

كانت مخطوطتي قد اكتملت بالفعل، وأصبحت جاهزةً لتسليمها للناشرين عندما اندلعت الحرب؛ ومن ثم ظلَّ كلُّ شيءٍ معلقًا في الوقت الحاضر.. وأثناء هذا التعليق؛ اعتقدتُّ أنه من المستحسن إضافة فصلٍ آخر أقصُّ فيه الأحداث التي أدَّت إلى التغيير الحالي لنظام الحكم في مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محمد علي، مؤسس الأسرة الحاكمة

محمد علي، مؤسس السلالة الحاكمة الحالية في مصر، كان رجلًا ارتقى إلى مكانةٍ وقوةٍ عظيمتين اعتمادًا على مواهبه وقدراته الخاصة، وباعتباره (باشا مصر)، فقد رفع نفسه إلى ذروة السلطة وللدرجة التي تَمكَّن بها من تحدي سلطان تركيا.

في عام 1820، وظَّف ضباطًا فرنسيين لتدريب جيشه وتوجيهه، بينما وضع الإنجليز على رأس أسطوله البحري.

وفي عام 1832 عندما ضعفت تركيا بسبب حروبها المتتالية ضد اليونان وروسيا؛ أرسل جيشه - الذي كان عدده يفوق عدد جيش سلطانه التركي - لاحتلال سوريا، واعتبر ذلك الخطوة الأولى نحو إعلان استقلال مصر.

في مارس 1832 عَيَّن السلطانُ التركي (355) حسينَ باشا(354) واليًا على مصر بدلًا من محمد علي، وأرسل جيشًا قوامه قرابة أربعين ألف رجلٍ ليكونوا تحت إمرته، ولإبداء ازدرائه للقرار؛ حثَّ محمد علي شريفَ مكة(353) على إصدار فتوى ضد السلطان، معلنًا أنه عدوٌ للرسول، وصبَّت هذه الفتوى كثيرًا في صالح محمد علي وولده إبراهيم الذي أثبت أنه جنرالٌ ممتازٌ؛ فلم يمض وقتٌ طويلٌ قبل هزيمة قوات السلطان على يد إبراهيم باشا، واضطر

السلطان إلى الموافقة على شروط محمد علي وأحكامه بعد أن أصبح حاكمًا أقوى من سيده، وأصبحت سيادة السلطان اسميةً فحسب.

في عام 1839 أسقط محمد علي طاعته للسلطان عبر رفضه دفع الجزية، واندلعت الحرب مرةً أخرى، وحينها انهزم الأتراك تمامًا؛ وفي هذه المرحلة تُوفي السلطان محمود الثاني وخلفه ابنه عبد المجيد(352).

كان السلطان الجديد راغبًا للغاية في حسم المسألة المصرية، وربما يكون قد وافق على شروط محمد علي الجديدة؛ لكن القوى الأوروبية الكبرى تدخَّلت، وهزمت قوات إبراهيم باشا عدة مراتٍ، وأجبرت محمد علي على العودة إلى الخضوع للسلطان شريطة أن يحتفظ بولاية مصر بالوراثة، بينما عادت سوريا إلى التبعية للباب العالي، وبهذه الطريقة أسَّس محمد علي الأسرة الحاكمة العظيمة الموجودة الآن.

بعد الحرب السورية، شرع محمد علي في العمل الجادِّ لتحسين موارد بلاده، وأحدث أثرًا كبيرًا في هذا الاتجاه؛ فبُنيت الجسور، وأنشئت القنوات للريِّ وتوفير المياه للشرب، وعمل كثيرًا من أجل الزراعة.

كما أسَّس المصانع لإنتاج البارود والمواد الكيميائية والحرير والقماش والأسلحة النارية وبعض المنتجات الأخرى، كما أنشأ عدة مدارس للأغراض العسكرية والطب والزراعة وغير ذلك، وكان قد فكَّر سابقًا في إنشاء سكةٍ حديديةٍ صحراويةٍ خفيفةٍ من القاهرة إلى السويس، وذهب إلى حدِّ إجراء مسوحاتٍ للأراضي والمناطق، وقام بها مهندسه الإنجليزيُّ جالواي بك.

إنَّ الأسرة التي أسَّسها محمد علي يديرها الآن حفيده الأكبر حسين الأول سلطان مصر(351).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهت السيادة العثمانية على مصر عمليًّا عندما انضمَّت تركيا إلى ألمانيا والمجر النمساوية أعداء إنجلترا، وهو ما أجبر الأخيرة وأوجب عليها اتخاذ خطواتٍ من أجل تسوية موقفٍ شاذٍّ وصعبٍ، وهو ما حدث عبر إعلان الحماية البريطانية على مصر(350).

كانت السيادة التركية الفعليَّة حقًّا من أكثر الأنواع غموضًا؛ فطوال الوقت كان المصريون الصادقون يكرهونها ويستاءون منها، وعمليًّا لم يكن لتركيا أيُّ نصيبٍ في السيطرة الفعلية على مصر؛ فالبلاد يحكمها الوزراء المصريون منذ تمرُّدٍ عام 1882 تحت قيادة مستشارين إنجليز، وبتوجيهٍ من خبراء مثل اللورد كرومر، واللورد كتشنر وآخرين.

وفي السابع عشر من ديسمبر(349)، صدر الإعلان الآتي:

«أصدر وزير جلالة ملك بريطانيا للشئون الخارجية إخطارًا للجميع بأنه في ضوء حالة الحرب الناشئة بسبب تصرُّف تركيا؛ فإنَّ مصر قد وُضِعت تحت حماية جلالة الملك، ومن الآن فصاعدًا؛ ستكون محميةً بريطانيةً، وبذلك تنتهي سيادة تركيا على مصر، وستتخذ حكومة جلالة الملك الإجراءات الكافية واللازمة للدفاع عن مصر وحماية سكانها.

وُيسعد الملك أن يوافق على تعيين اللفتنانت كولونيل السير آرثر هنري مكماهون(348) حامل وسام القديس ميخائيل والقديس چورچ والوسام الملكي الڤيكتوري ووسام الامبراطورية الهندية ووسام نجمة الهند ووسام القديس يوحنا؛ ليكون المندوب السامي لجلالة ملك بريطانيا في مصر».

كان مُفرحًا لي أن أرى بريطانيا العظمى قد قرَّرت أخيرًا إعلان الحماية على مصر، وأنَّ كلمة الصَّمِّ قد حُذفت من البيان؛ وهو أفضل ما يمكن عمله.

وبوصفي مسئولًا أنجلومصريٍّ قديمًا وشخصًا يحمل الخير لمصر في قلبه؛ أعتقدُ أنها كانت خطوةً سياسيةً حكيمةً وجيدةً، ويجب تهنئة السلطات التنفيذية على اتخاذها خطوةً إداريةً عمليةً بحتةً ستسمح لنا بتسوية وضعنا بشكلٍ نهائيٍّ في مصر، وتخليصها من معوقاتها الأشد إلحاحًا؛ فجميع القيود المزعجة التي فرضتها الامتيازات سيتم التخلُّص منها، وستختفي أيضًا جميع الصعوبات التي كانت مرتبطةً حتى الآن بوجود السيادة التركية، وستكون لبريطانيا العظمى أخيرًا حرية مواصلة التقدُّم وتسريعه نحو التنمية والرفاهية في البلاد، ونحو مستقبلٍ متألقٍ.

وأُطيح بالخديوي عباس حلمي(347) الذي تآمر على النفوذ البريطانيِّ في مصر منذ ارتقائه للعرش(346)، وتولَّى عرش مصر بدلًا منه عمه الأمير حسين كامل باشا، وحمل لقب (سلطان مصر)، وجاء اختياره وفقًا لقانون الخلافة التركيِّ الذي ينتقل العرش بموجبه إلى أكبر الذكور في الأسرة، ولم يكن هذا ملاحظًا في مصر منذ عام 1866؛ لأن الخلافة كانت تتمُّ بصورةٍ وراثيةٍ، وتمَّ تجاوز هذا التقليد التوارثيَّ في تلك الحالة؛ لأن الأمير حسين هو أكبر أفراد أسرة محمد علي الموجودين على قيد الحياة، وكان هو الابن الثاني والمُفضَّل لإسماعيل باشا.. إنه ليس أميرًا ذا خبرةٍ وبالغ الذكاء فحسب؛ بل كان أيضًا دائم الدعم للنفوذ البريطانيِّ، ومحبوبًا من الشعب وخبيرًا بالزراعة، وقد أولى اهتمامًا كبيرًا لمساعدة الفلاحين وتحسين أوضاعهم، ومن ثم أطلقوا عليه (أبو الفلاح).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استلزم تغيُّر وضع البلاد تعيينَ مفوضٍ سامٍ بريطانيٍّ لمصر، وتم تعيين السير هنري مكماهون - وهو مسئولٌ أنجلوهنديٌ قديم - وغادر الخديوي السابق

عباس حلمي مصر متوجِّهًا إلى القسطنطينية خلال فصل الصيف(345)، حيث بقي هناك منذ ذلك الحين.

وفي 27 يوليو(344) جرت محاولة لاغتياله بينما كان يغادر الباب العالي، وأصيب بأربع طلقات، جاءت إحداها في خده وأسقطت بعض الأسنان، وأصابت الثلاث الأخرى ساعده الأيسر، كانت الجروح خفيفة ولم تُعدُّ خطيرةً على الإطلاق، وكان القاتل المزعوم هو محمود مظهر - الذي قُتل بالرصاص على الفور في مكان الحادث - من عائلةٍ مصريةٍ معروفةٍ؛ إذْ كان والده رئيسًا لمحكمة بني سويف الأهلية عدة سنواتٍ، وأظهر القاتل ولعًا بجماعة القوميين المقيمين في القسطنطينية.

كان يُعتقد أنه بعد محاولة الاغتيال هذه، سيعود الخديوي السابق إلى مصر في الحال؛ لكن من الواضح أن التأثيرات الخبيثة لحزب تركيا الفتاة(343) عليه كانت كبيرةً، وبقي مستسلمًا لمصيرٍ ربما لم يتوقعه هو نفسه.

وبالرجوع إلى التقرير الأخير للسير لويس ماليت السفير البريطاني في القسطنطينية بتاريخ 20 نوفمبر 1914؛ نجده يتهم بوضوح الخديوي عباس حلمي بالتآمر مع أنور باشا(342) والحزب الألماني في القسطنطينية ضد إنجلترا، ويقول مُتحدِّثًا عن ضُبَّاط البعثة العسكرية الألمانية، إنهم المُنظِّمون الرئيسون للاستعدادات العسكرية القائمة في سوريا، والتي هدَّدت مصر بشكلٍ مباشرٍ وأصبحت مصدر قلقٍ كبيرٍ، كما يشير إلى أنَّ الدليل على هذه الاستعدادات أصبح يزداد تأكيدًا يومًا بعد يومٍ.

وكان مبعوثو أنور باشا حاضرين على الحدود يرْشُون البدو ويجندونهم، وأُرسلت الذخائر الحربية إلى الجنوب، ونُشِرت كتائب من القوات النظامية في رفح، بينما وُضِع الفيلق السوري وفيلق الموصل على أُهبة الاستعداد للتحرُّك جنوبًا بمجرد تلقي الأمر، وكانت المدن السورية مليئةً بالضبَّاط الألمان الذين جرى تزويدهم بمبالغ كبيرةٍ من المال لرشوة الزعماء المحليين.

لقد كان الخديوي نفسه طرفًا في المؤامرة، وأُجريت الترتيبات الفعلية مع السفارة الألمانية لحضوره برفقة بعثةٍ عسكريةٍ عبر الحدود.

اختفاء عباس حلمي من الشأن المصري لم يكن مأسوفًا عليه؛ فهو لم يهتم كثيرًا برفاهية شعبه الذي كرهه على المستوى الشخصيِّ - رغم احترامهم الدائم لسلالة محمد علي - فقد كان جشعًا جدًا، وهدفه الوحيد في هذا العالم هو جمع الثروات واكتنازها؛ ويقال إنه لم يغفر للورد كتشنر قط حرمانه من هيمنته على عائدات الأوقاف حيث كان صاحب المُلك والسيادة العليا.. كان على النقيض تمامًا من جده الشهير إسماعيل باشا أحد أكثر الحكام كرمًا في عصره، والذي كان ملكًا في كل شيءٍ وبكل معنى الكلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جزية مصر لتركيا تبلغ نحو (650) ألف جنيه إسترلينيٍّ سنويًّا، وقد ذكرت بعض الصحف أن دفع هذه الجزية سيتوقَّف في المستقبل بشكلٍ طبيعيٍّ؛ لكن هذا لم يكن صحيحًا؛ فالمبلغ كله كان مقيَّدًا بسداد أحد القروض التي اقترضتها تركيا، وهناك تعهدٌ مباشرٌ من الخزانة المصرية بدفع هذا القرض لأصحاب السندات التي أصدرتها الدولة العثمانية؛ لذلك لن تستفيد مصر من توقُّف الجزية من الناحية المالية إلى أن يحين الوقت الذي يتمُّ فيه سداد كامل القرض.

تقول «التايمز» متحدثة عن السلطان الجديد:

«الأمير حسين، المولود في 20 ديسمبر 1853، كان الابن الثاني والمفضل لإسماعيل باشا وحفيد محمد علي، درس في مصر، وذهب إلى باريس في عام 1867 لإكمال تعليمه، حيث كان ضيفًا على نابليون الثالث، وأصبح رفيقًا حميمًا للأمير الإمبراطوري(341). وبعد عودته إلى مصر عام 1869، أدى دور الياور (المرافق الشخصي) للإمبراطورة أوچيني، أثناء افتتاح قناة السويس. وعندما أُرسل مع بعثة إلى ڤيكتور إيمانويل(340)؛ زار فلورنسا، ومن هناك سافر إلى باريس حيث مكث إلى ما قبل الحصار مباشرةً.

وفور عودته إلى مصر؛ دخل الحياة العامة؛ حيث عمل في البداية مفتشًا عامًّا للوجهين البحري والقبلي، وتولَّى بالتتابع جميع الحقائب الوزارية، بدءًا من وزارة الأوقاف عام 1872، وانتهاءً بوزارة المالية عام 1877. وخلال فترة إدارته لكل إدارة أظهر علامات الفعالية والنشاط، وحدث تقدمٌ كبيرٌ في التعليم.

وخلال فترة تولِّيه وزارة الأشغال العامة جرى إنشاء عددٍ من الأعمال النافعة، بما في ذلك ترعة الاسماعيلية التي تمتد من القاهرة إلى الإسماعيلية.

تميَّزت فترة حكمه بأعظم غزوات إسماعيل في السودان، وبمحاولةٍ نشطةٍ لإعادة تنظيم الجيش، ومن الجدير بالذكر أن هيئة الأركان في ذلك الوقت كانت تتألف من ضباط أمريكيين تحت قيادة الجنرال ستون.

عند تنازل إسماعيل باشا عن العرش عام 1878؛ رافق حسين والده إلى نابولي حيث أقام هناك لثلاث سنواتٍ، وسُمح له بعد ذلك بالعودة إلى مصر بعد موضوع عرابي.

اهتم حسين طوال حياته المهنية بشكلٍ كبيرٍ بالمسائل الزراعية، ورعاية الفلاحين، والحركة التعاونية، وكثيرًا ما كان يزور عواصم أوروبا لدراسة الأوضاع المحلية، وقد أكسبه اهتمامه ونشاطه هذا لقب (أبو الفلاح).

باختصارٍ؛ لا يمكن تخيُّل اختلافٍ أعظم من ذلك بين الحاكم المخلوع والحاكم الجديد؛ فالأخير كان دائمًا صديقًا لبريطانيا العظمى، ويتفهَّم تمامًا الوضع الخاص لبلده، وهو سخيٌّ إلى حدِّ الإفراط، وتشهد على ذلك العلاقات الممتازة القائمة بينه وبين مستأجري أراضيه الزراعية.

إن السلطان الجديد رجلٌ أقدر بكثيرٍ من ابن أخيه، وسوف يملأ المنصب الساميَّ بكرامةٍ أكبر وبشكلٍ أكثر نفعًا لرعاياه.

وللسلطان ابنٌ هو كمال الدين المولود عام 1875، تلقَّى تعليمه في ڤيينا، وتزوَّج من أخت الخديوي المخلوع».

كان لي شرف معرفة الأمير حسين كامل باشا طوال سبعة وثلاثين عامًا الأخيرة، وقد نجح بلباقته وذكائه في أنْ يحوز لنفسه شعورًا عامًا بالاحترام والتقدير، فهو رجلٌ بارعٌ بالغ الطيبة واللطف، يمنح كلَّ من يقترب منه انطباعًا بأنه ذو شخصيةٍ قويةٍ وأخلاقٍ جذَّابةٍ، وشخصٌ ودودٌ للغاية ومستقيمٌ تمامًا، وسيكون عونًا مخلصًا وقيِّمًا للسلطة الحامية لمصر.

كان الأمير حسين هو الذي عيَّنني في الجمارك المصرية لأول مرةٍ عام 1877، وكان حينها وزيرًا للمالية في عهد والده الراحل إسماعيل باشا، الذي - رغم كل ما حدث - أسَّس مصر، وكان دائمًا سيِّدًا كبيرًا وحاكمًا عظيمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في 18 ديسمبر 1914 صدر الآتي عن الهيئة الصحفية(339):

«بالنظر إلى ما قام به سموُّ عباس حلمي باشا، خديوي مصر السابق، الذي شايع أعداء ملك بريطانيا؛ رأتْ حكومة جلالة الملك أنَّ من المناسب إقالته من الخديوية، وأن يُقدَّم - مع عظيم الاحترام - لقبُ (سلطان مصر) إلى صاحب السمو الأمير حسين كامل باشا، أكبر أميرٍ على قيد الحياة من أسرة محمد علي، وقد قبِل صاحب السمو ذلك اللقب.

وكان من دواعي سرور الملك أن يوافق على تنصيب الأمير حسين فارسًا فخريًّا حاملًا لوسام الصليب الأعظم، بمناسبة خلافته للسلطنة».

وأرسلت وزارة الخارجية البريطانية الرسالة الآتية الموجهة إلى الأمير حسين بواسطة القائم بأعمال المفوض السامي في مصر:

«القاهرة 19 ديسمبر(338) 1914

صاحب السمو:

تلقَّيتُ تعليمات من دولة وزير صاحب الجلالة البريطانيِّ للشئون الخارجية؛ لإبلاغ سُموُّكم بالظروف التي سبقت اندلاع الحرب بين صاحب الجلالة

البريطاني وسلطان تركيا، والتغييرات التي تنطوي عليها تلك الحرب في وضع مصر.

في مجلس الوزراء العثماني كان هناك حزبان:

حزبٌ معتدلٌ، واضعًا في الاعتبار تعاطف بريطانيا العظمى مع كل جهدٍ من أجل الإصلاح في تركيا، والذي أدرك أن هذه الحرب التي انخرط فيها جلالة الملك بالفعل، ليس لتركيا أي مصلحةٍ فيها، ورحَّب هذا الحزب بتأكيدات جلالة الملك وحلفائه بأنَّ الحرب لن تكون ذريعةً لأيِّ عملٍ يُضرُّ بالمصالح العثمانية؛ لا في مصر ولا في أيِّ مكان آخر.

وعلى الجانب الآخر، كان هناك مجموعةٌ من المغامرين العسكريِّين عديمي الضمير، الذين فتشوا - في حربٍ عدوانيةٍ شُنَّت بالتنسيق مع أعداء جلالة الملك - عن وسائل لتعويض الكوارث العسكرية والمالية والاقتصادية التي أغرقوا فيها بلادهم.

وعلى أمل أن تسود النصائح الحكيمة التي قُدمت في الفترة الأخيرة؛ فإن جلالة الملك وحلفاءه - رغم الانتهاك المتكرر لحقوقهم - قد امتنعوا عن أي أعمالٍ انتقاميةٍ إلى أن أُجبروا على ذلك عندما عبرت العصابات المسلحة الجبهة المصرية والهجمات غير المبررة من جانب القوات البحرية التركية بقيادة ضباطٍ ألمانٍ على الموانئ الروسية المفتوحة.

وتمتلك حكومة جلالة الملك أدلةً كثيرةً على أنه منذ اندلاع الحرب مع ألمانيا؛ ألقى صاحب السمو عباس حلمي باشا - خديوي مصر السابق - بنفسه في أحضان أعداء جلالة ملك بريطانيا.

من الوقائع المبينة أعلاه يتبيَّن أنَّ الحقوق التنفيذية للسلطان أو الخديوي السابق على مصر؛ قد صودرت لصالح جلالة ملك بريطانيا.

وقد قبلت حكومة جلالته بالفعل، عبر القائد العام لقوات جلالته في مصر، المسئوليةَ الحصريةَ للدفاع عن مصر خلال الحرب الحالية، ويتبقَّى تحديد شكل الحكومة المستقبلية للبلاد التي تحرَّرت - كما ذكرتُ سابقًا - من جميع الحقوق السيادية أو غيرها من الحقوق التي تدَّعيها الحكومة العثمانية حتى الآن.

وبالنظر إلى الحقوق التي أصبحت مستحقةً لجلالته(337) - وهي لا تقل عن التي رتَّبها الإصلاح الذي جرى تطبيقه في مصر عبر الثلاثين عامًا الماضية - تُعدُّ حكومة جلالته نفسها وصيةً على سكان مصر، وقد قرَّرت حكومة جلالة الملك أن بريطانيا العظمى يمكنها الوفاء على أفضل وجهٍ بالمسئوليات التي

أخذتها على عاتقها تجاه مصر بإعلانها محميةً بريطانيةً رسميًّا، وتجاه حكومة البلاد في ظل هذه الحماية، ويرأسها عاهل الأسرة الخديوية.

في ظل هذه الظروف، تلقَّيتُ تعليماتٍ من حكومة جلالة الملك أن أُبلغ سموَّك بأنه - نظرًا لسِنِّك وخبرتك - فقد تم اختيارك لكونك الأمير الأكبر لأسرة محمد علي والأقدر على تولي منصب الخديوي، كي تحمل اللقب والمنصب (سلطان مصر).

ومع دعوتي لسموُّكم لقبول تولِّي مسئوليات منصبكم السامي؛ أودُّ أن أُقدِّم لكم التأكيد الرسميَّ بأنَّ بريطانيا العظمى تتحمل المسئولية الكاملة بالدفاع عن الأراضي الواقعة تحت حكم سموكم ضدَّ كل عدوانٍ أيًّا كان مصدره.

وقد فوضتني حكومة جلالة الملك بالإعلان عن أنه بعد ترسيخ الحماية البريطانية المعلن عنها الآن؛ سيكون لجميع الرعايا المصريين أينما كانوا، الحقُّ في حماية حكومة جلالة ملك بريطانيا.

ومع انتفاء السيادة العثمانية؛ ستختفي القيود التي وضعتها الفرمانات العثمانية على أعداد جيش سموكم وتنظيمه، وعلى قدرة سموكم لمنح أوسمةٍ وألقابٍ شرفيةٍ.

وفيما يتعلق بالعلاقات الخارجية؛ فإن حكومة جلالة الملك تعتقد أنه لتحقيق التوافق الأقصى مع المسئوليات الجديدة التي أخذتها بريطانيا العظمى على عاتقها؛ يجب أن تتمَّ العلاقات بين حكومة جلالتكم وممثلي الدول الأجنبية من الآن فصاعدًا عبر ممثل جلالة الملك في القاهرة.

وكانت حكومة جلالته قد أعلنت مرارًا وتكرارًا أنَّ نظام الاتفاقيات المعروف باسم (الامتيازات)، والتي تلتزم بها حكومة سموك لم يعد منسجمًا مع تنمية البلاد وتطورها؛ لكنني مُفوَّضٌ صراحةً لتقرير أنَّ حكومة جلالة الملك ترى الأنسب تأجيل تغيير هذا النظام إلى حين نهاية الحرب الحالية.

أمَّا في مجال الإدارة الداخلية؛ فأودُّ أن أُذكِّر سموكم - وتماشيًا مع تقاليد السياسة البريطانية - بأنَّ هدف حكومة جلالة الملك حين تعمل عبر السلطات المصرية المعينة، وفي ترابطٍ وثيقٍ معها، هو ضمان الحرية الفردية، وتعزيز انتشار التعليم، إضافةً إلى تنمية الموارد الطبيعية للبلد، وإشراك المحكومين في عمل الحكومة بالقدر الذي تسمح به درجة ثقافة الرأي العام.

وحكومة جلالة الملك لا تعتزم أن تظل وفيةً لمثل هذه السياسة فحسب؛ لكنها على قناعة أيضًا بأن التحديد الأوضح لوضع بريطانيا العظمى في البلاد سيُسرِّع التقدُّم نحو الحكم الذاتيِّ للمصريين.

إنَّ المعتقدات الدينية للرعايا المصريين ستُحترم بكل عنايةٍ، شأنها شأن معتقدات رعايا جلالة الملك، وأيًا كانت عقيدتهم.

ولا أحتاج إلى التأكيد لسموك أنه رغم إعلان مصر متحررةً من أيِّ التزامات توجبها طاعة أولئك الذين اغتصبوا السلطة السياسية في القسطنطينية؛ فإن حكومة جلالة الملك لا تُحركها أيُّ ضغينةٍ تجاه منصب الخليفة، وقد أظهر تاريخ مصر الماضي أنَّ حقيقة ولاء المصريين المسلمين تجاه الخليفة؛ هو أمرٌ مستقلٌ عن أيِّ روابط سياسيةٍ بين مصر والقسطنطينية.

إنَّ تقوية المؤسسات الإسلامية وازدهارها في مصر هو أمرٌ طبيعيٌّ، تهتم به حكومة جلالة الملك بشكلٍ خاصٍّ، والذي ستُوليه سموُّك الاهتمام بشكل كبيرٍ، ومن أجل تنفيذ الإصلاحات التي قد تراها ضروريةً في هذا الشأن؛ يمكن لسموكم الاعتماد على دعم حكومة جلالة الملك وعطفها.

وأودُّ أن أضيف أنَّ حكومة جلالة الملك تعتمد بثقةٍ على ولاء الرعايا المصريين وحسن إدراكهم، وقدرتهم على ضبط النفس، لتيسير مهمة القائد العام لقوات جلالة الملك، المكلف بالحفاظ على النظام الداخلي للبلاد، ومنع تقديم المساعدة للعدو.

(توقيع) ميلن شيتهام ».

وكتب مراسل «التايمز» في القاهرة يقول:

«لقد تخلَّت السيادة العثمانية على مصر عن مكانها أخيرًا للحماية البريطانية، ويشرح الإعلان عن قرار بريطانيا العظمى الذي نشر للتوِّ الأسباب، وأطاح دويُّ مئات المدافع بشبح الحكم التركي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنَّ جنون حاكم مصر السابق فحسب؛ هو الذي أجبر بريطانيا العظمى على تأكيد وضعها وتنظيمه في وادي النيل إلى الأبد، وإلى وقت توقيع الاتفاقية الأنجلوفرنسية لعام 1904؛ لم تعترف أوروبا رسميًّا باحتلالنا لمصر، وهذه الاتفاقية - رغم أنها تتضمَّن اعتراف فرنسا ومن ثَمَّ القوى الأخرى أيضًا بمصالحنا الغالبة في مصر - إلا أنها كانت وثيقة تقييدٍ ذاتيٍّ، حيث ألزمنا أنفسنا فيها بعدم إجراء أيِّ تغييرٍ في وضع البلاد.

لم تدفعنا المغامرة التركية في عام 1906(336) ولا ضمُّ البوسنة والهرسك من جانب الإمبراطورية النمساوية المجرية - والتي كان وزير خارجيتها الراحل الكونت أهرنتال يعتقد أنه يجب علينا أن نحذو حذوه ونضم مصر - ولا إعلان الحماية الفرنسية على المغرب في عام 1911.. لم يدفعنا كل ذلك إلى تغيير مكانة مصر كدولةٍ تابعةٍ لتركيا، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن أصبح الحفاظ

على الوضع الراهن مستحيلًا بسبب هجوم تركيا غير المبرر على بريطانيا العظمى وحلفائها، واضطُرَّت الحكومة البريطانية إلى اتخاذ الخطوة الوحيدة - الأقل من الضمِّ - التي يمكن أن تتخذها لتحقيق العدالة لنفسها وللمصريين.

قامت إنجلترا باحتلالٍ مفيدٍ لدولةٍ تابعةٍ لتركيا؛ وفي حالة حربٍ مع صاحب السلطان الأسمى الأعلى عليها، والذي لم يعترف قطُّ باحتلالنا لها، ولم يُقدِّم لمصر مطلقًا أدنى فائدةٍ. وكان وضع مصر القائم في ظل تبعيتها للسلطان العثماني منافيًا للعقل ولا يُطاق أيضًا، وربما هذا ما دفع نحو تبنِّي حلٍّ يضع المصريين في علاقات أوثق مع الإمبراطورية البريطانية، لكن ليس هناك شيءٌ يؤثِّر في الرموز الفكرية بين الشعوب العربية - التي كان أنصار الوحدة الإسلامية من رموز المشرق في القسطنطينية ويهود سالونيك يُجاهدون في حشدهم ضدَّنا - أكثر من بذل الجهود الدءوبة لإعداد المصريين لحكم أنفسهم، والامتناع عن أيِّ عملٍ يكون القصد منه كبح تطوُّر المؤسسات المحلية في مصر.

أُكرِّرُ، نحن في حالة حربٍ نيابةً عن قومياتٍ صغيرةٍ، ولا أحد يستطيع أن ينكر تنامي الشعور القومي المصري، وهذه المشاعر القومية المتحيِّزة - أو سمِّها كما تشاء - تستحق الاحترام، خاصةً عندما نتذكَّر أنَّ الشعب المصريَّ - مع بعض الاستثناءات الطفيفة - قد أظهر إدراكًا وشعورًا طيِّبًا في الأزمة الحالية، وإنِّ تبني إجراءاتٍ صارمةٍ في الوقت الذي يجري فيه حلُّ مشكلة التعامل مع الولاية القضائية الأجنبية في مصر؛ من شأنه أن يجرح مشاعر عددٍ من المصريين مُحبِّي إنجلترا، وربما يضع السلاح في أيدي أعدائنا.

لا يشك أحد في أنه في ظل الحماية البريطانية المُعلنة في يومٍ يعده المسلمون سعيدًا(335)؛ ستجعل مصر تزدهر وتتقدَّم بسرعةٍ أكبر مما فعلته حتى الآن، وستكون أكثر سعادةً بزوال السيادة العثمانية التي كانت ذات يومٍ حقيقةً قاسيةً، تلك السيادة التي بقيت لفترةٍ طويلةٍ مجرد ظِلٍّ؛ لكنه ظلٌّ داوم على إقلاق ما يحلم بعض الرجال بتحقيقه في مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعث الملك هذه البرقية إلى سمو سلطان مصر:

«بمناسبة تولِّي سُموِّكم لمنصبكم الرفيع، أودُّ أن أُعبِّر لسموكم عن صداقتي المخلصة الصادقة، وأؤكد على دعمي المستمر للحفاظ على سلامة مصر وتأمين رفاهيتها وازدهارها المستقبليِّ.

وقد دُعيتم سمُّوكم إلى تولِّي مسئوليات منصبكم الرفيع في ظل أزمةٍ خطيرةٍ في الحياة الوطنية لمصر، وأنا مقتنعٌ بأنكم ستكونون قادرين بنجاحٍ بالتعاون مع وزرائكم وتحت حماية بريطانيا العظمى، في التغلُّب على كلِّ

المؤثرات التي تسعى إلى تدمير استقلال مصر وثروتها وحريتها وسعادة شعبها.

چورچ الخامس»

وقد أرسل السلطان هذا الرد:

«إلى جلالة الملك،

لندن

أُقدِّم إلى جلالة الملك تعبيرًا عن أعمق امتناني لمشاعر الصداقة التي شرَّفتني بإسباغها عليَّ، وعلى تأكيد دعمكم القيِّم في الحفاظ على سلامة مصر واستقلالها.

وإدراكًا للمسئوليات التي تحمَّلتُها للتوِّ، عقدتُّ العزم على تكريس نفسي، في ظل تعاونٍ كاملٍ مع الحماية البريطانية، من أجل تقدُّم شعبي ورفاهيته..

ويُسعدني أن أكون قادرًا على الاعتماد في هذه المهمة على حماية جلالتك، وعلى مساعدة حكومتك.

حسين كامل»

وجاء في رسالةٍ رسميَّةٍ من القاهرة بتاريخ 20 ديسمبر:

«إعلان سقوط الخديوي وعلو السلطان حسين، يتمُّ اليوم بمراسم مفصَّلةٍ بحضور السلطات المحلية، وأُقيم استعراضٌ مهيبٌ سارت فيه قواتٌ إنجليزيةٌ واستعماريةٌ ومحليةٌ، وجرى الترحيب بالحاكم الجديد بتحيةٍ من المدافع، وكانت المدينة في مزاجٍ هادئٍ، والشوارع مليئةً بالحشود المحتفلة، والأعلام الإنجليزية والمصرية ترفرف في كل مكانٍ.

واصطف جنود شرق لانكشاير، والطلاب العسكريون النيوزيلنديون والأستراليون والمصريون في الشوارع، في حين كان فيلق مزارعي سيلان(334) مصفوفين بين الأستراليين وحرس الشرف البريطانيِّ والمصريِّ في ميدان عابدين.

أمَّا عربة السلطان الرسمية فقد كان يجُرُّها أربعة خيولٍ بيضاء رائعة، وكانت مصحوبةً بالخيَّالة المصريين (حَمَلة الرِّماح) وفرسان الحرس الشخصيِّ بزِيِّهم ذي اللونين الأسود والأزرق الغامق، وأُقيم استقبالٌ عظيمٌ للسلطان الجديد، وأضيئت القاهرة ببراعةٍ في الليل تكريمًا للنظام الجديد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحظي مراسل صحيفة (التايمز) في القاهرة بشرف استقباله من جانب سمو الأمير الذي أعلن عن آرائه وآماله في مستقبل مصر، والتي جاءت على هذا النحو:

«لقد أُصبتُ بخيبة أملٍ، مثل كثيرين آخرين، نتيجة الثورة في تركيا؛ فقد أدَّى الجهل والطموح المتهوِّر إلى وضع البلاد في مسارٍ محزنٍ، ويُؤسفني للغاية أن حفنةً من المغامرين استطاعوا جرَّ فلاحي الأناضول - ومعظمهم أُناسٌ صالحون وشرفاء - إلى خوض حربٍ لا ترغب فيها الدولة بأكملها ولا تُوافق عليها.

لقد فشل حكام تركيا في كبح جماح طموحاتهم، والوضع الحالي هو نتيجة افتقارهم الكارثي للبصيرة وبسبب الازدواجية في التعامل التي لطخت السياسة الشرقية كثيرًا.

وهذا يقودني إلى الوضع في مصر؛ فإنَّ سلوك القوة صاحبة السيادة على مصر قد أجبر بريطانيا العظمى على إعلان الحماية على هذا البلد، والآن دعتني الحكومة البريطانية لقبول السلطنة، وقد قبلتُها، ليس باستخفافٍ، ولكن بإحساسٍ كاملٍ بمسئوليتي عن إنجاز واجبٍ مقدسٍ، وعلى أمل أن أكون قادرًا على خدمة شعبي.

لم أكنْ قط مطالِبًا بالعرش، ولستُ وُصوليًّا، ولا حاجة لي بذلك؛ فقد مرَّ من عمري تسعة وخمسون عامًا؛ لكنني مؤمنٌ، وقد علمني إيماني أنني خُلقتُ للعمل من أجل خير بلدي، ولتحقيق هذه الغاية؛ أؤمن بأنني يجب أن أنال دعم الحكومة البريطانية.

ومنذ إخماد الثورة العرابية اقتنعتُ أنَّ مصر، مثلها مثل دول الشرق الأخرى؛ لم تكن بحاجةٍ إلى الرَّخم الأوروبي؛ ولكن إلى السجايا الأوروبية، لتوجيه تقدُّمها، وبالنسبة إلى إنجلترا؛ فلا يمكن أن نوفيها حقها من الشكر لما فعلته لمصر.

وكون أنَّ مصر لم تتقدَّم بسرعةٍ أكبر - وأتحدَّث عن التقدُّم المدنيِّ والتعليم اللذين يعبِّران عن المعنى الحقيقيِّ للكلمة، وليس عن إقامة السكك الحديدية والشرايين المائية - ليس خطأ الإنجليز؛ ولكن يرجع إلى الوضع الشاذ الذي تعيش فيه البلاد.

وبالنسبة إلى المصريين، هناك ثلاثة أبوابٍ مفتوحة: باب قصر الخديوي، وباب الوكالة البريطانية، وباب الحكومة المصرية.

وهل تستغرب من أن شعبًا يفتقر إلى الخبرة السياسية والتعليم كثيرًا ما يضلُّ عن السير في الاتجاه الصحيح، ويسلك سبيلًا مضادًّا لمصالحه الحقيقية؟

واللورد كرومر، والراحل السير إيلدون جورست، واللورد كتشنر؛ كلهم يعرفون آرائي حول هذا الموضوع، ويعرفون أيضًا أن جهودي كانت دائمًا مُوجَّهةً نحو صالح مصر.

عندما تخلَّيتُ عن مسألة الرتبة الأميرية؛ قبلتُ رئاسة المجلس التشريعيِّ(333)، وقد فعلتُ ذلك على أمل أن أتمكَّن من ممارسة تأثيرٍ جيدٍ على مداولاته؛ ثم استقلتُ من وظيفتي عندما واجهتُ بعض التدخلات النافذة التي جعلت مهمتي مستحيلة.

لا يليق بي أن أحكي الكثير بشأن هذه التدخلات التي أعاقت تقدُّم البلاد؛ لكن ما مضى قد مضى، ولديَّ أملٌ راسخٌ في أنَّ المجلس التشريعيَّ - في ظلِّ تأثيراتٍ أفضل من السابقة - سيكون قادرًا في المستقبل على القيام بدورٍ جديرٍ ببلدي الجميل.

والآن بالنسبة إلى المستقبل؛ فأنا أثق تمامًا في إنجلترا، وآملُ أن تثق هي بي؛ فقد تعاملتُ معهم دائمًا بصراحةٍ، وماضيَّ يشهد على ذلك؛ فقد عملتُ من أجل إقامة علاقاتٍ جيدةٍ بين مصر وإنجلترا، وعلاقاتي مع ملككم العظيم(332)، الملك الراحل إدوارد السابع(331) - رحمه الله - كانت ذات طبيعةٍ ودودةٍ جدًا منذ أن عرفته لأول مرة في عام 1868، وأثقُ في أنَّ علاقاتي مع ابنه ستكون ودِّيةً بالقدر نفسه.

وإني لآمل إذا تعرَّضتْ مصر للتهديد مرةً أخرى؛ فإنَّ التقدُّم الأخلاقيَّ والمدنيَّ لشعبي سيكون قد بلغ درجةً تجعلهم يسارعون في الدفاع عن بلادهم، جنبًا إلى جنبٍ مع قوات الإمبراطورية وبيسرٍ مثل جنودكم، ومثل القوات الأسترالية والنيوزيلاندية الرائعة، والتي تُتاح لي فرصة الإعجاب بها يوميًّا في مصر الجديدة.

وبهذه المناسبة يمكن القول إنه منذ بداية الاحتلال البريطانيِّ، كان موقف ضباطكم ورجالكم مثاليًّا؛ فلم يكن هناك صلفٌ ولا استعراضٌ للقوة في علاقاتهم مع سكان هذا البلد.

وإذا نجحت في إلهام شعب مصر ببعض من تلك الروح المدنية التي أظهرتها الدول حديثة الدخول في الإمبراطورية البريطانية؛ فسأكون راضيًا، ولبلوغ هذا الهدف؛ فإنَّ التعليم مطلوبٌ، وليس مجرد التعلُّم من الكتب؛ ولكن التوجيه الاجتماعيَّ والأخلاقيَّ الذي يتعلَّمه الرجال أولًا من أمهاتهم، وتعليم الإناث هو ما تحتاجه الدولة بشدةٍ، وإذا كنتُ في بعض الأشياء محافظًا؛ فأنا ليبراليٌّ في هذا الصدد.

أعتقدُ أنَّ بلدي سيكون له مستقبلٌ عظيمٌ؛ وحالما تتوقف الاضطرابات التي سببتها الحرب، ستكون مصر مركزًا للصقل المكثف أخلاقيًّا وماديًّا.

وتذكَّر أن لدينا ثلاثة أصولٍ عظيمة: النيل، والشمس المصرية، وقبل كل شيء الفلاحون الذين يحرثون تراب مصر الخصب، والذين أعرفهم جيدًا وأحبُّهم، فلن تجد جنسًا من الرجال أكثر قابليةً للتقدُّم، أو أفضل مزاجًا، أو يعمل بجدٍّ أكثرَ منهم.. إنهم بحاجةٍ إلى التوجيه الأبوي؛ لإرشادهم إلى الطريق الذي وضعه لهم مؤسس السلالة الحاكمة محمد علي الكبير؛ فبالتعليم سيكونون شعبًا رائعًا.

وكم كنتُ أتمنَّى أن أكون أصغر بعشر سنواتٍ؛ ولكن تأكَّد من أنني سأفعل كل ما في وسعي من أجل مصر وشعبها في السنوات التي سيتكرَّم الله بمنحها لي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوزارة المصرية الجديدة التي تمَّ تشكيلها للتوِّ؛ هي إلى حدٍّ ما إعادة بناءٍ للوزارة القديمة، كما احتفظ حسين رشدي(330) باشا بحقيبة الداخلية، فضلًا عن منصبه رئيسًا الوزراء، وتألفت الوزارة على هذا النحو:

- حسين رشدي باشا - رئيس الوزراء ووزير الداخلية.

- عدلي يكن باشا - وزير الزراعة.

- إسماعيل صدقي باشا - وزير الأوقاف.

- أحمد حلمي باشا - وزير المعارف.

- إسماعيل سري باشا - وزير الأشغال العامة.

- يوسف وهبة باشا - وزير المالية.

- عبد الخالق ثروت باشا - وزير الحقانية (العدل) (329).

وأبدى رئيس الوزراء المصري حسين رشدي باشا سعادته البالغة بالتغيُّر الذي طرأ على الوضع السياسيِّ للبلاد، وقدَّم آراءه لمراسل التايمز على النحو الآتي، فقال:

«إنه تحقيقٌ لأملٍ طالما شعرتُ به؛ لأنني كنتُ على الدوام مناصرًا للرأي القائل إنَّ مصر بسبب موقعها الجغرافي، تُمثِّل أهميةً كبيرةً كفيلةً بإثارة أطماع الأمم الأخرى، وهي أضعف من أن تستطيع الدفاع عن نفسها، وحتى تحافظ على سلامة أراضيها، فيجب أن تعيش في ظل حماية بعض القوى العظمى، أضف إلى ذلك رغبة مصر في تحقيق هدفها الأسمى وهو الاستقلال

الذاتَّي، والأمة الوحيدة التي تستطيع أن تُحقِّق لها هذين الشرطين المهمين هي بريطانيا العظمى، والتي تتمتَّع بالقوة الكافية لحمايتها، ولديها من التقاليد ما يضمن تحقيق هدف مصر الأسمى.

وفيما يتعلَّق بهذه الغاية (الاستقلال الذاتي) - التي أعترفُ أنها لا يمكن تحقيقها على الفور - أعتقد أنه يمكن الشروع في بدايةٍ آمنةٍ عبر منح مصر حق تداول الأمور القومية البحتة وتقريرها بما لا يمسُّ المصالح الأجنبية، من هذه الأمور: الأوقاف، والمحاكم الشرعية، والمجلس الحسبيُّ، ويمكن تركها للمجلس التشريعيِّ الذي لا يتمتَّع في الوقت الحاضر إلا بصوتٍ استشاريٍّ في جميع شئون البلاد، باستثناء قرارات زيادة الضرائب، وبهذه الطريقة فإن الدولة ستُدرَّب على مسألة ممارسة سلطاتها، وأنا مقتنعٌ بأن التجربة في النهاية ستسمح بمنحها حق تداول مسائل أخرى وتقريرها.

وآمل أن يتحقَّق الكثير بوصول المندوب السامي، والذي سيدرس الاقتراح، كما آمل أن يتحقَّق شيءٌ في هذا الاتجاه، وهو ما سيمنح المجلس التشريعيَّ أهميةً إضافيةً، وسيُمكِّن المصريين من الشعور بأنهم في الوقت ذاته الذي يرتقون فيه إلى مكانةٍ أعلى في التسلسل الهرمِّي للدول وتحوُّل البلاد إلى سلطنة؛ فإنهم أيضًا يتقدَّمون نحو نيل هدفهم الأعلى (الاستقلال)».

وفيما يتعلَّق بمسألة الامتيازات الأجنبية - إذْ بطبيعة الحال لا يرغب في إبداء رأيٍ في الوقت الحاضر بشأن ما يجب عمله نحوها - قال رئيس الوزراء:

«أعتقد أنه ينبغي دمج جميع الولايات القضائية الحالية، مما سينتج عنه وجود نظام للمحاكم الوطنية، مع وجود تنظيمٍ دوليٍّ لتلك المحاكم التي تحكم على الأجانب، كما يجب توفير الضمانات اللازمة لإزالة التشوُّش في النظام الحاليِّ، وأعتقد أنه إذا مُنح المندوب الساميُّ سلطة الاعتراض على أيِّ قانونٍ يُراد تطبيقه على الأجانب؛ فإن ذلك سوف يُشكِّل ضمانةً كبيرةً بالنسبة إلى الدول الأخرى».

ثم ناقش الوضع الماليَّ والأمن العام، وبالنسبة إلى الأمر الأول قال:

«إنَّ مصر قد اجتازت أزمةً خطيرةً جدًا؛ ولكنها لم تكن أزمةً مستعصيةً؛ لأنَّ لديها الموارد التي تستطيع بواسطتها إنقاذ نفسها، مع مراعاة اتخاذ الإجراءات بالعناية اللازمة.. والإجراءات التي اتُّخذت قد خفَّفت من الموقف، وربما تستفيد مصر من الأزمة؛ لكن لفترةٍ قصيرةٍ كانت في أمسِّ الحاجة إلى ارتفاع أسعار القطن».

وفيما يتعلَّق بالأمن العام؛ قال معاليه بصفته وزيرًا للداخلية، ومنصبه يجعله عليمًا ببواطن الأمور:

«إن الوضع في داخل البلاد مُرضٍ بشكلٍ كبيرٍ، وإن الإجراءات التي اتخذتها السلطات قد أسهمت بشكلٍ كبيرٍ في الحَدِّ من الجريمة في جميع أنحاء البلاد».

وردًّا على سؤالٍ حول انطباع السلطان عن حفل الأمس، قال رشدي باشا:

«لقد تأثَّر سمو السلطان بشدةٍ بالتعبيرات عن الولاء والودِّ التي أظهرتها جميع طبقات السكان».

وقال معاليه إنه شخصيًّا يشعر بالامتنان الشديد للثقة التي أولاها السلطان له ولزملائه، وقال:

«لقد مررنا جميعًا بفترةٍ حرجةٍ وحساسة للغاية؛ لكننا منذ البداية قرَّرنا أن نضع مصالح الوطن قبل الجميع، وسنواصل السير في هذا المسار، طالما بقيتُ في السلطة، فأنا مصريٌّ قبل كلِّ شيءٍ».

أمَّا الصحافة الفرنسية فقد أولت اهتمامًا بارزًا لتغيير النظام في مصر، وهي البلد التي لفرنسا بها مصالح حيوية دائمًا، وقالت صحيفة لوطون:

«إن التحرير الحاسم لمصر من التبعية العثمانية، سيبدو لسكان لبنان وسوريا كأنه بشير بخلاصهما من التبعية العثمانية أيضًا من وجهة نظرٍ إسلامية، حيث إن قطع العلاقات بين مصر وتركيا لا يقل أهميةً عن ذلك.

ومن الآن فصاعدًا؛ سيُطلب من الحاكم الجديد (السلطان) تقديم دورٍ كبيرٍ في عالم الإسلام، والذي لا يمكن أن يكون أقلَّ من دور وريث الخليفة العثمانيِّ.

الكارثة الأخيرة التي أغرقتْ فيها ألمانيا تركيا، جعلت قَدَر النفوذ الدينيِّ لسلطان القسطنطينية أن يختفي، فضلًا عن سلطته السياسية، وسوف يرث سلطان القاهرة هيبته؛ ومن ثم فإن خراب الإمبراطورية العثمانية، الذي قرع إعلان سلطان مصر أجراس جنازته، سيكون نهائيًا حتمًا.. هذا التحرُّك الأول في إعادة تنظيم مجتمع الدول العثمانية، سوف يوفِّر سببًا لتوجيه فكر هذا المجتمع نحو مكانٍ آخر غير شواطئ البوسفور.

تقول برقيةٌ من القاهرة إنَّ أغا خان، وهو الزعيم الدينيُّ للمسلمين الهنود وسليلٌ مباشرٌ لابنة النبي محمد(328)، جرى تقديمه إلى سلطان مصر، واستضافه السلطان على مأدبة غداءٍ، ومن الواضح أنَّ وجوده في مصر في هذا المنعطف لا يخلو من الدلالة؛ فما فعلته تركيا في شنِّها الحرب على بريطانيا العظمى وحلفائها، وسعيها لجعلها حربًا مقدسة؛ قد أجبر العالم الإسلاميَّ بأسره على التفكير في أنَّ أهلية الخليفة يجب أن تكون منوطةً بالشخص القادر على التصرُّف بشكلٍ لا يتعارض مع مصالح السواد الأعظم من المسلمين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتشيرُ آخر الأخبار من القاهرة إلى أنَّ مقابلة صحيفة (المقطم)(327) العربية مع السير هنري مكماهون المندوب السامي؛ قد جرى التعليق عليها كثيرًا، وخلقت انطباعًا ممتازًا في الأوساط المحلية، وتقول أيضًا إنَّ المفوَّض السامي يتقدَّم نحو المهمة الموكَّلة إليه بخير النوايا ومزودًا بالنوع الصحيح من الخبرة؛ لذلك تتوقَّع مصر منه الحكمة العامة والقدرة على اتخاذ القرار في الحالات الاستثنائية.

تقول الروايات الأخيرة من القاهرة أيضًا إنَّ مصر قد أصبحت أكثر هدوءًا مما كان معروفًا عنها عدة سنواتٍ خلت، رغم أنه في بداية الحرب كان هناك قدرٌ كبيرٌ من الغليان الشعبيِّ حيث كانت الجماهير تُكنُّ نوعًا من التعاطف الظاهريِّ لتركيا كونها تُذكِّرهم بالأوقات الماضية الطيبة، ورغم ذلك فليس لديهم أي رغبةٍ في العودة إلى ذلك النظام، أو إعادة بدء النظام الإقطاعيِّ مرةً أخرى تحت حكم الأتراك كأسيادٍ لهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنَّ السودان وهي منطقة شاسعة من البلاد، تبلغ مساحتها حوالي مليون ميل مربع، تقع في قلب إفريقيا ومعظم سكانها من المسلمين تحت سيطرةٍ مشتركةٍ من بريطانيا العظمى ومصر، وبها حاميةٌ صغيرةٌ نسبيًّا تضمُّ عددًا قليلًا جدًا من القوات البريطانية.

السير ريجنالد وينجيت(326) - السردار والحاكم العام المسئول عن إدارة السودان - أقام عددًا من التجمُّعات غير الرسمية في الخرطوم وفي أم درمان، حيث خاطب شيوخ الدين والوجهاء بالعربية موضِّحًا بشكلٍ مفصَّلٍ أصول الحرب مع ألمانيا وأسبابها، واستُقبل الخطاب بهتافات استحسانٍ كبيرةٍ، ومنذ تلك اللحظة لم يكن هناك أيُّ شكٍّ في شعورٍ قادة الشعب نحو الأمر.

بعد ذلك قام الحاكم العام بجولةٍ سريعةٍ في السودان، وأقام تجمُّعاتٍ مماثلةً في ود مدني وسنار والأُبَيِّض وبورسودان، وكانت النتائج دائمًا ممتازةً، ورغم أنه في خطاباته العامة كان يتحدَّث عن ألمانيا وحدها؛ إلا أنَّ الحاكم العام وكبار مرءوسيه، كانوا حريصين دائمًا في محادثاتهم الخاصة مع كبار الشخصيات والشيوخ، على توضيح انجراف تركيا المضطرد نحو الحرب، وكانت نتيجة هذه التحركات أنه عندما انقطعت العلاقات؛ كانت القاعدة الشعبية مستعدةً جيِّدًا ولم يُفَاجَأ الناس تمامًا.

كان الشيوخ وعلماء الدين الكبار في الخرطوم أكثر حماسةً، وأعلنوا ولاءهم جميعًا، وكان أبرز المتحدِّثين هو سليل النبي؛ الشريف يوسف الهندي(325)،

والذي له تأثيرٌ كبيرٌ في السودان، كما تحدَّث أيضًا الابن الأكبر للمهديِّ، والذي ألقى خطابًا قويًّا وكفل ولاء جميع أتباع المهدي السابقين.

وفي مقالٍ مثيرٍ للإعجاب بقلم أحد المسلمين البارزين، نُشر في القسم العربيِّ من صحيفة (السودان تايمز)، أدان الكاتب الحزبَ الحاكمَ الشابَّ عديم الخبرة في تركيا؛ لأنه سمح للألمان بالهيمنة على أفعالهم، وقال إنه يمكن لأيِّ إنسانٍ أن يرى أنها ليست حربًا يقاتل فيها المسيحيون المسلمين بدوافع دينيةٍ سعيًا نحو هيمنة دينٍ على الآخر؛ فالمسيحيون قد انقسموا إلى فئتين، وسبب صراعهم المميت لا علاقة له بالدين، وحقيقة أن تركيا ألقت بكل ثقلها مع ألمانيا يدلُّ على أنها لا تخوض حربًا دينيةً من أجل إعلاء كلمة الله، فتركيا تشنُّ حربًا مدنيةً أو سياسيةً عاديَّةً من أجل دعم ألمانيا، ومن أجل الحفاظ على هيبة ألمانيا، فإن تركيا تنتحر وتُلقِي بنفسها ورعاياها إلى الدمار.

واعتبر الضباط البريطانيون في السودان أن الشعور المحلي يقارب المعجزة، وصحيفة (سودان تايمز) تقول صادقةً إنه مهما كانت الخسارة أو البؤس الذي قد تُسبِّبه الحرب للعالم؛ إلا أنها على الأقل قد أعطت البريطانيين دليلًا - والذي ما كان ليخرج إلى النور لولا تلك الأحداث - على أن عملهم في السودان لم يذهب سُدىً.

والرجال الثلاثة الذين يعود إليهم الفضل في هذه الإنجازات المذهلة للحُكم البريطانيِّ في السودان، هم: أولًا: اللورد كرومر، ثانيًا: اللورد كيتشنر، وثالثًا: السير ريجنالد وينجيت.

لقد كان الارتقاء بمصر إلى منزلة السلطنة تحرُّكًا سياسيًّا حكيمًا وذكيًّا، وهو تحركٌ يحظى بتقديرٍ كاملٍ من جانب المسلمين، حيث كانت هذه منزلتها سابقًا في أيام صلاح الدين الأيوبي.

وليس هناك شكٌّ في أن مصر في ظل عاهلٍ حكيمٍ مثل الأمير حسين، وبدعم معنويٍّ وحماية من بريطانيا العظمى؛ ستكون قادرةً على مواصلة تطوُّرها الأخلاقيِّ والاقتصاديِّ والفكريِّ بشكلٍ أكثر فاعلية، وفي النهاية ستستعيد مكانتها في الشرق، وهي المكانة التي كانت تمتلكها منذ قرون خلت، والتي فقدَتْها بسبب ارتباطها بالسيادة العثمانية.

إننا نأمل ألا يفشل أصحاب الصناعة البريطانيون؛ ليس في اغتنام الفرصة لتطوير التجارة البريطانية في مصر والسودان فحسب؛ بل أيضًا في محاولة الاستحواذ على نسبةٍ كبيرةٍ من التجارة الألمانية والنمساوية المجرية في هذه السوق التي يتفوَّق فيه منافسونا حتى يومنا هذا، ففي خلال عام 1913 بلغت القيمة الإجمالية للبضائع من جميع فئات المصنوعات الألمانية والنمساوية المجرية المستوردة إلى مصر (35,49392) جنيهًا إسترلينيًّا.. بمعنى آخر، ثُمن

تجارة الواردات المصرية بأكملها جاء من هذين البلدين مجتمعين، وهذا الحجم من الأعمال كبيرٌ بما يكفي ليجذب الاهتمام الجاد من أصحاب الصناعة البريطانيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش

(355) السلطان محمود الثاني (1785 - 1839): السلطان الثلاثون للعثمانيين، وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول، تولى الخلافة في الفترة من 1808 - 1839.

(354) السير عسكر حسينَ باشا: من القادة الأكفاء، عهد إليه السلطان قيادة جيش البر، ومنحه لقب (سردار أكرم)، ووعده بولاية مصر إذا هو نجح في هزيمة جيش محمد علي ولم يوله كما ذكر المؤلف.

(353) هو الشريف محمد بن عبد المعين بن عون الذي تولى في الفترة من 1827 حتى 1851.

(352) كان ذلك في 18 ربيع الآخر 1255هـ = 1 يوليو 1839م.

(351) السلطان حسين.

(350) حماية فرضتها بريطانيا على مصر في الفترة من 18 ديسمبر 1914 واستمرت حتى 28 فبراير 1922، وقد تم تغيير اسم الدولة لتصبح «السلطنة المصرية».

(349) عام 1914.

(348) السير مكماهون Colonel Sir Vincent Arthur Henry - Lieutenant McMahon (1862 - 1949)، ظل مندوبًا من 2 يناير 1915 حتى 1 ديسمبر 1917.

(347) في 19 ديسمبر 1914.

(346) كان قد تولى الحكم في 8 يناير 1892.

(345) 21 مايو 1914.

(344) كان في 24 يوليو. انظر: صفوة العصر ص 71.

(343) عُرف أيضًا باسم الشباب الأتراك، وهو تنظيمٌ نشأ أوائل القرن العشرين ضد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ونادى بالديمقراطية والحياة الدستورية وشارك في الانقلاب عليه.

(342) إسماعيل أنور باشا (1881 - 1922): قائدٌ عسكريٌّ تركيٌّ اشتهر باسم: (أنور باشا)، وأحد قادة تنظيم تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي، كان مناوئًا للسلطان عبد الحميد الثاني وشارك في الانقلاب عليه.

(341) نابليون يوچين لويس چان چوزيف بونابرتNapoléon Eugène Louis Jean Joseph Bonaparte (1856 - 1879) الابن الوحيد للإمبراطور نابليون الثالث بعد أن خلع عن العرش عام 1870.

(340) ملك إيطاليا، وقد حكمها منذ 29 يوليو 1900، وقد توفي ودفن بمصر في 9 مايو 1946.

(339) مركزٌ صحفيٌّ أنشأته الحكومة البريطانية تابعًا لوزارة الحربية للإشراف على التقارير والأخبار التي تخرج من الجيش إلى الصحافة.

(338) في الأصل 9 ديسمبر، وهذا خطأ.

(337) يقصد الحقوق التي رتَّبها فرض الحماية على مصر لملك إنجلترا.

(336) أُرجِّح أنه يتحدَّث عن الغزو العثماني لبلاد فارس في أواخر أغسطس 1906م.

(335) صادف هذا اليوم تمام شهر محرم 1333 هـ، وربما قصد عيدًا على سبيل المجاز.

(334) Ceylon Planters Corps: أو كتائب قوات مزارعي سيلان هي فرقة كانت تابعة لقوات الدفاع السيلانية ضد الاحتلال البريطاني، وقد تكوَّن من الأوروبيين أصحاب مزارع الشاي والمطاط والعاملين فيهما.

(333) كان ذلك في الفترة من 30 يناير 1909 حتى 3 مارس 1910.

(332) چورچ الخامس الذي حكم بريطانيا من 1910 حتى 1936.

(331) تولَّى العرش في 22 يناير 1901 وظل حتى 6 مايو 1910.

(330) حسين رشدي ابن طبوزاده (1863 - 1928): ولدَ بالقاهرة، تولَّى رئاسة الوزارة في مصر أربع مرات، واختير عضوا بمجلس الشيوخ سنة 1925م، ثمَّ تولَّى رئاسته إلى أن توفِّي.

(329) تولَّت الوزارة عملها منذ 19 ديسمبر 1914 حتى 9 أكتوبر 1917.

(328) نسب أغا خان إلى السيدة فاطمة - رضي الله عنها - ادعاءٌ ليس عليه دليل. انظر: معجم التاريخ الإسماعيلي: فرهاد دفتري، ترجمة سيف الدين القصير، ص 66.

(327) صحيفةٌ يومية أسسها يعقوب صروف وشاهين مكاريوس وفارس نمر عام 1888م فكانت لسان حال الاحتلال البريطاني في مصر، وقد توقَّفت عام 1952م.

(326) وينجتFrancis Reginald Wingate (1861 - 1953): المندوب السامي والوكيل البريطاني لمصر (1916 - 1919)، اختير حاكمًا للسودان 17 عامًا.

(325) يوسف محمد الأمين الهندي (1865 تقريبا - 1942): حجازي الأصل، شارك في معارك المهديين، ثم اعتزل الحياة السياسية وتفرغ للعبادة والدعوة.

في الختام

عندما أتطلَّعُ إلى الوراء قبل نحو خمسين عامًا وأتذكر ما كانت عليه مصر عندما ذهبتُ إليها لأول مرةٍ في أوائل الستينيات(356)، ثم أرى التغييرات الكبيرة والبارزة التي حدثت في البلاد والوضع السياسيَّ لمصر الآن؛ فلا أجدني مذهولًا فحسب؛ بل أنظر إليها برضىً خالصٍ، والسمة المُرضية في كل ما حدث هو أن أهل البلاد رحَّبوا بحماسٍ بهذه التغييرات، بقدر ما يرون فيها استمرارًا للازدهار والأمن الجديد لبلدهم.

إنَّ شعور العرب بالثقة والودِّ تجاه الإدارة الإنجليزية يتزايد باطِّرادٍ، ومن المؤكَّد أنه تكريمٌ كبيرٌ يُظهره أهل البلاد لرجال الإدارة الآن، عبر إظهارهم المدهش للولاء، ولم يكن من السهل غرس السلام والوُدِّ وروح النشاط التجاريِّ النافع في أمةٍ ظلَّت لسنواتٍ تتعبَّد في ضريح القوة فحسب.

إنَّ الفلاحين يعرفون جيدًا كيف عُوملوا في الماضي، وكيف كانوا يتعرَّضون للجَلْد بالكرباج لأدنى مخالفةٍ، وفُرضت عليهم الضرائب مرارًا وتكرارًا، وحُرموا من أراضيهم، وعُوملوا بأكبر قدرٍ من الظلم.. ولكنهم الآن يُعاملون بأكبر قدرٍ من العدالة، ويتساوون في دفع الضرائب، ويُعاملون بوصفهم بشرًا.. وهم يعرفون أيضًا أنَّ حُكَّامهم البريطانيين عادلون وليسوا أنانيين، ولا يسعون إلى قمعهم أو استغلالهم.

لقد تعاملنا دائمًا باحترامٍ مع المجتمعات الدينية، ولم نتدخلْ قط بأيِّ شكلٍ من الأشكال في دينهم، ومن ثم يُمكنهم تقدير قيمة السلام والازدهار الذي يعيشون فيه اليوم.

إنَّ الحكمة والحصافةَ الاستثنائية التي اتسمت بها السياسةُ البريطانية في مصر، هي التي تُبرِّر لنا بإسهابٍ ذلك الاندفاع المذهل الذي حدث للتوِّ من جانب أهل البلاد لإظهار الولاء.

حديقة دورمانز، سوري

31 ديسمبر 1914

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(356) يقصد ستينات القرن التاسع عشر، وبالتحديد في العام 1863.

الملاحق

رسائل وبرقيات الإشادة والإنعام

بالأوسمة والنياشين

[ملحق 1]

أسماء السادة الذين دعموا طلب البارون دي كوسيل إلى وزارة الخارجية البريطانية: - الأدميرال لورد ألسستر (Admiral Lord Alcester).

- السير أوكلاند كولفين (Sir Auckland Colvin): المستشار المالي للخديوي.

- السير إدوارد ماليت (Sir Edward Malet): سفير جلالة الملك في برلين.

- السير هنري دروموند وولف (Henry Drummond Wolff): سفير جلالة الملك في مدريد.

- فخامة اللورد بيربرايت (Lord Pirbright).

- فخامة والتر لونج (Walter Long): عضو البرلمان ورئيس لجنة الزراعة.

- فخامة وليام إليسون مكارتني (William Ellison - Macartney): عضو البرلمان، وسكرتير الأدميرالية.

- فخامة إيرل دونومور (Earl of Donoughmore).

- فخامة السير آرثر فوروود (Sir Arthur Forwood): بارون وعضو البرلمان.

- السير روبرت هيرمان - هودج (Sir Robert Herman - Hodge): بارون وعضو البرلمان.

- السير چون بيندر (Sir John Pender): عضو البرلمان.

- السير چورچ بادن باول (Sir George Baden Powell): عضو البرلمان عن ليڤربول (Liverpool).

- المحترم السير چون أرشيبالد ويلوكس (Sir John Archibald Willox): عضو البرلمان.

- المحترم ر والاس (R. Wallace): عضو البرلمان عن ليڤربول.

- دكتور كومينز (Dr. Commins: M.P)عضو البرلمان عن ليڤربول.

- السير صموئيل هواري (Sir Samuel Hoare): بارون وعضو البرلمان.

[ملحق 2]

برقية

سفينة جلالة الملك (البحرية الملكية) كوندور في الإسكندرية،

12 أغسطس 1883

سيدي المحترم:

صدرت لي توجيهاتٌ من القائد العام لأسطول البحر الأبيض المتوسط، لإبلاغكم بأن اللوردات أعضاء لجنة مفوضية الأدميرالية أصدروا أوامر بتقليدك ميدالية حربٍ تقديرًا لخدماتك في ظل السلطة البحرية خلال الحملة المصرية الأخيرة.

مقدمه لكم سيدي

خادمك المطيع تي چيفريز (T. Jeffreys) القائد والضابط البحري الأول، الإسكندرية

[ملحق 3]

برقية

إلى كوسيل بيك،

إدارة الجمارك المصرية بالإسكندرية

الهيئة العامة للجمارك المصرية

الإسكندرية، 30 سبتمبر 1883

بأمر من صاحب السمو الخديوي؛ يسعدني أن أقدِّم لكم النجمة البرونزية التي منحها سمو الخديوي للموظَّفين المدنيين والعسكريين، الذين ظلُّوا في مواقعهم خلال أحداث عام 1882.

(توقيع)

ألفريد كايلارد (A. CAILLARD) مدير عام الجمارك المصرية

[ملحق 4]

برقية

إلى كوسيل بيك،

المراقب العام للجمارك المصرية، الإسكندرية

منزل صاحب السمو الخديوي إسماعيل،

لا فافوريتا (La Favorita)، بالقرب من نابولي،

22 أكتوبر 1887

عزيزي البيك:

أمرني سمو الخديوي إسماعيل باشا أن أكتب إليكم وأبلغكم أنه سيكون من دواعي سروره البالغ مقابلتكم هنا يوم الاثنين المقبل في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا.

وأغتنم هذه الفرصة - عزيزي البك - لأُقدَّم إليك تحياتي الحارة.

(توقيع)

أ. سورماني (A. SORMANI, A.D.C) إلى السيد كوسيل بيك

قصر مينوزي، نابولي (Palazzo Minozzi, Naples)

[ملحق 5]

رسالة

منزل صاحب السمو الخديوي إسماعيل،

لا فافوريتا (La Favorita)، بالقرب من نابولي،

28 أكتوبر 1887،

عزيزي البيك:

بعد أن أوضحتُ لسمو الخديوي إسماعيل باشا أن القنصل الإنجليزي في نابولي يرغب في تقديمه إلى سُموِّه.

أمرني بإبلاغكم بأنَّ سُموَّه سيسعد برؤيتكم بصحبة القنصل الإنجليزي غدًا في الساعة الرابعة صباحًا في فندق رويال في شياتاموني (Chiatamoni).

وأغتنم هذه الفرصة - عزيزي البك - لأقدم لك تحياتي الحارة.

(توقيع)

أ. سورماني (A. SORMANI, A.D.C).MONSIEUR

[ملحق 6]

برقية

إلى كوسيل بيك،

قصر مينوزي، نابولي

قدَّمتُ النقيب هارتويل - القنصل الإنجليزي في نابولي - إلى سمو إسماعيل باشا.

وزارة الداخلية، وايتهول، جنوب غرب (Whitehall, S.W) 17 مايو 1893

سيدي المحترم:

يطيب لي إبلاغكم بأن وزير الداخلية سيسعد جدًا بحضورك حفل (Levée)357 يوم 29.

خادمك المخلص

(توقيع)

هوراس ويست (Horace West) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هامش

(357) مناسبة تقام في ذكرى تنصيب الملك أو القائد الأعلى للبلاد، وقد بدأتها فرنسا ثم بريطانيا.

[ملحق 7]

برقية

إلى البارون دى كوسيل،

نادي الجيش والبحرية للضباط الأصغر رتبة، شارع القديس چيمس، جنوب غرب.

وزارة الخارجية، داونينج ستريت،

14 أغسطس 1895

عزيزي البارون دي كوسيل:

يسعدني إخبارك ردًا على الطلب المقدم منك؛ أن اللورد سالزبوري قد أيد وضع اسمك في قائمة المرشحين لوظيفة (قنصل).

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

(توقيع)

چ فولي (J. FOLEY) هاي ستريت (High Street)، لندن

[ملحق 8]

برقية

إلى البارون دى كوسيل:

نادي الجيش والبحرية للضباط الأصغر رتبة، شارع سانت چيمس، جنوب غرب.

من وزارة المستعمرات (Colonial Office)، داونينج ستريت،

24 أبريل 1896.

سيدي المحترم،

بناء على توجيهات وزير الدولة للمستعمرات؛ أودُّ إبلاغك بأنَّ طلبك للتوظيف في المستعمرات قد وصَلَنا وسُجِّل، وسيُنظر مع أسماء المتقدِّمين الآخرين

عند شغور أيِّ منصبٍ.

خادمك المخلص

(توقيع) هـ. ت. ويلسون (H. T. WILSON)

[ملحق 9]

برقية

إلى البارون دي كوسيل،

نادي الجيش والبحرية للضباط الأصغر رتبة، شارع سانت چيمس، جنوب غرب.

من وزارة الخارجية،10 يناير 1900

سيدي المحترم:

بناءً على توجيهات ماركيز سالزبوري (Marquess of Salisbury) أودُّ إعلامك بتسلُّم رسالتك في الثالث من الشهر الحالي، والتي تتطوع فيها بخدماتك إلى حكومة صاحبة الجلالة، وأودُّ أن أعبِّر لك عن شكر سيادته لعرضك.

خادمك المخلص

(توقيع) فرانسيس بيرتي (Francis Bertie).

[ملحق 10]

برقية

إلى البارون دي كوسيل،

نادي الجيش والبحرية للضباط الأصغر رتبة، شارع سانت چيمس، جنوب غرب

وزارة الحربية، شارع بال مول (Pall Mall)،

8 مارس 1900

سيدي المحترم:

بناءً على توجيهات وزير الدولة لشئون الحرب؛ أبلغك بتسلُّم خطابك في الثالث من الشهر الحالي بشأن رغبتك العمل في وظيفةٍ عسكريةٍ إذا لزم

الأمر، والردَّ على رسالتك أنه قد تمَّ تقديم ملاحظة للنظر بشأن طلبك.

خادمك المخلص

(توقيع)

اللواء كولريدج جروف (Coleridge Grove) السكرتارية العسكرية

[ملحق 11]

برقية

إلى الكابتن البارون دي كوسيل،

نادي الجيش والبحرية للضباط الأصغر رتبة، شارع سانت چيمس، جنوب غرب.

الخدمات المقدمة فيما يتعلق بحرب جنوب إفريقيا

وزارة المستعمرات، داونينج ستريت،

31 مارس 1900

سيدي المحترم:

بناءً على توجيهات السيد تشامبرلين (Mr. Chamberlain)، يسعدني إبلاغك بتسلُّم رسالتك في السادس والعشرين من الشهر الحالي، وبأنه قد أمر بالتأكيد على وضع اسمك في حالة ظهور أيِّ فرصة توظيفٍ للاستفادة من خدماتك.

خادمك المخلص،

(توقيع)

أمبثيل (Ampthill)

[ملحق 12]

برقية

إلى البارون دي كوسيل،

نادي الجيش والبحرية للضباط الأصغر رتبة، شارع سانت چيمس، جنوب غرب.

من وزارة الحربية، وايتهول، جنوب غرب (Whitehall, S.W).

16 نوفمبر 1914

سيدي العزيز:

بناءً على توجيهات اللورد كيتشنر؛ أودُّ إبلاغك بتسلُّم رسالتك التي تعرض فيها وضع خدماتك تحت تصرُّف وزارة الحربية أثناء حالة الطوارئ الحالية، وأنْ أشكرك على استعدادك للاستجابة لدعوة اللورد.

وكما تعلم بالطبع فإنَّ وزير الخارجية قد أجرى عددًا كبيرًا جدًا من الاتصالات ذات الطابع المماثل، ولكن في الوقت الحالي لا يبدو أن هناك أي وظيفةٍ مناسبةٍ لك، ومع ذلك فقد تم تدوين طلبك على أفضل وجه.

المخلص،

(توقيع) هـ. ج كريد (H. J. CREED) السكرتير الخاص

[ملحق 13]

برقية

إلى الكابتن البارون دي كوسيل،

نادي الجيش والبحرية للضباط الأصغر رتبة، شارع الفرسان، جنوب غرب.

من القاهرة، قصر عابدين،

3 يناير، 1915

سيدي البارون:

تشرفت بأنْ أُقدِّم إلى جلالة السلطان رسالتكم التي تُعبِّرون فيها عن تقديركم المخلص بمناسبة قدومه السعيد.

وقد أمرني صاحب السمو بأن أشكرك على تمنياتك الطيبة، وأرجو أن تتقبل - سيدي البارون - أسمى آيات التقدير.

كبير الياوران،

(توقيع) سعيد ذو الفقار (Said Zoulfikar) إلى السيد البارون دي كوسل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مصادر التحقيق والمراجعة

1 - 11 يوليو وضرب الإسكندرية: عباس محمود العقاد، تقديم د. لطيفة سالم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 2009م.

2 - الأجانب في مصر دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي: د. محمود محمد سليمان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،: ط الأولى 1996م.

3 - الأجانب ودورهم في الإدارة المصرية (1820 - 1880): إسماعيل محمد زين الدين، طبعة خاصة بالمؤلف، د.ت.

4 - الاحتلال البريطاني لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه: محمد مصطفى صفوت، دار الفكر العربي، 1952م.

5 - أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه: محمود الخفيف، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، 1391 هـ - 1971م.

6 - أحمد عرابي.. مصر للمصريين: د. حسين فوزي النجار، سلسلة الأعلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

7 - أرواح في خطر.. الصحة العامة في مصر القرن التاسع عشر: لافيرن كونكة، ترجمة: د. أحمد زكي أحمد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2021م.

8 - الاستعمار البريطاني في مصر: إلينور بيرنر، ترجمة: أحمد رشدي صالح، دار القرن العشرين للنشر، 1946م.

9 - استعمار مصر: تيموثي ميتشل، ترجمة بشير السباعي وأحمد حسان، مدارات للأبحاث والنشر،: ط الثانية 2013م.

10 - الأسرة العلوية وفورة عرابي: محمد البارودي، مطبعة الهلال، 1314 هـ - 1897م.

11 - أسرة محمد علي: سهير حلمي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2003م.

12 - الإسكندرية تاريخ ودليل: إ. م. فورستر، ترجمة حسن بيومي، تقديم لورانس داريل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2012م.

13 - افتتاح قناة السويس.. رحلة الملوك: ماريوس فونتان، ترجمة عباس أبو غزالة، المركز القومي للترجمة، 2010م.

14 - الإمبراطورية المصرية في عهد إسماعيل والتدخل الأنجلوفرنسي (1863 - 1879): الدكتور محمد صبري السربوني، ترجمة ناجي عطية، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2012م.

15 - أمراء الأسرة المالكة ودورهم في الحياة المصرية (1929 - 1952): د. أمل فهمي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2014م.

16 - بناء دولة مصر محمد علي: محمد فؤاد شكري، عبد المقصود العناني، سيد محمد خليل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 2013م.

17 - بنوك وباشوات: دافيس: لاندرز، ترجمة د. عبد العظيم أنيس، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 2020م.

18 - بونابرت فى مصر: ج. كرستوفر هيرولد، ترجمة فؤاد اندراوس، مراجعة د. محمد احمد انيس، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1998م.

19 - تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر: عبد الرحمن الرافعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2000م.

20 - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق: عزيز زند، مكتبة مدبولي - القاهرة، د. ت.

21 - التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر: مستر الفريد سكاون بلنت، تقديم عبد القادر حمزة، مكتبة الاداب، مصر، 2008م

22 - التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر رواية شخصية للأحداث: مستر الفريد سكاون بلنت، ترجمة صبري محمد حسن، مراجعة وتقديم د. أحمد زكريا الشلق، المركز القومي للترجمة، ط الأولى 2010م.

23 - تاريخ السودان الحديث: روبرت أو. كولينز، ترجمة مصطفى مجدي الجمال، مراجعة حلمي شعراوي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2015م.

24 - تاريخ المسألة المصرية (1875 - 1910م): تيودور رتشتين، ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر العربية، 1355 هـ - 1936م.

25 - تاريخ الوزارات المصرية (1873 - 1953م): د. يونان لبيب رزق، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، 1975م.

26 - تاريخ مصر الاقتصادي في العصر الحديث: د. محمد فهمي لهيطة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط الثانية 1944م.

27 - تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث: د. أمين مصطفى عفيفي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط الثالثة، 1954.

28 - تاريخ مصر فى العصور الوسطى: ستانلي لين بول، ترجمة وتحقيق وتعليق أحمد سالم سالم، مراجعة وتقديم د. أيمن فؤاد سيد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2015م.

29 - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل من سنة 1863 إلى سنة 1879م: إلياس الأيوبي، دار الكتب المصرية، 1341 هـ - 1923م.

30 - تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده: تيودور روذستين، ترجمة على أحمد شكري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2013م.

31 - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر: جورجي زيدان، مؤسسة هنداوي، 2012م.

32 - تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان: محمد بن عمر التونسي، راجعة د. محمد مصطفى زيادة، حققة وكتب حواشية د. خليل محمود عساكر، د. مصطفى محمد سعد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2007م.

33 - تطور الحركات الوطنية فى مصر من سنة 1918 إلى سنة 1936: د. عبد العظيم محمد رمضان، مكتبة مدبولي، 1983م.

34 - الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي: عبد الرحمن الرافعي، مكتبة النهضة المصرية، ط الثانية 1368 هـ - 1949م.

35 - الثورة العرابية: اللورد كرومر، ترجمة عبد العزيز عرابي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1999م.

36 - الثورة العرابية: د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، المكتبة الثقافية (30)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1961م.

37 - الثورة العرابية: صلاح عيسى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2011م.

38 - الجالية البريطانية في مصر (1805 - 1882م): د. ناهد السيد زيان، دار الكتاب والوثائق المصرية، 2011م.

39 - جوانب خفية من الثورة العرابية: د. أنور لوقا، دار المعارف، مصر، د. ت.

40 - الجيش المصري البري والبحري: الأمير عمر طوسون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 2018م.

41 - حوليات مصر السياسية: أحمد شفيق باشا، تقديم ودراسة د. أحمد زكريا الشلق، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2012م.

42 - الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر: د سمير عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

43 - دليل رحلة ضيوف الخديوي إسماعيل لزيارة آثار مصر بمناسبة احتفالات افتتاح قناة السويس 1869: أوجيست ماريت، ترجمة: عباس أبو غزالة، المركز القومي للترجمة بالقاهرة، ط الأولى 2007م.

44 - ذكريات أميرة مصرية: إلين شانيلز، ترجمة مي موافي ومحمد عزب، المركز القومي للترجمة، 2018م.

45 - رسائل من مصر (1879 - 1882): جون نينيه، ترجمة فتحي العشري، تقديم أنور لوقا، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط الأولى 2005م.

46 - الزبير باشا يروي سيرته في منفاه بجبل طارق: خليفة عباس العبيد، مركز الدراسات السودانية - القاهرة، 1995م.

47 - الزعيم احمد عرابي: عبد الرحمن الرافعي، دار الهلال، مصر، د. ت.

48 - السخرة فى حفر قناة السويس: د. عبد العزيز محمد الشناوي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2010م.

49 - سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر 1830 - 1914: ليونار تشامبرز رايت، ترجمة د. فاطمة علم الدين، مراجعة د. يونان لبيب رزق، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م.

50 - العادات والتقاليد المصرية: جون لويس بوركهارت، دراسة وترجمة: د. إبراهيم أحمد شعلان الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1997م.

51 - عالم الطير في مصر: أحمد محمد عبدالخالق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مصر، أغسطس 1962م.

52 - عصر إسماعيل: عبد الرحمن الرافعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2000م.

53 - عصر محمد على: عبد الرحمن الرافعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2000م.

54 - فصل في تاريخ الثورة العرابية: محمود الخفيف، مؤسسة هنداوي، 2012م.

55 - قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية: أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر،: ط الأولى 1953م.

56 - قاموس تراجم مصر الحديثة: آرثر جولد سميث الابن، المجلس الأعلى للثقافة، ترجمة وتحقيق د عبد الوهاب بكر، ط الأولى 2013م.

57 - قصة الاحتلال: جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1956م.

58 - الكولونيالية والثورة.. الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر: جوان كول، ترجمة عنان علي الشهاوي، مدارات للأبحاث والنشر، ط الأولى 2016م.

59 - كيف دافعنا عن عرابي وصحبه قصة مصر والمصريين: أ. م برودلي، ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م.

60 - لمحة عامة الى مصر: أ.ب.كلوت بك، ترجمة محمد مسعود، دار الموقف العربي، مصر، 2001م.

61 - مذكرات الإمام: محمد عبده، سلسلة أدباء القرن العشرين (28)، طاهر الطناجي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2011م.

62 - مذكرات عثمان دقنة: د. محمد أبو سليم، دار البلد للطباعة والنشر - السودان،: ط الثانية 1998م.

63 - مذكرات نوبار باشا: مقدمة وملاحظات ميريت بطرس غالي، ترجمة جارو روبير طبقيان، مراجعة د. إلهام ذهني، تقديم ودراسة وتعليق د. لطيفة محمد سالم، دار الشروق، مصر، 2015م.

64 - المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية: المستشار طارق البشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م.

65 - مصر الحديثة: اللورد كرومر، ترجمة: صبري محم حسن، مراجعة د. أحمد زكريا الشلق، المركز القومي للترجمة، 2014م.

66 - مصر فى القرن التاسع عشر أو محمد على ومن خلفوه إلى الاحتلال البريطاني فى العام 1882: د.إيه. كاميرون، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، 2019م.

67 - مصر للمصريين: سليم خليل النقاش، مطبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية، 1302 8ـ - 1884م.

68 - مصر وكيف غُدر بها؟: ألبرت فارمان، ترجمة: عبد الفتاح عنايت، مراجعة على جمال الدين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت.

69 - المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم: إدوار وليم لين، نقلة إلى العربية عدلي طاهر نور، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2013م.

70 - معجم التاريخ الإسماعيلي: فرهاد دفتري، ترجمة سيف الدين القصير، دار الساقي بالاشتراك مع معهد الدراسات الإسماعيلية، 2016م.

71 - معجم تاريخ مصر: جوان فوتشر كنج، ترجمة عنان الشهاوي، مراجعة د. عاصم الدسوقي، المجلس الأعلى للثقافة - مصر،: ط الأولى، 2003م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

رس المحتويات

عن الكتاب..

مقدمة المُراجِع
وليد عبد الماجد كساب

مقدمة المُترجِم

الفصل الأول
1863 - 1864

الهوامش

الفصل الثاني
1864 - 1865

الهوامش

الفصل الثالث
1865 - 1871

الهوامش

الفصل الرابع
1872 - 1878

الهوامش

الفصل الخامس
1878 - 1879

الهوامش

الفصل السادس
1879 - 1881

الهوامش

الفصل السابع
1882

الهوامش

الفصل الثامن
1882
الفصل التاسع
1882

الهوامش

الفصل العاشر
1883

الهوامش

الفصل الحادي عشر
1884 - 1883

الهوامش

الفصل الثاني عشر
1885 - 1884

الهوامش

الفصل الثالث عشر
1887 - 1885

الهوامش

الخاتمة
التعامل مع الوقت الحاضر 1914

الهوامش

في الختام

الملاحق

[ملحق 1]
[ملحق 2]
[ملحق 3]
[ملحق 4]
[ملحق 5]
[ملحق 6]

هامش

[ملحق 7]
[ملحق 8]
[ملحق 9]
[ملحق 10]
[ملحق 11]
[ملحق 12]
[ملحق 13]

مصادر التحقيق والمراجعة